

القراءة العشرية



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

عدد الثامن - السنة الثانية - تموز - يوليو - ١٩٨٢

مركز بحوث القرآن الكريم

٨



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

المعد الثامن - السنة الثانية رمضان ١٤٠٢ هـ - تموز ١٩٨٢ م

المدير المسؤول :

علي عقله عرسان

رئيس التحرير :

د. عبد الكريم اليافي

هيئة التحرير :

د. عبد الهادي هاشم

د. ابراهيم الكيلاني

د. نشأت الحمارنة

د. عدنان درويش



مركز توثيق تراث العرب

ترسل المواد والمراسلات الى العنوان التالي :

اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب. : ٣٣٣٠ ☎ ٨١٦٣٩٩ - ٨١٦٣٩٩



صمم الغلاف : نبيل الكراد

المحتوى

٥	نظريات الجزء الذي لا يتجزأ في التراث العربي الاسلامي .. د. عبدالكريم الياسي	<input type="checkbox"/>
٢٥	أطريلال د. مختار هاشم	<input type="checkbox"/>
٣١	تدرُّج المعاني صلاح الدين الزمبلاوي	<input type="checkbox"/>
٥٢	الخصائص البنيوية للفعل والاسم في العربية د. جعفر دك الباب	<input type="checkbox"/>
٩٤	النسوة اللواتي ترجمهن الحافظ ابن عساكر سكينه الشهابي	<input type="checkbox"/>
٧٢	من التراث الحديث - عبدالحميد الزهراوي مصلحاً اجتماعياً محمد راتب الحلاق	<input type="checkbox"/>
٨٨	شمعة عمر بن عبدالعزيز (شعر) لدير الصامسي	<input type="checkbox"/>
٩١	مقولة السوط المضافور للجاهل المفرور - مؤلف مجهول تحقيق : عبدالاله بهمان	<input type="checkbox"/>
١٢٠	جزء من حكايات أبي بسطام - شعبة بن الحجاج تأليف : أبي القاسم الهلوي تعقيق : عبدالله محمد الدويش	<input type="checkbox"/>
١٢٩	تاريخ ما أهمله تاريخ البادية العربية محمد صالح بربندي	<input type="checkbox"/>
١٤٧	طرفة بن العبد البكري - الشاعر القتيل ديدة الطهيب ولطفي الصقال	<input type="checkbox"/>
١٥٧	أبناء تراثية مركز بحوث ودراسات عربية	<input type="checkbox"/>
١٥٨	- مجمع اللغة العربية في رحلته مع التراث	
١٦٨	- لتصبح أرجوزة أبي نواس في تقريبك للفعل بن الربيع	
١٧٧	- محمد بن موسى الطوازي - تأليف الأستاذ زهير الكتبي	
١٧٨	- القدم الوثائق الوثوقية باللغة العربية في يوغوسلافيا	
١٨٢	- أبو علي الفارسي و - المسائل المتنوعة	
١٩٩	- دراسات في تاريخ المدن التراثية (١) - فرقيسيا	
٢٠٦	- رسالة من ألمانيا الديمقراطية	
٢٠٧	- دراسة الاستعراق في جمهورية ألمانيا الديمقراطية	
٢٠٩	- الدراسات العربية في ألمانيا الديمقراطية وتقاليدها	
٢١٦	- عرض تاريخ الاسلام وحضارته في مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فولد	
٢٢٠	- كتاب - الباهر في الجبر - تأليف : السموذ المغربي	
٢٢٤	- من لرائلا التشكيلي الحديث	
٢٣٠	- احياء التراث ودراسته	
٢٣٥	- كتب تراثية	
٢٣٧	- تعقيب سيرة ابن سينا ونشرها	
	- مؤتمر العرب وتوصياته	



مركز تحقيقات تكنولوجية ودراسات
لغة وأدب عربي

الاشتراك السنوي

٣٦ ل.س للأفراد والدوائر الرسمية داخل القطر

٦٠ ل.س أو ما يعادلها للبلدان العربية مع أجور البريد

٨٠ ل.س أو ما يعادلها للبلدان الأجنبية مع أجور البريد

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكا أو يدفع نقدا الى : (محاسب مجلة الموقف الأدبي)

نظريات الجزء الذي لا يتجزأ

في

التراث لعزني الاسلامي

الدكتور عبد الكريم اليا في

نريد أن نشرح هذه النظريات في إطار التراث المعرفي قديمه وحديثه .
إذا عرضنا تاريخ النظريات التي تتأمل بنية المادة وتتعرف تركيبها نجد في غالبيتها القول بالجزء الذي لا يتجزأ وذلك طوال عصور الحضارات المختلفة قديمها ومتوسطها وحديثها ، مع أنه كان من المتنوع على وسائل العلم أفراد هذا الجزء الدقيق ولا يزال ممتنعاً على الرغم من تقدم الفيزياء الحديثة ذلك التقدم الكبير المعروف في العصر الحاضر .

هذا وإن القول بالجزء الذي لا يتجزأ قد تختلف مذاهبه كما تختلف دواعيه الفلسفية والدينية والعلمية .

نجد ذلك التفكير في جوانب من الفلسفة اليونانية وجوانب من التفكير الهندي وعند غالبية المعتزلة وعلماء الكلام المسلمين وفي مراحل من التفكير لدى الغرب في العصور الحديثة كما نجد ذلك في مضمون العلم الحديث .

لقد أراد بعض المفكرين أن يتلمس الأسباب التي تكمن وراء هذه النظرية والتي تجعل الفلاسفة والعلماء يماودونها في العين بعد العين ويستندون إليها في بيان بنية المادة وتركيبها على اختلاف منطلقات بحوثهم وتأملاتهم .

يرجع المفكر الفرنسي غاستون بشلار في كتابه « الحدوس الذرية » هذا النجاح التاريخي الذي لقيته تلك النظرية إلى أن وراءها صورة حدسية

حسية تطالعنا في الحين بمد الحين وهي ظاهرة الهباء أو الغبار . ولكي يوضح رأيه يعمد أول الأمر الى برهان سلبي . يتخيل عالماً مكوناً كله من أجسام صلبة معينة الحجم ومعيّنة الأمكنة تتميز فيه الأجسام بمقاديرها بشرط أن تكون تلك الأجسام متقاربة في المقادير والحجوم ولا تتفاوت الا في نطاق محدود . فليس بينها الضئيل الدقيق ولا الجسيم الضخم . لا شك أن التجزئة المادية في هذا العالم تندو بمثابة عمل من الأعمال المتكلفة الصناعية . نتكلم في هذا العالم على التحطيم والكسر لاعلى التجزئة الطبيعية . ولو تقدم العلم في هذا العالم الخيالي لاقتصر على تحليل الجسم الصلب تحليلاً هندسياً . وهذا التحليل الهندسي يطبع بطابع الفكر والنظر والخيال فهو من نطاق الممكن الصرف المجرد ولا يقابله شيء في الواقع .

نستبدل بهذا العالم الخيالي عالماً آخر يبدو فيه كل شيء عجيباً مائماً كأن تكون درجة الحرارة فيه عالية تكفي لاماعة الأجسام بمض الاماعة . عندئذ تندو الأشكال المعجينية عبارة عن مراحل وقتية للتغير والصيرورة ، وتصبح التجزئة والتقسيم هما القاعدة الأساسية اذ كل شيء لين يسيل ويتغير شكله وينقسم ويتجزأ الى ما لا نهاية . وأمثل صورة لهذه الحال الماء الجاري الذي يعادل انقسامه وتجزؤه في السهولة تجمعه وانضمامه . يصعب في هذا العالم الخيالي أيضاً كما في العالم الخيالي السابق أن نتصور الجزء الذي لا يتجزأ . كلا هذين العالمين الخياليين لا يشمل مستنداً حسيّاً حداثياً يوحي بالجزء الذي لا يتجزأ ، لأن تجزئة المادة في العالم الأول غير طبيعية وفي العالم الثاني هي القاعدة وهي يسيرة الانجاز والتطبيق فيه دائماً .

عالمنا الواقعي الذي نعيش فيه يحتوي على أجسام صلبة وأجسام مائعة ولكنه يحتوي أيضاً على أجسام في حالة ذرورية . وهذه الحالة الأخيرة ذات أهمية ينوه بها بشلار ويذكر تأثيرها الكيماوي الخاص وهو العمل بالتماس كما يذكر أن المسحوق قد يوحي بفكرة السم . هواكسیر يُعطى فيجلب بتفاوت مقاديره اما الموت واما الدواء . وكان الجسم متى تفتت أو سحق أضاع قسماً من فرديته وكسب تلقاء ذلك صفة سرية وغدت عناصره مواتية لكل تركيب ممكن . وربما تكون نسبة الخلود للجوهر في بعض الفلسفات القديمة ناشئة عن مثل هذا الاعتبار .

كذلك نجد في أساس حدس المساحيق والغبار أحكام قيم غريبة لأنها في شكلها الذروري تبدو تارة ذات نشاط وذات خواص قوية كالعمل بالتماس الذي أشرنا إليه آنفاً أو كالشفاء في الدواء وتبدو تارة أخرى بمثابة الفضلات حين نتذكر بعض الحالات التاخّة والنخيرة والسائسة والصدئة أو نتذكر انحنات الأجسام الصلبة ومعها كالحاتم بالاصبع والحجر الذي يتواتر وقوع حبات المطر عليه ويد التمثال من الشبه التي يلشمها المؤمن به حين يمر عليه وأبواب المعابد تمسها أيدي الداخلين كل ذلك يبلى شيئاً فشيئاً وتنفصل منه أجزاء ضئيلة لا ترى . فالأجزاء التي لا تتجزأ أجسام صلبة دقيقة بالية . وكل شيء بمد وجوده يتفكك ويبلى ويختلط . وقد نجد مثل هذا التفكير عند كثير من الفلاسفة المادية والدينية تطبق تشاؤمها على بلى الكون واندثاره وزوال بهجته .

وقد يطالعنا من وراء كل ذلك مشهد تادز ولكنه مهم . هو مشهد الهباء الخفيف الذي يمتنع على اللمس أو المس ولكنه يرى حين يرتجف في شعاع الشمس . هذا المشهد في رأي بشلار هو الحدس الحسي الأساسي الذي تستند إليه نظرية الجزء الذي لا يتجزأ . ذلك مشهد نتأمله فنحلم . ان حبة الهباء اللاعبة في النور توحى في اختلاف تلونها وتباين تشكيلها بتمدّد خواص الجزء الذي لا يتجزأ . انها لا تلمس ولكنها ظاهرة للبصر . الغائب الخفي المستتر يلوح فجأة للنظر . تبدو الغرفة خالية فارغة ما لبث النور يملؤها بسنا واحد متسق . وعندئذ لا يظهر في جوها أثر للهباء . حتى اذا نفذ شعاع من الضوء جلي هندسي الشكل كشف لنا عن عالم مجهول . هذه عند بشلار هي التجربة الأولى لنظرية الجزء الذي لا يتجزأ . هنا يجد الفكر ما يستند به الى حدس مباشر . يسمنا اذاً أن نفترض وجود مادة لا تقع تحت الحس اذ قد حسرت التجربة لنا عن أشياء دقيقة لم تكن مرئية . وهكذا يجوز أن نفرض وجود الجزء الذي لا يتجزأ وراء التجربة الحسية . ان حبة الهباء تسبح في الغلاء وكأنها تتبع في حركاتها هواها . تتأثر بالنفخ ولكنه تأثر مشحون بالانطلاق والحرية . فهي تصور في ذلك تصويراً بديعاً ما ذكره أبيقوروس عن حرية الجزء وسماه لوقريطس بالحيد أو الانحراف Clinamen . ففي نظرية لوقريطس وأبيقوروس عن الجزء صفات هذه الحادثة . وهما يريان أن الأجزاء في انهماكها أو هطولها القديم تستطيع أن

تحيد وتنحرف عن مواقعها ليتصل بعضها ببعض فتؤلف مختلف الأجسام التي نعرفها .

العالم النمساوي ارفين شروندنفرحين بحث أصول نظرية الجزء رأى أن التفكير الحديث في الجزء إنما هو وريث العلم اليوناني القديم . وهو في ذلك يرجع الى ما قبل أبيقوروس ولوقريطس . يرجع الى الفيلسوف اليوناني القديم طالس من مدينة ميلي اوميلتوس كانت في آسية الصغرى تشرف على بحر ايجهي وهذا قد اطلع على العلم البابلي والعلم المصري القديمين والى أنكسمنس مواطن طالس ومن مدرسته الفكرية الايونية . انتبه هذا الى بعض الظواهر الطبيعية واسترعى نظره التخلخل والتكاثف . استند أنكسمنس الى ملاحظة أن قطعة من المادة قد تأخذ الحالة الصلبة والسائلة والغازية (النارية كما يدعوها) وأن التبدل من حال الى حال لا يتضمن تغيراً في طبيعة المادة وإنما يتعلق بقضية هندسية . وذلك أن كمية من المادة تشغل حيزاً يتسع شيئاً فشيئاً (وهذا هو التخلخل) أو يضيق وينضغط فتصبح كمية المادة في حجم أقل (وهذا هو التكاثف) . فالتبدل في خواص المادة أثناء التخلخل يعود الى أن أجزاءها يتباعد بعضها من بعض بمسافات تزيد شيئاً فشيئاً . ان الرياضيين في عصر أنكسمنس وهو القرن السادس قبل الميلاد كانوا يعتبرون الخط الهندسي مؤلفاً من نقاط . فاذا تصورنا الخط مادياً وطفقنا نشده أفلا تتباعد نقاطه بعضها من بعض تاركة بينها فجوات أو ثغرات ؟ فالشد لا يحدث نقاطاً جديدة . كذلك لا يمكن للنقاط التي يتألف منها الخط أن يشغل كل منها حيزاً أو مسافة أكبر . وأبسط وسيلة للخلاص من هذه الصعوبات اعتبار المادة تتألف من نقاط فردية أو من أجزاء صغيرة يتباعد بعضها من بعض حين يحصل التخلخل وتتقارب حين يقع التكاثف ، وهي في غضون ذلك تبقى هي أنفسها دون أن تتبدل . فملاحظة التكاثف والتخلخل هي التي أوحى الى الفلاسفة القدماء الطبيعيين اليونان في رأي شروندنفر ب فكرة الجزء الذي لا يتجزأ أو بفكرة تألف المادة من الذرات .

هذا ونشوء هذه المدرسة الايونية على شاطئ آسية الصغرى يشير في رأينا الى اقتباس معارفها مما كان رائجاً في حضارة بلاد الرافدين خاصة . ان شروندنفر يقف عندما ذكرناه في بحثه أولية التفكير في الجزء الذي لا يتجزأ .

ونحن نتم بحثه فنذكر شيئاً من تسلسل التفكير اليوناني . لقد هرب فريق من الايونيين من وجه الفرس وذهبوا الى شاطئ ايطالية الغربي، فبنوا مدينة ايليا التي نشأت فيها الفلسفة الأيلية . من أقدم المفكرين الايليين أكسانوفان الذي ولد في بلدة من أعمال إيونيسا على الشاطئ الغربي لآسية الصغرى . طاف في بلاد اليونان ثم ذهب الى ايليا وأقام بها . ولكن المؤسس الحقيقي للمدرسة الفلسفية الأيلية هو بارمنيدس . ومن أهم المفكرين اليونانيين لوقيبوس وديمقريطس . ويذهب مؤرخو الفلسفة اليونانية الى أن نظرية ديمقريطس ولوقيبوس في الجزء الذي لا يتجزأ مشتقة من المدرسة الايلية: أما لوقيبوس فيرجع أنه ولد في مَلَطِيَّة بجنوبي آسية الصغرى في شمالي بلاد الشام ورحل الى ايليا وأخذ عن زينون تلميذ بارمنيدس ثم جاء أبديرة على الساحل في الشمال الشرقي من اليونان وأنشأ فيها مدرسة وقد أخذ ديمقريطس عنه القول بالجزء . لقد نوّه بارمنيدس بالكينونة التي هي عنده الحقيقة الكلية ولا شيء سواها . ثم عمّد لوقيبوس وديمقريطس مُمثلاً مدرسة أبديرة فحفظا للكينونة نصيباً من الوحدة ولكنهما جزّأها وبمشرها خلال المكان وخلعا على هذه الأجزاء الدقيقة صفات الكينونة وهي أنها بسيطة ثابتة الأشكال أزلية وأبدية . عاش ديمقريطس قبل الميلاد (٤٧٠ - ٣٦١) وكان تلميذ لوقيبوس وصديقه . وقد قضى أرسطو على هذه النظرية . ولكنها ظهرت في شكل آخر بسيط فيما بعد عند أبيقورس (٣٤١ - ٢٧٠ ق م) ثم عند المفكر الروماني لوقريطس (٩٦ ؟ - ٥٥ ق م) وقد تأثر بأبيقورس وهو الذي وصف حينئذ الأجزاء وانحرفها كما سلف آنفاً .

يبيد أن القول بالجزء الذي لا يتجزأ ظهر عند الهنود . يرجع تاريخه فيما وصلنا من معلومات الى ما حول القرن الخامس الميلادي . نجده في مذهب الجاينا ولدى فرقتين بوذيتين هما الويبها شيكا والسوترانتريكا ، وكذلك لدى فرقتين فلسفيتين من فرق البراهمة وهما النيايا والوايششيك . جاء في مذهب النيايا أنه لو كان الجزء الذي لا يتجزأ غير موجود لكان في ذرة الغبار من الأجزاء ما في الجسم الكبير لأن كلا منهما لولا وجود الجزء لقبل الانقسام الى غير نهاية . وفي لفظ الغبار ما يذكرنا كلام بشلار على الحدس الحسي كما أن مثل هذا البرهان سنجده عند بعض المتكلمين المسلمين . وقد حاول المستشرق بينيس أن يربط

بين مذاهب الهند ومذاهب المتكلمين ويزعم شيئاً من الاتصال بينهما ولكن هذا مجرد رجم يحتاج الى دليل واضح لثبوت صحته .

نظرية الجزء الذي لا يتجزأ في التفكير العربي الاسلامي :

الاعتقاد بوجود الجزء الذي لا يتجزأ مذهب فريق واسع من المسلمين وهم غالبية المعتزلة وجمهور المتكلمين . ولم تصدر آراؤهم بادىء الأمر عن دواع علمية بمقدار صدورها عن دواع دينية وفلسفية . حتى ان هؤلاء المفكرين قلّ أن يعللوا الظواهر الطبيعية بالأجزاء التي يسمونها أيضاً الجواهر الفردة والذرات . يرى أبو القاسم البلخي المعتزلي (ت ٣١٩ هـ - ٩٣١ م) مثلاً أن امتداد الجسم ناشيء عن التأليف بين الجواهر الأفراد لا لأن للجواهر الأفراد حجوماً . ومن أوائل المعتزلة الذين قالوا بالجواهر الفرد أيضاً أبو الهذيل العلاف (ت ٢٢٧ هـ - ٨٤١ م أو ٢٣٥-٨٤٩ م) والجبائي (ت ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م) .

وجاء أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ - ٩٣٥ م) فأخذ هذه النظرية عن سابقيه واعتمدها في دعم اتجاهه الديني وهو في هذا يتفق مع أولئك المعتزلة . حصر التناسخ في المخلوقات والأشياء المحدثثة وترك اللاتناهي لله . لقد ورد في القرآن الكريم « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (سورة يس ٣٦ - ١٢) وورد أيضاً فيه « وأحصى كل شيء عدداً » (الجن ٧٢ - ٢٨) . ولا يتم الإحصاء الا بماله نهاية . فيجب أن تكون أجزاء الجسم متناهية في عددها . ثم أتى تلميذ تلميذه القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م) فكتب في « التمهيد » أن « المحدثات كلها ثلاثة أقسام فقسم مؤلف وجوهر منفرد وعرض موجود بالأجسام والجواهر . . . والدليل على اثباته (اثبات الجوهر) علمنا بأن الفيل أكبر من الذرة (النملة) . فلو كان لا غاية لمقادير الفيل ولا لمقادير الذرة لم يكن أحدهما أكثر مقادير من الآخر . ولو كانا كذلك لم يكن أحدهما أكبر من الآخر كما أنه ليس بأكثر مقادير منه » .

ولقد تسربت فلسفة أرسطو الطبيعية التي أنكرت وجود الذرات

بالترجمة الى ميادين الفكر الاسلامي فلاغرو أن نجد بين المعتزلة من أنكر وجود الذرات أيضاً .

كان ابراهيم النظام (ت بين عامي ٢٢١ و ٢٣١ هـ - ٨٣٥ و ٨٤٥ م) من خصوم مذهب الجزء الذي لا ينقسم . وهنالك في الفلسفة اليونانية مفارقات زينون الايلي الذي أراد أن يبرز الخلف في فكرة الحركة المتصلة فمثل أخيل ذا القدمين الخفيفتين يلحق بسلحفاة فلو كان الطريق متصلا أي مؤلفا مما لا نهاية له من الأجزاء لكان أخيل كلما قطع نصف المسافة مثلاً بينه وبين السلحفاة ووصل الى النقطة التي كانت بها السلحفاة لزم أن تكون السلحفاة قد قطعت مسافة ما وهكذا لا يمكن له أن يلحق بها منطقياً مع أن الواقع بلوغه مكانها . هذا وقد ردّ على النظام بمثل هذه المفارقة وذلك بأنه لو لم يوجد الجزء لكان الماشي الذي يقطع مسافة متناهية يقطع ما لا نهاية له لأن هذه المسافة تقبل القسمة الى غير نهاية . ولكن النظام تخلص من هذه الصعوبة بأن قال بالطفرة ومعناها أن الجسم المتحرك لا يماس كل أجزاء المسافة التي يقطعها بل يصير الى مكان دون أن يمر بالسدي قبله .

هذا وينسب الى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١١ هـ - ٩٢٣ م) القول ان القدماء أو الجواهر خمسة وهي الباري والنفس الكلية والهيولى الأوالة والمكان والزمان . ويذكر البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » الذي أورد ذلك أن الرازي حكى هذا المذهب عن أوائل اليونانيين . ويذكر ابن تيمية في كتاب « منهاج السنة النبوية » ان هذا القول يحكي عن ذييمقراطيس واختاره ابن زكريا المتطبيب .

ويعد الشيخ الرئيس أبو الحسين علي بن سينا ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م - ٤٢٨ هـ / ١٠٢٧ من أكبر ممثلي الفلسفة المشائية (فلسفة تلاميذ أرسطو) وأبرزهم في الحضارة العربية الاسلامية . وقد قالوا ان الجسم كم متصل . (والاتصال معناه قبول الانقسام ويقابله الانفصال وهو وقوف الانقسام عند حد ما) وفرقوا بين الانقسام بالفعل والانقسام بالقوة فأجازوا الثانية الى ما لا نهاية وأنكروا الأولى .

ولما تحاور أبو الريحان البيروني (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م - ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م) * وابن سينا جاء في السؤال الرابع الذي سأل به البيروني ابن سينا في الرد على المعلم الأول : « لم استشنع أرسطو طاليس قول القائلين بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ » . وقد شعر البيروني بالصعوبة التي تكمن في هذا القول . ولكنه وجد صعوبات أكثر في القول المقابل فأشار الى أن « القول بأن الجسم يتجزأ الى ما لانهاية أشنع » . ثم يسأل كيف التخلص من حرج كلا الموقفين . ويجيب ابن سينا أن أرسطو إنما أراد الانقسام بالقوة ولكن البيروني يلزمه اذ ذاك بمشكلة أنه لو انقسمت الأبعاد انقساماً غير متناسل لوجب أن يساوي قطر المربع احدى أضلاعه . ويبدو فيما سبق أن النظرية تجاوزت الميدان الديني وأصبحت قضية مطروحة للبحث في الفلسفة الطبيعية عند الفلاسفة المسلمين من مثلي الفلسفة المشائية ومن المستقلين عن تلك الفلسفة البارزين الأعلام أمثال البيروني وأبي البركات هبة الله البغدادي .

عالج أبو البركات (توفي سنة ٥٤٧ هـ - ١١٥٢ م) هذا الموضوع معالجة مناسبة وعرض أقوال الحكماء الطبيعيين عرضاً وافياً . يذكر أن أجزاء الأجسام التي لا تتجزأ لا تغلو من أن تكون « متساوية الأقدار أو مختلفتها أو لا تكون ذوات أقدار » ويمنع ألا يكون لها أقدار لأن ما يكون كذلك لا يكون لمجموع كثير منه قدر « اللهم إلا ألا يعني بلا مقدار سلب المظلم مطلقاً بل تصغيره جداً فيدخل حينئذ في القسمين الأولين أعني متفقات الأقدار ومختلفتها » ثم ينفي اختلاف أقدارها ليناقدش أخيراً وحدة الجسم واتصاله من جهة وكثرته بالتجزؤ وانفصاله من جهة ثانية فيحقق القول في وحدة الجسم الذي هو الهيولى الأولى وكثرته التي له بذاته فيقرر « من حيث أن الجسم يقبل الاتصال والانفصال والتجدد بالصفر والكبر يعلم أنه بذاته ومن حيث هو جسم لا متصل ولا منفصل أعني ولا واحد ولا كثير اذ لو كان بذاته واحداً متصلاً لما انفصل أو كثيراً منفصلاً لما اتصل وذلك هو قولنا لا واحداً ولا كثير (الفصل السابع والثامن من الجزء الثاني) وهو يرد القول بالطفرة . » فان الطفرة معناها وجود حركة سريعة بين حركات بطيئة » .

* أغلب المترجمين للبيروني يذكرون ولاته سنة ٤٤٠ هـ ولكننا نرى تاريخها ما البتناء . انظر كتابنا معالم فكرية . .

ثم عمد المفكرون المسلمون فلاسفة ومتكلمين الى البحث عن حجج وبراهين يؤيد بها كل منهم موقفه أو يعرض تلك البراهين المتناقضة . ومن أهم هذه البحوث ما نجده عند فخر الدين الرازي (٥٤٤ هـ / ١١٥٠-٦٠٦ هـ / ١٢١٠ م) في كتابه المباحث المشرقية . وقد لخص في الفصل الثاني من الجزء الثاني من كتابه هذا مختلف المذاهب في احتمال الأجسام للانقسام فذكر « إما أن تكون الانقسامات الممكنة فيه حاصلة بالفعل أو غير حاصلة بالفعل . وكلا القسمين إما أن يكون متناهياً أو غير متناه فحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة :

- الاول : أن يكون في الجسم أجزاء متناهية بالفعل .
- الثاني : أن يكون فيه أجزاء غير متناهية بالفعل .
- الثالث : ألا تكون الأجزاء حاصلة فيه بالفعل بل بالقوة وتكون متناهية .
- الرابع : أن تكون فيه أجزاء بالقوة غير متناهية .

فالمذهب الأول مذهب جمهور المتكلمين . وهم زعموا أن كل واحد من تلك الأجزاء لا يقبل الانقسام لا قطعاً لصغرها ولا كسراً لصلابتها ولا وهماً لمعجز الوهم عن تمييز طرف منها عن طرف ولا فرضاً لأنها تلزم من ذلك الفرض محالات .

وأما الثاني فهو مذهب النظام ومن الأوائل انكسافراطليس .
وأما الثالث فهو مذهب اختاره محمد الشهرستاني ويحكى قريباً منه عن أفلاطون فانه قال : الجسم ينتهي بالتجزئة الى أن ينمحق فيعود هيولى .
وأما الرابع فهو مذهب الجمهور من الحكماء . « (١)

ويلخص في الفصل الثالث « الأدلة على بطلان الجزء الذي لا يتجزأ .
وبراهينه عشرون » بعضها يتعلق بالمسألة وهي قضية كانت ذات شأن عند المتكلمين في اثبات الجزء أو نفيه . ولا بأس أن نورد جانباً من هذه القضية وهو البرهان الأول من العشرين . « انالو قدرنا جزءاً بين جزءين فالوسط اما أن يمنعهما عن التلاقي أو لا يمنعهما . فان منعهما فالوجه الذي يلاقيه أحد الطرفين غير الوجه الذي يلاقي الطرف الآخر فاذاً هو منقسم . وان لم يمنعهما من التلاقي كان الطرفان متداخلين في الوسط لكن التداخل محال . »

جميع هذه البراهين نظرية . وهي تعتبر الجزء الذي لا يتجزأ في حالتي اثباته ونفيه في نطاق المقياس البشري المعتمد المستند الى الحواس وتظل بعيدة من الصفة العلمية ، كما تستند في نفيه الى الحساب واقتضاء وجود الكسور اذا اعتبرنا الجزء الذي لا يتجزأ بمثابة الرقم (١) فالبرهان الثاني عشر يعتمد على نظرية فيثاغورس وينص « لو قدرنا زاوية قائمة كل واحد من الضلعين المحيطين بها عشرة أجزاء (لا تتجزأ) فالحاصل من ضرب كل واحد من الضلعين في نفسه مائة فالمجموع مائتان والحاصل من ضرب وتر الزاوية القائمة في نفسها مساو للحاصل من ضرب الضلعين كل واحد في نفسه كما بينه أوقليدس . فيكون الحاصل من ضرب وتر هذه الزاوية مائتين فيكون وتر هذه الزاوية جذر مائتين وليس للمائتين جذر صحيح فلا بد أن تنكسر الأجزاء . »

كذلك البرهان الثالث عشر « لو قدرنا خطأ مركباً من جزءين فأمكننا أن نعمل عليه مثلثاً متساوي الأضلاع ولا يحصل ذلك الا اذا وقع كل واحد على متصل الآخرين وذلك يوجب التجزئة . »

ان نظرية فيثاغورس يتكرر الاعتماد عليها فالبرهان الرابع هو أنه « لو أخذنا خطأ من جزءين ووضعنا على أحد الجزءين جزءاً آخر فتحصل هناك زاوية قائمة فوترها ان كان من جزءين كان وتر الزاوية القائمة مساوياً لواحد من الضلعين المحيطين . هذا خلف . وان كان من ثلاثة أجزاء كان الوتر مساوياً لمجموع الضلعين . هذا خلف . فاذا هو أكثر من الاثنين وأقل من الثلاثة . فقد وجد الأقل من الجزء » (٢) .

وهكذا تتواتر البرهانات بأشكال شتى على اقتضاء وجود كسر لرفض وجود الجزء الذي لا يتجزأ وذلك لاعتبار الجزء بمثابة الرقم (١) كما أسلفنا . ولا بأس عندنا أن نعرض برهانين آخرين :

« البرهان السادس عشر أن اقليدس برهن على أن كل خط فانه يصح تنصيفه فالخط المركب من الأجزاء الفردة يصح تنصيفه فينتصف الجزء وهو المدعى . البرهان السابع عشر اذا أوقفنا خطاً مستقيماً كالوتر على زاوية قائمة حتى

يحصل الوتر جذر مجموع مربع الضلعين وفرضنا الضلعين كل واحد منهما خمسة كان هذا الوتر جذر خمسين فان حركنا طرف هذا الوتر من أحد الجانبين جزءاً تحرك الطرف الآخر لا محالة أقل من جزء فانه ان تحرك جزءاً حتى حصل أحد الضلعين ستة والآخر أربعة حصل الوتر جذر اثنين وخمسين . هذا خلف . فاذا قد تحرك أقل من جزء» (٣) .

أما الفصل الرابع فيقابل الفصل الثالث ويناقضه وهو « في ابطال قول من قال الجسم مركب من أجزاء غير متناهية بالفعل وعليه برهانان» (٤) أولهما امتناع قطع مسافة الا في زمان غير متناه وثانيهما يعود الى امتناع مساواة الجزء للكل . ويلى ذلك فصلا من مناقشة القسمة الانفكاكية وحكاية شبه مثبتى الجزء الذي لا يتجزأ والجواب عنها . وهما مهممان في هذا الصدد نرجع القارىء الكريم اليهما، ولولا مخافة التلويل لعرضنا ما فيهما من حجج لطيفة يرجع غالبها الى ما سبق ذكره .

وعلى الرغم من الصفات النظرية لهذه الحجج والبراهين المتعارضة نرى أن هؤلاء المفكرين قد أكدوا صنوبة كلا الموقفين وخرجه . وكانهم أقروهما على تناقضهما وهذا ما سنراه عما قريب في فلسفة الفيزياء الدقيقة الحديثة .

ان هذه الحيرة العلمية التي يحيط العالم بها دون أن تحيط به نجدها تستمر عند بعض العلماء المتأخرين . نجدها عند بهاء الدين العاملي (٩٥٣ هـ / ١٥٤٧ م - ١٠٣١ هـ / ١٦٢٤ م) .

فهو يعقد فقرة في كتاب «الكشكول» يبرهن فيها على ابطال الجزء فيقول : « مما سنح بخاطر جامع الكتاب تفرض دائرة مركبة من الأجزاء وتخرج فيها خطين مارين من المركز بين طرفيهما جزء واحد من محيط الدائرة فهما متقاطعان على المركز . فالانفراج الذي بينهما قبل التقاطع اما أن يكون بقدر الجزء أو أكثر أو أقل والكل باطل لاستلزام الأول كون المتقاطعين متوازيين والثاني كون المتقاربين في جهة متباعين فيها والثالث الانقسام» (٥) .

ولكنه في الكتاب نفسه يذكر لنفسه برهاناً على امتناع اللاتناهي . وهذا يدل على أنه كان مدمناً الفكر في قضية اثبات الجزء أو نفيه فقد ورد في اثبات

الجزء قوله : « ليس لمثبتي الجزء حجة أقوى من حكاية وضع الكرة على السطح المستوي اذ لو انقسم موضع الملاقاة لوصل من طرفيه الى مركزها ليحدث مثلث متساوي الساقين ويخرج من ملاقة القاعدة عمود الى المركز . فالخطوط الثلاثة الخارجة من المركز الى المحيط متساوية لأنها كذلك ويلزم أن يكون أطوال الساقين أكبر من العمود لأنهما وترا القائمتين وهو وتر الحادتين » (٦) .

على أن علماء الكلام جروا على اثبات الجزء دائماً ليس غير . جاء في « كشف اصطلاحات الفنون » للتهانوي أن الجزء يطلق على معان منها « الجزء الذي لا يتجزأ المسمى بالجوهر الفرد وعرف بأنه جوهر ذو وضع لا يقبل القسمة أصلاً لا قطعاً ولا كسراً ولا وهماً ولا فرضاً أثبتته المتكلمون ونفاه بعض الحكماء » ثم يعمد المؤلف الى شرح هذا التعريف . « فالجوهر بمنزلة الجنس فلا يدخل فيه النقطة لأنها عرض . وقولهم ذو وضع أي قابل للإشارة الحسية وقيل أي متعيز بالذات يخرج المجردات عند من أثبتها لعدم قبولها الإشارة الحسية ولا التحيز . وقولهم لا يقبل القسمة يخرج الجسم ، وقولهم أصلاً يخرج الخط والسطح الجوهرين لقبولهما القسمة في بعض الجهات ، والقسمة الوهمية ما هو بحسب التوهم جزئياً . والفرضية ما هو بحسب فرض العقل . . . وفائدة إيراد الفرض أن الوهم ربما لا يقدر على استحضار ما يقسمه لصفه أو لأنه لا يقدر على إحاطة ما لا يتناهى . والفرض العقلي لا يقف لتعقله الكليات المشتملة على الصغير والكبير والمتناهي وغير المتناهي كذا في شرح الاشارات فان قلت لا يمكن أن يتصور وجود شيء لا يمكن للعقل فرض قسمته قلت المراد من عدم قبول القسمة الفرضية أن العقل لا يجوز القسمة فيه لا أنه لا يقدر على تقدير قسمته أي على ملاحظة قسمته وتصورها فان ذلك ليس بممتنع وللعقل فرض كل شيء وتصوره حتى وجود المستحيلات وعدم نفسه » .

هذا وما زلنا نتذكر كيف كنا في صغرنا نحفظ متن جوهرية التوحيد للشيخ ابراهيم اللقاني (توفي سنة ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) التي في أواخرها .

وجود شيء عينه والجوهر الفرد حادث* عندنا لا ينكر

* ينبغي تسكين الثاء في حادث لفروءة الشعر كما ينبغي لفتح همزة الوصل في الفرد (هذا شعر تعليمي يصاغ للمطلعين).

أي لا ينكر ثبوته وتقرره في الوجود فجميع الأجسام تركبت منه مع تناهي
آحاده فيها خلافاً لحكماء الفلاسفة كما جاء في شرح الجوهرة لابن ناظم الجوهرة
عبد السلام بن ابراهيم (متوفى سنة ١٠٧٨ هـ - ١٦٦٧ م) .

على أن بحث التناهي واللاتناهي تجاوز المادة عند المفكرين المسلمين فتأملوهما
في الأبعاد والأطراف والزمان والمكان والسطوح والحجوم والعلل والقوى وغير
ذلك وكتاب المعتبر لأبي البركات والفلسفة المشرقية لفخر الدين الرازي
وأمثالهما وشروح كتب الحكماء حافلة به .

ذكرنا آنفاً أن تألف الأجسام من أجزاء لا تتجزأ يطلق عليه الانفصال
وانقسام الأجسام انقساماً غير متناه يطلق عليه الاتصال . وهما لفظان شاع
استعمالهما في التراث العربي وانتقلا إلى اللغات الأجنبية فيقال مثلاً في اللغتين
الانكليزية والفرنسية للمتصل Continu, continuous وللمنفصل
discret, discontinu, discontinuous وثمة لفظ ثالث فيهما وهو discret بمعنى المنفصل
ولكنه يطلق على بعض الحوادث المفردة .

ولما لخصنا في فصل واسع من كتابنا « الفيزياء الحديثة والفلسفة » كتاب
بشار الذي سلف أن نوهنا به قبلاً عرضنا جوانب من المذاهب الفكرية التي
شاعت في الغرب والتي تقول بالجزء الذي يتجزأ كالمذهب الايجابي والمذهب
الانتقادي والمذهب الأكسيومي أو مذهب المصادرات . فلا محل هنا للتطويل
وتلخيص التلخيص وإنما الذي يهمنا في هذا البحث هو جلاء هذا الموضوع في
التراث العربي والتعقيب عليه ببيان حال العلم الحديث تجاه انفصال المادة
واتصالها .

نظرية الجزء الذي لا يتجزأ في العصر الحاضر

لقد كان الاتصال صفة من صفات الفيزياء الاتباعية التي سادت في القرن
التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وما زالت سائدة في المقياس الاعتيادي
الانساني بالنظر إلى الحواس والآلات التي تكمل الحواس . فالمكان فيها مطلق
أوقليدي متصل والزمان مستقل عن المكان وهو متصل اتصالاً حقيقياً ويجري

جرياً منتظماً متجانساً الى غير ذلك من صفات الفيزياء الاتباعية كالعتمية والموضوعية والواقعية والايجابية وأمثالها . ونريد هنا أن نعرض قضيتي الاتصال والانفصال كيف برزتا كلتاهما للعلماء الغربيين الحديثين .

فقد اضطر العلماء منذ أوائل القرن التاسع عشر شيئاً فشيئاً الى التخلي عن فكرة الاتصال في مجالات تجاربهم وتأملاتهم . غدوا يتصورون المادة تتألف من ذرات ولكن تصورهم كان مبهماً اضطروا اليه اضطراباً ، بدت الأجسام لهم صنفين : أجساماً مركبة يمكن تحليلها وتجزئتها الى أجسام أبسط منها وأجساماً بسيطة هي العناصر التي تقاوم التحليل وتقف دون التجزئة . ثم ان دراسة القوانين الكمية لاتحاد هذه العناصر البسيطة بعضها ببعض كقانون النسب المحدودة (بروس ت) (٧) وقانون النسب المضاعفة (دالتون) (٨) أفضت بالكيمائيين الى اعتبار الجسم البسيط مؤلفاً من أجزاء صغيرة متشابهة ومتناهية وهي الذرات واعتبار الجسم المركب مؤلفاً من جزيئات ، وكل جزيء من جزيئات الجسم المركب أياً كان يتألف من ذرات في نسب ثابتة لا تتغير . فالاتحاد بين العناصر البسيطة يجري على شكل أعداد تقابل أجزاء مميّنة من كل منها ، فهو يشف عن بنية منفصلة لتلك العناصر البسيطة .

ولما أتى العالم الايطالي أفوغادرو اعتبر أن الجزيء الفرامي لجسم من الأجسام وهو الذي يشغل في الحالة الغازية حسب أحد قانوني غيلوساك (٩) ٢٢ر٤ لتراً في شرطي الحرارة والضغط النظاميين (درجة الصفر وضغط ٧٦ سم زئبقياً) يتألف من عدد ثابت من الجزيئات الحقيقية أياً كان نوع ذلك الجسم .

أما عدد الجزيئات الحقيقية فلم يكن يأتي حسابه على بال أفوغادرو ولا على بال غيره من العلماء . كان العلماء يتكلمون على وجود الذرات الحقيقية كما يتكلمون على أمور الغيب لأنه كان يتمذر عليهم ملاحظتها أو الاطلاع عليها فكانوا يجدون حرجاً في الكلام على أوزانها الحقيقية فيستبدلون بها الأوزان الفرامية مضخمة مكبرة بل كانوا يستبدلون بالأوزان الفرامية الفاظاً تتعاضد الى الذرات كالقيم الاتحادية المقرونة بالعناصر تمشياً مع المذهب الايجابي الذي لا يجيز التحدث عن شيء ما لم تؤيده التجربة ويكشف عن حقيقته البحث .

ولكن العلم تقدم واستطاع العلماء بعد حين حساب عدد الجزيئات الحقيقية في الجزيء الفرامي فوجدوه يساوي $22 \times 6 \times 10^{21}$ وأصبح يدعى ذلك العدد عدد أفوغادرو . ان أخف الأجسام البسيطة الهيدروجين . جزيء الهيدروجين مؤلف من ذرتين منه واذا اعتبرت كتلة ذرة الهيدروجين الفرامية (1) فان كتلة

جزيء الهيدروجين $\frac{2}{22 \times 6 \times 10^{21}}$ تقريباً وكتلة الذرة منه تساوي

$$\frac{1}{22 \times 6 \times 10^{21}} = 1.66 \times 10^{-24} \text{ (غرام)}$$

ويطلعون جدول مندلييف أو جدول التصنيف الدوري على أوزان ذرات العناصر البسيطة الفرامية أو قيمها الاتحادية تتعاقب وفق ازدياد القيم أو الأوزان . ويمكن حينئذ حساب كتل ذراتها الحقيقية .

وظن العلماء أنهم بلغوا نهاية المادة حين وصلوا الى اعتبار ذرات الأجسام الحقيقية وحساب كتلتها . فأطلقوا على تلك الذرات المختلفة في النوع والكتلة باختلاف العناصر اللفظ اليوناني وهو أتوم بمعنى الجزء الذي لا يتجزأ .

غير أن الانفصال تجاوز المادة الى الكهرباء فأدت بحوثهم في الكهرباء الى اعتبارها ذات بنية جيبية أي منفصلة والى اعتبار الكهرباء (الكترون) حبة الكهرباء . ثم أفضى بهم البحث الى اعتبار ذرات الأجسام تلك التي ظنوها لا تتجزأ ولا تنقسم مؤلفة من كهـارب يختلف عددها باختلاف العناصر تدور حول نواة لها في كل ذرة . وهنا ينبغي أن نفرق بين لفظ أتوم الدال على الذرة ولفظ الجزء الذي لا يتجزأ الدال على نهاية تقسيم المادة وهو غير الذرة لأن الذرة غدت تنشطر الى الجسيمات المتناهية في الصغر وهي التي تتألف منها حسب كل عنصر . وهنا لا بد من الاستطراد وبيان أرجحية اللغة العربية في هذا الميدان من التعبير العلمي . فان لفظ أتوميسم Atomism يعني النظرية التي تقول بوجود الأتوم أي بانقسام المادة انقساماً متناهياً أو نظرية الجزء الذي لا يتجزأ مع أن لفظ الأتوم يطلق على الذرة التي غدت تتجزأ . فاللغة العربية تفرق بين الجزء الذي لا يتجزأ وهو الجسيم من الجسيمات

الدقيقة النهائية في المادة كالكهرباء مثلاً وبين الذرة التي تقابل الآتوم وهو الذي
معناه أنه لا يتجزأ ولكنه أصبح قابلاً للتجزئة .

ان العلماء لما كشفوا الكهرباء وجدوا أن كتلته أصغر من كتلة الهيدروجين

$$\text{بمقدار } 1840 \text{ فهي تساوي } \frac{1.6 \times 10^{-19}}{1840} = 0.9 \times 10^{-27} \text{ من الغرام} .$$

وهناك أجزاء أخرى دقيقة في الذرة متنوعة تتألف منها نوى الذرات كالأويون (proton) والأويون (neutron) على حد تعبيرنا وغيرهما مما يعرفه المتخصصون بالفيزياء الحديثة وما يطول بنا البحث لو عمدنا إلى عرضها وبيان خصائصها . وقد فصلناها في كتابنا « تقدم العلم » .

ولكن الانفصال تجاوز المادة والكهرباء إلى الطاقة لما درس العالم الألماني بلنك سنة 1900 تبادل الجسم الأسود والإشعاع للطاقة فوجد أن التبادل يحصل بانفصال على أشكال حبات من الطاقة دعا حبة الطاقة بالكم أو الكوانتوم

$$\text{ومقدارها طا} = \text{ه} \times \text{د} \cdot \text{ (طا مقدار الطاقة ، د ، تردد الإشعاع د = } \frac{\text{سر}}{\text{ط}}$$

ط طول الموجة سر سرعة الإشعاع ، ه كوانتوم العمل يساوي 6.6×10^{-27} ارغة/ثانية) ولما كان الإشعاع يتفاوت تردده كان ثمة حبات مختلفة بالمقادير من الطاقة .

ثم تجاوز الانفصال الطاقة والكهرباء والمادة فدخل بنية الضوء لما كشف العلماء الظاهرة الكهروضوئية التي يحصل فيها تيار كهربائي بتأثير الضوء في صفيحة معدنية والتي لم يمكن تفسيرها إلا باعتبار الضوء ذا بنية منفصلة أيضاً . وحبة الضوء هي الكوانتوم نفسه الذي أشار إليه بلنك وقد دعيت حبة النور هذه « فوتوناً » photon وترجمناها نحن بالسنية (تفسير السنا والحق تاء التانيث به) وكذلك بنية الضوء المنفصلة استطاع العلماء تفسير ظاهرة كمبتون سنة 1923 وهي تبادل الكهرباء وحبة النور قسماً من الطاقة كما تصطدم

★ الأول تصغير أول والأويون بإبدال اللام ميماً ماخوفاً من المعتدل .

كرة البليار بكرة أخرى ، وتفسير ظاهرة رامان سنة ١٩٢٨ وهو تبادل وسط شفاف (سائل صاف أو غاز أو بلورات) والضوء نصيباً من الطاقة أيضاً .

هذا الانفصال في الضوء والطاقة والكهرباء والمادة شئت شملت نظام الفيزياء في أوائل القرن العشرين اذ كان ثمة ظواهر لا تفسر الا بطبيعة الضوء الموجية المتصلة على حين برزت ظواهر جديدة كالتي عددناها لا تفسر الا بطبيعة الضوء الجيبية المنفصلة الى غير ذلك من الظواهر التي استرعت أنظار العلماء واجتذبت اهتمامهم . حتى جاء الفيزيائي الفرنسي لويس دو برُوي^(١٠) فأنشأ

عام ١٩٢٣ نظرية الميكانيك الموجية وهي تقرن بالكهرب طول موجة $\lambda = \frac{h}{mv}$ كحك

(هـ كوانتوم العمل الذي سلف ذكره ، كحك كمية حركة الكهرباء أي جداء كتلته في سرعته) وعقبه العالم الألماني هيزنبرغ فأنشأ الميكانيك الكوانتية الجديدة واعتبر كلا العالمين لكل من المادة والضوء جانبين أحدهما موجي متصل والآخر جيبى منفصل .

نحن اذا في العلم الحديث مضطرون الى اعتبار الانفصال والاتصال في تعرف بنية المادة وتعرف بنية الضوء ، الى اعتبار الجانب الجسيمي المنفصل والجانب الموجي المتصل في تركيب كليهما . وهما جانبان متقابلان لا يظهران معاً للباحث اذا برز له جانب توارى الجانب الآخر . واذا كنا نعجب بأمر فاعجابنا يذهب الى حدس العلماء الطبيعيين العرب القدماء حين وجدوا في تأملاتهم وبحوثهم صعوبات في الاقتصار على الاتصال دون الانفصال في طبائع الأجسام أو على الانفصال دون الاتصال فيها ونوهوا بتلك الصعوبات والمقبات الفكرية .

ان الماديين الجدليين يعتبرون ذلك التقابل بين الجانبين المتصل والمنفصل أو الموجي والجسيمي صورة لتقابل حدين من حدود الجدل المخامر للطبيعة كلها . وان فلاسفة العلوم الحديشين الغربيين يدعون ذلك التقابل بالتتامية Complementary, Complémentarité وهي ليست مقصورة على هذين الجانبين

في كل من المادة والضوء بل هي تدخل في كثير من طرق البحث والتنقيب في المعرفة العلمية الحديثة كدخول الذاتية التي جانب الموضوعية وحوار الأشكال القبلية a priori والأشكال البعدية a posteriori وحوار العياني والمجرد والنظر والتجربة والخاص والعام .

قد يبدو لفظ التتامية غامضاً في مجال الفيزياء وهو الذي استعمله العالم الدانمركي نيلز بور . ولكنه يتضح بمثال نأخذه من ميدان الحياة . لو أردنا أن ندرس كائناً حياً كالأرنب فاما أن نحاول تشريحه فنتمرف تركيب جسمه ومحتواه وعندئذ نقضي عليه ، ونغفل عن نهج نموه وتغذيته وتناسله ، وإما أن نتابع نشوئه وتناسله وتغذيته ونمسه ونطلع على تطوره في خلال الزمان وعندئذ نضرب صفحاً عن تركيب جسمه وتشريحه . وهكذا لا تستيسر دراسة أحد المظهرين الحيويين السكوني والتطوري الا على حساب المظهر الآخر ولا يتهيأ الايغال في تفهمهما الا تبعاً أي أحدهما تلو الآخر وعلى حسابه . فهذه تتامية جلية في مجال الحياة تشبه التتامية بين المتصل والمنفصل بين الجسيم والموج والتجزؤ واللا تجزؤ .

والخلاصة أن المعرفة العلمية مع أنها تاريخية وجدلية فلا شك أن المعرفة العلمية الحديثة وليدة المعارف السابقة ووريثتها . وان بعض الاعتبارات الفكرية الجديدة مرتبطة مع تطورها بسياق الاعتبارات الفكرية التالدة . وعلى الرغم من صيرورة المعرفة وتغيرها الدائم فلا بد من أن تحتفظ بجملة واسعة من مكاسبها السابقة وان كان تطور العلوم يحمل على اعادة النظر وتنقية الأفكار والمفاهيم والعمل على تنسيقها وتنظيمها والاتيان بالجديد الذي لا يلبث أن يستدعي جديداً آخر . ثم ان المعنى الكلي أو المفهوم لا يخلق تام الصنع من لا شيء بل هو يخرج من الماضي ولكنه لا يلبث أن يتبدل بالاستعمال والتطبيق . ان الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر الفرد قد تغيرت دلالته واختلفت الاعتبارات فيه في غضون الزمان حتى تناقضت أحياناً . وتنقية المفاهيم والأفكار مقترنة بالتقدم العلمي الحديث وهي من أخص صفات المعرفة العلمية وسمات الجدل العلمي الحديث .

الحواشي :

- ١ - طبع الهند ص ٨ - ٩ لوله ويحكمي قريبا منه عن الفلاطون نائب الفاعل عن الفلاطون ولربما نائب المفعول المطلق .
- ٢ - ج ٢ ص ٢٠ - ٢١ .
- ٣ - ص ٢١ - ٢٢ .
- ٤ - ص ٢٣ - ٢٤ .
- ٥ - الكشكول ، تحقيق احمد الزاوي ج ٢ ص ٦٠ .

٦ - المرجع نفسه ج ٢ ص ١٤٥ - ١٤٦ ، وفي الكتاب برهان آخر على امتناع اللانهاهي يسهل الرجوع اليه في ج ٢ ص ٥١ ويذكر المؤلف برهانا ينسبه للسيد السمرقندي على امتناعه ج ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨ . هذا وقد أصدر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب كتابا جيدا هو «رياضيات بها» الدين العاملي « بقلم الدكتور جلال شوالي يشمل لسمه الثاني مسائل الحساب والجبر والمساحة الواردة في كتاب الكشكول ولم يعرف المؤلف هذه البراهين الأربعة التي هي من الرياضيات أيضا .

٧ - قانون بروسث أو قانون النسب المحدودة هو أن العناصر البسيطة يتحد بعضها ببعض لتكوين جسم مركب بنسب كتلية محدودة ثابتة ، فالهيدروجين مثلا يتحد بالأكسجين لتكوين الماء بنسبة كتلية ثابتة هي ١ إلى ٨ .

٨ - قانون دالتون أو قانون النسب المضاعفة إذا اتحد جسمان بسيطان أحدهما بالآخر فكونا أجساما مركبة متعددة ولايسنا بين كمية معينة واحدة من أحد ذئيك الجسمين وكميات الجسم الآخر الداخلة معها في التركيب كانت هذه الكميات أضعاا مضاعفة بسيطة لاحداها .

٩ - قانونا غيلوسالا :

- ١ - بين حجوم الغازات المتحد بعضها ببعض لتكوين جسم معلوم نسبة بسيطة .
- ٢ - إذا اتحد عنصران غازيان وكونا جسما غازيان بين حجم الغاز المتكون وحجمي العنصرين الغازيين اللذين كوناه نسبة بسيطة .

١٠ - كتبنا اسم الأسرة كما يلفظ بالتاكيد لمعرفتنا السابقة بالعالم نفسه ، ولا عبارة لبعض المعجمات الانكليزية والأمريكية والفرنسية التي تشير إلى أن اللفظ هو دوبرولي (باللام) انظر أيضا لاروس القرن العشرين .

★ ★ ★

بعض المراجع :

- | | |
|---|--|
| <p>٥ - أبو علي الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا</p> <p>- الشفاء</p> <p>- النجاة</p> <p>- الاشارات والتنبيهات</p> <p>- أجوبة الشيخ الرئيس عن مسائل أبي الريحان البيروني</p> <p>٦ - أبو عبدالله محمد بن احمد بن يوسف الطوادرسي</p> <p>- مفاتيح العلوم</p> <p>٧ - أبو البركات هبة الله البغدادي</p> <p>- المختبر في الحكمة</p> | <p>١ - أبو بكر محمد بن زكريا الرازي</p> <p>- رسائل فلسفية .</p> <p>٢ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ</p> <p>- العيوان .</p> <p>٣ - القاضي أبو بكر محمد الباقلائي</p> <p>- التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة</p> <p>والطوادر والعتزلة .</p> <p>٤ - أبو الريحان محمد بن احمد البيروني</p> <p>- تحقيق ما للهند من مقولة</p> |
|---|--|

E. Bréher -١٧
— Histoire de la philosophie.

G. Bachelard : -١٨
— Les intuitions atomistiques.
— Essai sur la connaissance approchée.
— La philosophie du non.
— Le nouvel esprit scientifique.

L. de Broglie : -١٩
— Continu et discontinu en physique moderne.
— Physique et microphysique.
— Matière et Lumière.

A. Ducrocq : -٢٠
— L'atome univers fantastique.

P. Rousseau : -٢١
— L'histoire de l'atome.

Encyclopædia Universalis.

— Encyclopædia of Religion and Ethics
(atomic theory). -٢٣

٨ - فخر الدين محمد بن عمر الرازي .
- المباحث الشرقية في علم الالهيات والطبيعات

٩ - بهاء الدين العاملي
- الكشكول

١٠ - عبدالسلام بن ابراهيم اللقاني المالكي
- اتحاف المرید بجوهره التوحيد

١١ - محمد محيي الدين عبد الحميد
- النظام الفريد بتحقيق جوهره التوحيد

١٢ - عبدالنبي بن عبد الرسول الاحمد نكري
- جامع العلوم الملقب بدستور العلماء

١٣ - محمد علي التهانوي
- كشف اصطلاحات الفنون

١٤ - س. بينيس
- مذهب الذرة عند المسلمين ترجمة محمد عبد الهادي
ابو ريده

١٥ - ارفين شرودفنر
- العلم والثقافة الانسانية (الفيزياء في زماننا)
ترجمة عبد الكريم اليالي

١٦ - عبد الكريم اليالي
- الفيزياء الحديثة والفلسفة
- تقدم العلم



أطريلال

الدكتور مختارهاشم
دكتور في الطب

كلمة يستغربها جمهور القراء ، ذلك أنهم لم يسمعوها بها في حديث ولم يقرؤوا عنها في كتاب ، وإذا بحثوا عنها في المعجمات القديمة لم يعثروا عليها ، أضف إلى ذلك غرابة صيغتها فهي لا تطابق وزناً من أوزان العربية الفصحى حتى ولا العامية . فهذا القاموس المحيط يذكرها في غير مادتها فيقول في (غرب) : « رجل الغراب : ضرب من صر الأبل لا يقدر معه الفصيل أن يرضع أمه ، وحشيشة أطريلال » . ثم يذكر بذرها المعلى بالعسل ويورد منافعه . وهذا ما دعا الشارح الزبيدي إلى التعليق بما يلي :

وهذا الذي ذكره المؤلف مذكور في التذكرة وغيرها من كتب الطب مشهور عندهم وإنما ذكرها لغرابتها ولما فيها من الخاصية المجيبة فأحب ألا يغلي كتابه من فائدة لأنه القاموس المحيط والله أعلم .

وقد أعفاني الزبيدي طيب الله ثراه من الاعتذار إلى جمهور القراء عن إيراد هذه الكلمة التي من حقها أن تبقى قابضة في كتب المفردات ، فإن هذه الكتب لا تحظى إلا بالقليل من القراء ومرجع ذلك إلى :

أن فئة الأدباء واللغويين الحراس على التراث العربي الأصيل يرونها خارجة عن نطاق الأدب واللغة ويكلون الاهتمام بها إلى الأطباء والمهتمين بالعلوم .

أن فئة أرباب العلوم يرون البحث في الكتب الطبية القديمة مضيعة للوقت لأنه يرجع بهم القهقري الى القرون الوسطى فيرمون عبثها على الأدباء والمؤرخين . لذلك ظل قسم كبير من كتب التراث منسياً لا يلقي ما يستحقه من عناية الا في المناسبات التي تفرض علينا اظهار ما يكون لنا باعثاً على الفخر والاعتزاز . والا فما بال المثقفين منا يعزفون عن هذه الكتب وفيها من المتعة والفائدة ما لا يقل عما يجدونه منهما في كتب الأدب الصرف .

ويبدو لي أن هذا الموقف نابع من نظرتنا الى التراث من حيث انه يدل على الآثار التي خلفها لنا أجدادنا الغابرون لا أنه جزء من حياتنا قد مضى ، وان الماضي والحاضر متصلان ، وهما يتفاعلان ومن هذا التفاعل تكون ولادة المستقبل .

* * *

ولنأخذ الآن في تبين المقصود من هذه الكلمة ، وقد جرت العادة في مثل هذه الحالة اللجوء الى المستشرق الهولندي الشهير العلامة دوزي ونحن اذا بحثنا عن هذه الكلمة في معجمه « تكملة المعاجم العربية » وجدنا ما يلي :

— Cerfeuil (plante potagère).
أ طريلال
— Corne - de - cerf (plante sauvage et cultiuée)

وهو ينقل المعنى الأول عن ابن البيطار ويتبع ذلك بذكر رقم الجزء والصفحة والمادة من كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، وينقل المعنى الثاني عن معجم بقطر . وانني أضرب صفحاً عن المعنى الثاني لأنه بعيد عن المطلوب وأكتفي بالمعنى الأول . انه يقول ان Cerfeuil هو أ طريلال . والكلمة الفرنسية تدل على بقلة معروفة يأكلها الفرنسيون في السلطنة ، كما يؤكل البقدونس في بلادنا وهي تشبهه الى حد كبير ، لذلك ترجمت في المعاجم الفرنسية العربية الحديثة بالمقدونس الافرنجي . يقال لها بلسان العلم *Anthriscus cerefolium L.* وهذا النبات ينتسب الى الفصيلة الخيمية ، شأنه شأن اطريلال ، ولكنهما نباتان مختلفان ، وان اشركا في الانتساب الى فصيلة واحدة .

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن الاعتماد على معجم دوزي في فهم الكلمات العربية يبقى بالضرورة محدوداً لأنه لم يؤلف من أجل العرب ، لا أقول ذلك لأنه يفسر الكلمات العربية بالفرنسية بل لأنه يحيل الى مصادر بعيدة عن متناول القراء العرب . مثال ذلك أنه عندما يحيلك الى مفردات ابن البيطار لا يذكر رقم الجزء والصفحة والمادة كما جاءت في طبعة بولاق التي صدرت عام ١٨٧٤ م بل الى ترجمة Sontheimer لمفردات ابن البيطار التي صدرت في Stuttgart عام ١٨٤٠ ويقول بهذا الصدد :

ان طبعة بولاق مليئة بالأخطاء ، وان هذا الكتاب (أي م . ابن البيطار) لا يمكن نشره في بلاد الشرق لأنه مشحون بكلمات يونانية واسبانية وأبناء الشرق يجهلون هاتين اللغتين . هذا والكتابات بجملته مطبوع بغاية الاهمال .

هذا حكم صدر قبل مئة عام ونيّف ولا يمكنني الطعن في صحته باعتبار ذلك الوقت . أما في الوقت الحاضر فقد تغير الوضع وأصبح بالإمكان الاعتماد على أنفسنا في احياء ثقافتنا القومية الأصينة . وانني أتساءل ماذا يحول دون تأليف معجم جديد يستدرك ما فات المعجمات العربية الأصلية ، وبذلك يفتح الباب على مصراعيه أمام فهم كتب التراث بدلاً من الاعتماد على مراجع ثانوية تجاوزها الزمن .

★ ★ ★

ولنحاول الآن الامام بتاريخ اطريلال من خلال تتبعه في بعض الكتب الطبية القديمة :

- ١ - كتاب القانون لابن سينا
لا نجد فيه ذكراً لهذا الدواء .
- ٢ - كتاب الصيدنة للبيروني .
لا يأتي على ذكره أيضاً .
- ٣ - الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لعبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن البيطار : (آ اطريلال) اسم بربري وتأويله رجل الطائر . وهذا النبات يعرف بالديار المصرية برجل الغراب وبعضهم يعرفه بجزر الشيطان

أيضاً • وهو نبات يشبه الشبث في ساقه وجُمُتته (١) ، غير أن جمة الشبث زهرها أصفر ، وهذا النبات زهره أبيض • ويعقد حباً على هيئة ما صفر من حب المقدونس أو كبزر النبات الذي يعرف بمصر بالخيلّة، غير أنه أطول منه بقليل وأصفر جرمًا ، وفيه حرارة وحرافة ويسير مرارة ، وهو عند ذوقه يحذي اللسان • وهو حار يابس في آخر الثانية، وبزره هو المستعمل منه خاصة في المداواة ، ينفع من البهق والوضح نفعاً بيّناً ، شرباً ، وأول ما ظهرت منفعة هذا الدواء واشتهرت بالمغرب الأوسط من قبيلة من البربر تعرف ببني أبي شعيب من بني وجهان من أعمال بجاية ، وكان الناس يقصدونهم لمداواة هذا المرض ، وكانوا يضمنون بها ويخفونها عن الناس ولا يعلمون بها الا خلفاً عن سلف، الى أن أظهر الله على بعض الناس فمرفها وعرفها لغيره ، فانتشر ذكرها وعرف بين الناس عظيم نفعها •

٤ - كتاب الشامل في الصناعة الطبية لابن النفيس • (الجزء الثاني من الفن الثالث) خصص مقالة له (اطريلال) جاء فيها ما يلي :

ان هذا الدواء ، لأجل تفتيحه وجلائه ، ينبغي أن يكون من أدوية اليرقان ، ولم نجد للأولين كلاماً في هذا الدواء ، وانما تكلم فيه المتأخرون ، ولم يعرف بالبلاد الشرقية الا في زماننا ، وهو الآن لم يعرف في البلاد البعيدة عن بلاد مصر بعداً كثيراً • وأول تعرفه انما كان لأجل نفعه من البرص وذلك لأن طائفة من البربر كانوا يشفون به البرص ويخفونه عن الناس ، ولا يعرفه غيرهم ثم عرف بعد ذلك واشتهر •

وجاء فيها :

ينبغي أن يكون مفتتاً للحصاة ، لأنه مع مرارته وحرافته وحدته ، ملطّف مقطّع نفّاذ ، فلذلك ينبغي أن يكون من الأدوية الحصوية •

★ ★ ★

١ - الجمة لغة : مجتمع شعر الرأس ، واصطلاحاً مجتمع الزهر في أعلى الفصن فيطلق على الخيمة في فصيلة الغيميات وعلى الرئيس في الفصيلة الرمية •

يُنْفهم من النصوص السابقة أن أول من عرف نفع هذا النبات من البرص هم البربر ثم انتشرت معرفته في البلاد الشرقية ومنها مصر وسورية في القرن السابع للهجرة ، وقد أخذ الأطباء العرب يدرسون تأثيراته الدوائية الأخرى فلاحظوا نفعه في اليرقان والحصيات ، ولعل ذلك تابع "لخاصة المادة للتشنج " .

أما لفظ آطريلال فهو من لسان البربر ، وتبدأ الكلمة بلفظ آ وهو يدل على أداة التعريف عندهم (أعني تعريف المذكر) ووجود آ في أول الكلمة جعلها في أول حرف الألف ولولاها لتأخرت أطريلال وجاءت بعد الأثل مثلاً . إلا أن المؤلفين كثيراً ما يحذفونها وتبقى أطريلال مجردة عن آ المذكورة .

أما ماهية هذا النبات فقد ظلت موضوع اختلاف ، وقد ذكرنا أن دوزي فسرهما بـ Cerfeuil وليس غريباً أن يخطئ في هذا التفسير ولكن الغريب أن يجاريه في خطئه كثير من أصحاب المعجمات وفيهم فطاحل اللغويين .

ولعله استمد تفسيره للكلمة من قول ابن البيطار :

(ويمقد حباً على هيئة ما صغر من حب المقدونس) .

ولكن آخرين اعتمدوا على التشبيه الثاني إذ يقول :

(أو كبزر النبات الذي يعرف بمصر بالخلة) .

وقد أصابوا في تفسيرهم كما نرى فيما بعد .

والخلة عشب حولي مشهور في المطارة منذ القدم أنه مدرّ للبول ونافع للحصيات البولية ، وهو دواء شعبي اعتاد الناس شرب مغلي بزوره ويسمى بلفظة العلم : Ammi visnaga L. .

ويوجد نوع آخر من الخلة وهو عشب حولي يشبه الخلة العادية غير أنه أكثر ارتفاعاً وأوراقه أكبر وخيمته لا تنكمش عند يُبسها كما في النوع الأول . وهذا الذي ينطبق عليه وصف ابن البيطار لأطريلال .

ويدعى هذا النوع بالعربية (خلة شيطانية) وبلسان العلم :

Ammi majus L.

★ ★ ★

وفي المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية، أجريت في القطر العربي المصري بحوث واسعة وتجارب دقيقة على نوعي الخلة فتبين :

ان النوع الأول له تأثير مضاد للتشنج وينفع في الاصابة بالحصى والمفص الكلوي وفيه عدة عناصر فعالة منها مادة مبلرة سميت خلّين وقد اقتبست المعامل الأوربية هذا الاكتشاف ودعت المادة Khelline هذا وقد أصدر معمل ممفيس المصري عدة مستحضرات للمفص الكلوي والحصى الكلوية وخناق الصدر ، وهي معروفة لدى الأطباء (لينامين ، غلوكو لينامين ، اميكاردين) .

وان النوع الثاني ذو تأثير فعال في داء البهق وداء الثعلب بأشكاله المختلفة وقد ظهر في السوق الدوائية مستحضر ميلادينين Meladinine وهو مؤلف بنسبة معينة من عنصرين فعالين موجودين في الخلة الشيطانية .

* * *

في السنوات الأخيرة ، أخذ اطريلال يحتل مكانه بين الأدوية المضادة للسرطان واليك نبذة مما قرأته (٢) أخيراً للمهندس الزراعي محمد حراز مدير محلات عبدالرحمن حراز المشتهرة بتجهيز النباتات الطبية وتصديرها اذ يقول :

زار محلاتنا السنة الماضية الدكتور فتحي تارك أستاذ الأمراض الجلدية بمستشفى بوسطن العام بأميركا وذلك لدراسة امكانية الحصول على كميات من بزور الخلة الشيطانية المعروفة بأمي ماجس حيث انه اكتشف أن المادة الفعالة بها تشفى سرطان الجلد . وقد كانت تعرف هذه البذور باسم اطريلال في الطب القديم وكانت تستعمل في علاج البرص والأمراض الجلدية .

وهكذا فقد صح ما قاله الزبيدي في شرحه للمقاموس المحيط : وانما ذكرها لغرابتها ولما فيها من الخاصية المجيبة .

الدكتور مختار هاشم

٨٢/٢/٢٠

تَدْرِجُ الْمَعَايِنِ

صَاحِبُ الدِّينِ الزُّعْبَلَاوِيِّ

من النقاد من يتعلق بظاهر النص المدرج في المعاجم ، على اختصار وجمود ، وعلى قصد واجمال ، وفي غير بسط أو إحاطة أو استيعاب . والكشف عن دلالات الكلم مرهون بتبين أصول اشتقاقها واجتلاء مدارجها في المجاز والنقل ، وتمرّف مساريها في أداء أغراضها والتعبير عن قصودها ، واستشفاف قرائنها في متباين مواقعها في الاستعمال والتركيب .

فمن الخطأ أن يظن ظان أن معاجم اللغة وما اليها من أسفار النحو وحواشيها ، وكتب الصرف وشروحها ، هي عدة اللغوي وحدها ، وأن نقولها معول تحقيقه وغاية بحثه وحكمه دون سواها . والصحيح أن مراجع اللغوي ، الى ذلك ، كتب التفسير والأدب ودواوين الشمر وصحف الرسائل والرقاع ، ومصنفات القوم في التاريخ والأخبار والأسفار ، بل مؤلفاتهم في مختلف العلوم والصناعات ووضائعهم في الحكم والأمثال .

وقد دأب الأئمة الأوائل في كثير مما دونوه وألفوه على البحث عن أصل اللفظ ، لما تواضعوا عليه من أنه لا بد للكلم في كل مادة أن يشتق بمضاه من بعض فترد الى جنس من المعنى يعد أصلاً لما يشتق منها جميعاً . بل تابع بعضهم البحث في تدرج معناه وفي تقلبه وتنقله وتجدد دلالاته في مراحل حياته ، ولكنهم لم يستوفوه فيتخذوه منهجاً وسنناً .

وقد عني علم اللغة الحديث بهذا منذ القرن الماضي وأسمى العلماء أصول البحث فيه : علم معاني الأسماء Science de Sémantique واللفظ مستعار من اليونانية Sémantikos أي المعنى . ولعل أول رسالة ألّفت في ذلك رسالة العالم اللغوي الفرنسي (ميكال بريال : Michel Bréal عام ١٨٩٧ ، وعنوانها Essai de Sémantique و (بريال) هذا من العلماء المحققين في علم اللغة التاريخي ، وقد توفي ١٩١٥ م (١) .

يقول العالم الانكليزي (سكيت ولتروليم) المتوفى عام ١٩١٤ : (ينصح المؤلف بتحقيق طبيعة استعمال اللفظ في أول نشأته . ويُعَيّن في هذا التحقق ملاحظة النصوص المنقولة التي جرى اللفظ في أثنائها منذ نشأته الأولى) (٢) . ويقول الأستاذ عبدالرحمن الحاج صالح في مقاله الطريف (مدخل الى علم اللسان الحديث) (٣) : (اللسان لا يحدد مضمونه المادي والصوري الا على أساس المواقع التي تقع فيها وتتعاقب عليها عناصره ، اما في درج الكلام فيما يخص الوحدات الدالة ، واما في مدارج الجهاز الصوتي فيما يخص العناصر غير الدالة (٤) ، وذلك مثل مدلولات الألفاظ فانها لا تحدد الابسيقاتها ، لا بما تذكره المعاجم من معانيها ، لأن المعاجم تكتفي غالباً بذكر بعض المعاني بالاعتماد على بعض السياقات . وانما يكون المعجم هو الأساس في تحديدها اذا لم يرد اللفظ في أي نص الا في الذي يذكره هو وحده) ويرد (فبتلك المواقع التي يشاهدها اللغوي في الكلام المسموع يستطيع أن يعرف ، بالموضوعية المطلقة ، أنواع الأداء وتشعبات المعاني الجزئية . ثم بالنظر في كيفية تقابلها بعضها ببعض ، وتعاقبها على الموضع الواحد ، ودخول هذه على تلك ، يستطيع أيضاً أن يكشف عن وضعها ونظامها (٥) . فعلى الناقد اذا ألا يتلمس معاني الكلم في نصوص معاجمنا وما يتصل بها وحسب ، بل عليه أن يبتغيها في معالمها الأخرى ، ويتطلبها من مآتيها المتعددة . ويؤديه هذا الى البحث عن أوجه تصرف الكلم في متنوع النصوص المحكية ، وصور دلالاتها في سائر الموضوعات المطروحة ، كما يقتاده الى التماس وجوه التقلب التي تلتق بها وصور تجدد أغراضها ومراميها ، وانحرافها عن أصولها وتشعبها عن جذورها وذلك بتبدل الموضوعات والبيئات وتغير الأفكار والأحكام واختلاف المصور والأزمان .

والأصل في اللفظ أن تتباين شعاب معانيه فيكون له من تدرجه وتقلب دلالاته مجال بسيط ومذهب فسيح .

* * *

هذا والسبيل الى تدرج المعاني هو المجاز والنقل . والذي نريده ها هنا بالمجاز معناه اللغوي الشامل الذي أخذ به المبرد في كامله (٣٠١ / ٢) وابن جني في خصائصه (٤٤٦ / ٢) وابن رشيق في عمدته . وهو طريق القول وماخذه على حد تعبير ابن رشيق ، أي كل ما جرت به الأصل المناسبة في التركيب والاستعمال فاحتاج في اعادته اليه ، الى تأويل باظهار مواضع الحذف أو الزيادة أو التقديم أو التأخير أو غير ذلك . فهو لا يقتصر على استمارة أو مجاز كما فعل أصحاب البيان . فقد ذهب هؤلاء الى أن المجاز هو انتقال اللفظ من المعنى الذي وضع له الى المعنى الذي انتهى اليه بمناسبة أو علاقة تبنى على مجرد التشبيه كاستمارة أو غير التشبيه كسببية أو مجاورة كما هو المجاز المرسل أو تشبيه تمثيل كما هو المجاز المركب . ولم يتمدوا به هذا الحد الى ما يتناوله علم البيان وهو يشمل التشبيه والمجاز والكناية جميعاً ، أو ينطوي عليه البديع من وجوه تحسين الكلام .

قال المبرد : (من الآيات التي ربما يخلط في مجازها النحويون قوله تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، والشهر لا يغيب عنه أحد ، ومجاز الآية : فمن كان منكم شاهد بلده في الشهر فليصمه . والتقدير فمن كان شاهداً في شهر رمضان فليصمه . ونصب الشهر للظرف لا نصب المفعول) . كما حكاه الثعالبي في فقه اللغة (٥٤٦) . وأوضح المبرد كلامه فقال (أي أن نصب الشهر نصب الظروف لا نصب المفعول به) .

وقال ابن جني : (أبواب الحذف والزيادات والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف كلها من المجاز) .

ومهما يكن من أمر فانه اذا أريد باللفظ ما وضع له أصلاً ، في التقدير ، فانه الحقيقة ، واذا جازوا به موضعه الأول هذا في اللغة فأوقعوه موقفاً آخر بسبب يصل ما انتقل منه بما انتقل اليه ، فانه المجاز . فلا بد أن يكون ثمة سبب يصل المجاز بالحقيقة . وقد جاء في المزهري (٢١١ / ١) : (المجاز كل كلام تجوز به عن موضوعه

الأصلي الى غير موضوعه الأصلي لنوع مقارنة بينهما في الذات أو المعنى) .
 وقال الشريف الجرجاني في تعريفاته : (المجاز ما تعدى محله الموضوع له الى
 غيره بمناسبة بينهما ، اما من حيث الصورة أو من حيث المعنى اللازم
 المشهور ، أو من حيث القرب أو المجاورة) . ومن ثم كان لا بد لكل مجاز من
 حقيقة . قال صاحب الكليات (٥٠) : (الأصل أن يكون لكل مجاز حقيقة) .

هذا وليس يبعد أن يعتد المجاز بكثرة استعماله أصلاً فيتفرع عليه مجاز
 آخر ، لكنه لا يخرج عن كونه مجازاً . ولا بد هنا من وضوح العلاقة بينه وبين
 الأصل الأول على كل حال . قال الزمخشري في الأساس : (ومن مجاز المجاز
 تداعت ابل بني فلان هزلت أو هلكت) ، وأصله الأول (تداعى القوم لهم) اذا
 دعا بعضهم بعضاً فاجتمعوا لأمر مهم . وقد بُني على هذا قولهم (تداعت
 الحيطان للخراب) كان بعضها دعا بعضاً للسقوط والانهيار . ثم تفرع على هذا
 قولهم (تداعت عليه الحيطان) اذا تهدمت و (تداعى البنيان) اذا تصدع ، وتداعت
 الابل اذا هزلت أو هلكت . فليس ينكر ، على هذا ، أن يتفرع مجاز على مجاز ،
 بتعاقب الحقب والأجيال ، وأن يختلف القول بالأصلية والفرعية بتباين وجهات
 النظر والاعتبار .

★ ★ ★

هذا ويكون تدرج المعنى بالنقل ، وذلك بأن يغلب على لفظ معناه المجازي
 حتى يشتهر به ويُعرف بلا قرينة . وهوما أسماه أصحاب البيان المجاز الراجع ،
 فيدعى كسب اللفظ معناه الجديد هذانقلاً . ومن ذلك غلبة الألفاظ الإسلامية
 كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها ، على ما قصد بها شرعاً ، ومنه شهرة
 الألفاظ بمعانيها المستحدثة في موضوعات وعلوم وصناعات شتى ، كمصطلحات
 النحو والصرف والوضع والمعاني والبديع والبيان والمعرض والحكمة
 والمقائد والأصول ، ومصطلح الحديث والتفسير ، وسواها من مواضع الطبيعة
 والفلك والعلوم الرياضية . . قال الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي في كتابه
 (توجيه النظر الى أصول الأثر) : (الاصطلاح اتفاق القوم على استعمال
 لفظ في معنى غير المعنى الذي وضع له في أصل اللغة . وذلك كللفظ الواجب
 فانه في أصل اللغة بمعنى الثابت واللازم . وقد اصطلاح الفقهاء على وضعه لما

يثاب على فعله ويماقب على تركه ٠٠) ، ثم قال : (واللفظ اذا استعمل في المعنى الذي وضعه له المصطلحون يكون حقيقة بالنسبة اليهم ومجازاً بالنسبة الى غيرهم . قال في المفتاح : الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق . والحقيقة تنقسم عند العلماء الى لغوية وشرعية وعرفية ٠٠٠ فقلت لغوية ان كان صاحب وضعها واضح اللغة ، وقلت شرعية ان كان صاحب وضعها الشارع ، ومتى لم يتعين قلت عرفية . وهذا المأخذ يعرفك أن انقسام الحقيقة الى أكثر مما هي منقسمة اليه ، غير ممتنع في نفس الأمر) .

ويدخل في النقل ما وضع لمعنى خاص فاستعمل عاماً . وقد مثل صاحب المزهري لهذا ب (النجعة) فأصلها طلب الغيث ، ثم صار كل طلب انتجاعاً . و (المنبعة) وأصلها الناقة أو الشاة تغطي الرجل ليشرب لبنها ثم أصبحت كل عطية منبعة . ونقل المزهري (٢٥٣/١) قول ابن فارس في فقه اللغة (كان الأصمعي يقول أصل الورد اتيان الماء ، ثم صار اتيان كل شيء ورداً) . ونظيره (الصّدر) فإن أصله الانصراف عن الماء ثم أصبح كل انصراف صدرأ . قال صاحب المفردات (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً - الآية - والصدر في الحقيقة صدر عن الماء) . وقال الجوهري في الصحاح (وطريق صادر أي يصدر بأهله عن الماء) ثم قال (والصّدر بالتحريك الاسم من قولك صدرت عن الماء وعن البلاد) ، وأردف (وفي المثل تركته على مثل ليلة الصدر ، يعني حين يصدر الناس من حجهم) . فأورده خاصاً ثم عممه .

و (المجلة) وضعت لمعنى خاص فقبل أنها الصحيفة التي تكون فيها الحكيم ، كما قال الجرجاني في تعريفاته ، لكنها استعملت لكل كتاب . ففي الصحاح (والمجلة الصحيفة فيها الحكمة . قال أبو عبيد : كل كتاب عند العرب مجلة) .

ومما اجتهد فيه أحمد فارس الشدياق في كتابه سر الليال في القلب والابدال (٥٥١) قوله : (ألا ترى لفظة الدار مثلاً في الأصل من داريدور ، فحقيقة معناها الأصلي ربع مستدير ، ثم أطلق على كل شكل من البناء) ، وقوله (بل الأمر نفسه من هذا القبيل لأنه في الأصل ما يؤمر به ثم عمم ، وكذلك الشيء فإنه في الأصل مصدر شاء) .

ومن النقل أن يوضع اللفظ لمعنى عام ثم يخصص . وقد عرفوا التخصيص فقالوا انه قصر العام على بعض ما يتناوله ، كلفظ (الدابة) . قال الجوهري في الصحاح (دبّ على الأرض يدبّ ديبباً ، وكل ماشٍ على الأرض دابة .) فجاء بمعنى الدابة عاماً ، ثم قال (والدابة التي تُركب) فخصص . وقال صاحب المصباح : (وكل حيوان في الأرض دابة . . .) وهو قوله تعالى : والله خلق كل دابة من ماء . قالوا أي خلق الله كل حيوان مميّزاً كان أو غير مميّز) ثم قال : (وأما تخصيص الفرس والبغل ، عند الإطلاق ، فعرف طارئاً) .

ومما نقل من العام الى الخاص الصفات الغالبة ، وهي التي أفردت عن موصوفها فخصّت بدلالة وغلبت عليها الاسمية . ف (نكباء) في قولك (ريح نكباء) صفة لها عموم الدلالة لأنها جارية على الفعل فهي تصف (ريحاً) بأنها تتنكب . وهي لا تختص في الأصل بالريح . أما (النكباء) في قول المرزوقي في شرح الحماسة (٨٠٦) : (والنكباء ريح تنكب عن الرياح الأربع) فإنها صفة غالبية أفردت عن موصوفها وخصّت بنوع من الرياح ، فأنزلت لذلك منزلة الأسماء وجمعت جميعها على (نكباوات) . قال المرزوقي (وإذا كثرت النكباوات واشتد هبوبها شمل القحط) .

و (الخضراء) في الأصل صفة للبقلة ، لكنها استغنت عن موصوفها فخصّصت دلالتها فقليل (ليس في الخضراوات صدقة) أي في البقول ، فأنزلت منزلة أسماء الجنس . فالخضراء الصفة الغالبة تدل على البقلة دون النظر الى اللون ، وتجمع على الخضراوات لا على الخضّر .

و (الدكّاء) صفة (للأرض) اذا انبسطت ، ولكنها قُطعت عن موصوفها وخصّصت فعُدّت اسماً للرابية ، وجمعت جمع الأسماء على (دكاوات) .

و (الدنيا) في الأصل صفة (للحياة) أو (للدار) . ثم أفردت عن موصوفها فقليل (الدنيا) ، كما قيل (الأولى) ، وهما بمقابل (الآخرة) . قال تعالى (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة - النساء / ١٣٣) ، وقال (وللآخرة خير لك من الأولى - الضحى / ٤) وقال (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا . يوسف / ١٠٩) . فالدنيا اشتقاقها من (الأدنى) وهو الأقرب . قال الشيخ أبو حاتم الرازي في

كتابه الطريف (الزينة في الكلمات الاسلامية العربية ١٤٣/٢) : (أي أن هذه الحياة الآخرة هي الحياة الأخرى ، وكل شيء له طرفان فالأدنى منهما اليك الدنيا والأبعد هو الآخرة) . وقال صاحب المفردات (ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى) ، وقال (وقد توصف الدار بالآخرة تارة ، ويضاف إليها تارة أخرى ٠٠) . وقال الفراء في هذه الاضافة (هذا كثير في كلامهم أن يضيفوا الشيء الى نعمته اذا اختلف فيه اللفظان كقوله : ولدار الآخرة ، وكقوله حق اليقين) .

وذكر (الرائد) فيما كان عاماً فخصص . قال ابن الأثير في النهاية (وفي حديث علي - رضي الله عنه - في صفة الصعابة ، رضي الله عنهم : يدخلون رواداً ويخرجون أدلة ، أي يدخلون عليه طالبين العلم وملتجئين ما عنده ، ويخرجون أدلة للناس) . ثم قال : (وأصل الرائد الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلا ومساقط الغيث) . وقد اعتمد هذا الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتاب علم اللغة (٢٢٩) فقال : (والرائد في الأصل طالب الكلا ثم صار طالب كل حاجة رائداً) . وجرى على ذلك الأستاذ محمد المبارك عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، في كتابه (فقه اللغة) .

أقول ان هذا وان صح ، لا يمنع أن يكون لكل من (رائد الكلا) و (رائد القوم) دلالة خاصة كما هو شأن الصفة الغالبة . ويتبين ذلك اذا رُدّا الى معنى الفعل في الأصل ف (راد) على ما جاء في مفردات الراغب (تردد بطلب الشيء برفق) . فالرائد الصفة اذا المتردد لطلب الشيء برفق ، أما الرائد الصفة الغالبة التي أفردت عن موصوفها فان بها خصوصاً . فليس (رائد الكلا) أو (رائد القوم) الطالب للشيء بطلبه وحسب . وما أظن قول الدكتور عبد الواحد (ثم صار طالب كل حاجة رائداً) هو الوجه ، والا كان كل من احتاج فابتنى حاجته رائداً . بل ما اخال قول الأستاذ المبارك (ثم عمم لكل من يتقدم القوم بطلب شيء) قد أحاط بالدلالة المقصودة واستوفى ملاحظها . ذلك أن الرائد هو متقدم قومه الصادق الأمين فيما يطلب لهم وينشد ، ومن ثم قيل (الرائد لا يكذب أهله) . وجاء في حديث علي (يدخلون رواداً ويخرجون أدلة) وحديث عبد القيس (لكنا قوم رادة أي نرود الغير والدين لأهلنا) . وقد تفرع على هذا ما جاء في الحديث

(الحمى رائد الموت) • قال ابن الأثير (أي رسوله الذي يتقدمه كما يتقدم الرائد قومه) أقول بل هي رسوله الصادق الجاد في طلبه •

ومما يدخل في الصفات الغالبة : السائبة للناقة إذا تركت راغدة لا تهّاج ولا تمنع من ماء أو مرعى ، والراحلة للابل إذا صلحت للرحيل ، والسارية لكل ما دب بليل من الهوام ، وللمسحابة تمطر ليلاً ، والسابغة للدرع الواسعة ، والصاعقة للنار تسقط من السماء ، والجارية للسفينة والأمة • قال صاحب المصباح (والجارية السفينة سميت بذلك لجريها في البحر ، ومنه قيل للأمة جارية على التشبيه لجريها مستسخرة في أشغال مواليتها) • ولفظ (الدابة) الذي أتوا به مثلاً متمارفاً لانتقال العام إلى الخاص ، ليس إلا صفة غالبية ، وكذلك (الماشية) على أنها من مشت المرأة إذا كثر أولادها • ففي الأساس : (وناقة ماشية : ولادة ، ومنه الماشية والمواشي على التفاؤل) •

★ ★ ★

هذا ولا بد أن تأتي بأمثلة تكشف بها عن وجه اشتقاق الكلم بعضها من بعض ، وسبل تجدد معانيها وتدرّج دلالاتها بالمجاز وتحولها بالنقل من حال إلى حال • وقد يسلس الأمر ويستيسر فيبدو دائي القطوف قريب النجمة ، وقد يصعب وينبو فيبدو شديد المطلب وعث المبتغي فيلجئك أن تتلطف له وتتأني ، وتسلك إليه كل سبيل •

قالوا (لا أبالي) ومعناه لا أهتم ، فما هو أصل اشتقاقه ؟

قال جماعة المبالاة من البلاء بالفتح • والبلاء في الأصل الاختبار • قال المرزوقي في شرح الحماسة (٧١) : (فلان لا يبالي العواقب ، يقال ما باليته بالة وبالية ومبالاة وبلاء وما باليت به ، وكأنه أخذ من البلاء) • ونحو من ذلك في اللسان والتاج • ففي الأول والبلاء الاختبار ، وفي الثاني أصل الابدلاء الاختبار •

وليس بعيداً عن هذا قولهم (المبالاة) من (البلاء) وهو الهم كما حكاه صاحب المصباح عن أبي زيد ، وأوردوا البلاء مصدراً لبالي كما جاء في اللسان والتاج •

وعمل المرزوقي كيف انتهى (بألى) من معنى البلاء وهو الاختبار الى
 المفاخرة فكان الامتناع من مفاخرة القرن استهانة به واستخفافاً ، فقال (وقوله
 لا يبالي العواقب .. كانه أخذ من البلاء واستعمل في المفاخرة وتعداد الخصال
 الحسنة عند المنافرة ، ثم كثر استعماله حتى صار يقال في الاستهانة بالشيء) .
 واستشهد بقول الشاعر (مالي أراك قائماً تبالي) أي تفاخر . وقال في موضع
 آخر : (وقوله تبالي تفاعل من البلاء فإذا قال لا أباليه كانه أراد لا احتفل به
 فأعاده بلائي وبلاءه وأفخره ، هذا أصله) . أي أن تبادل الاختبار يقود الى
 المفاخرة والمنافرة ، فإذا أبيت أن تفاخر خصماً أو تنافره أو تكاثره فقد
 استخففت به .

وأحسب دون ما ذكرناه قول آخرين أن المبالاة من البال وهو الروح والخطر ،
 انتقل فيه حرف العلة بالقلب فكان وسطاً فأصبح طرفاً ، كما قال ابن فارس في
 مجمله والزمخشري في أساسه ، وقول جماعة أن أصله المبادرة الى الاستقاء
 فمعنى لا أبالي لا أبادر أهلاً له ، كما ارتأه ابن فارس في مجمله ، وقد انتهى
 الى رده الى (البال) في مقاييسه ، وذكره الفيومي في مصباحه .

ولعل قولهم (لا أباليه) متعدياً ، إنما يدل على أصله في التعدية لأنه
 مفاعلة من البلاء ، وهو الاختبار ، وقولهم (لا أبالي به) محمول على ما انتهى
 اليه من معنى ، وهو لا احتفل به ولا أعتد .

* * *

وتقول في معنى ما أباليه وما أبالي به ، ما اكثرث له . وقد جاء في اللغة
 كثرته وأكرثه وكثرته فاكترث . فسامعنا الأول ؟ أقول دلّ على ذلك
 الزمخشري فقال في الأساس : (كثرته الأمر اذا حركه ، وأراك لا تكثرث لذلك
 ولا تنوص : لا تتحرك له ولا تعبأ به ، وكثرته الكوارث أقلقته) . فالكثرث
 والاكراث والتككريث هو التحريك في الأصل . وكذلك الاقلاق والازعاج
 فحقيقتهما التحريك . فإذا كثرث الشيء فقد جعلك تضطرب حقيقة أو مجازاً ،
 ومن ثم قيل كثرته : ساءه ، كما حكاه اللسان .

وتأسيساً على ذلك كان أكثر في الأصل كتحرّك واضطرب ، وكاستاء واغتم
واهتم في المجاز . وعندى أن قولك (ما أكثر له) متمدياً باللام بني على
أصل معناه ، أي لا أتحرّك له ولا أقلق من أجله . ولكن هل يقال (ما أكثر
به) متمدياً بالباء ؟ أقول قد جاء ذلك نصاً ، وأرى أنه محمول على قولك
لا أغتم به ولا أهتم ولا أعنى ، وهو ما انتهى إليه معناه .

على أن من المعاجم ما خطأ قول القائل (ما أكثر به) كالتاج ، فقد جمل
صوابه (ما أكثر له) ونسب الخطأ في الأصل إلى الصحاح . وأخذ بهذا الأستاذ
محمد العدناني في معجم الأخطاء الشائعة . أقول لم يخطئ الجوهري حين قال
(ما أكثر به) ، فقد قاله الراغب في مفرداته وقد عايش صاحب الصحاح .
قال الراغب الأصبهاني (البال الحال التي يكثر بها ، ولذلك يقال ما باليت
بكذا بالة ، أي ما أكثرت به) . وقد قاله صاحب النهاية في موضعين وحكاه عنه
ابن منظور في غير مجال .



وقيل في نحو ما أكثر له (ما أبه له) . ففي المعاجم (أبه) بالكسر كفرح ،
(أبه) بالفتح كمنع ، وقد عدوا الأول باللام والباء فقالوا ما أبهت له وما أبهت
به ، وعدوا الثاني باللام دون الباء فقالوا ما أبهت له ، كما حكاه ابن القوطية
والجوهري وصاحب النهاية واللسان . فما أصل معناه ؟

يعتد ابن القوطية (أبه) مما جاء على فعل وفعل بمعنى واحد . ويجمل
معناه (تنبه) . فإذا استقر هذا فأبّه بالكسر والفتح تنبه له . وكذلك
ما جاء في الصحاح . ولما كان ما يتنبه له في الغالب هو الجليل ، فالذي لا يتنبه له
ولا يؤبه هو التافه الحقير . ومن ثم قيل فلان لا يؤبه له أي لا يلتفت إليه لحقارته .
وعلى ذلك ما جاء في النهاية . وقد عدّي الفعل بالباء لما انتهى إليه معناه ، في
السلب ، من الاستهانة .

ولكن لِمَ خصت التعمدية بالباء هذه بأبه المكسور العين في الماضي دون المفتوح ؟
أقول قد يكون ذلك لأن الغالب في اللّازم أن يكون ك (أبه يابّه) مثل تنبه ينبه

الذي هو بمعناه ، من باب فرح يفرح ، فهو الأصل . وقد اتسموا بتعديته بالباء كما اقتضاه الاستعمال لما آل اليه معناه من الاستهانة . أما (أبه يابه) من باب منع يمنع فلم يتجاوزوا به تعديته الأولى باللام ، فليس هو الأصل ، لأنه لا يكثر في اللزوم . ولا يُقطع في هذا بيقين على كل حال . على أنني رأيت الشدياق في (سر الليال) يسوي بين البابين في التعدية فيقول (وأبه له وبه كمنع وفرح أبها وتحرك ، فطن أو نسيه ثم فطن له) فهل وقف فيه على نص ؟

* * *

ويستعمل (التنزه) لترويح النفس بالخروج الى المكان النزه . أما أصل معناه فكما قال صاحب النهاية (نزه نزاهة وتنزه تنزهاً اذا بَعُدَ) . وقد منعه ابن السكيت على ما حكاه المصباح وجعله فيما تضيحه العامة في غير موضعه . وصححه ابن قتيبة فقال : (ذهب بعض أهل العلم في قول الناس خرجوا يتنزهون الى البساتين أنه غلط ، وهو عندي ليس بغلط . لأن البساتين في كل بلد انما تكون خارج البلد . فاذا أراد أحد أن يأتيها فقد أراد البعد عن المنازل والبيوت ، ثم كثر هذا حتى استعملت النزهة في الغضر والجنان) . وأكد الزمخشري هذا فقال في الأساس (خرجوا يتنزهون يطلبون الأماكن النزهة ، وهي النزهة والنزه مثل غرفة وغرف) . كما أيده علي بن حمزة البصري اللغوي في التنبيهات (٢٩٨) رداً على ابن السكيت فقال : (فلما كانت الروضة اذا بعدت عن الناس كان أحسن . . . وجب على المتنزه أن يقصدها ويعتمدها بنزهته . وهو لا يصل اليها حتى يبعد كل البعد عن الناس والمياه فقالوا لمن قصد ذلك تنزه فوافق قولهم الحق ووضعوه في موضعه ثم نقلوه الى من أراد مثل ذلك فيما هو على المياه وبقرها . .) .

* * *

ويقال (رشح فلان للرئاسة) اذا أهّل لها . قال الجوهري في الصحاح (والترشيح أن ترشح الأم ولدها باللبن القليل تجعله في فيه شيئاً بعد شيء الى أن يقوى على المص . وتقول فلان يرشح للوزارة أي يربى ويؤهل لها) . وقال المرزوقي في شرح الحماسة (٧٣/١) : (والترشيح أصله التنبيت والتربية .

ومنه قيل رشحت المرأة ولدها اذا درجته في اللبن . ثم قيل رشح فلان لكذا توسعاً .
ولا يخفى أن تنبيت الشجر غرسه ، ومنه تنبيت الصبي تربيته . ونحو من ذلك في
الأساس للزمخشري .

★ ★ ★

وقال صاحب المصباح في (تعالى) : (وتعالى تعالياً من الارتضاع أيضاً .
وتعالى فعل أمر من ذلك . وأصله أن الرجل العالي كان ينادي السافل فيقول :
تعال ، ثم كثر في كلامهم حتى استعمل بمعنى هلمّ مطلقاً ، سواء كان موضع
المدعو أعلى أو أسفل أو مساوياً ، فهو في الأصل لمعنى خاص ثم استعمل في معنى
عام) . وفي كتاب الفروق لاسماعيل حقي نحو من ذلك . وكذلك في شرح الحماسة
للمرزوقي (٥٦) .

★ ★ ★

وهكذا (عشر) فاصل معنى العثور أن تزلّ القدم بشيء كحفرة فيسقط
صاحبها ، ومثله (تعثر) . ومن ثم كان (العاثور) هو الحفرة ، ففي اللسان
(. .) ومن هذا يقال فلان وقع في عاثور شرّ اذا وقع في ورطة لم يحتسبها ولا
شعر بها ، وأصله الرجل يمشي في ظلمة الليل فيتعثّر بعاثور المسيل أو في خدخد
سيل المطر (. .) . وعلى هذا فانت تقول عشر فلان بعاثور أي بحفرة ، على
الأصل ، كما تقول عشر بعاثور شر أي مكيدة أو ورطة على المجاز .

وقد تدرج معنى العثور من الكبو والسقوط الى الخطأ في العمل والنطق ،
تقول عشر فلان أو عشر لسانه اذا تعثر . قال الزمخشري (ومن المجاز عشر في
كلامه وتعثر) .

وقد آل به التوسع فقليل عشر الحظ اذا خاب صاحبه ، وعشر جده اذا تمس ،
وأعشره الله أتمسه ، وفي الأساس (وعشر الزمان به وجدّ عثور وأعشر به عند
السلطان اذا قدح فيه وطلب توريطه وأن يقع في عاثور) .

بل قيل (عشر عليه) اذا اطلع . قال صاحب المقاييس (وقال بعض أهل العلم
انما قيل عشر من الاطلاع وذلك لأن كل عاثر لا بد أن ينظر الى موضع عثرته) .

وعندي أن الشمل قد عدّي على طريق التضمين . فكان قولك عثرت عليه . على تقدير عثرت به فاطلمت عليه . ثم شاع أمره . وفي المربية مالا يحصى من الأفعال تجاوزوا بها الأصل الى المجاز فعدّوها بحرف غير حرفها ، ثم شاع استعمالها بهذا الحرف وكأنه الأصل . وقد عقدت لذلك فصلا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد ٥٥ ، الجزء الأول ، عام ١٩٨٠) . فانت تقول مثلا (أنس به) . قال ابن القوطية (وأهلت بالشيء وأنست به) ونحو من ذلك في الصحاح وغيره من المظان . لكنهم عدوا الفعل بـ (الى) فقالوا (أنست اليه) كما قالوا (استأنست اليه) ، ذكره الزمخشري في أساسه . وكان من حقه أن يفرده فيسلكه في المجاز كما فعل في (سكن اليه واطمأن اليه وركن اليه وانبسط اليه) لكنه لم يفعل ، اذ قال : (وأنست به واستأنست به وأنست اليه واستأنست اليه) . ولعل عذره هو اشتهاه تمديته بـ (الى) . وقل مثل ذلك في (استأنس له وتأنس) فلم يلحقه بالمجاز واكتفى بأن قال (واستأنس له وتأنس : تسمّع) وقد يكون تسمّع به أيضا وكثيرا ما قرن المجاز بالحقيقة متى اشتهر وشاع . وعندى أن (أنس اليه) على تضمين الفعل معنى (مبال) أو نحوه .

مرآة تحقيق قاموس علوم اسلامی

وانظر الى تدرج معنى (تفقد) ، فقد جاء في معجم الأخطاء الشائعة للأستاذ محمد العدناني أن قول القائل (تفقد مزرعته) خطأ . . ، صوابه (زارها ودرس أحوالها) لأن تفقد معناه (طلب الشيء عند الغيبة) . ثم استدرك فأدرك ما أتى به المعجم الوسيط (تفقد أحوال القوم ودقق النظر فيها ليعرفها حق المعرفة) ، وقال (وأنا أؤيده على أن يفوز بموافقة المجمع) ! أقول اذا كان أصل (التفقد) تطلب الشيء عند الفقد ، فقد تجاوز الفعل هذا المعنى الى تتبع الشيء وتمرّف أحواله ، ثم تعدى هذا الى متابعة النظر في كل ما يستقيم به حال الشيء أو الشخص الذي تتفقد . فقد جاء في مفردات الراغب (التفقد التمهّد ، ولكن حقيقة التفقد تمرّف فقدان الشيء) ، وهذا يعني أن أصل التفقد تمرّف فقدان لكنه آل بالمجاز الى التمهّد أو الى ما انتهى اليه التمهّد . فني المصباح (وتمهّدت الشيء ترددت اليه وأصلحته ، وحقيقته تجديد المهد به ، وتمهّده حفظته) .

وقد جاء في نهج البلاغة (ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهم - ١٠٢/٣) و (تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله - ١٠٦/٣) ، وقول ابن قتيبة في أدب الكاتب (فان رايت الكتاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم ٥٠) ، وقول أبي حيان في البحر (٦٤/١٠) : في قوله تفقد الطير - أي قوله تعالى : وتفقد الطير - النمل / ٢٠ - دلالة على تفقد الامام أحوال رعيته والمحافظة عليهم) .

وهكذا صح (التفقد) في التعبير عن الرعاية والتربية والعناية والبر . قال المرزوقي (لم أزل أجري في تربيته وتفقدته الى أن استكمل شبابه / ٧٥٧) وقال (لحسن توفره وجميل تفقدته لأصحابه / ٩٢٣) ، وقال (واستصلاح الرعية وتفقد مصالحهم / ١٠٩١) .

بل نحوا بالتفقد فنحوا به الانقسام والافضال وكانهم ضمنوه هذا المعنى . قال المرزوقي (بل قد وصى بها وبأمثالها فيُتفقدن بأوفر الأنصاء عند قسمة الجذور / ١٠٥٠) . وقال أبو حيان التوحيدي في (أخلاق الوزراء / ٣٣٦) : (فان كان قد كتب بخطه : يُتفقد فلان بكذا أو يسأل عن فلان لينظر في مصلحته) .

فأين هذا كله من قول المدائني (التفقد طلب الشيء عند الغيبة) ولزومه هذا المعنى ، وتعلقه بظاهر النص المدرج في المعاجم على قصد واجمال ، بل سكونه اليه لا يبرحه ولا يتحول عنه . وقد استبان بهذا أن قول الكتاب (تفقد مزرعته) بمعنى تمهدها ورعاها وتوفر عليها ، صحيح مستقيم ، غني عن أن يجيزه مجمع لغوي أو يقر صحته . وقد قالوا قديماً (فلان يتمهد ضيعته) المعنى ١١٣/٢ .

فيتضح بما قدمنا وفصلنا القول فيه أن لا وجه لجمود المعنى في اللفظ كما يبدو ذلك حيناً في كثير من المعاجم العربية ، وأن اعتماد كثير من المحدثين على ظاهر النص والتمويل عليه في التخلط والتصويب مخالف لأصول ارتقاء اللغة وسنن تحول معانيها وطرائق تميرها بتحول المصور والأجيال . ولو كانت تؤلف في العربية معاجم حديثة على مثال ما يؤلف في اللغات الحية الأخرى ، دقة واحكاماً

واستقصاء لأنست بالتجدد والتدرج والتوالد في معاني الكلم ، ولمست بمعارضة النصوص المحكية بعضها ببعض ترجمة لحياة كل كلمة تظهرك على قصة حالها وتقفك على مسالك تحولها ودروب تنقلها والتدرج بها حالا بعد حال . وأنت لو لم تطف بمراحل القلب جفاعليك وجه الاعتداد به البتة . يقول العالم النفسي السوفييتي ل. س. فيجوتسكي المتوفى عام ١٩٣٤ ، انه لا سبيل الى احتساب معنى الكلمة أمراً ثابتاً ، بل لا بد من تصوره في نمو مطرد وتحول مستمر دائم^(٥) . والبحث في تاريخ معاني الكلم وأصول اشتقاقها موضوع شائق له في اللغات الحية الأخرى شأن أي شأن . وأحوج ما يكون اليه المشتغلون بتاريخ الأدب وفقه اللغات . وليست معالجة هذه المسألة في العربية وتدارك ما فات من أمرها بعدما كان من الاغفال ، على شيء من اليسر والسهولة . ولا ننس ما انتحاه المستشرق الأستاذ فيشر وقد أمضى أكثر عمره (بين سنة ١٩٠٧ و ١٩٥٠ م) في اعداد معجم تاريخي للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، أي حتى منتهى ما وصلت اليه اللغة الفصحى من الكمال كما يقول ، فلم يخلّف بعد جهد جاهد ونصب ناصب وطول عناء ، غير جذاذات لهذا الذي بذل الطوق في اعداده . ولا بد أن تضطلع المجامع اللغوية باستتمامه واستفراغ الوسع في اصداره فلا تدخر دون ذلك سعيًا . ولكن هل يممّ أمتنا قديماً مثل هذا السمت من البحث وحاولوا ارتياده والجري على منهاجه ؟ أقول لا شك أن كتاب (الزينة) قد استن بهذه السنة ونهج هذا السبيل فان به لونا طريفا من ألوان البحث اللغوي التاريخي . فقد وضع الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفى ٣٢٢ هـ كتاباً جامعاً في أوائل القرن الرابع الهجري كان أول مرجع يستفتى في الأسماء العربية التي نطق بها القرآن الكريم فكانت من مصطلحات الاسلام ، كما أشار اليه الدكتور حسين الهمداني في مقدمة الكتاب . وقد حاول مؤلف الكتاب أن يجمع بين ألفاظ عربية شتى تفرقت مدلولاتها ومعانيها في العصر الاسلامي عما كانت عليه في العصر الجاهلي ، ففات أقرانه في وضع اللبنة الأولى في علم معاني الأسماء العربية والمصطلحات الاسلامية وكان رائداً متأنقاً في هذا المضمار بل اماماً بارعاً في هذا الركن : Arabic Islamic Sémantics .

فانظر الى ما ذكره الرازي مثلاً في (الاثم ٢٢٥) ، فقد أتى بأصل معناه

فقال (قال أبو سميذ سمي الاثم اثمًا لأن الاثم يُبطلُء عن طاعة ربه ، ويقال اِثِمَ اذا أبطأ والاثم المبطلُء . ويقال اِثْمَتِ النافاة اذا أبطأت) . ثم تحول الى ما تدرج اليه معناه فقال : (فالاثم ضد الأجر يقال فلان ماثوم وفلان مأجور ، لأن المأجور يسمى في الطاعة . . وذلك الثواب هو أجر له بعمله . والاثم لم يعمل وأبطأ عن الطاعة فلا أجر له فهو اِثْم أي مبطلُء عن الطاعة) . فحاول الربط بين الأصل والمجاز . ثم تابع البحث عن تدرج آخر فذكر أن الاثم ضد البر ، وأتى بالحديث (البر ما سكنت اليه القلوب واطمأنت اليه النفوس ، والاثم ما حك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه) وهكذا . .

وقد ذهب الأستاذ عبدالمعز الميسني الى أن المفضل بن سلمة المتوفى ٢٩١ هـ قد ضرب على هذا القالب في كتابه (الفاخر) ، وكذلك فعل أبو بكر بن الأنباري المتوفى (٣٢٨ هـ) في كتابه (الزاهر) . أقول أما كتاب الفاخر فان مضامينه تدور كما ذكر مؤلفه في مقدمة الكتاب حول (معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك) . وأردف المؤلف يقول (فبينما من وجود اختلاف العلماء في تفسيره ليكون من نظر في هذا الكلام عالماً بما يجري من لفظه ويدور في كلامه) . وقد عمد صاحب الفاخر في تحقيق ذلك الى حكاية ما روي من أحداث دفعت الى النطق بالأمثال مما كانت تطوع به السنة الناس في محاوراتهم ومخاطباتهم ، وذكر أول من نطق بها ، وبحث في اشتقاق ما جاء بها من ألفاظ ورددها الى أصلها وفصل القول في معانيها . وقد أفاد أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري في كتابه (الزاهر) من كتاب الفاخر هذا وبسط ما جاء فيه وكثره بالشواهد كما قال مختصر الكتاب أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي . قال الزجاجي (وكان المفضل بن سلمة صاحب الفراء قد أنشأ كتاباً في هذا المعنى سماه . . . فعمد أبو بكر محمد بن القاسم لذلك الكتاب فنقله نقلاً . . . وبسطه وكثره بالشواهد) . ولا يزال كتاب (الزاهر) مخطوطاً لم يطبع .

هذا وليس كتاب الفاخر والزاهر ولو أفادا في اصابة الغرض الذي ابتغيناه ككتاب الزينة في تحقيق النهج اللغوي التاريخي والجري على أسلوبه .

يقول الدكتور داود حلمي السيد في كتابه (المعجم الانكليزي بين الماضي والحاضر) : (فليس بـخـاف أن معجمي العربية المحدثين تشدهم تجربة ضاربة في أعماق التاريخ وتفيد حركتهم تقاليد معجمية راسخة تجعلهم دائماً يتلفتون الى الوراء حين يقررون أي المناهج يتبعون كلما شرعوا في وضع معجم حديث للغة العربية ، أهو المنهج التقليدي برمته ، أم المنهج الغربي الحديث برمته . أم يأخذون من هذا وذاك ما يتفق مع طبيعة اللغة العربية) . وقال : (ولم أجد أمامي الا المعاجم العربية القديمة التي مضى على أحدثها أكثر من قرن ونصف من الزمان ، أو بعض المحاولات المعجمية الحديثة التي لا ترقى الى المستوى الذي يجب أن تكون عليه معاجم اللغة العربية في العالم المعاصر ، والتي سنعرض لها . .) ثم عرّف المعجم الحديث فقال : (فالمعجم بالدرجة الأولى كتاب كلمات . فهو يحتوي بين غلافه على مفردات اللغة مصحوبة بمعلومات عن اتيومولوجيتها - أي أصول اشتقاقها الأولى - ومعانيها ومدلولاتها واستعمالاتها) . أقول لا شك أن الطريقة النشوئية في القرن التاسع عشر قد أدت الى ازدهار المباحث اللغوية التاريخية ، وإلى وضع معاجم تكشف عن أصول الكلم وتدرج معانيها ، وتأكيد اعتقاد أن الظاهرة اللغوية - لا تتسم بسمة الوضوح أو الجلاء الذي يراد لها ما لم تدرج في سياقها التاريخي^(٦) . وقد ألف (سكيت ولتر وليم) العالم الانكليزي المتوفى عام ١٩١٢ معجمه الشهير الذي عول فيه على اللون التاريخي من التسجيل اللغوي ، فذكر أصول الكلم وألقى الضوء على هذه الأصول بالرجوع الى جملة من النصوص التاريخية التي عرضت بها هذه الكلم ليظهر القارئ على أصولها الصحيحة ودلالاتها الأولى ، وتدرج هذه الدلالات من عصر الى عصر ، كما أشار اليه الدكتور السيد الخلوي ، وقد أومأنا اليه في موضع آخر .

ولكن اذا كان قد أدى اشتغال علماء اللغة الفرنسيين مثلاً الى تأليف معاجم في تاريخ الكلم وأصولها وتسنى ذلك بالعودة الى الأصول التي تحدت منها لغتهم يونانية كانت أو لاتينية أو غيرها وتلك ، فليس كذلك حال العربية التي لا يصح ردها الى ما أسموه باللغة السامية الأولى التي تصوروا أنها أم اللغات السامية ، كما كانت اللاتينية مثلاً أمّاً للفرنسية والاطالية والاسبانية ،

اذ لم يقف البحث العلمي التاريخي على لغة من هذا القبيل ، وانما يعمول على الأصول العربية وحدها . ولكن اليس يصح في العربية الاستعانة في تقرير أصول الكلم وتاريخها حيناً ، والكشف عن ظلال معانيها بالعودة الى بعض اللغات السامية ؟

يقول الدكتور داود الحلبي في كتابه (الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية) المطبوع عام ١٩٣٥ : (ان تمييز الكلمات الآرامية من الكلمات العربية صعب جداً . وما سبب هذه الصعوبة الا كون اللغتين شقيقتين ، أي فرعين من اللغة السامية الأم . حتى ان نحو أربعة أخماس الكلمات الآرامية تشترك والعربية اما حرفاً أو باختلاف يسير في التلفظ أو بتبديل بعض الحروف .) وقال : (على أنني وجدت بعض كلمات مشتركة معانيها ، واضحة كل الوضوح في المعاجم الآرامية ، ولكنها في المعاجم العربية مضطربة لم يبت لفويو العرب فيها وذهب كل منهم فيها مذهباً . حتى ان بعضهم أتى في صدد ايضاح أصلها بتأويلات غريبة .) ثم قال (ولو كان للفويين العرب القدماء وقوف على الآرامية لما وقموا في حيص بيص عند بيان معاني أمثال هذه الكلمات . اذ لا يشك في أن معرفة الآرامية وغيرها من اللغات السامية يكون واسطة لحل مشاكل لغوية كثيرة في العربية ، كما أن معرفة اللغة العربية تحل مشاكل أخواتها اللغات السامية) .

أقول ذلك ما بحثه الدكتور محمد حسني قنطر في مقاله حول المربية واللغات السامية (من دراسات الملتقى الرابع لابن منظور في قفصة ، في آب ١٩٧٦) . قال الدكتور قنطر : (انه من واجب الباحث عن كنه الكلمة المربية وعن تاريخها شكلاً ومضموناً ، أي عن التطور الذي اعتراها من حيث هي ظرف ومظروف أن يتجه الى أخوات اللغة العربية ويستنطقها بالدرس والمقابلة والمقارنة عله يدرك الغاية ويجد حل المشكلة ويتمكن من الاجابة عن الأسئلة التي قد تثيرها الكلمة لديه) . وقال : (فاذا عُدت للمبرية مثلاً لفهم كلمة عربية وتمرّف حالها تاريخاً واشتقاقاً ، فذلك لا يعني أن اللفظة المربية تولدت من لفظة عبرية ، بل حدثت المبرية فمرّت فك بالمربية والعكس بالعكس) .

وقد أتى الدكتور قنطر بأمثلة فأخذ على معجم اللسان أنه لم يوضح مثلاً معنى (لأك) الذي اشتق منه لفظ (الملك والملائكة) فقال ولعل الباحث لا يوفق إلى المعنى للمادة، وهو معنى الرسالة. فأك يعني أرسل، والملك بالفتح المرسل). وأردف: (فالعودة إلى اللغات السامية القديمة التي عرفت هذه المادة تيسر إدراك الحقيقة اللغوية).

أقول إن معجم اللسان قد أشار إلى معنى المادة، ولو أن التمويل على معجم عربي واحد في القطع بحرف ومعناه وأصل اشتقاقه ليس بالوجه. فقد جاء في اللسان (فالملك من الملائكة واحد وجمع. قال الكسائي أصله مالك بتقديم الهمزة من الألوك وهي الرسالة) وفي اللسان أيضاً (قال ابن بري ملك مقلوب من مالك، ومالك وزنه مفل في الأصل من الألوك. قال وحقه أن يذكر في فصل أك، لا فصل ملك). فابن بري وسواه قد جعلوا الأصل (أك) ثم قلب فأصبح (لأك)، فما الذي قالته المعاجم في (أك). قال الجوهري (الألوك الرسالة). وكذلك المالك والمالكة بضم الميم فيهما). وقال ابن القوطية (والك بين القوم الكا والوكا ترسل والألوك الرسالة منه، والملائكة أيضاً). وقال ابن دريد في الاشتقاق (ومنه قولهم الكني إلى فلان أي كن رسولي إليه). بل في اللسان أك بمعنى ترسل. أفليس في هذا ما يجزي لايضاح معنى الفعل واشتقاقه؟ وقد تصرف العرب في (أك) فقالوا (استأك). فانظر ما جاء في الأساس (الكني إلى فلان واحمل إليه الوكي ومالكني وهي الرسالة. قال: الكني إليها عمرك الله يا فتى: بأية ما جاءت إلينا تهادياً. ومن يستأك لي إليه أي من يحمل رسالتي. وجاء فلان فاستأك الوكته). أفليس هذا واضحاً جلياً. ومن الطريف أن يكون قائل هذا البيت سحياً وهو عبد بني الحساس، وهو حبشي اشتراه أبو سعيد فشبب بابنته عميرة. وقد نسب لفظ (أك) فيما نسب إلى الحبشية.

هذا ولا يخفى أن في المظان اللغوية العربية أن (الملائكة) من (أك بين القول)، وأن أصل المادة عبري أو سرياني أو حبشي. وليس يعني هذا بالطبع أن ثمة تبعية لغوية بين سامية وأخرى. بل ليس في لغات الأسرة لغات أمهات وأخرى بنات كما يقول الأستاذ (فندريس) في كتابه (اللغة) (٧). ولا يمنع هذا أن

يكون بين الألفاظ السامية المشتركة ما هو أعلق بلغة، منه بلغة أخرى . ولا يُستطع بهذا حتى يوقف على اشتقاق الكلمة . فقد تكون في لغة أظهر وأبرز منها في لغة أخرى أي أكثر تصرفاً . أو تكون واضحة الأصل في أحداها فريدة غريبة يتيمة في سواها . أو تكون الكلمة في المعنى الشائع للنزعة التي جاءت بها في لغة ولا تكون كذلك في غيرها وهكذا . .

وقد عني الأناب أنستاس ماري الكرمللي ببرد بعض الألفاظ العربية إلى السامية والاستعانة بالأصول السامية في استبانة معانيها وفك مشكلاتها وإظهار مكنونها على نحو ما فعل في مجلة الثقافة القاهرية ، وسواها .

هذا ما وددت الكشف عنه والتمثيل له في سبل تدرج المعاني في الكلم العربية وما تشعب عن ذلك من وجوه الرأي . وأرجو أن أكون قد وفقت إلى إيضاح المنهاج وجسلاء الغامض والافصاح عن المضمون فيما حاولت تحريره من المسائل في هذا القصد .

صلاح الدين الزعبلاني

دمشق ١٩٨٢/٢/١٠



مركز تحقيق ودراسات إسلامية

الحواشي :

- ١ - الدكتور حسين الهمداني في (مقدمة كتاب الزينة للشيخ أبي حاتم الرازي) والدكتور بدر الدين القاسم في ترجمة (تاريخ علم اللغة لجورج مونين) .
- ٢ - سكيت واتجاهاته في اللسانيات للدكتور شكري السيد الخلاوي في (مجلة اللسانيات لعمد العلوم اللسانية والصوتية بجامعة الجزائر) ، العدد الرابع ١٩٧٤/٧٣ .
- ٣ - المصدر السابق .
- ٤ - في علم اللغة الحديث تقسم البنية اللغوية إلى وحدات لغوية دالة ، وأخرى غير دالة . ويقصد بغير الدالة حروف المباني أي حروف الهجاء ، وهي أصغر صيغة معتادة ، ويدعونها بالفونام . ويقصد بالدالة أصغر وحدة لغوية ذات معنى كالاسماء والأفعال وحروف المعاني ويدعونها بالمورفام ، فالفونام أصغر وحدة للأصوات والمورفام أصغر وحدة للمعاني . وقد ميز العالم البولوني يودوان كورتناي المتوفى عام ١٩٢٩ ، بين مفهوم الصوت اللغوي وبين الفونام الذي

هو وحدة لغوية أساسية . ذلك ان الفونام لا يتضمن أصواتاً لغوية وإنما يتألف من صور صوتية هي وحدات لفظية لا مادية . ومن ثم لم يزل مودلاني بين العلم الصوتي الفيزيائي . وهو علم الصوت للسمع ، وعلم الصوت النفسي الذي سيندو بارتقائه وتقدمه علم الأصوات الشفهية . ولكن ما حد الكلمة عند النحاة وحد الفونام في علم اللغة الحديث ؟

قال الإمام جلال الدين السيوطي في الهمع : (ولقد اختلفت عباراتهم في حد الكلمة اصطلاحاً . واحسن حدودها : القول المفرد المستقل أو المروي معه - كالصغير المستكن وجوباً . فخرج بتصدير الحد بالقول غير ذلك من الدوال كالاشارة والخط . وبالمفرد ، وهو ما يدل جزؤه على جزء معناه ، المركب ككلام زيد فهما كلمتان . وبالمستقل أبعاض الكلمات الدالة على معنى كحروف المضارعة وياء النسب وتاء التانيث وألف ضارب ، فليست كلمات لعدم استقلالها) .

فتبين بهذا أن ما يدخل في حد الفونام من حروف المضارعة وياء النسب وتاء التانيث وغيرها مما سمي أبعاض الكلمة لا يدخل في حد الكلمة ، على ما اختاره السيوطي ، لأنه ليس مستقلاً . على أنه استدرك فقال (ومن أسقط هذا القيد ، قيد استقلال اللفظ ، رأى ما جنح إليه الرضي ، من أنها مع ما هي فيه كلمتان .) . وهكذا أشبه حد الفونام في علم اللغة الحديث حد الكلمة عند الرضي ، وبدا هذا العلم مؤيداً لما جاء به بعض النحاة في إبراز البنية اللغوية . قال الرضي في شرح الكافية : (ان قيل أن في قولك مسلمان ومسلمون وبصري وجميع الأفعال المضارعة جزء لفظ كل واحد منها يدل على جزء معناه ، إذ الواو تدل على الجمعية والألف على التثنية ، والياء على النسبة ، وحروف المضارعة على معنى في المضارع ، وعلى حال الفاعل أيضاً ، وكذا كاد التانيث في قائمة ، والتنوين ولام التعريف وألف التانيث ، فيجب أن يكون لفظ كل واحد منها مركباً ، وكذا المعنى ، فلا يكون كلمة بل كلمتين ، فالجواب أن جميع ما ذكر كلمتان صارتا من شدة الامتزاج ككلمة واحدة ، فأعرب المركب أعراب الكلمة .) .

وانت ترى أن الحكم في ذلك اعتباطي . ولكن ليس فيما ذهب إليه الرضي من إبراز البنية اللغوية لللفظ جلاء لشأن هذه الدوال في تأليف هذه البنية وتحديد معناها ؟ والرضي مع ذلك لم يفرج في تصويره لحد الكلمة ورسم لطاقها عن حدود الأوائل في تعريف الكلمة والاقتباس بها . فإذا كانت هذه الدوال قد دلت على ما دلت عليه من المعاني ، فكيف تعتمد من حروف المباني أي حروف الهجاء كما فعل الأخسرون ، وحروف الهجاء لا تعني أصراً الأصوات لا تختلف إلا باختلاف مقاطعها ؟ ألم يقل سيبويه في فائحة الكتاب (فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل) ، والدوال المذكورة حروف جاءت ؟ مان ، وليست هي بأسماء ولا أفعال ، فهي على هذا الحد ، كلم ، كما ذهب إليه الرضي وغيره .

٥ - التفكير واللغة لفيجوتسكي ترجمة الدكتور طلحة منصور المعرفة ١٧٨ لعام ١٩٧٦ .

٦ - البنية والطلاقة لأطون شاهين - المعرفة ١٣٦ لعام ١٩٧١ .

٧ - ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي والأستاذ محمد القصاص .

★ ★ ★

الخصائص البنيوية

الدكتور جعفر دك الباب

للفعل
والاسم

في

العربية

ذكرت في مقالة « اعجاز القرآن وترجمته » (١) أن البلاغة عند الامام الجرجاني لا ترتبط بالكلمة المفردة دون اعتبار موقعها في النظم ، وان النظم عنده يتم وفق قوانين النحو . ويعني ذلك انه لايجوز فصل النحو عن البلاغة . وقررت في ضوء ذلك أن عنوان كتاب الجرجاني (دلائل الاعجاز في علم المعاني) يفيد أن (دلائل الاعجاز تكون في معرفة ارتباط معنى الكلام بالموقف او الحال الذي يقال فيه ، وبالسباق الكلامي الفعلي الذي يدخل فيه) . واكتت أن فصل البلاغة عن النحو ينمكس سلبيا على فهم خصائص بنية العربية ، ويؤدي بالتالي الى القول بان القرآن الكريم معجز فقط في بعض مواضعه .

انتقل الآن الى بيان خصائص بنية العربية . وانطلق في دراسة البنية اللغوية من نظرية الامام الجرجاني اللغوية التي بلورتها في كتابي « الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني » (٢) . تقضي نظرية الجرجاني اللغوية بتمييز مستويين في بنية الجملة :

١ - مستوى البنية النحوية (الساكنة) للجملة الذي يرتبط بالسياق الكلامي الفعلي الذي تدخل الجملة فيه . تتم دراسة هذا المستوى في علم النحو وتمكن من معرفة الارتباط النحوية بين الكلم .

٢ - مستوى البنية الاخبارية (المتغيرة) للجملة الذي يرتبط بالموقف أو الحال الذي يقال الكلام فيه . تتم دراسة هذا المستوى في علم المعاني (أحد علوم البلاغة) وتمكن من معرفة ارتباط معنى الكلام بالموقف الذي يقال فيه .

وساقصر في هذه المقالة على بيان خصائص بنية الفعل والاسم في العربية الناجمة عن اشتغال النظام اللغوي للعربية على طريقة اندماج (أو اتصال) الكلمات . وانطلاقاً من خصائص الفعل والاسم في العربية ، سأعتمد في مقالة تالية - الى عرض نظرية جديدة الى النحو العربي تبين كيف ترتبط البنية النحوية للجملة ببنيتها الاخبارية .

لدى مقارنة نظرية أقسام الكلم في علم اللغة العربية بنظرية أقسام الكلم في علم اللغة الأوربي (المتبعة مثلاً في دراسة اللغتين الانكليزية والفرنسية) ، يتضح أن الكلمات يمكن أن تقسم الى مجموعتين كبيرتين :

١ - كلمات مستقلة بالفهم (Autosemantic words) ويقابلها في العربية الاسم والفعل .

٢ - كلمات غير مستقلة بالفهم (Syntactic words) ويقابلها في العربية الحرف .

ولكن النظام اللغوي للعربية يتميز بوجود طريقة اندماج أو اتصال الكلمات (Incorporation) التي تتجلى في الضمائر المتصلة . والاندماج هو اتصال الكلمات بعضها ببعض في لفظة واحدة توحدما . ويكون أماناً بنتيجة الاندماج تركيب نحوي متحد في وحدة متصلة تبدو في الظاهر وكأنها كلمة واحدة ، كما في (ضرباه) و (كتابك) .

ترتبط وظيفة الضمائر بعملية الكلام التي تتم بين المتكلم والمخاطب . فهناك ضمائر خاصة بالمتكلم (الشخص الأول) ، وضمائر خاصة بالمخاطب (الشخص الثاني) ، وضمائر خاصة بغير المتكلم وبغير المخاطب (الشخص الثالث الذي قد يكون شخصاً أو شيئاً ، وسميئاً ضمير الشخص الثالث تجاوزاً) . ويرتبط بوجود طريقة اندماج الكلمات أن كلام من الفعل والاسم في العربية يتمتع بجملة خصائص بنيوية مميزة .

أولاً - الخصائص البنيوية للفعل العربي .

يتبين الفعل في العربية بأنه يكون دائماً في صيغة شخصية مصرفة (Finite form of the verb) أي في صيغة مسندة حتماً الى مسند إليه . وهذا

تكون صيغة الفعل العربي غير مستقلة بالفهم عن الاسم الذي يجب أن تسند إليه سواء أكان ضميراً (بارزاً متصلاً أو مستتراً) أم اسماً ظاهراً .

إذا لم يلحق (يتصل) بأخر صيغة الفعل العربي ضمير رفع متصل بارز (ضمير المسند إليه) ، فإن السياق الكلامي يحدد هل يتصل أو لا يتصل بصيغة الفعل ضمير مستكن (مستتر) وجوباً أو جوازاً . ويرتبط ذلك بنوع اسناد الفعل (إلى المتكلم أو المخاطب أو غيرهما) من ناحية ، ومن ناحية أخرى بموقع صيغة الفعل في سياق الكلام (في بداية السياق أو ليس في بدايته) . وتبعاً لذلك يمكننا أن نميز نوعين لاستخدام الفعل العربي :

١ - استخدام مطلق للفعل حين يكون مع صيغة الفعل ضمير رفع بارز أو مستتر ، مثلاً (قرأت) و (نقرأ) .

٢ - استخدام غير مطلق للفعل حين لا يكون مع صيغة الفعل ضمير رفع بارز أو مستتر ، مثلاً (قرأ) في بداية سياق كلامي .

لجميع صيغ الفعل في العربية - باستثناء صيغة الشخص الثالث المفرد - استخدام مطلق . أما صيغة الفعل للشخص الثالث المفرد ، فيمكن أن يكون لها استخدام مطلق أو غير مطلق تبعاً لسياق الكلام .

أ - حين لا تكون صيغة الفعل في بداية السياق ، أي حين يكون قد ذكر قبلها اسم ظاهر . يمكن في هذه الحالة تحديد المسند إليه من سياق الكلام السابق . وتكون صيغة الفعل تلك مستخدمة استخداماً مطلقاً .

ب - وحين تكون صيغة الفعل في بداية السياق ، أي حين لا يكون قد ذكر قبلها اسم ظاهر . لا يمكن في هذه الحالة تحديد المسند إليه . وتكون صيغة الفعل تلك مستخدمة استخداماً غير مطلق ، ويكون المسند إليه بالضرورة اسماً ظاهراً مرفوعاً يلي الفعل .

إذا حللنا المثال التالي : (فرح أخي وغنّى) نجد أن الفعل الأول (فرح) استخدم استخداماً غير مطلق ، لأنه جاء في بداية سياق كلامي . لذا لا تشتمل صيغته على ضمير رفع يدل على الفاعل ، وفاعله هو الاسم الظاهر المرفوع الذي جاء بعده (أخي) . ونجد أن الفعل الثاني (غنّى) استخدم استخداماً مطلقاً ، لأنه لم يأت في بداية السياق . لذا بالإمكان أن نحدد من سياق الكلام السابق أن الفاعل (هو) يعود على (أخي) . وهذا هو السبب في أن صيغة الفعل (غنّى) تشتمل على ضمير رفع مستتر يدل على الفاعل .

وعليه فإن صيغة الفعل العربي المستخدمة استخداماً مطلقاً تشتمل على مسند ومسند إليه ، وتفيد بالتالي جملة . أما صيغة الفعل العربي المستخدمة استخداماً غير مطلق فلا تفيد جملة ، لأنها لا تشتمل على مسند إليه ، وتستوجب بالضرورة ذكر اسم ظاهر مرفوع يلي الفعل ويكون مسنداً إليه ، ويعتبر لذلك بمثابة جزء من الفعل الذي يسبقه .

وفي ضوء ذلك يجب أن نفهم تأكيد علماء العربية أن الفعل لا يستقل بالدلالة دون فاعله الذي يليه ويعتبر كالجزم منه . عرف الزمخشري الفاعل بأنه « هو ما كان المسند اليه من فعل أو شبهه مقدماً عليه (بدأ كقولك (ضرب زيد) و (زيد ضارب غلامه وحسن وجهه) ، وحقه الرفع ورافعه ما اسند اليه ، والأسل ان يلي الفعل لأنه كالجزم منه » (٣) . وذكر ابن يعيش أن « ... خبر الفاعل الذي هو الفعل لم يتقدم لمجرد كونه خبراً اذ لو كان الأمر كذلك لوجب تقديم كل خبر من نحو (زيد قائم) و (عبدالله ذاهب) . فلما لم يجب ذلك في كل خبر علم أنه إنما يجب تقديم خبر الفاعل لأمر وراء كونه خبراً وهو كونه عاملاً فيه ورتبة العامل أن يكون قبل الممول . وكونه عاملاً فيه سبب اوجب تقديمه فاعرفه ، وفي الجملة الفاعل في عرف هذه الصنعة أمر لفظي يدل على ذلك تسميتهم اياه فاعلاً في الصور المختلفة من النفي والايجاب والمستقبل والاستفهام ما دام مقدماً عليه . . . ويؤيد اعراضهم عن المعنى عندك وضوحاً انك لو قدمت الفاعل فقلت (زيد قام) لم يبق عندك فاعلاً وإنما يكون مبتدأ وخبراً معرضاً للمواصلة اللفظية » (٤) .

يقول الزجاجي « واعلم أنه يجوز تقديم خبر المبتدأ عليه الا اذا كان فعلاً فانه لا يجوز تقديمه عليه . . . فان كان خبر المبتدأ فعلاً ثم قدمته عليه ارتفع وزال معنى الابتداء ثم تتول (قام زيد) فترفعه بفعله » (٥) . ويورد السيوطي القاعدتين التاليتين : « الفاعل كجزم من أجزاء الفعل » و « الأصل تقديم الفاعل وتأخير المفعول ، قال ابن النحاس وإنما كان الأصل في الفاعل التقديم لأنه ينزل من الفعل منزلة الجزء ولا كذلك المفعول » (٦) .

وهكذا نرى ان علماء العربية اعتبروا الفاعل بنيوياً بمثابة جزم من الفعل الذي يسبقه . ونستنتج من ذلك أن الفعل وفاعله الذي يليه يكونان معاً وحدة نحوية لا انقسام فيها . وقد أشار الدكتور عثمان أمين الى ذلك بقوله « الفعل لا يستقل بالدلالة دون الذات، والذات متصلة بالفعل في تركيبه الأصلي » (٧) .

اني اقترح تسمية حالة رفع الفاعل المعبر عنه باسم ظاهر يلي الفعل (قام زيد) حالة رفع غير مطلق ، لأنه مقيد في وجوده بوجود الفعل الذي يسبقه . كما اقترح تسمية حالة رفع المبتدأ (زيد قام - زيد اخوك) حالة رفع مطلق ، لأنه ينوي فيه ابتداء الكلام وغير مقيد في وجوده بوجود الفعل بعده .

ان وجود الضمائر المتصلة في النظم اللغوي للعربية قد انمكس بالضرورة لدى تحديد مفهوم (الكلمة) في علم اللغة العربية . عرف الزمخشري الكلمة بأنها « اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع ، وهي جنس تحت ثلاثة أنواع الاسم والفعل والحرف » (٨) . وأكد ابن يعيش أن الكلمة تدل على معنى مفرد وبذلك تختلف عن اللفظة المركبة . فمثلاً (ضرباً) تشكل لفظاً واحدة تتألف من كلمتين : فعل (ضرب) وضمير متصل (الألف) يدل على أن الفاعل (هما) (٩) . . . ويعني ذلك أن مصطلح (الكلمة) في علم اللغة العربية يتميز عن مصطلح (الكلمة) في علم اللغة الأوربي ، بأنه قد يفيد اسفر جزم ذي معنى من اللفظة

فيقابل حينئذ مصطلح (المورفيم) • ويمود السبب في ذلك - برأينا - الى خصائص بنية الفعل العربي • لأن صيغته المستخدمة استخداماً مطلقاً تفيد جملة تشتمل على مسند ومُسند اليه ، لذا اعتبرت مؤلفة من كلمتين أيضاً •

ثانياً - الخصائص البنيوية للاسم العربي •

بعد تقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف ، عمد علماء العربية الى تقسيم الأسماء الى نوعين :

١ - أسماء غير متمكنة - تتضمن معنى حرف أو تشبهه أو تقع موقع مبني •

٢ - أسماء متمكنة - لا تتضمن معنى حرف ولا تشبهه ولا تقع موقع مبني • ويكون الاعراب فيها • ويمتاز الاسم المتمكن في العربية من الناحية البنيوية بأنه لا يخلو من حالات ثلاث :

أ - معرف بال •

ب - غير معرف بال ولكنه منون •

ج - غير معرف بال وغير منون • ويكون الاسم في هذه الحالة مضافاً حتماً ، لأنه لا يمكن أن يبقى منفصلاً بمفرده ، ويفتقر الى أن يضاف اما الى ضمير متصل أو اسم آخر يستند اليه ويكون معه وحدة متكاملة معنوية وبنيوية •

إذا اضيف الاسم غير المعرف بال وغير المنون الى ضمير متصل (كتابك) كَوْن الاثنان تركيباً نحوياً اندماجياً يبدو وكأنه كلمة واحدة • وإذا اضيف الى اسم آخر (كتاب الطالب - كتاب طالب) كَوْن الاثنان تركيباً نحوياً غير اندماجي ، ولكنه عبارة عن وحدة نحوية لا انفصام فيها بين جزأها : الأول (المضاف) والثاني (المضاف اليه) • وتتجلى تلك الوحدة في كون الجزء الأول من التركيب غير معرف بال وغير منون دائماً ، لأن ذلك يشير الى أنه يرتبط بالجزء الثاني الذي يليه مباشرة ويفتقر اليه • كما تتجلى في كون الجزء الثاني من التركيب في حالة جر على الدوام ، لأن ذلك يشير الى أنه يرتبط بالجزء الأول الذي يسبقه مباشرة ويفتقر اليه •

لنحلل المثال التالي : (كتاب الطالب - كتاب طالب) • يشكل الاسم الأول (كتاب) مع الاسم الثاني (الطالب - طالب) وحدة متكاملة من حيث المعنى والبنية • وإن اقتصار العبارة على كلمة (كتاب) يُشعر أن معنى هذه الكلمة لم يتم بعد ، وأنها لما تكتمل بنيوية بسبب خلوها من التمرين بال ومن التنوين • فهي تشبه - والحالة هذه - كلمة لفظنا جزءاً منها ولا تكتمل الا بلفظ الجزء الثاني المكمم لها •

وتجدر الإشارة هنا الى أنه في حالة كون الاسم الثاني (المضاف اليه) غير معرف بال وغير منون ، لا يكتمل المعنى ويحتاج تركيب (المضاف والمضاف اليه) الى أن يضاف الى اسم معرف بال أو منون حتى يكتمل التركيب من حيث المعنى والبنية • فتركيب (كتاب

طالب (٠٠٠) غير مكتمل ، ويصبح مكتملا اذا قلنا مثلا (كتاب طالب العلم - او علم) .
وكذلك فان تركيب (كتاب طالب علم . ٠٠) غير مكتمل ، ويصبح مكتملا اذا قلنا مثلا
(كتاب طالب علم الزراعة) (١٠) .

ان مقارنة عبارة (كتاب الطالب - كتاب طالب) هما يقابلها في اللغات الأوربية تبين
مايلي : اذا اعتبرنا أن الاسم الأول يحمل الرقم (١) والاسم الثاني يحمل الرقم (٢) ،
فان الاسم (١) هو (المضاف اليه منطقيا) لأننا أضفنا اليه الاسم (٢) . والاسم (٢)
بالتالي هو (مضاف منطقيا) الى الاسم (١) وهذا يعني أن التحليل المنطقي يبين ما يلي :
الجزء (١) من التركيب (كتاب) - مضاف اليه ، والجزء (٢) من التركيب (الطالب -
طالب) - مضاف . أما التحليل النحوي العربي فيقتضي باعتبار الجزء (١) - كتاب -
مضافا ، واعتبار الجزء (٢) - الطالب (طالب) - مضافا اليه . فهل يعني ذلك أن
علماء النحو العربي قد ارتكبوا ، كما قد يتوهم البعض ، خطيئة منطقية ؟ ! وجوابنا
هو : كلا ، انهم لم يرتكبوا خطيئة منطقية ، لأنهم حين قالوا ان الاسم (١) مضاف الى الاسم
(٢) قصدوا أن الاسم (١) يفتقر بنيويا الى أن يضاف الى الاسم (٢) . وبهذا المعنى
البنيوي فان الاسم (١) مضاف والاسم (٢) مضاف اليه .

وكذا الحال بالنسبة لعبارة (كتابك) التي تكون تركيبا نحويا اندماجيا . فالاسم
(كتاب) هو المضاف اليه منطقيا ، لأننا أضفنا اليه الضمير المتصل (ك) . والضمير المتصل
هو مضاف منطقيا الى الاسم . وبما أن الجزء الأول من التركيب (كتاب) يفتقر بنيويا الى
أن يضاف الى الجزء الثاني (ك) ، يعتبر الاسم الأول (بهذا المعنى البنيوي) مضافا
ويعتبر الضمير المتصل به مضافا اليه .

كتب ابن الخشاب حول العلاقة بين المضاف والمضاف اليه ما يلي : « ٠٠٠ والكسرة في
آخر الاسم المضاف الى ياء المتكلم كسرة بناء عارض ، وذلك أن المضاف يمتثل من المضاف
اليه منزلة بعض الكلمة من بعض . هذا اذا كان المضاف اليه مما يمكن أن يكون مستقلا
بنفسه . فاذا انضم الى ذلك كون المضاف اليه لا يقوم بنفسه ولا ينفرد ، اشتد اتصاله
بما قبله حتى يجري الأول من الثاني والثاني من الأول مجرى بعض الكلمة من بعض حقيقة
لامتزاجهما ، فيغلب على الأولى حكم الثانية . وهذه الصفة موجودة في المضاف الى ياء
المتكلم ٠٠٠ » (١١) .

وكتب الدكتور عثمان أمين عن الاضافة ما يلي : « وكذلك الاضافة في اللغة العربية
تتم بانشاء علاقة ذهنية - وبالتالي جوائية - لا تحتاج الى لفظ يشير اليها . مثال ذلك قولنا
(كلية الاداب) فهو كاف لايقاع الاضافة بين (الاداب) و (الكلية) ، خلافا للغات الأخرى
التي تعتمد الى اثبات لفظ خاص يدل عليها » (١٢)

ونعقب هنا بأن الدكتور عثمان أمين أهمل الإشارة الى أن المنصر (أو الجزء) الأول
من تركيب الاضافة غير معرف بال وغير متوّن ، وأن المنصر الثاني مجرور . لقد استشهد
د . أمين لكي يدعم رأيه بالقول التالي لابن خلدون : (ولما كانت الملكات الحاصلة للمرب
من ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من

المعاني ، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول ، والمجرور أعني المضاف ، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال الى الدوات من غير تكلف الفاظ أخرى . . .) . ولكننا اذا حللنا قول ابن خلدون ، نجد فيه اشارة واضحة الى الحركات ، وانه بوساطة الكسرة يتم تعيين المضاف اليه .

ثالثا - التراكيب الاسنادية وغير الاسنادية في العربية .

اشرت في مقالة « اعجاز القرآن وترجمته » الى أن عبارة الجرجاني (الألفاظ أوعية للمعاني وخادمة لها) تعني أنه توجد وحدة لا تنقسم بين شكل الكلمة (أي لفظها) ومضمون الكلمة (أي معناها) . وبينت أن تعبير (نظم الكلم) يفيد عند الجرجاني (ترتيب الكلمات وتأليف الكلام) . فما المقصود من (ترتيب الكلمات) و (تأليف الكلام) ؟

اننا نفهم (التركيب) على أنه اجتماع كلمتين أو أكثر . والتراكيب نوعان : تركيب اسنادي هو الذي يشتمل على مسند ومسند اليه ، وتركيب غير اسنادي هو الذي لا يشتمل على مسند ومسند اليه . يستخدم في علم العربية مصطلحا (الجملة) و (الكلام) للإشارة الى الكلم المجتمعة .

يوجد رأيان حول تحديد مضمون (الجملة) و (الكلام) . يرى بعض العلماء كالزمخشري (١٣) أن الكلام والجملة مترادفان . ويؤدي هذا الموقف الى تعريف الجملة انطلاقا من توافر أمرين فيها : الاسناد والفائدة . ويرى آخرون كابن هشام (١٤) أن الكلام والجملة ليسا مترادفين . ويؤدي هذا الموقف الى تعريف الجملة انطلاقا من توافر أمر واحد فيها هو الاسناد فقط . وبذا يختلف الكلام عن الجملة ، لأن الكلام يشتمل على الاسناد والفائدة وكان سيبيويه (١٥) قد افرد بابا خاصا للمسند والمسند اليه . ولم يطلق على (المسند والمسند اليه) تسمية (الجملة) أو (الكلام) .

انصب اهتمام علماء العربية على دراسة الجملة والكلام ، لأن كلا منهما - حسب الرأي الأول أو الثاني - يشتمل على مسند ومسند اليه . ويعني ذلك أن الجملة والكلام تركيبان اسناديان . ولم يهتم علماء العربية بدراسة التراكيب غير الاسنادية ، بل اكتفوا بالاشارة الى أنها اجتماع كلمات غير مؤلفة . ويعود السبب في ذلك الى أن علماء العربية استخدموا في دراستهم للعربية منهجا بنيويا وظيفيا ، لأن دراستهم استهدفت اكتشاف القوانين التي تحكم اللغة العربية كنظام ، فاستوجب ذلك منهم الانطلاق من الوحدة التي لا تنقسم بين الشكل والمضمون ، لأن البنية اللغوية لا تستقل عن وظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة . وقد توسع الامام الجرجاني في استخدام هذا المنهج البنيوي الوظيفي حين بحث في نظم الكلم . فعمد الى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة التي تؤديها في الكلام ، انطلاقا من الوظيفة الأساسية للغة كرسيلة لاتصال الناس ببعضهم ببعض .

يستهل الامام الجرجاني « دلائل الاعجاز » بما يلي : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض . والكلم ثلاث : اسم وفعل

وحرف ، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة ، وهو لا يمدو ثلاثة أقسام ، تملق اسم باسم وتملق اسم بفعل وتملق حرف بهما . . . ومختصر كل الأمر : أنه لا يكون كلام من جزء واحد ، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه . . . وجملة الأمر : أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً ، ولا من حرف واسم إلا في النداء نحو (يا عبدالله) . وذلك أيضاً إذا حقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو (أعني وأريد وأدعو) ، و (يا) دليل عليه وعلى قيام معناه في النفس . فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض . وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه » (١٦) .

ويؤكد الجرجاني أن التعلق يكون بين معاني الكلمات ، فيقول : « . . . الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات ، وإنما تكون فيها إذا ضم بعضها إلى بعض . . . التعلق يكون فيما بين معانيها لا فيما بينها أنفسها . ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقاً فيما بين لفظين لا معنى تحتها لم نتصور . ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين : مؤلف وهو الاسم مع الاسم ، والفعل مع الاسم ، وغير مؤلف وهو ما عدا ذلك ، كالفعل مع الفعل والحرف مع الحرف . ولو كان التعلق يكون بين الألفاظ ، لكان ينبغي أن لا يختلف حالها في الائتلاف ، وأن لا يكون في الدنيا كلمتان إلا ويصح أن يأتلفا لأنه لا تنافي بينهما من حيث هي الفاظ . . . » (١٧) .

تتميز اللغة العربية بأنها لغة معربة . لذا فإن علامات الأعراب في أواخر الكلم تشير إلى نوع ارتباط الكلم في التراكييب . وقد ميز النحويون نوعين من العلاقة بين الكلمات في التركيب :

- ١ - علاقة مؤثر ومتأثر . وسماؤا المؤثر الذي يغير حركة أواخر الكلمات المتأثرة (حاملاً) ، كما سماؤا الكلمة المتأثرة (معمولة) . وبحثوا هذه العلاقة في نظرية العوامل .
- ٢ - علاقة تابع ومتبوع . وبحثوا هذه العلاقة في نظرية التوابع .

قسم علماء العربية الأوائل العوامل إلى قسمين : لفظية ومعنوية . وجاء ابن جني فنبه إلى أن هذا التقسيم شكلي (بنيوي) ، لأن العمل في حقيقته هو للمتكلم نفسه . عرف ابن جني في « الخصائص » الأعراب والبناء كما يلي : « باب القول على الأعراب . هو الإبانة عن المعنى بالألفاظ . ألا ترى أنك إذا سمعت (أكرم سعيد أباه) و (شكر سعيداً أبوه) علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول . ولو كان الكلام شرحاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه » (١٨) . « باب القول على البناء . هو لزوم الكلمة ضرباً واحداً من السكون أو الحركة ، لا لشيء أحدث ذلك من العوامل . وكأنهم إنما سموه بناءً لأنه لما لزم ضرباً واحداً فلم يتغير تغير الأعراب سمي بناءً ، من حيث كان البناء لازماً موضعاً ، لا يزول من مكان إلى غيره . . . » (١٩) .

وأكد ابن جني بعد ذلك على جانب المعنى في الأعراب فقال : « باب في مقاييس العربية . وهي ضربان : أحدهما معنوي وآخر لفظي . وهذان الضربان وإن عشا وفشوا في هذه اللغة ، فإن أقوامها وأوسمها هو القياس المعنوي . . . وإنما قال النحويون :

عامل لفظي وعامل معنوي ، ليرى أن بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه ك(مررت بزيد) و (ليت عمراً قائم) وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلق به ، كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم . هذا ظاهر الأمر ، وعليه صفحة القول . فاما في الحقيقة ومحصل الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم انما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره . وانما قالوا : لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ ، أو باشتغال المعنى على اللفظ . هذا واضح . واعلم أن القياس اللفظي اذا تأملته لم تجده عارياً من اشتغال المعنى عليه . » (٢٠) .

وقد تابع الامام الجرجاني التأكيد على جانب المعنى في الاعراب ، فكتب في « دلائل الاعجاز » : « . اذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المقياس الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه . » (٢١) .

وبالنسبة للعوامل سار الامام الجرجاني في كتابه « العوامل المثة » على النهج المتبع قبله في النحو ، فقسم العوامل الى قسمين : لفظية ومعنوية ، وقسم اللفظية الى سماعية وقياسية (٢٢) . ولكنه أحجم في كتابه « الجمل » عن متابعة ذلك التقسيم (البنيوي) للعوامل . وأخذ بتقسيم جديد (بنيوي وظيفي) للعوامل ، فجعلها ثلاثة أنواع : عوامل من الأفعال وعوامل من الحروف وعوامل من الأسماء . وذلك بمقدمة تحدث فيها عن اتسام الكلم ، والاعراب والبناء ، ونوعين للكلمات المعربة : ما ليس له عامل ظاهر لفظي ، وما كان له عامل ظاهر لفظي . واختتم الجرجاني كتاب « الجمل » بفصل في أشياء منفردة تطرق فيه الى مباحث (المعرفة والنكرة) ، (التوابع) ، (التذكير والتأنيث) ، (الاعراب الأصلي وغير الأصلي) وطرح هنا قصة أخرى (وظيفية) في الاعراب هي الاعراب الصريح والاعراب غير الصريح . واختتم الكتاب بباب (المفرد والجملة) .

كتب الامام الجرجاني عن القسمة الوظيفية في الاعراب ما يلي : « اعلم أن الاعراب على ضربين : صريح وغير صريح . فالصريح على ضربين : أحدهما بالحركات ، والآخر بالحروف - كما تقدم . وغير الصريح أن تكون الكلمة موضوعة على وجه مخصوص من الاعراب وذلك في المضمر نحو (أنت) فإنه وضع للمرفوع ، و (اياك) للمنصوب . والمضمر متصل ومنفصل ومستكن . فالمتصل أربعة وعشرون : مرفوعة اثنا عشر ومنصوبة أيضاً اثنا عشر . . . وليس له مجرور . والمتصل ثلاثة وعشرون : مرفوعة أحده عشر . . . ومنصوبة اثنا عشر . . . والمجرور كالمنصوب . والمستكن لا يكون الا مرفوعاً . ومعنى المستكن أن تقول (افعل) فيكون (أنت) مستكن في النية والمعنى . وهو لازم وغير لازم . » (٢٣) .

وحول اختلاف الكلمات ذكر ابن الخشاب في « المرتجل » (الذي شرح فيه كتاب « الجمل » للجرجاني) ما يلي : « اعلم أن الكلم الثلاث اذا ألف بعضها مع بعض حصل من ذلك ستة تأليف : اثنان مفيدان افادة مطردة ، وآخر منها مفيد افادة مخصوصة بموضع واحد

مقصورة عليه ، وثلاثة مطرحة لأنها لاتفيد . والقسمان الأولان : الاسم مع الاسم كقولك (زيد منطلق) و (الله هنا) ، والفعل مع الاسم كقولك (قام زيد) و (انطلق بشر) .
والثالث المخصوص وهو الحرف مع الاسم في النداء خاصة كقولك (يا زيد) . والثلاثة المطرحة هي الفعل مع الفعل والحرف مع الفعل والحرف مع الحرف . فاذا وقعت الفائدة بالتأليف على ما ذكرنا ، سمي ذلك المؤتلف كلاماً . فالكلام اسم للمفيد من القول عند النحويين » (٢٤) . ومعنى هذا أن التأليف نوعان :

١ - تركيب كلمات يشتمل على فائدة تامة يحسن السكوت عليها (٢٥) ، هو تركيب نحوي اسنادي .

٢ - تركيب كلمات لا يشتمل على فائدة تامة يحسن السكوت عليها ، هو تركيب نحوي غير اسنادي .

في ضوء تقسيم التراكيب الى اسنادية وغير اسنادية ، وانطلاقاً من المبادئ التالية التي حددها الامام الجرجاني :

- ١ - الاعراب على ضربين : صريح وغير صريح (« الجمل » ص ٣٨) .
- ٢ - الأفعال هي الأصل في العمل . وكل فعل يرفع اسماً واحداً بأنه فاعله اذا أسند اليه مقدماً عليه ، فان لم يكن ظاهراً المضمراً (« الجمل » ص ١٣) .
- ٣ - حروف الجر من شأنها أن تمضي الأفعال الى ما لا تتمدى اليه بانفسها من الأسماء (« دلائل الاعجاز » - المدخل) .
- ٤ - الموامل من الأسماء على ضربين : ضرب يعمل عمل الفعل ، وضرب يعمل عمل الحرف . وما يعمل عمل الحرف من الأسماء يعمل الجر والجزم ، فالجر بالاضافة . والاضافة على ضربين : أحدهما أن تكون بمعنى اللام نحو قولك (دار زيد) تريد (دار لزيد) ، واطافة بمعنى (من) كقولك (خاتم فضة) تريد (خاتم من فضة) . (« الجمل » ص ٣٠) .

٥ - الكلام مداره على ثلاثة معان : الفاعلية والمفعولية والاضافة . فالرفع للفاعل والنصب للمفعول والجر للمضاف اليه ، وما خرج من هذه الأقسام فمحمول عليها وليس بأصل (« الجمل » ص ٣٦) .

اننا ندعو الى تمييز حالتين لاندماج الكلمات في النظام اللغوي للعربية :
الحالة الأولى - اندماج الكلمات الذي يؤدي الى نشوء تركيب اندماجي اسنادي يفيد جملة فعل وفاعل .

الحالة الثانية - اندماج الكلمات الذي يؤدي الى نشوء تركيب اندماجي غير اسنادي لا يفيد جملة ، بل يكون جزءاً من جملة .

ونرى أن تمييز هاتين الحالتين يفسر سبب وجود صيغتين مختلفتين للضمائر المتصلة في النظام اللغوي للعربية : صيغة خاصة بالمسند اليه (تؤدي الى نشوء تركيب اندماجي اسنادي) ، وصيغة خاصة بما عدا المسند اليه (تؤدي الى نشوء تركيب اندماجي غير اسنادي) . وسنوضح ذلك باستمرار اتصال الضمير أولا بالفعل ثم بالحرف وأخيراً بالاسم .

١ - اتصال الضمير بالفعل . نميز هنا صيغتين للضمير المتصل بالفعل :

أ - صيغة الضمير المتصل الخاصة بالمسند اليه (المرفوع) كما في (فعلت) . يكون الفعل مع ضمير المسند اليه المتصل تركيباً نحوياً اندماجياً اسنادياً يفيد جملة فعل وفاعل .

ب - صيغة الضمير المتصل لغير المسند اليه (لغير المرفوع) كما في (أكرمك) . إذا اتصل بالفعل ضمير للمرفوع وضمير لغير المرفوع ، تقدم الأول وتأخر الثاني كما في (أكرمك) ويكون الفعل مهماً تركيباً نحوياً اندماجياً اسنادياً يفيد جملة فعل وفاعل ومفعول . وإذا كان الفعل يستخدم استخداماً مطلقاً (أي تشمل صيغته على ضمير للمرفوع مستكن) كما في (الرجل أكرمك) ، يكون الفعل مع الضمير المتصل لغير المرفوع ومع الضمير المستكن تركيباً نحوياً اندماجياً اسنادياً يفيد جملة فعل وفاعل ومفعول . أما إذا كان الفعل يستخدم استخداماً غير مطلق (أي لا تشمل صيغته على ضمير للمرفوع مستكن) كما في (أكرمك الرجل) ، يكون الفعل مع الضمير المتصل لغير المرفوع تركيباً نحوياً اندماجياً غير اسنادي ، لأن هذا التركيب لا يفيد جملة ، لذا يحتاج الى ذكر اسم ظاهر مرفوع بعده ليكون معه جملة فعل وفاعل ومفعول .

٢ - اتصال الضمير بالحرف . ان صيغة الضمائر المتصلة بالفعل لغير المسند اليه (لغير المرفوع) هي نفس صيغة الضمائر التي تتصل بالحروف ، لأن الحروف تعدي الأفعال الى ما لا تتعدى اليه بأنفسها من الأسماء ، كما في (كتبت به) و (مررت عليه) . ويكون حرف الجر مع الضمير المتصل تركيباً اندماجياً غير اسنادي ، لذا يحتاج الى أن يتعلق بفعل أو شبهه .

وتجدر الإشارة هنا الى أن اتصال الضمير باللام - التي لا تستعمل كي تعدي الفعل الى الضمير المتصل الذي لا يتعدى اليه بنفسه - كما في (لك ، له) ، يؤدي الى تكوين تركيب اندماجي غير اسنادي يفيد معنى التخصيص أو الملكية .

٣ - اتصال الضمير بالاسم . ان صيغة الضمائر المتصلة بالفعل لغير المسند اليه (لغير المرفوع) هي نفس صيغة الضمائر التي تتصل بالاسم في حالة اضافته اليها ، كما في (أبوك) و (أخوه) . ويكون الاسم مع الضمير المتصل به تركيباً اندماجياً غير اسنادي يفيد معنى التخصيص أو الملكية .

ومن هذا الاستمرار لاتصال الضمير بالفعل والحرف والاسم ، يتضح سبب تمييز صيغتين فقط للضمير المتصل في النظام اللغوي للعربية: صيغة خاصة بالمسند اليه (المرفوع) ، وصيغة أخرى خاصة بغير المسند اليه (غير المرفوع) ، وهي لذلك مشتركة بين المنصوب والمجرور .

هذا وسأعتمد في المقالة التالية - انطلاقاً من الخصائص البنيوية للفعل والاسم في العربية - الى طرح نظرة جديدة الى النحو العربي .

دمشق في ٢٢/١٢/١٩٨١

الهوامش :

١ - المنشورة في " مجلة التراث العربي " - العدد ٧ .

٢ - مطبعة الجليل - دمشق ١٩٨٠ .

٣ - " الفصل في علم العربية " لعلام الزمخشري - مطبعة التقدم بمصر - الطبعة الأولى (١٣٢٣ هـ) - ص ١٨ .

٤ - " شرح الملل " - اصدار مكتبة المتنبي - القاهرة ، ج ١/ص ٧٤ .

٥ - " الجمل " تأليف الزاجري - نشر وتحقيق وشرح ابن أبي شلب - باريس - الطبعة الثانية ١٩٥٧ - ص ٤٩ .

٦ - " الانشاء والنظائر في النحو " للسيوطي - الطبعة الثانية - حيدر آباد (١٣٦١ هـ) - ج ٢/ص ٦٣ - ٦٤ .

٧ - " فلسفة اللغة العربية " - المكتبة الثقافية ١٤٤ - الدار المصرية للتأليف والترجمة - نوفمبر ١٩٦٥ .

٨ - " الملل " ، ص ٦ .

٩ - ارجع الى " شرح الملل " لابن يعيش - ج ١/ص ١٩ .

١٠ - ارجع الى كتاب " نظرية أدوات التعريف والتذكير وفصاها النحو العربي " تأليف غراتشيا غابوتشان ، ترجمة د. جعفر دك الباب - اصدار وزارة التعليم العالي - مطبعة مؤسسة الوحدة - دمشق - ١٩٨٠ .

١١ - " المرتجل " لابن الخشاب - حققه علي حيدر - مطبوعات دار الحكمة - دمشق ١٩٧٢ - ص ١٠٩ .

١٢ - مقالة " الخصائص الفلسفية للغة " المنشورة في مجلة (الثقافة) الأسبوعية بدمشق - العدد ١٥ السلسلة ١٩٧٣ ، تاريخ ١٢/٤/١٩٨٠ .

١٣ - " الكلام هو المركب من كلمتين اسندت احدهما الى الأخرى ، وذلك لا يتألى الا في اسمين كقولك (زيد اخوك)

و (بشر صاحبك) ، او في فعل واسم نحو قولك

(ضرب زيد) و (انطلق بكر) ويسمى الجملة .

/ " الملل " - ص ٦ .

١٤ - " الكلام احسن من الجملة لا مرادف لها ، فان الكلام هو

القول المفيد بالمقصد . والمراد بالمفيد ما دل على معنى

يحسن السكوت عليه . / " الانشاء والنظائر في النحو " ،

للسيوطي - ج ٢/١٦٦ .

١٥ - كتاب " زوهر " منشورات مؤسسة الأهلي - بيروت -

الطبعة الثانية ١٩٦٧ ج ١/ص ١٤ .

١٦ - " دلائل الاعجاز في علم المعاني " - تحقيق الامام

معهد عبده - الناشر مكتبة القاهرة - ١٩٦١/المدخل

ن - ف .

١٧ - " دلائل الاعجاز " ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

١٨ - " الخصائص " ، حققه محمد علي النجار ، دار الهدى -

بيروت ، ج ١/ص ٣٥ .

١٩ - " الخصائص " ، ج ١/ص ٣٧ .

٢٠ - " الخصائص " ، ج ١/ص ١٠٩ - ١١٠ .

٢١ - " دلائل الاعجاز " ، ص ٢١ .

٢٢ - انظر مقدمة كتاب " الجمل " لعلام الجرجاني التي كتبها

الاستاذ علي حيدر منشورات دار الحكمة بدمشق - ١٩٧٢ .

٢٣ - " الجمل " ، ص ٣٨ - ٣٩ .

٢٤ - " المرتجل " لابن الخشاب ، ص ٢٧ .

٢٥ - " ... وحد الكلام انه جملة مؤلفة من الحروف المسبوبة

المتمايزة المفيدة لالة تامة يحسن السكوت عليها ... " ،

" المرتجل " لابن الخشاب ، ص ٢٩ .

سكينة الشهابي

النسوة اللواتي نزعهم من الحافظ ابن عساكر

في تاريخ دمشق ومنهجيته في عرض أخبارهن

ابن عساكر في تاريخه الشهيرات من الدمشقيات ،
ومن اللواتي وردن دمشق ، أو اجتزن بنواحيها .
وتمتد هذه النواحي حتى تشمل مساحة كبيرة حول
مدينة دمشق . وقد تطول الترجمة أو تقصر .

ومفهوم الشهرة عند ابن عساكر في أخبار النساء لا يختلف عنه في أخبار الرجال ، اللهم الا فيما يخص طبعية كل من الجنسين . والشيء الذي يمتاز به بين المصنفين أنه يتعلّى بروح علمية بميدة عن التمسك ، ولذلك فإنه يختار لتاريخه كل من أرادت له الحياة أن يبقى خالداً في قول أو فعل ؛ ولهذا فإننا نجد في التاريخ ترجمة لكل من له ذكر من الرجال والنساء . وكثير من النساء ذكرتهن كتب التاريخ والأدب لجمالهن ولاعجاب الرجال بهذا الجمال ، وهذا يكفي وحده سبباً في دخول المرأة تاريخ دمشق . قد يبدو مثل هذه الأخبار تافهاً في أعين عدد كبير من الناس ، ولكنه يأتي من الأهمية بمكان في تفسير كثير من الحقائق التاريخية (١) .

ولا تطول الترجمة ويستفيض الحديث الا اذا كانت المرأة صحابية معروفة في الرواية ، وهنا يجول المصنف جولاته في جمع الأحاديث التي روتها مستقصياً

في ذلك الطرق^(٢) ، والا اذا كانت صحابية لها دورها في بدء الدعوة ، وعندها لا يكثر من نقل ما روته عن النبي ، صلى الله عليه وسلم فقط ، بل يفيض في سرد أخبارها كلها على ما هو معروف عنده في نقل الأخبار ؛ يذكر اسم المترجمة ونسبها وبعض الأحاديث من روايتها ، وخلّقها وخلّقها وشيئا من علاقاتها الاجتماعية والسياسية ، ثم وفاتها . ولا ينسى بعد ذكر اسمها أن ينقل خبراً يبين سبب ترجمتها في تاريخ دمشق^(٣) . وكثيراً ما يكون جمع الطرق في الخبر الواحد سبباً في طول الترجمة ، وهذا نجده في الأخبار الأدبية ، كما نجده في الأحاديث النبوية . ولعل أخبار سكينه بنت الحسين ما كنا نجد هذا الطول لولا حرص المصنف على رواية خبرها مع الشعراء من كل الطرق التي تهيأ له الوصول إليها .

ومثل الذي قلناه في أخبار سكينه نقوله في أخبار عائشة بنت طلحة ، فقد كانت عائشة جميلة ، ولمصعب بن الزبير معها أخبار معروفة ، ويحرص ابن عساكر كماداته دائماً على تقليب بعض أخبارها المشهورة ، وجمع كل الطرق التي استطاع الوصول إليها في تلك الأخبار^(٤) .

والشهرة في الحياة تكون دائماً نتيجة للتفوق في شيء منحه الله للانسان ، خصه به بين باقي بني جنسه ؛ فقد كانت شهرة عائشة بنت طلحة بالفضل والجمال والفصاحة ، وكانت شهرة سكينه بنت الحسين بالجمال والفصاحة والأدب ، وخصها الله بأحاساس فني جعلها تميز فيه بين قول شاعر وشاعر ، وتحكم لبعضهم بالتفوق والآخر بالتخلف . وكذلك امتازت أسماء بنت أبي بكر بالجزالة ورباطة الجأش ، والدماغ بالحجة القوية ، ورجاحة التفكير في المواقف الصعبة التي تتزعزع فيها ارادة الانسان ، ويفلت من يده زمام تفكيره . هذه المزايا التي ذكرها التاريخ للنساء الشهيرات أبرزها ابن عساكر بقوة حين عرض علينا ما قرأه وسمعه وحفظه ؛ ولم يبين لنا رأيه في كل ما سمعه وقرأه وحفظه ، بل تركنا أمام الماضي كله لنقول ما نشاء ، بل لنفهم كل شيء على حقيقته ، ومن بعد ذلك يكون قولنا مستمداً من واقع الأخبار والآثار . كان ابن عساكر شيخ المؤرخين والموسوعة الكبيرة التي استوعبت كل شيء ، فلم يعطنا قولاً ولكنه أعطانا كل ما قيل ، ولم يقدم لنا رأياً ولكنه ترك لنا الحرية في أن نرى ما نشاء ، وكأنه كان يقول : هذا

المتن وهذا السند فانظروا في أحوال الرجال ، واحكموا على صحة الخبر .

وانطلاقاً من هذه النزاهة العلمية ، والروح المحايدة في عرض الأخبار وتصنيفها ترجم ابن عساكر « سلامة القس » ، و « عريب المأمونية » ، فقد قيل انهما مرتا بدمشق ، اننا نذكر بامتنان ابن عساكر حين نقرأ لعريب هذا الشعر الكثير الذي حال ضياع المصنفات العربية بينه وبين الوصول إلينا . كل الذي روته لنا الكتب المعروفة من أخبار عريب كان ثتفاً قد يضم بعضها أبياتاً قليلة من الشعر . وقد شفى غليلنا ابن عساكر حين روى لنا من غزلها ووصفها ومديحها قصائد نفيسة قرأها في كتب لمل حوادث الأيام ، وما ألم بالأمة العربية من إحن قد جعلها أثراً بعد عين

وقد نظن ونحن نقرأ تراجم قريبات المصنف - : زوجته ، زوج أخيه ، ابنة خالته - أن مثل هؤلاء ليس في خبرهم ما يهم المؤرخ الباحث من قريب أو بعيد ، وأنهن لو لم يكن قريباته لما ورد لهن ذكر في التاريخ^(٥) . ولكن خطأنا هذا يتبين حين نتذكر رغبة المصنف في الاستقصاء ؛ فهو يدخل في تاريخه كل اللواتي لهن ذكر ممن وردن دمشق ، أو اجتزن بها ، أو كن من ساكناتها . وأي ذكر أفضل من رواية الحديث ، وسماع الكتب الصحيحة؟!

ولكن رغبة المصنف في الاستقصاء قد تدعونا الى العجب حين نقرأ ترجمة « أمنة ذات الذنب »^(٦) ، وكان المصنف حين ساق خبر هذه المرأة ما كان يريد الا أن يلون في عرض الأخبار ، أو أن نزعة جاحظية ألتمت به فجعلته لا يروي خبر هذه المرأة في ترجمتها فقط بل يعيده من طريقه مرة أخرى^(٧) ، مما يؤكد لنا حرصه على هذا النوع من الأخبار ، وأنه كان يقصد الى ذلك قصداً .

وقد احتفى ابن عساكر أيما احتفاء بأخبار المتصوفات ولملم أقوالهن ، وتحدث عن تقشفهن وزهدهن ، وفضلهن في ذلك على كثير من بليغات العرب ، ومن عرفن بالجرأة والفصاحة^(٨) . وبعض هؤلاء الزاهدات كن شيخات له^(٩) ، أو ممن حدثه عنهن شيوخه^(١٠) .

ولعل ما عرف به ابن عساكر من زهد وتقشف وانصراف عن متاع الدنيا جعله يحسن انتقاء أخبار العابدات الزاهدات ، ويجعلنا نصفي الى مواظهن

وأقوالهن ونحن نحس بمتعة روحية ، ورياضة نفسية يتغلب بها فينا المعنى الانساني على القالب المادي فننسى متاعب الحياة وهمومها ، ونسخر كما سخرن من قشورها ومظاهرها . ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن عساكر في أخبار أم الدرداء ، قال : « عن أم الدرداء أن رجلا أتاه فقال لها : إنه قد نال منك رجل عند عبد الملك ، فقالت : ان تؤبن بما ليس فينا فطالما زكينا بما ليس فينا » . وقال : « عوتبت أم الدرداء ، في شيء ، ف قيل لها : لِمَ فعلت كذا وكذا ؟ قالت : نقص الناس فنقصت كما نقصوا ! » . وروى « عن اسماعيل بن عبيد الله قال : قالت لي أم الدرداء : يا بني ، ما يقول الناس في الحارث الكذاب ؟ قال اسماعيل : يا أمة ، يزعمون أنك قد بايعته ! قال : فلم تسل أم الدرداء من الذي قال لئلا يكون في صدرها غل على أحد » .

وانما ذكرت هذه الأمثلة لأبين للقارئ الكريم معنى الصوفية كما فهمها الانسان المسلم ، انها التسامح ، والمحبة ، والتواضع .. الى غيرها من الصفات الكريمة التي جاء بها القرآن ، وحث عليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم . ومثل هذه الأقوال التي تأخذ بمجامع القلوب نجده مبثوثة متفرقة في أخبار عدد من الصوفيات اللواتي فهمن الطاعة بمعناها الحقيقي ، وقدرن أبعاد خطواتهن في هذه الحياة (١) .

ولكن حب الاستقصاء قد يطنى في كثير من الأحيان على حسن الانتقاء ، فنجد في أخبار هؤلاء النسوة ما يدعو الى الابتسام لأنه تجاوز حد المعقول ، وبالحق في البعد عن الواقع .

وفي أخبار النسوة القرشيات سواء كن زوجات لبني أمية أم لغيرهم ، صورة صادقة للحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر ، نجد فيها وضع المرأة الاجتماعي وعلاقتها بالرجل . وجراؤها في الدفاع عن حقها ، والحفاظ على ما في يدها ، واستقلالها في تصريف شؤونها ، ومشاركتها في كثير من القضايا السياسية والاجتماعية ، وهذا لا ينطبق على القرشيات فقط ، ولكننا نجد نماذج له في أخبار كل النساء الحرائر . وما أكثر النسوة اللواتي جئن الى معاوية يرفعن اليه مظالمهن ، ويطلبن اليه العدل . وكم من امرأة كانت في جيش عليّ تعرض على القتال حتى اذا تبدل الحال ، وعلام معاوية عرش الخلافة استدعى من شاء

منهن مكرمات ليستعبد أقوالهن ، وليسمع رأيهن فيه وفي سلفه . ومهما كانت هناك من مبالغات في أقوالهن ، وأخبار جراتهن وفصاحتهم فان تلك الأقوال والأخبار تؤكد لنا أن المرأة كانت تؤلف فعلا نصف المجتمع ، وأنها عاشت حياتها كاملة ، ولعبت في الحياة السياسية والاجتماعية دوراً كبيراً لا يقل عن دور الرجل ، حتى اننا نجد الواحدة منهن تتجشم عناء السفر ، لتدخل على معاوية في شأن من الشؤون ، وحين يذكرها بمناصرتها العلي لا نجد لها مضطرة الى كلمة نفاق واحدة ، بل انها تبدي رأيها بكل قسوة وجراءة ، أهو تسامح الخليفة ، أم شجاعة المرأة ، أم انها الفطرة السليمة ، والتربية الاسلامية الصادقة ؟ وأجندني مضطرة الى أن أقتطع نثفة من خبر أم البراء^(١٢) بنت صفوان مع معاوية عل ما فيه من طرافة يكون حافزاً على مراجعة الخبر بتمامه .

دخلت أم البراء بنت صفوان على معاوية فذكرها بشعر قالت في حربه مع علي وكانت هذه المرأة أكثر اعتدالا من الزرقاء^(١٣) بنت عدي ، وعكرشة بنت الأطش^(١٤) ، وأم الخير بنت الحريش^(١٥) ، فقالت : « يا أمير المؤمنين عفا الله عما مضى ومن عاد فينتقم الله منه » . وحين قامت لتخرج ، « عثرت بشوبها ، فقالت : تَعَسْ شأنى علي ! فقال لها معاوية : يا أم البراء ، زعمت ألا . . قالت : هو والله ما تعلم ! وخرجت ، فبعث اليها بمال » .

وهذه سودة بنت عمارة بن الأسك دخلت على معاوية متظلمة من واليه . فاسمعت ما أسمعته من بليغ القول ، حتى اذا أراد انصافها دون قومها بكى ، وذكر علياً ، رضي الله عنه ، فقد دخلت عليه تشكو والياً جار وظلم ، فأكرمها ، وأعادها بكتاب تمزل فيه ذلك الوالي ، فقضى معاوية حاجتها ، ولم تدفعه جراتها الى أن يجور في حكم ، أو أن يغبن امرأة متظلمة^(١٦) .

وقريب من خبر سودة هذه خبر امرأة ذكوانية وفدت على معاوية متظلمة من أخيه زياد بن أبي سفيان ، فقضى حاجتها وردّها مكرمة^(١٧) .

وفي كل خبر من أخبار النساء المربيات صورة صادقة للحياة الاجتماعية ، والسياسية ، واذا خصصنا القرشيات دون غيرهن استعلمنا أن نكشف حياة طبقة من طبقات المجتمع العربي بيدها السلطة ، وعرفنا جانباً من تلك العلاقات بين الأسر

العربية المتدانية القرابة ، وكيف كانت المرأة العربية في ظروف معينة تغلب عندها المصيبة حتى إنها لتحس بنوع من الكره لابنائها لانهم يشكلون جانباً من قوة زوجها وأقربائه . نجد مثل هذا في خبر رملة بنت معاوية ، وكانت عند عمرو بن عثمان بن عفان ، فقد « كتبت الى أبيها تشدو آل أبي العاص وأنهم يتكبرون علي حتى وددت أن ابني كان منبوذاً في البحر . فكتب اليها معاوية : أنا أشقى من أن تكوني رجلاً . قال : وعزل مروان عن المدينة » . لقد تغلب تعصب رملة لأبيها وآل أبي سفيان على حبها لزوجها وابنائها . وفي خبر آخر يرويهِ ابن عساكر عن مصعب الزبيري أنها قدمت الى أبيها فقال لها : « واسوأته ! وما للحرّة تطلق ، أطلقك عمرو ! » فأخبرته الخبر ، وقالت : فما زال يعد فضل رجال بني أبي العاص على بني حرب حتى ابني عثمان وخالد ابني عمرو فتمنيت أنهما ماتا (١٨) » .

ويبدو أن خلافة معاوية لم تكن خيراً على بناته ، بل كانت سبباً غير مباشر في تدمير حياتهن الزوجية ، فقد أخبرنا ابن عساكر أن معاوية زوج عبد الله بن عامر بن كريز ابنته هنداً (١٩) ، وكانت بارّة به ، « فجاءه يوماً بالمرأة والمشط ، وكانت تتولى خدمته بنفسها . فنظر في المرأة فالتقى وجهه ووجها في المرأة ، فرأى شبابها وجمالها ، ورأى الشيب في لحيته قد ألحقه بالشيوخ ، فرفع رأسه اليها فقال : الحقّي بأبيك ، فانطلقت حتى دخلت على أبيها ، فأخبرته بخبرها ، فقال وهل تطلق الحرّة ! قالت : ما أتي من قبلي ! وأخبرته خبرها ، فأرسل اليه ، فقال : أكرمتك ببنتي ، ثم ردّدتها عليّ ؟ قال : أخبرك عن ذلك : إن الله منّ عليّ بفضلها ، وخلقني كريماً ، لا أحب أن يتفضل عليّ أحد ، وإن ابنتك أعجزتني مكافأتها لحسن صحبتها ، فنظرت ، فإذا أنا شيخ ، وهي شابة ، لا أزيدها مالاً الى مالها ، ولا شرفاً الى شرفها ، فرأيت أن أردّها اليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف » .

وأخبار النساء العربيات ، والقرشيات منهن بشكل خاص يمكن أن تلقي ضوءاً على كثير من القضايا الاجتماعية التي ما زالت تشغل فكر الانسان العربي ، وأهمها حرية المرأة ، يريد أن يعرف الى أي درجة كانت تتمتع المرأة بهذه الحرية ، وكيف كانت علاقتها بالرجل . ويقيني أن هذا المرض للأخبار بأسانيداً الى

كتب معروفة يمكن أن يرينا بالفعل لا بالقول أن المرأة كانت تغالط الرجال، وتجلس اليهم ، وتحديثهم ، وتبدي رأيها في كثير من القضايا، وتعرف أهمية الرجل الفاضل فتختاره ، وترسل من يخطبه لها (٢٠) . وإذا كانت مراجعة هذه الأخبار تغني الباحث عن العودة الى كثير من الكتب فإن فيها من الحقائق التاريخية ، والنوادر الأدبية ما لا نجده في مصدر آخر لأن الكتب التي بين يدي المؤلف قد أتى عليها الزمن ، وحفظ لنا ابن عساكر قطعاً نفيسة منها لا يمكن أن يفيد في موضعها سوى أصل الكتاب الذي كان ينقل منه . وهيهات !

ويمكننا بعد الذي تقدم أن نقول : ان نساء ابن عساكر وضمن بين أيدينا طرفاً من الحياة الاجتماعية والسياسية ، والأدبية والدينية عبر خمسة قرون من تاريخ الحضارة العربية ، بالإضافة الى أخبار وقصص عن القرون الأولى من الحضارة الانسانية نجدها في تراجم الكاهنات والقديسات والملكات من أمثال بلقيس ومريم وسارة وهاجر . وكانت أخبارهن مطبوعة بطابع التشويق ، يحس قارئها بالمتعة وهو يضيع في متاهاتها ، لا يشعر بالملل مع طول الخبر ، لأن طول الخبر تلازمه الطرافة والندرة دائماً .

وقد وجدنا أن بين هؤلاء النساء الأديبات، والشاعرات والمحدثات، ومنهن من عرفت بخبر نادر ، أو ملحمة لطيفة . ولكثيرمنهن ذكر في كتب النسب والتاريخ، لأنهن عربيات من ذوات الحسب والنسب . وبعضهن كن زاهدات ، متعبدات ، وكانت حفاوة المصنف بهن كبيرة ، لأن الزهد والعبادة ، ومعرفة الله من أكبر الميزات التي تفتح باب التاريخ على مصراعيه أمام المترجمات ، ولذلك فقد احتلت أخبار التصوف والزهد جانباً كبيراً من تراجم النساء في التاريخ الكبير .

وإذا كنت قد أطلت الحديث عن النساء اللواتي ترجمهن ابن عساكر فقد كانت اطالة لا بد منها لازالة تلك البقع الصفراء من صفحة ناصعة البياض ، مزدانة بحروف زاهية تؤلف ملحمة للكرامة ، والمزة ، والاباء ، والأنفة . تمثل دور البطولة فيها الأم العربية بشكل خاص ، والمرأة العربية بشكل عام .

سكينة الشهابي

الهوامش :

- يحدثنا التاريخ ان عبد الملك بن مروان حده المهور
باربعمانه درهم ، والسبب في ذلك انه خطب زينب بنت
عبد الرحمن المخزومية فجاء من اخرى والدها بزيادة في
المهر قبل ان يصل هذا الوالد الى عبد الملك الذي ارسل
في طلبه ليخطب عليه ابنته . عندها قال عبد الملك ما معناه:
ان فضليات النساء تذهب بهن كثرة المهور . انظر
(ت ٣٤) من اخبار النساء في تاريخ دمشق .
- انظر (ت ١٦ من اخبار النساء في تاريخ دمشق) .
- انظر ت ١ من اخبار النساء .
- انظر ت ٦١ من اخبار النساء .
- انظر ت ٢ ، ١١ ، ٦٢ .
- انظر ت ١٢ .
- انظر ت ١٦٥ من اخبار النساء .
- ٨ - انظر ت ١٤٥ .
- ٩ - انظر ت ٣٨ ، ١١١ .
- ١٠ - انظر ت ١٤ .
- ١١ - انظر امثلة اخرى في ت ١١٢ .
- ١٢ - انظر ت ١٣٠ .
- ١٣ - انظر ت ٢٨ .
- ١٤ - انظر ت ٧٢ .
- ١٥ - انظر ت ١٤٤ .
- ١٦ - انظر ت ٤٥ .
- ١٧ - انظر ت ١٨٠ .
- ١٨ - انظر ت ٢٣ .
- ١٩ - انظر ت ١٢٤ .
- ٢٠ - انظر ت ١٥٢ .

★ ★ ★

من التراث الحديث

مُصلحاً اجتماعياً



محمد راتب الحارثي

لمحة سريعة عن حياته :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تترنح تحت ضغوط الأخطار الخارجية المتمثلة في مطامع الدول الأوروبية ، وضغوط الأخطار الخارجية المتمثلة في مطامع الدول الأوروبية ، وضغوط الأحداث الداخلية الناجمة عن انتشار الوعي القومي لدى القوميات الكثيرة التي كانت تنضوي تحت لوائها ، وكذلك نتيجة انتشار الجهل ، والتسلط ، وتفشي الرشوة ، وسوء الإدارة ، وسوى ذلك من السيئات ، في تلك الفترة الحرجة من عمر الدولة العثمانية ، وفي عام ١٨٥٥* ولد في حمص لأسرة عريقة في النسب السيد عبدالحميد الزهراني (١) وفي مسقط رأسه تعلم العربية ، ثم التركية ، ثم تتلمذ على علماء حمص فتتمق في الفقه وعلم التوحيد وعلوم الدين . وفي عام ١٨٩٠ سافر الى الآستانة ، ومنها الى مصر ، حيث أتيح له أن يتصل بالكثير من العلماء والأدباء . ثم عاد الى حمص والبلاد يومئذ رهينة الحكم الحميدي

المستبد ، الذي كان يعتمد على الارهاب والبطش والجوايس ، والذي كان يعد على الناس أنفاسهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وصار الناس يومها « يخشون من الجدران أن تنم عليهم » (٢) ، ولكن نفس الزهراني الأبية وتحسسه بهوم قومه ووطنه ، دفعه للمساهمة في مقاومة الاستبداد والظلم بالوسائل المتاحة . فأصدر في حمص جريدته السرية (المنير) التي كان يطبعها على الجلاتين ويوزعها على أصدقائه ومعارفه وبقية المواطنين ، مهاجماً فيها جور الحكم الاستبدادي الفاشم وفساده ويحاول أن يوقظ الشعور القومي (٣) وفي عام ١٨٩٥ غادر حمص الى الآستانة بقصد التجارة ، وهناك اتصل ببعض الشخصيات السياسية والعلمية والأدبية ، مما دفعه الى طلب المزيد من المعرفة . فأخذ يرتاد المكتبات العامة ، ويطلع على ما فيها من الكتب ، لا سيما الكتب التي تتناول مواضيع العمران والاجتماع والتاريخ والسياسة . وفي الآستانة أسهم بإصدار جريدة « معلومات » التي كانت تصدر بالتركية ،

* تاريخ ميلاده (١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م) ذكره الشيخ أحمد النبهان والأمير مصطفى الشهابي والدكتور سامي الدخان ؛ خلافاً لما ذكره الزركلي في « الأعلام » ونقله عنه الدكتور الركابي أي عام ١٨٥٥ م . (المجلة)

والتي استمرت في الصدور ثلاث سنوات الى أن أغلقتها السلطات بعد أن ضاقت ذرعا بانتقادات الزهراوي للأوضاع السيئة التي نتجت عن تمصّب الاتحاديين ، حيث كان الزهراوي يكتب في كل عدد مقالا افتتاحيا يحلل فيه أوضاع الدولة . « وتعتبر مقالاته وثائق هامة جدا لدراسة أوضاع الدولة العثمانية في ذلك الزمان » (٥) ونظرا لمقالاته المناوئة للاتحاديين ، ولنشطاته التي تستهدف فضح أخطائهم أوصت الحكومة بعدم إعادة انتخابه لمجلس المبعوثان ، وهذا ما كان . وبعد مضايقات كثيرة غادر الأستانة الى مصر حيث اتصل بحزب اللامركزية وانتسب اليه . ولما انعقد مؤتمر باريس العربي في حزيران عام ١٩١٣ كان الزهراوي مندوبا عن الحزب للمؤتمر . وهناك تم انتخابه رئيسا للمؤتمر ، وبعد نشر مقررات المؤتمر ، اتصلت به الحكومة العثمانية ، وعرضت عليه العضوية في مجلس الأعيان فقبل مما أثار عليه سخط المؤتمرين ، وسخط رجال العرب ، لأنه يقوله هذا المنصب يكون قد خالف واحدا من مقررات المؤتمر يقضي بعدم قبول أي منصب حكومي ما لم تستجب الحكومة لكافة مقررات المؤتمر . الا أن الزهراوي دافع عن نفسه بأنه ما قبل هذا المنصب الا لأنه يتيح له أن يراقب الأمور عن كثب ، ويكون أقدر على خدمة قضية أمته ، وأنه ما قبل المنصب الا بعد الرجوع الى حزبه (اللامركزية) . وقد تأكد صدق نيته من مراسلاته وتأييد بعض أصدقائه (٦) . وما يرجح صدقه كذلك أن قائمة الاتهامات التي أدين بها على يد مجلس عاليه العربي تضمنت أنه ما قبل المنصب الا بعد التشاور مع حزب اللامركزية والذي كان قد أصبح رئيسه ، وأنه ظل على اتصال مستمر معه .

وفيها قسم يصدر بالعربية ، كان الزهراوي يتولى أمر تحريره . وكان ينتقد فيه الأحوال السيئة ، مما دفع السلطات الى وضعه تحت المراقبة ، ثم نفته الى دمشق ووضعت تحت الإقامة الجبرية . ومن دمشق صار يرسل جريدة (المقطم) المصرية ، ونشر فيها سلسلة مقالات شكلت (رسالة في الامامة وشروطها) ، وبذلك يكون الزهراوي قد أدلى بدلوه في موضوع اجتذاب علماء وكتاب تلك الفترة ، اذ ندر أن تغلف واحد منهم عن الكتابة في هذا الموضوع ، وقد أورد الزهراوي (٢٢) اثنين وعشرين بندا تثبت أن السلطان عبدالحميد لا يصلح للخلافة ، ويجب خلعها منها . ونشر رسالة أخرى عن الطلاق أثارت عليه ثائرة المتزمطين من المشايخ ورجال الدين . ولما استطاع أن يفلت من كيدهم دبروا له مكائد أخرى ، فأثاروا ضده مشاكل تتعلق بالتصوف (٤) وبالساسة وهما من الأمور المحرمة يومئذ ، مما أجبر الوالي على أن يرسله مغفورا الى الأستانة ولم يخرج من السجن الذي حكم به عليه الا بعد توسط الشيخ أبي الهدى الصيادي له ، فأعيد الى حمص ، ووضع في الإقامة الجبرية من جديد ولكنه استطاع أن يهرب الى مصر عام ١٩٠٢ حيث أتيح له أن يتصل برجال الفكر فيها . واشتغل هناك بالصحافة ، حيث شارك في تحرير (المؤيد) وبقي في مصر حتى عام ١٩٠٨ حين أطاح الانقلاب بالسلطان عبدالحميد ، وتم اعلان الدستور ، والحكم النيابي ، وعاد الزهراوي الى حمص ، وانتخب نائبا في مجلس المبعوثان عن (حمص وحماه) . وفي الأستانة شارك في تأسيس حزب (الحرية والاعتدال) ، ثم حزب (الحرية والائتلاف) المناوئين لحزب الاتحاديين وجمعية الاتحاد والترقي . وأصدر هناك جريدته الأسبوعية « الحضارة » ،

وهو يدعو للتمسك بالاعتدال حتى في
مخاصمة الخصوم » ونصبح اخوانا المظاهرين
لحزبنا « حزب الحرية والائتلاف » من صحافيين
وغيرهم ، أن يتخذوا الاعتدال خطا ، ويتجنبوا
مس كرامة الأفراد الذين انضموا الى جمعية
الاتحاد ثم لم يتيسر لهم الاطلاع على
حقائق آباء هذه الجمعية ، ومدبري
أسرارها » (١٠) .

ومن الصفات البارزة عند الرجل
تمسكه بالأخلاق وتقديره إياها على العلم
« أن محرر هذه السطور لا يمتد في الرجال
بكثرة المعارف ، وإنما يمتد بجودة الاخلاق » (١١)
أن أخلاق الزهراوي كانت تدفعه لأن يكون
منصفاً وعادلاً وذا عقل منفتح بعيد عن التعصب
« أنا امرؤ مخلص ، أن خالفت ، فمن نية
حسنة ، وأنصف مخالفي » . وأن خالفت فمن
نية حسنة ، ولا أذهن حليفي » (١٢) .

ومن صفاته البارزة طلبه المستمر لللمعة ،
وحبه أبناء قومه على طلب المزيد منها ، وعدم
التأفف من مشقات الحصول عليها « فكما
لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما يسد به
الجوع مثلاً ، لا يحسن التأفف من تحمل أعباء
ما به كفالة عزة النفوس » (١٣) ويستهجى
وقوف الاتعاديين في وجه العرب والحيلولة دون
حصولهم على المزيد من العزة « وليس شيء في
نظر العاقل بأسخ من صدر رجل أتخمته
الأنانية ، رجلاً آخر يحب أن يتفدى بقليل من
حب نفسه وقومه » (١٤) ويضيف « نحن
لا يفيظنا أحد في الدنيا يدعو قومه الى التزهد
من المجد ، ولا نقبل من أحد أن يفيظه منادوه
الى مثل ذلك » (١٥) .

ومن الصفات البارزة في فكر الزهراوي
الانفتاح على الآخرين ، وعدم التقوقع ضمن
أوهام التعصب . فقد كان يعتقد أن العاقل

وفي ليلة السادس من أيار عام ١٩١٦
قدر لعبد الحميد الزهراوي أن يكون أحد
الشهداء الأبرار الذين زفتهم الأمة العربية
طلان نور ، ومصاييح هداية ، وقرابين مجد ،
حيث أعدم في ساحة المرجة بدمشق مع شهداء
الدفة الثانية ، ودفن في مقبرة باب الصغير (٧)
وبذلك أسدل الستار على حياة واحد من
أكثر أبناء الأمة حيوية ونشاطاً وصدقاً .

أهم ملامح فكره :

إذا كان هناك من ميزة تميز فكر هذا
الرجل فهي الحيوية ، والنشاط الذي لا يفتقر .
فهو قد بدأ كفاحه شاباً ، ولم يتوقف عن
هذا الكفاح لحظة واحدة ، وتحت كل الظروف .

ويبدو أن مهنة الصحافة التي اجتذبت
إليها ، والتي أحب أن يعرف بها ، قد فرضت
عليه مثل هذه الحيوية . وقد كانت الصحافة
بالنسبة إليه الوسيلة الناجعة لنشر التوعية
السياسية عند شريحة عريضة من المجتمع .
لذلك فقد لجأ إليها منذ أن كان شاباً يطبع
جريدته السرية على الجلاتين . ولم يترك قلمه
لا في إقامة ولا في سفر ، حيث كان يرسل
المقالات الى جريدته « الحضارة » وإلى بقية
الجرائد في الوطن ، من على ظهر السفينة أو
من أية مدينة يحل فيها (٨) .

ومن الصفات البارزة عند الزهراوي ،
والتي أحب أن يعرف بها ، الاعتدال والبعد
عن التطرف . وهو يعتبر أن البعد عن الاعتدال
خطأ فهو يقول : « الاعتدال مشرب هذه
الجريدة « الحضارة » ، لأنه الخلق الذي يهواه
صاحبها ، ويحرص على نبيله والتخلق به ،
ويدعو إليه نفسه وغيره . ونظن أنه هو الذي
يغلب عليه وعلى جريدته ، وإن شد منه
أحياناً ، لذلك لأننا بعيدون عن المصمة
المطلقة » (٩) .

ناقدا اجتماعيا فذا ، وسياسيا ذكيا مطبوعا
 « وتعتبر مقالاته وثائق هامة جدا ومصدرا هاما
 لدراسة عصره من الناحيتين الاجتماعية
 والسياسية » (٢٠) وسنحاول أن نتلمس الأفكار
 الاصلاحية للزهرابي من خلال دعوته للتوعية
 السياسية والنضال السياسي ، ومن خلال
 دعوته الى الحرية ومقاومة الاستبداد ، ومن
 خلال دعوته للمعدل وللانفتاح ومقاومة
 التعصب . وكذلك من خلال دعوته للمشاركة
 الايجابية في العمل الوطني وعدم الركون الى
 السلبية .

التربية السياسية :

إذا كان الامام محمد عبده يعتقد أن
 السياسة تضطهد الفكر والدين والعلم ، ولذلك
 فهو يستعيز بالله من السياسة ومن لفظ
 السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف
 يلفظ من كلمة السياسة ومن كل شخص
 يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة (٢١)
 لأنه كان يعتبر السياسة أسـ مصائب الشرق .
 فان الزهرابي على النقيض تماما ، كان يرى
 « أن النوع الانساني لم يتيسر له قطع المراحل
 في التكامل الا على يد السياسة ، وأن المبتلين
 بمشق الاصلاح لا بد لهم من مددها . فان ما
 يطلبونه للانسانية ، قل أن يكون ملقى على
 أبوابهم ، يربحونه لها وهم مستريحون » (٢٢)

فالسياسة عنده طريق التمدن ، والعمل
 السياسي هو الذي يؤدي الى نيل الحقوق
 والتقدم على طريق الاصلاح . لذلك فهو يلج
 على أهمية التوعية السياسية أو (التربية
 السياسية) كما كان يسميها ، ويحاول على
 طريقها خلق رأي عام مستنير يؤمن بالحرية
 والمعادلة والمساواة ، ويتخذ من النظام النيابي
 والدستور منهاجا وحيدا للاصلاح ، وللتخلص
 من كل سيئات الماضي وخطيئاته . فالسياسة

الذي يزن للأخرين بالميزان الذي يزن به
 نفسه ولقومه . فهو وان كان يريد الخير
 لنفسه ولقومه ، ولكنه يدرك أن لغيرهم الحق
 مثل ذلك « ومن كان بعيد النظر ، سره كل
 تقام لأية جماعة كانت ، ولا سيما جماعته ،
 حزنه كل تسفل لأية جماعة كانت ، ولا
 سيما جماعته » (١٦) .

الزهرابي . . . المصلح الاجتماعي

إذا كان البعض يتهم الزهرابي بأنه
 لم يكن يملك تفكيرا عميقا ، كما أنه لم يكن
 يملك ثقافة عصرية « (١٧) فإني أعتقد أن
 الذي دفع الكاتب لهذا القول هو الأسلوب
 سهل الذي عرض فيه الزهرابي أفكاره « إذ
 أن أسلوب الزهرابي واقعي ، فيه صورة
 ففكر الاجتماعي الذي وصف الحياة التي
 اشها ، ونادى بالاصلاح الذي ينشده ، لذلك
 جاءت مقالاته مصورة لعصره ولطراز الحكم
 التنازع عليه بين الفئات المختلفة بعبارات
 واقعية تعتمد على التصوير أكثر مما تعتمد
 على الخيال ، وتعمد الى السهولة أكثر مما
 تكلف الزخرف يضاف الى هذا أن
 كتابته في الصحيفة كانت تحمله على هذا
 النوع من الكتابة السهلة « (١٨) فهو إذن لم
 يكن ضحل التفكير بما توهم البعض ولم يكن
 بعيدا عن ثقافة عصره فهو وان لم
 تطلق مثل هذه الثقافة في تحصيله الدراسي الا
 أنه لم يتوان عن الاطلاع على ما أنتجته قرائح
 المفكرين . ولقد كان منفتح العقل ، يتجاوز
 التقليد ويدعو الى العلم والاصلاح . حتى
 أن من اتهمه بعدم العمق في التفكير قد عاد
 يقول بعد أسطر قليلة ان الزهرابي « ألج
 على العلم والاجتهاد والتربية ونقل العلوم
 لعصرية والحضارة الأوروبية ، والتوفيق بينها
 وبين الاسلام » (١٩) ومن تتبع مقالات الزهرابي
 في جريدته (الحضارة) نلمح في الزهرابي

« كانت من أعظم ما احتاج اليه هؤلاء البشر في أدوار أطوارهم ، وأطوار أدوارهم . فأننا كما نرى للتألف أسباباً وآثاراً طبيعية ، نرى للتنافر أسباباً وآثاراً طبيعية أيضاً . فالإنسان مضطر بين هذه وتلك ، الى مدافعة أسباب التنافر وآثاره بين المتألفين ، والأخذ بأسباب التألف بين المتنافرين ، وهذا هو أصل السياسة » (٢٣) فالسياسة «تعلم أسباب التعاون ووسائله اذا جهلت ، وهي التي تذكر بها اذا نسيت ، وهي التي تنير طرقها اذا عميت . وهي تمنع الآمال ، وهي التي تطيب الضمف ، وتتمهد مفارس القوة » (٢٤) .

والتوعية السياسية تجعل الأفراد والجماعات أكثر نضجاً وتزودهم بالمتاح اللائق للتعامل مع الآخرين . « اني أرى للفرد ان خالف الجماعة أن يكون حسن الأدب في خلافه ، وأرى للجماعة ان خالفت جماعة أخرى أن ترى لنفسها الحكمة في مجاري الخلاف ، وتتعلق بالشجاعة في سلمها وخصومتها » (٢٥) وهذا هو بالضبط ما تتوخاه التوعية السياسية .

وبنظرة بعيدة صائبة يرى الزهراوي أن الاختلاف الديني والاختلاف الجنسي (القومي) قديمان ، ولكنهما « لم يحولا دون تعاون المختلفين فيما لهم فائدة فيه مشتركة ، كعمران المزارع ، واقامة المتاجر والمصانع ، والتوسع في الاختراع ، وتكثيف أنواع البضائع ووجدناهما لم يمنعا أن يتساكن المتخالفان في بلد واحد ، وببيت واحد » (٢٦) والاختلاف الأخطر ، والذي يمكن أن يمزق جسم المجتمع ، اذا لم يتم على أسس من الوعي والمقلاقية ، وتربية الاستعدادات التي عند الفرد والجماعة ، هو الاختلاف السياسي « فاذا رأينا أحياناً أثراً عظيماً للاختلاف الديني أو الجنسي ، فاناغب التتبص والامعان نجده في الحقيقة أثراً للاختلاف السياسي ، لذلك أود ، وأرى أن

نلتقي بالا ونظراً قبل كل شيء الى هذا الاختلاف فاذا تعلمنا الطب المطلوب لمعالجة قروح اولاً وبالذات كانت لنا الفائدة المطلوبة لمداواة قروح الاختلاف الجنسي والديني من غير ما نقص » (٢٧) . ومن هنا كان من الواجب تربية المواطنين تربية سياسية تجعلهم أكثر وعياً ، وأبعد بصراً ، وأقدر على ممارسة الدور الذي يجب أن يضطلع به كل واحد منهم ، بوصفه مواطناً له حقوق ، وعليه واجبات . مما يؤدي الى قيام جماعة متحابية ، قوية ، معافاة . اذ ان السياسة التي يجب أن تناضل الجماعة في سبيلها هي التي تقوم « على دفع الأشخاص الضارين بها عن مواقع الاقتدار ، وإعانة النافعين لها على بلوغ تلك المواقع » (٢٨) فاذا وصلت الجماعة (الأمة) الى درجة من الوعي السياسي ، فانها تجد في نشوء الأحزاب المتعددة نعمة لا نقمة . وكذلك فان امة تشمر بأهميتها لأنه « لا يكون زعيمها قائماً فيها بالغلبة بل بعون وتأييد منها » (٢٩) .

وبمباراة أخرى ان الزهراوي يقصد بالتوعية السياسية (التربية السياسية) تنمية استعداد المواطنين للمشاركة الفعالة في شؤون بلادهم وأن يعرف كل فرد منهم أن له دوراً عليه أن يؤديه . فالتوعية السياسية عنده تهدف قبل كل شيء الى انشاء المواطن الصالح ، المزود بمعلوم عصره ، البعيد عن التعمص والانانية والحق . اذ يجب أن تبنى التربية السياسية على (محبة الناس بعضهم بعضاً بقدر الامكان ، وان كان بعضهم أجنبياً عن بعض » (٣٠) . وهو يرى أن التربية ممكنة ، ذلك أن الاستعداد الذي لدى الأمم ليس فطرياً « بل هو باذن الله وتدريبه يقبل الامتراج ، وتحري عليه أحكام التربية لذلك فان رسالات المرسلين ، ودعوات المصلحين والمرشدين انما جاءت لتنمية هذا الاستعداد ، وتوجيهه » (٣١)

- ومن نتائج الوعي الانساني الذي ينتج عن التربية السياسية ، أن الأمة تشارك في تقرير مصيرها ، بعد أن كانت مجرد رعية . وبالوعي السياسي تستطيع الأمة تجاوز الخلافات الطارئة بين بعض جماعاتها .

- ومن نتائج هذا الوعي كذلك فسح المجال أمام العقول للانطلاق من القيود التي تكبلها ، ومتى انطلقت العقول من قيودها ووجدت مضطرباً لحركتها ، ذهبت من الفكر الى أقصى ما استمدت له ، وتسربت منه في مذاهب من الرأي ، لم تكن لتتهدى اليها لولا انطلاقها من وثاقها « (٣٦) نتيجة الوعي والنضج .

وما دمننا بصدد الحديث عن التربية السياسية عند الزهراوي لا بد لنا من التعرض للكيفية التي عالج بها الزهراوي واحدة من أعقد وأخرج القضايا في ذلك الوقت ونعني بها قضية (الاتحاد) بين أقاليم الدولة العثمانية . ولقد كان الزهراوي يومئذ مع الاتحاد وكان تأييده للاتحاد ينبع - كما سنلاحظ - من أسباب سياسية وعمرانية واجتماعية أكثر مما يعتمد على أسباب وروابط دينية وهو وإن كان يؤيد الاتحاد إلا أنه يخضعه لشروط وتحفظات عديدة تدل على وعيه ، ونضجه فهو يهاجم الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) دون موارد ، ويتهممهم بالتعصب واتخاذ قضية الاتحاد ذريعة للتسلط ولتقديم العنصر التركي على بقية العناصر . وبعد أن يعطي الزهراوي تعريفاً للاتحاد النافع ، يرى أن للاتحادات الانسانية من حيث هي ثلاثة أسباب : الأول سائق الدين ، والثاني سائق الأسر والقتل والاضطرار ، والثالث داهي الاحتياجات المدنية والعمرانية . وبعد أن يستبعد الحديث عن السببين الأولين ،

ويبذل الزهراوي جهداً كبيراً لاقناع المواطنين بقيمة الدستور والنظام النيابي ، حيث يعتبرهما المنهاج اللائق ، والمناسب ، حصول الانسان على حقوقه من حيث هو نسان (٣٢) . وهو مؤمن بفائدة هذا النظام ، سواء أزال الشكوى من المصائب التي يواجهها الجمهور أو لم تزل . والدليل على قيمة هذا المنهاج ، أنه قد أوصل الآخرين الى درجات من الرقي لم يصلوا اليها بغيره (٣٣) ويلقي الزهراوي تبعة التوعية السياسية على عاتق الكتاب والعقلاء « المثقفين » وذلك من خلال الاهتمام بثلاثة أمور : الأول عدم التستر على الأخطاء ، وعدم كتمانها ، ومن كنتم دامه قتله . والثاني أن يقاوموا مصدر هذه الأخطاء ، ومنبهمها جهد طاقاتهم . والثالث أن يفندوا مزاعم من يريدون القيام تبعة هذه الأخطاء على طبيعة الدستور ، والحكم النيابي « (٣٤) » .

النتائج التي كان يتوخاها من التربية السياسية :

- انهماك أكبر قدر من المواطنين في العمل السياسي ، ذلك أن الزهراوي ، بصفته سياسياً مطبوعاً ، قد أدرك أن النظام النيابي يفضي الى مثل هذا الانهماك ، وذلك لأن مجال الكلام يتسع ويكثر الكلام على حقوق الأفراد والجماعات ، والبلاد والأقاليم ، تنفتح أبواب للجرائد ، التي تمبر عن الجماعة التي تصدر فيها .

- ومن نتائج الوعي السياسي ، التمايش بين الجماعات والطوائف المختلفة فهو يقول « والذي يسترعي النظر في هذه الجامعات أمران : الأول أن كل واحدة لا تنافي الأخرى إذا نظفت العقول ، وصلحت التربية . أما إذا لم تصف العقول ، وتصلح التربية ، فإن المنافسة تحدث وتقلق - حينئذ - نتائجها « (٣٥) » .

أكثر مما تدعو اليه الشعوب والدول الأوروبية هذه الأيام وبعد أكثر من نصف قرن في قيامها بتأسيس ما يسمى بالسوق الأوروبية المشتركة، والجماعة الأوروبية . حيث لكل أمة كيانها ومقوماتها ، ولكنها تتعاون على ما به ضمان المزيد من القوة والرفاهية لشعوبها .

وبعد أن تؤتي التربية السياسية أكلها ، وينتشر الوعي السياسي عندها « لن نختلف يومئذ الا متحابين ، ولا نتفق الا متواصين بالحق متواصين بالصبر . وعند التواصي بالحق والتواصي بالصبر تنتهي خطوط التربية السياسية » (٤٠) ويكون الوعي قد بلغ أوجه ومدا . ذلك أن الشعب الواعي سياسياً هو الذي يصبر على الشدائد ، دون أن يتراجع عن حقوقه قيد أنملة .

الدعوة الى نبذ السلبية :

كان من أثر الارهاب والظلم والبطش الذي صاحب الحكم الحميدي بصورة خاصة ، أن ابتعد الناس عن المشاركة في الحياة العامة . وصاروا يحذرون الادلاء برأيهم في أي شأن من شؤون الأمة . وتركوا أمور السياسة لأناس تنطموا للقيام بذلك تحت حماية جواسيس السلطان ومباركتهم . الا أن الزهراوي ، بعد أن تم القضاء على الحكم المستبد وتم اعلان الدستور أراد من كل مواطن أن يمارس حقه ، ويقوم بدور فعال في الأمور العامة كما نص على ذلك الدستور . لئلا يبقى الدستور حبراً على ورق ، ولئلا يبقى مجرد اعلان نظري لا يظايره التطبيق العملي . وهو حين كان يدعو المواطنين للمشاركة في الحياة العامة كان مؤمناً بأن من طبيعة النظام النيابي - كما مر معنا - أن يفسح المجال أمام كل مواطن للانهمك بالعمل السياسي . لذلك كانت مهمة الزهراوي محاولة ازالة الخوف المترسب في النفوس

وبعد أن يرد على من يزعم بأن المقصود بالاتحاد هو اتحاد المسلمين الثمانيين ، أو اتحاد الترك يقول : « كلامنا في مسألة الاتحاد مع الذين يقولون نحن مدنيون ، ونوضح كلامنا فنقول نحن مسلمون ولكننا لانريد اتحاداً يكون خارجه أبناء وطننا من غير المسلمين ، ونحن عثمانيون ، ولكن لا نريد اتحاداً يكون خارجه كل أبناء الوطن من غير الترك » (٣٧) .

و « تفسير هذا الكلام بغاية الصراحة ، أن الاتحاد النافع هو الذي يبقى فيه العربي ، مثلاً ، عربياً ، والرومي رومياً ، والالباني البانياً . ولا يسمى أحد بأحد الظن حين يريد خدمة لسانه ويسعى في ترقية أفكار قومه ، ويظهر تمنيه بأن يكثر بينهم العلماء والأدباء ... والاتحاد اذا كان من أجل الوطن (كما يدعي الاتحاديون) فالرجل الذي يستطيع أن ينسى قومه وقوميته ، ليامنه على الوطنية الا أحق ، فإن من لا قوم له لا وطن له ، ومن ينسى أهله ، فهو ناس وطنه قبل ذلك » (٣٨)

ويعلن بغاية الصراحة بأنه لا يستطيع أن يقبل باتحاد يراد به أن يتنازل التركي - مثلاً - عن تركيته ، والعربي - مثلاً - عن عربيته لأجل خاطر الاتحاد ، فهل فهم دلالو الاتحاد (٣٩) .

ومما سبق ، وغيره كثير ، نستنتج موقف الزهراوي من هذه القضية فهو وإن كان مع الرابطة والائتلاف الا أنه لم يكن على استعداد أبداً للتضحية بأمته وقوميته على مذبح الاتحاد كما كان يدعو لذلك المنصريون من الاتحاديين . وهو إن كان مع الاتحاد فلأسباب عمرانية وحضارية ومدنية وليس لأسباب دينية أو سوى ذلك مما قد يشتم منه رائحة التعصب . وهو في دعوته هذه لا يفعل شيئاً

بهذه المبارات الشديدة للهجة يحاول الزهراوي أن يوقظ ما تبلد من الأحاسيس ، ويستنهض ما نام من المشاعر ، ويحاول أن يزوج بكل مواطن في خضم الحياة العامة ، وفي لجنة العمل السياسي . ويذكر المواطنين بأن الظلم الذي ربما يكون واقعاً على الأمة ما كان ليقع لو أن كل مواطن انبرى لمقاومته ، وخرج عن صمته ، وخرج من عزلته « ان دفاع الباطل واجب من أول الواجبات ، والتقاعد عنه اثم وخطيئة من أول الآثام والخطيئات ، واعلموا أنه لا يتنزه عن الوقوع في الخطأ فرد ولا أمة من الأمم . ولذلك لا يكون الحساب شديداً على خطأ صدر فبادر الفرد أو الأمة الى التطهر منه . وانما يشتد الحساب في الخطيئات التي يهمل الواقعون فيها أمرها وعدم المبالاة بمقابلة أمرها . ويكون الجزاء في مثل هذا التماذي شديداً » (١٣) .

ويرجع الزهراوي بذلك ، الظلم والقهر الذي يعاني منه المواطنون ، الى سلبية هؤلاء المواطنين ، وابتمادهم عن ابتدار حقوقهم كمواطنين ، وعدم مقاومتهم لذلك القهر والظلم ، والاكتفاء بالشكوى ، وما كان للشكوى في يوم من الأيام ، أن تميد حقاً ، أو تردع ظلماً .

« يشكو الناس كما كانوا يشتكون أسس ، ولكن ماذا تنفع الشكوى اذا لم تكن معها روح مقاومة ، تالله لو ظلت الأمم طول دهرها حليفة الشكوى مع عدم روح المقاومة لما زال عن رأسها المتغلبون ، الذين يحبون أن يعمدوا بما لم يفعلوا ، ويكرهون أن يناقشوا بما يفعلون » (١٤) .

ومحاولة دفع الناس الى الخروج من عزلتهم وسلبيتهم . وأبدى تضجره من شعار سلبي خطير غلب على الناس يومها ، وهو شعار (لا يميني) فهو يقول : « تذكروا يا قوم ما أهملناه من القواعد الأساسية ، والتي لا تقوم حياة الأمم بدونها ، لقد شاعت بيننا كلمة (لا يميني) شيوعاً فاحشاً ، ترى منكراً من المنكرات يتفشى . . . فتذكر ذلك لعالم من علماء الدين فتسمعه يقول (لا يميني) وتذهب الى رؤساء الأسر والبيوتات فتجد ثمة (لا يميني) » (١٥) وبعد أن يبين خطر مثل هذا الشعار - الذي يبدو أنه ينتشر دائماً في أوقات الاستبداد - يحاول أن يبيد الطمأنينة الى النفوس ، وأن يستنهض الهمم ، ويذكر أبناء الأمة بأنهم يجب ألا يكونوا مجرد رعية ، بل يجب أن يعرفوا أنهم مواطنون ، والمواطن له مصلحة في وطنه ، وله دور في اختيار حكومته « ومتى كان الحاكم خاضعاً لشروط ، كان منصوباً بيد الأمة ، وليس بناصب نفسه بنفسه ، ومتى كان كل فرد من الأمة عضواً أساسياً فيها كان بالطبع شريكاً في نصب الحكومة فان حرست الحكومة الكيان ، وأقامت العدل ، في أمة من الأمم كان ثمة ربح لكل فرد من أفراد الأمة ، وان لم تفعل ذلك كان هناك خسر على كل أحد من أحادها ، وبديهي أن الأمة التي لا تتقن الحساب ولا تتوصل لدفع أسباب الخسر ، ليس لها أن تشكو غير نفسها . أما الأمم الميئة ، المستسلمة للمتغلب فانها جديرة اذا لم تر العدل أن تقول كما يقول العبد المظلوم المهان : لم يشبمني سيدي ، لم يكسني ، لم يرحمني ، لم يخفف عني التعب . ولكن ماذا تفيد العبد هذه الشكوى ، اذا كان لا يملك حيلة سواها . وما أشنعها من مهانة اذا ابتليت بمثلها أمة من الأمم » (١٦) .

علينا اليوم هو سد كل المنافذ التي يخشى أن تعود تلك السيئة من جهتها . نعم أن الروح الذي كان سائداً في ذلك العهد هو روح الاستعباد . . . حتى لقد أصبح من أبده الأشياء أن يقول الناس أجمعون نحن عبيد السلطان ، وعبيد الحكومة ، وصار أحب الألقاب إلى المقربين لقب العبد الخاص « (٤٨) » ويستمر بتذكير المواطنين تلك الفظائع التي شملت كافة شرائح المجتمع « فالأفراد من العسكر كانوا يخدمون في تلك العسكرية ثماني سنين وتسع سنين في الغالب . . . وأكثرهم لا يفرحون بلباس جديد يناسب الإنسان طول هذه المدة وبعضهم تأتي عليهم ظروف لا يكفون فيها ألم الجوع » (٤٩) . و « المغمرون بالمعارف مثلاً قد حيل بينهم وبين المباحث والكتب الاجتماعية والسياسية ، وحرّم عليهم اقتناء شيء من تلك الكتب تحريماً يؤيده العقاب الشديد اذا وقعت المخالفة (٥٠) » و « لا تسلم من حالة الفلاح المسكين ، فإن الاستعباد قد أناخ عليه بكلّ كفه حتى تركه لا يستفيد من كل متاعه المتصادمة إلا أحسن العيش مشوباً بالذلة والمهانة » (٥١) والصناع « قد أنهكتهم تلك العسكرية التي وصفناها آنفاً حتى أصبح الفلاح الموصوف آنفاً أحسن حالا منهم » (٥٢) . والتجار بحكم صلاتهم التجارية مع الأمم الأخرى و كانوا يمرفون الفرق بين البلاد التي تتجلى فيها حقوق الإنسان من حيث أنه إنسان ، وبين البلاد التي يقول أهلها نحن عبيد الحكومة » (٥٣) . والأموال كانت تجبى من المواطنين تحت أسماء شتى « كثير منها غير مرتبط بقانون مستمر ، ومن تلك الأسماء : الاعانات ، والقروض الجبرية . . . » (٥٤) .

بعد أن يذكر الزهراوي المواطنين بمآسي وفظائع العهد البائد والتي كانت نكبتها ما تزال تحت أضراسهم ، يهيب بهم للانخراط في

ويدرك الزهراوي أن المقاومة تعني الممانعة والمكابدة وتحمل الأعباء والتعبات الثقيلة ، لذلك فهو يهيب بالمواطنين لتحمل تبعات المقاومة لأنه « كما لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما يسد به الجوع مثلاً ، لا يحسن أيضاً التأفف من تحمل أعباء ما به كفالة عزة النفوس » (٤٥) ويضيف مخاطباً كل فرد من أفراد الأمة « أحب أن أذكرك بأن الإنسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً ، وبديهي أن لا عزة مع الاستعباد » (٤٦) .

الدعوة للحرية ومقاومة الاستبداد :

الزهراوي رجل سياسة ، وهو سياسي ذكي ، يكره الاستبداد لأنه يخلق الفكر ، ويسد المنافذ على العمل السياسي الحر . لذلك لاغرو أن بدأ الزهراوي حياته العامة مناضلاً ضد استبداد السلطان عبدالحميد حيث لم يرهيه البطش ، ولم ترهيه الجواسيس ، بل بدأ يطبع جريدته السرية على الجلاتين ويوزعها فاضعاً فيها سيئات الحكم المستبد الفاشم في وقت كان فيه الناس يخافون من الجدران أن تنم عليهم ، فراحوا يتسابقون في الرياء ، والسميد عند نفسه من رأى أنه أجهر الناس وأفصحهم وأبلغهم في مدح ذلك الحاكم المطلق « (٤٧) » أما هو فقد انبرى لمقاومة الاستعباد والاستبداد لأنه رأى فيه مذلة أمة مذلة لقومه وأمتة .

وبعد أن تم القضاء على ذلك الحكم المطلق الرهيب ظلت النفوس متهيبة من الولوج في ميدان العمل العام . فكانت مهمة الزهراوي كما سبق وذكرنا استنهاض الهمم فبعد أن يذكر بفظائع العهد البائد « أن السيئة العظنى التي هي غلبة الاستعباد ولا أقول الاستبداد قد زالت بحول الله . وأعظم ما يجب

وبالمواطنين دون أن يتغير شيء • بل إن الاتحاديين قد انحرفوا بالانقلاب إلى دروب مظلمة من التمسب الأرعن • وبقي الظلم والاستعباد ، بل زادا • عندها رفع الزهراوي صوته من جديد مندداً بالظلم : «الذين كانوا يعلمون عبد الحميد دروس الاستبداد ، والذين كانوا يعملون بأمره كل شيء ، مما جاز وما لم يجز ، والذين كانوا من عبيده الصغار ومن عبيد عبيده ، والذين كانوا من السماء والرشاة له بحق الأبرياء ، والذين كانوا يتمنون أن يكونوا من قبلي أعتابه ، وخدام أبوابه ، كل هؤلاء رأيناهم يتسمنون مقامات عالية متنوعة في هذا العهد أيضاً • رأينا الذين كانوا معروفين بالرشوة لا يزالون في مراكزهم ، والموصوفين بالجهل ما فتئوا في مواقعهم • أما العدد القليل الذين طردوا إذ ذاك فقد تبين فيما بعد أنهم لم يطردوا لأنهم جهلاء أو مرتشون ، بل كان ذلك انتقاماً منهم لبعض الأشخاص • ثم تبين أن من دخلوا حديثاً في الوظائف هم من قبيل أولئك الذين تقدموهم • كان الناس قد سثموا من موظفين مغرورين ، منفوخين بمن يتمنون إليه من بعض كبار الرجال في العاصمة • وقد رأينا عدد هؤلاء المنتمين زاد أضعافاً مضاعفة ، إذ قد فتح لهم باب جديد ، أوسع من الأبواب السابقة • وهو باب الجمعية «جمعية الاتحاد والترقي» (٥٨) • وزاد في الطين بلة انحراف بعض الذين كانوا بالامس من أشد الدعاة إلى الدستور فبعض الذين كانوا يكافحون الظلم والاستعباد أيام السلطان عبد الحميد بعد أن أتيح لهم القفز إلى مراكز السلطة إذا بهم «أميل إلى ما كانوا يقاومونه ، وأحرص على ما كانوا يزدون فيه وأكثر استمداداً له» (٥٩) • وان نفراً من الذين كانوا يطلبون الدستور أيام كانوا فقراء صمالك لا يؤبه لهم ، أصبحوا

العمل السياسي «للحصول على العزة التي يجب أن يتمتع بها كل انسان • أحب أن أذكر بأن الانسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً ، وبديهي ألا عزة مع الاستعباد» (٥٤) ويعود ليوضح لهم العزة الحقيقية ويبين لهم كيف أن الأبهة التي كان يبدو فيها بعض رجالات العهد الماضي ليست إلا وهماً «فالولئك الذين كانوا يظهرون أمام الناس بمظهر الأعزاء ، كانوا في الحقيقة يتحصرون على العزة أحياناً كثيرة ، وإن علت لهم القصور والشرفات ، لأنهم كانوا لا يأمنون على النعيم الذي فتنوا به ، حتى ينتموا إلى عظيم من آلات الاستعباد» (٥٥)

ويعود ليذكر بالظلم فيقول إذا كانت تلك حال الذين أتيح لهم الوصول إلى ذلك العظيم من آلات الاستعباد فكيف كانت حال المواطنين العاديين الذين لا حامي لهم • لقد أصبحوا مع الاستعباد يكرهون الحياة كلما أخذتهم هزة من حب الشرف وعزة النفس» (٥٦) •

ولكن هل كان بإمكان الدستور أن يكون تلك العصا السحرية التي ما أن تحس شيئاً حتى تشفيه من عطبه • وهل استطاع النظام النيابي الذي رافق الدستور أن يغير الواقع المأساوي الذي كانت تميزه البلاد • الحقيقة تقول أن شيئاً لم يتغير ، ولم يتحسن • وقد ظن الزهراوي في البداية أن ذلك يعود إلى ثقل التركيبة التي خلفها النظام الحميدي ، وأنه لا بد من مرور زمن كاف لتمود الأمور إلى نصابها «فمن كان حسب أن الدستور يعمر الدنيا ، ويصحح أخلاق الموظفين وغير الموظفين ، ويعطي قوة عظيمة أمام الأجانب ، ويشفي الاخاء الوطني من مرضه ، كل ذلك في يوم ، أو أسبوع ، أو عام ، أو عامين فإنه قد ظن خطأ ، وسها في الحساب» (٥٧) •

ولكن الانتظار طال وطال بالزهراوي

يدوسون الدستور ، ويهتكون حرماته ، لما
اعتلوا بفضلهم وصاروا أغنياء . وهم لا يزالون
يقولون نحن أنصار الدستور » (٦٠) وما أشبه
الليلة بالبارحة . وقد راع الزهراوي سمي
هؤلاء لاشمال الفتن ، واثارة القلاقل . لأنها
تخلق لهم الجو المناسب للاستغلال والارهاب .
فهم « لا يحبون أن تغزو البلاد من القلاقل ،
ليستعينوا بها على خدع المغفلين . . . فهم
كلما كثرت القلاقل ازدادوا تمكنا من الايها ،
واتهام من يخشون من الرقباء والمناظرين ،
وازدادوا تضليلا للأفكار بأنه لا يجوز والحالة
هذه التهجم عليهم » (٦١) . ويندد الزهراوي
بهذا الانحراف ويهدد من مغبة الاستمرار
والتمادي فيه « هكذا يفعل هؤلاء ، وهكذا
سيفعلون وسيظلون فاعلين ما داموا ، وكذلك
سيفعل من يرث مراكزهم ، وبسبب هذا
لا يرجى أن تنتهي الحروب الداخلية في هذه
البلاد » (٦٢) .

فالزهراوي ضد الاستبداد أيضا كان
مصدره وهو قد استل قلمه ليفضح أساليب
الاستبداد الرهيبة وليبين كيف أن زبانية
الاستبداد لا يتورعون عن اثارة القلاقل ليتسنى
لهم كم الأفواه ، وتسليط سيف الارهاب لأن
التهمة التي تنتظر كل معارض هي العمل ضد
الأمن وضد المصلحة العامة ، والتعاون مع
العدو ودائما هذه حجة المستبدين في كل زمان
ومكان حيث يربطون بين مصالحهم الشخصية
ومصلحة الوطن بديماغوجية كريهة .

وإذا كان الزهراوي قد لاقى ما لا قاه على يد
زبانية النظام الحميدي فإن ما لا قاه من طغمة
الاتحاديين كان أدهى وأمر فهم لم يرقهم عناد
الزهراوي ودفاعه الدؤوب عن الحرية ، وعن
حق كل جماعة في الاعتزاز بنفسها ولسانها
وتراثها . فالأتحاديون الفاضلون في مستنقع
التمصّب المنصري حتى أذاًهم لا يسمهم أن

يقبلوا من قائل أن يقول : « نحن لا نفيظنا
أحد في الدنيا يدعو قومه الى التزيد من المجد ،
ولا نقبل من أحد أن يفيظه منا دعوة الى مثل
ذلك . انا لنعلم أنه يوجد في الدنيا من يفغرون
لكل الشعوب التداعي الى طلاب المجد وترديد
صداه الا للعرب . فعلينا أن لا نظن بسبب
هؤلاء المهاويس (الاتحاديين) أن الدنيا كلها
أصبحت تكره العرب » (٦٣) .

وإذا كان الاتحاديون يتبرمون من معارضة
الأحزاب الأخرى ويتهمونها بأنها ضد الدولة ،
وضد وحدة أراضيها فإن الزهراوي
على النقيض من ذلك يدعو الى
انشاء الأحزاب وتعددها . وهو نفسه قد شارك
في تأسيس العديد من الأحزاب وانتمى الى
معظم الأحزاب والمنتديات والجمعيات التي
كانت معروفة (٦٤) ويبرر دعوته لتعدد الأحزاب
« بأن التغالف لا يزول ، ولكن له آداب .
والتنازع لا يبطل ، ولكن له سنن . والحق
تختلف فيه الأفكار ، ولكن التفاهم ممكن ،
لأن الأفكار قابلة للتحول ، وقبول النصح » (٦٥)
وبرأيه أن تعدد الأحزاب وسيلة ناجمة للوقوف
أمام الاستبداد . « لا بد من الوقوف أمام منافذ
الاستبداد ، ومطازن الاعوجاج ، وانه اذا لم
يقم بذلك بعض الأحزاب السياسية ، لسبب
من الأسباب ، في زمن من الأزمان ، مست
الحاجة الى غيره . فانه اذا ثبت أنه يوجد في
الأمة من يريدون التغلب على كل أحد من
غير أن يعترض عليهم أحد ، وكان لا يوجد الا
حزب واحد موافق ، كان هناك اما الاتفاق
التام على عصمة أولئك المتغلبين عن الخطأ ،
والرضاء التام باستبدادهم . واما موت أو جب
سكوت الأكثرين أمام تغلب الأقلين . . . ولا
ينفي علان الموت الا شهادة عيانية بقيام
حزب معترض مجادل فيها ، يقف أمام الكثرة
والقلة ، ولا تشبه الألقاب التي يخلعها عليه
الحزب الآخر وأنصاره » (٦٦) .

وهو يدعو الفئات القليلة الى عدم الجزع اذا كانت تمشي في وسط يعمه الظلم ، ويندمم فيه العدل ذلك أنه يرى ببصيرته النافذة « أن المحيط الذي لا عدل فيه ، لا ينبغي أن يجزع القليلون فيه على أنفسهم ، فان أولئك الكثيرين الذين فيه لاحقون بهم الى الذلة ثم البوار ، وبش القرار » (٦٨) .

الدعوة الى العلم ، والاستفادة من تجارب الآخرين :

قلنا ان الزهراوي يمقت التقوقع ضمن أوام التعصب ، وكان عنده من الثقة بنفسه وقومه ما يجعله غير هياب من الانفتاح على الآخرين « ان ما عندنا من النور يكفيننا ويكفي العالم للسير على المسالك الصالحة لاجتماع الشعوب » (٦٩) ولكنه مع ذلك ليس متمزتا في الاغترار بهذا النور كما يفعل بعض الجامدين . بل انه يدعو الى أن يحتكم المرء الى عقله في كل الأمور ، دون أن تلهيه عن ذلك ضجة الشعارات المحيطة به ، ودون أن تخدعه المواطف المتأججة ، لأنها وقتية سرعان ما يزول أثرها « أما الذي يترك الباقيات الصالحات من الآثار فهو تجاوب العقول والمزائم » (٧٠) ولذلك فالزهراوي لا يمول كثيراً على شنشنة الغطب الحماسية والمقالات النارية التي تدبجها الجرائد . انما يعقد الأمل على « غلبة المستمسكين بالعلم الصحيح على المستمسكين بمقول غيرهم » (٧١) لذلك فهو يعيب على الكثيرين « أخذهم على العمياء » أقوال سواهم دون تمحيص أو روية . .

وبالرغم من زيه الديني ومن ثقافته الدينية لا يتورع عن الدعوة الى الأخذ بعلم الغرب والاستفادة من تجاربه . ويدعو أبناء قومه لئلا تشغلهم عداواتهم مع الأوربيين عن الاستفادة منهم .

واذا كان الاتحاديون قد أشرعوا سيف التسلط والارهاب بحجة حماية وحدة البلاد فان الزهراوي وان كان مع الاتحاد العثماني الا أنه يرفض كما سبق وذكرنا أن يستأثر الآخرون بالسلطة والسيادة والقيادة من دون قومه العرب . بل انه لا يرضى أن تستأثر أية جماعة أيا كانت بشيء من دون بقية الجماعات وهو يرى أن المنهاج اللائق الذي يحقق ذلك هو النظام البرلماني فقد كان شديد الايمان بنجاح هذا النظام لأنه يكفل لكل انسان من حيث هو كذلك ، وبغض النظر عن أية اختلافات ، حقوقه وكرامته وعزته وحريته ، ولا سيما حرية القول . مما يجعل الطريق مسهداً لمشاركة كل فرد في شؤون أمته ووطنه .

الدعوة الى العدل :

كان من الطبيعي والمنطقي أن تقود مقاومة الزهراوي للاستبداد ، ودعوته الى الحرية . الى أن يكون داعية من دعاة العدل .

وتمشياً مع فكره المنفتح على الانسانية ، فانه لم يكن يطلب العدل لنفسه أو لقومه فقط . بل كان يسمى لأن يشمل العدل كل الأقوام والجماعات . وكان يعتقد أن المجتمع الذي لا عدل فيه يسير الى الخراب « اي والله الى المذلة والبوار ينقلب المجتمع الذي لا عدل فيه . وهذا هو الذي يجعلنا ندخل هنا العدل مع بحث حب النفس والتعصب . فان من أحب نفسه وقومه ودينه وكل ما هو من توابع حب نفسه ، كان من البديهي أن يرجو لكل هذه الأشياء العزة وطول البقاء ومتى علم أن العزة والبقاء يرافقان العدل ، والذلة والبوار يصحبان الظلم ، كان أحب شيء اليه العدل ، وأبغض شيء اليه الظلم ، وحينئذ يكون تعصبه للعدل ، وبالعدل ، ومنتجاً للعدل » (٦٧) .

تشنها أوربا في لك الحين على الشرق ،حروبا دينية محضة . فهو يميدها الى أسبابها الحقيقية « اللهم هل هذا كاف في تذكير الناس أن هجوم الغرب على الشرق ليس هو هجوم دين على دين ، وانما هو هجوم قوة على ضعف ،وعلم على جهل ، وغنى على فقر . فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء »(٧٦) .

مع العلم أن الزهراوي قد فطن الى استغلال أوربا للدين وكيف تموه حقيقة مطامعها بشروات الشرق وأسواقه وتغلف كل ذلك ببراقع مقبلة وتدعي حماية المسيحيين . وهو يجادل الأوروبيين بأن الخلافات التي تحدث بين الجماعات لا يمكن أن تعود الى اختلاف الدين « كيف ننسب تمسدي بعض المسلمين على بعض المسيحيين الى الدين ؟ وننسى الذي يقع مثله ألف ألف مرة من تمسدي المسلمين على المسلمين . لممرك نحن أكثر انصافا ، اذ لا ننسب ما نعرفه من أحوال هؤلاء الأوروبيين الى دينهم ، كما ينسبون أحوال بعض أفراد أو طوائف منا الى ديننا »(٧٧) .

وتأخذ الزهراوي المزة بعروبتة ، وبشرائه الاسلامي السمع فيخاطب أبناء قومه مسيحيين ومسلمين : « فياليت شعري ، الا يقوم في شرقنا المبارك، من أبناء وطننا من المسيحيين، من يردون دعوى هذه « الحماية » في وجوه الأوروبيين ، ويقولون لهم : ان بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرناً دليل على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين الى من يحميهم . ثم يا ليت شعري الا يقوم في هذا الشرق المبارك من المسلمين من يزيحون ما نسجته عناكب الاهمال على هذه القاعدة التي يعق لنا أن نفاخر بها كل القواعد الأساسية التي عند الأمم . ونعني بها القاعدة التي تجعل لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين » لهم ما لنا وعليهم ما علينا »(٧٨) .

« لا نقول ان أوربا لا يأتينا منها شر ، وانما نقول قد أتانا ويأتينا مع شرها خير . فعلينا أن نعد أنفسنا بالعلم الصحيح ، والدوق السليم ، لتمييز خيرها من شرها . وعلينا اذا ذكرنا أبواب شرها ألا ننسى أبواب خيرها ، فان هذا أقرب الى ما يسمى بالانصاف » (٧٢) وهو يذكر بما استفاده الشرق من أوربا « ومن مظاهر رقي الأمة ، انتشار المعارف والفنون العربية . ومن ذلك انتشار الأفكار بواسطة المدارس ، والصحافة ، وتقدم الصحافة والطباعة ، وكل ذلك مقتبس من أوربا »(٧٣) .

التنديد بالتعصب (٧٤)

كنا قد قلنا ان الزهراوي ضد كل أنواع التعصب الديني والجنسي (القومي) ، وبيننا فيما يتعلق بالاختلاف الجنسي كيف أنه كان منصفاً عادلاً لا يطلب لقومه ما لا يطلبه لسواهم . وكيف أنه قرر أن من حق كل جماعة (شعب) أن تطلب المجد والرفعة والسؤدد ، وأن تسمى ليكثر فيها العلماء والأدباء والمفكرون والذي يهمننا الآن أن نسلط الضوء على موقف الزهراوي من التعصب الديني . والزهراوي وان كان يحمل على رأسه عمامة علماء الدين الاسلامي الا أن عقله كان أوسع بكثير من أن يعده التعصب المقيت « ما أسبق الناس ، كلما حدثت حادثة . . . الى تحريك سلاسل الدين، وما أكثر نسيان الناس للتجارب . ينسى الناس سيئات أنفسهم ، وخطيئات حكوماتهم ، ويعمدون الى ادعاء أن عدوهم لم يتهجم عليهم الا لأنهم مخالفوه في الدين وينسى الناس أن وطننا مؤلف من اقوام دياناتهم متخالفة، وأنه ليس من الحكمة، ولا من اللباقة الفرع الى الفرع الدينية »(٧٥) لذلك فهو يرفض أن تكون الحروب التي

وقد كانت حياة الزهراوي ، وعلاقاته ، وصلاته الشخصية مؤكدة صدق دعوتيه لبند التعصب . ونحن نراه في كل حالاته معاضدا لكل دعوة حق كائننا من كان قائلها . بل ان ليلة استشهاده لتشهد بصدق لهجته ، أو لم تتمانق روحه الطاهرة مع روح صديقه وابن مدينته (رفيق رزق سلوم) فكان استشهادهما معا دليلا لا يأتيه الباطل على تجاوز الزهراوي لنمرة التعصب .

وبعد فقد قدمنا بعض آراء الشهيد عبدالحميد الزهراوي والتي بدا من خلالها داعية حرية وعدالة يتميز أكثر ما يتميز بصدق اللهجة ، وحرارة الأسلوب والدأب على النضال والكفاح تحت كل الظروف . واذا كان (منير مشابك موسى) قد وصف الزهراوي بأنه لم يكن عميق التفكير ولم يكن يملك ثقافة عصرية فربما كان السبب الذي دفع (منير مشابك موسى) الى اطلاق مثل هذا الحكم ، كما سبق وذكرنا ، عدم مراعاة الظروف التي كتب فيها الزهراوي مقالاته فالمقالات التي اعتمد عليها (منير موسى) والتي كانت مرجعنا الأساسي في هذا الموضوع هي مقالات صحفية وليست بحوثا علمية بمعنى بأن ما قد نحسبه سطحية في التفكير انما نجم عن اضطراب الزهراوي للتبسط لأن مقالاته موجهة الى القارئ العادي . بل انني أرى في بساطة وسهولة أسلوب الزهراوي أنما معالجة موضوعات سياسية واجتماعية دليلا على تمكن الزهراوي من تلك الأفكار والموضوعات . أما القول بأن دفاع الزهراوي عن الرابطة الاسلامية و (العثمانية) كان أقوى من دفاعه

عن العروبة فهو قول أخذ على عواهنه . دون تمحيص . ذلك أن الفكرة القومية عند الزهراوي ليست خافتة الصوت ، ولم تكن ضائعة في خضم دفاع الزهراوي عن (العثمانية) بل اننا لنجد لديه من الوعي القومي ما لا يقل عن أي داعية قومي آخر ولا أعرف كيف يتهم أحد عبدالحميد الزهراوي بالتخلف في ميدان القومية وهو الذي قدم روحه ذكية على مذهبها . كل ما في الأمر أن الرجل صاحب فكرة تقول بتقديم (سائق العمران والاجتماع) على سائق الدين وسائق الجنس . ولمعري ان هذه الفكرة أقرب الى الفكر القومي منها الى الفكر الديني . هذا الى جانب موقف الزهراوي المشهود من أعمال الاتحاديين وعنصريتهم فكان يدعو لازالة فكرة العنصر المتحكم من الأفكار وليس من قاموس السياسة فحسب . ويتهم الاتحاديين بالمنصرية وبأنهم مجرد دالسين وسامسة في سوق (الاتحاد) .

وكما سبق وذكرنا فان الرابطة التي كان يدافع عنها الزهراوي ليست شيئا أكثر مما تفعله الدول الأوروبية في التجمعات الاقليمية مع بقاء كل أمة محتفظة بكيانها ومقوماتها . وهذا ما لم يكن ليرضي الاتحاديين الذين حاولوا احتواء الزهراوي بشتى الوسائل ، التهريب منها والترغيب . ولكن كل تلك الوسائل لم تفلح في ثنيه عن عقيدته السياسية والفكرية الأمر الذي كلفه بعد ذلك روحه حيث دفعها فداء لصدق لهجته ، وصدق دعوتيه ، وصدق مواقفه . ورحم الله شهيدنا الذي يكون بتقديمه روحه ودمه قد مهر أقواله وأفكاره بجلال الشهادة ، وعظمتها ، ووقارها .

محمد راتب الحلاق

الهوامش :

- ١ - تنتسب أسرة الزهراوي الى الحسن بن علي ، ويطلق على كل فرد ينتمي الى الاسر التي تنتسب للنسب الشريف لقب (السيد) .
- ٢ - د . جودة الركابي و د . جميل سلطان . الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي . ص ٦ . « وسنكتفي بعد الآن بذكر رقم الصفحة » .
- ٣ - المصدر السابق ، المقدمة .
- ٤ - أشار الامام محمد عبده الى هذه العادة في مقال له نشرته دار الهلال مع مقالات اخرى في كتاب حمل اسم (الاسلام بين العلم والمدنية) وفي الصفحة ١٥٩ . حيث أن الزهراوي اعتبر أن الصوفية ليس مما انتفع به الاسلام بل ربما تكون مما دزى به . وقد قال ذلك في وقت يتسنى فيه أبو الهدي الصياوي (وهو من هو في الاغراق والتعارف بالتصوف) منصب شيخ الاسلام .
- ٥ - منير مشابك موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث ، ص ٢٣٨ .
- ٦ - د . عبدالكريم رافق - العرب والعثمانيون ، ص ٥٤٣ .
- ٧ - د . الركابي وزميله ، المقدمة .
- ٨ - الى جانب مقالاته الصحفية ترك الزهراوي مجموعة آثار منها : رسالة الامامة وشروطها ، رسالة في الطلاق ، رسالة في الفقه والتصوف رسالة في الحب والبغض ، كتاب خديجة أم المؤمنين - كتاب في الفقه ، رسائل في النحو والبلاغة والنطق .
- ٩ - د . الركابي وزميله ، ص ٣٧٢ .
- ١٠ - د . الركابي وزميله ، ص ٣٧٣ .
- ١١ - المصدر السابق ، ص ٣٨٩ .
- ١٢ - المصدر السابق ، ص ١١٣ .
- ١٣ - المصدر السابق ، ص ١٢ .
- ١٤ - المصدر السابق ، ص ٢٩ .
- ١٥ - المصدر السابق ، ص ٢٩ .
- ١٦ - المصدر السابق ، ص .
- ١٧ - منير مشابك موسى ، ص ٢٣٠ .
- ١٨ - د . الركابي وزميله ، المقدمة .
- ١٩ - د . منير موسى ، ص ٢٣٠ .
- ٢٠ - د . منير مشابك موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث ، ص ٢٣٠ .
- ٢١ - الامام محمد عبده ، الاسلام بين العلم والمدنية ، ص ١٦٥ .
- ٢٢ - الركابي ، المقالات ، ص ٥١ .
- ٢٣ - المقالات ، ص ٥٢ « الركابي » .
- ٢٤ - المقالات ، ص ٥٣ « الركابي » .
- ٢٥ - المصدر السابق ، ص ٥٤ .
- ٢٦ - المصدر السابق ، ص ٥٦ .
- ٢٧-٢٨ - د . الركابي وزميله ، ص ٥٦ .
- ٢٩ - د . الركابي وزميله ، ص ٥٧ .
- ٣٠ - الركابي وزميله ، مقدمة الكتاب .
- ٣١ - الركابي وزميله ، ص ١٠ .
- ٣٢ - الركابي وزميله ، ص ١١ .
- ٣٣ - المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٣٤ - المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٣٥ - د . الركابي وزميله ، ص ١٣ .
- ٣٦ - د . الركابي وزميله ، ص ٤٧١ .
- ٣٧ - المصدر السابق ، ص ١٦ .
- ٣٨ - المصدر السابق ، ص ١٧ .
- ٣٩ - المصدر السابق ، ص ١٨ .
- ٤٠ - المصدر السابق ، ص ٥٨ .
- ٤١ - المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .
- ٤٢ - المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .
- ٤٣ - المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

- ٤٤- المصدر السابق ، ص ١٦٥ .
- ٤٥- المصدر السابق ، ص ١٢ .
- ٤٦- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٤٧- المصدر السابق ، ص ٥ .
- ٤٨- المصدر السابق ، ص ٤ .
- ٤٩- المصدر السابق ، ص ٤ .
- ٥٠- المصدر السابق ، ص ٥ .
- ٥١- المصدر السابق ، ص ٥ .
- ٥٢- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٥٣- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٥٤-٥٥- المصدر السابق ، ص ٦ .
- ٥٦- المصدر السابق ، ص ٧ .
- ٥٧- المصدر السابق ، ص ١١ .
- ٥٨- المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ٥٩- المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ٦٠- المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .
- ٦١- المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ٦٢- المصدر السابق ، ص ٣١٧ .

- ٦٣- المصدر السابق ، ص ٢٩ .
- ٦٤- شارلا في تأسيس حزب (الحرية والاعتدال) ثم حزب (الحرية والائتلاف) كما انه كان عضوا في كتلة من المنتديات والجمعيات والأحزاب « انظر كتاب دمشق في مطلع القرن العشرين » .
- ٦٥- د. الركابي وزميله ، ص ٢١٤ .
- ٦٦- المصدر السابق ، ص ١١٤ .
- ٦٧- المصدر السابق ، ص ٢٨ .
- ٦٨- المصدر السابق ، ص ٢٨ .
- ٦٩- المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .
- ٧٠- المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .
- ٧١- المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .
- ٧٢- المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .
- ٧٣- المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
- ٧٤- نقصد التمسب المتطرف المقوت الذي يؤدي الى ضيق الأفق .
- ٧٥- المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
- ٧٦- المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
- ٧٧- المصدر السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- ٧٨- المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .



مراجع البحث :

- ١ - مقالات الشهيد عبد الحميد الزهراوي في جريدة الحضارة في سنتها الثانية والثالثة . ولقد جمع هذه المقالات في كتاب يحمل اسم الاثر الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي « كل من الدكتور جودة الركابي والدكتور جميل سلطان » .
- ٢ - الدكتور عبد الكريم رافق - العرب والشمانيون (١٥١٦ - ١٥١٧) .
- ٣ - الدكتور منير مشابك موسى الفكر - العربي في العصر الحديث .
- ٤ - الدكتور توفيق برو - القومية العربية في القرن التاسع عشر .
- ٥ - احمد أمين - زعماء الإصلاح في العصر الحديث .
- ٦ - محمد عبده - الاسلام بين العلم والمدنية .
- ٧ - مجلة المستقبل العربي اللبنانية ، نيسان ١٩٨١ .
- ٨ - مجلة العربي الكويتية ، تشرين الاول ١٩٨٠ .



عمر بن عبد العزيز^(١)

نذير الحسامي

■ شمعة في التاريخ أحداث بالكفاف وانطلاقات بالعفاف ■

يا ابن عبد العزيز يا حامل الشمس تلالا ، على مدى الليل ، شمعه
كسفت بارق الشموع وكانت من نجوم السماء أجمل طلعه
ومشت في العصور ، تطوي الدياجي شهب الليل ، وهي تزداد رفعه
صدعت بالهدى الضلال وعاشت لا تبالي في المدهمات صدمه
نورها الحق ضاء فيه فلم يكذب حمى أهله ولا خان ربه
يستظل المكودود فيها فتحميمه فيسقى في زحمة الأرض وسعه
ويراها الفريق في حلك البغي فينجيه من سناها أشعه
لم يخفها طاو الى الضوء يعشو انما خافها الذي سل شيعه !
شمعة المؤمنين ملء الليالي يا أميري لم تنذر في الافك دمه
در اجفانها حلال لمضني جاءها يشتفي باكرم رضعه
تحضن الامزل المعظم جناحاه فتحيي بضمة الرفق ضلعه
يتراخي جناح الظلام وتابى ذوبانا والصبح يمسك نبعه
يقطرات المعذنين الحزانى اخذتها فطلقت كل هجمه

١ - المعروف عن الخليفة الراشد صاحب الشمعة انه كان اذا انقطع عن النظر ليلا في الامور العامة لينظر في خاصة من امره اطلقا الشمعة التي يستضي بها وهي من بيت المال واشمل شمعة من ماله ..

أرقتها الأشواق في طاعة العدل فردت لجائع الليل ضرعه
 سفحت ذوب قلبها في رضاه فسقت أصله ورويت فرعه
 في هوى التائهين ساهرة الأحداق ترمي الدجى وتشهد نزعها
 خشع الحب والوفاء بعينيها ولم تدرك في سرى الليل خشعه
 إن أتاه المكلوم بالجرح راحت بسنا دمعها تكفكف دمعها
 يا لهذب من مهجة الله اشعاع ومن سلسل النبوة شيرعه

* * *

يا أمير الزهاد يا سيد الشمعة هل عودة اليها ورجعه ؟
 أنت أغمضت عينها عفة منك لتعسو من نافع الماء جرعه
 في رضى الحق ما أضأت واطفات وفي الطهر والهذى كل بيعه
 خيلة تعني الجباه عليها لم تكن كذبة ولم تك خدمه

* * *

يا نزيها منزها سيد (٢) الطهر عن الطعن وهو في الافك بدمه
 لم تصل كاذبا وكل لستان كاذب في هواه أثرت قطعه
 ما جعلت الحرام قوت لياليك ولم تمتلئ به لك قصعه
 يا أميري أين الحرير الذي هفت ولم ترضه على الحكم خلعه ؟
 أفالقاك شاكيا ووشاحي فيه من ميسم الغنا ألف بقعه ؟
 طيلساني فدى عباتك السمراء تزهو فيها بفتق ورقعه
 تتمنى النجوم لو كن فيها شرفا في العلا ومجدا ومنعه
 ازهرت بالهوى الحلال فكانت بشذاها أنقى من الورد سمنه

* * *

يا أمير الايمان لم تشر قصرا من ندى كده ولم تبين ضيعه
 لم تطاوىء هوى وفي كل آن سجدة للسما منك وركعه

٢ - الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ولد نزهه صاحب الشمعة عن الطعن باسمه في المناقب .

كل فضل رددته من كفاف المال للزارع الذي صنت زرعه
 من كهذا الأمير ينفض دنياه ليستاف من ثرى الحكم نفعه ؟
 مستجيب لكل حامل دلو ومجيب لكل طالب نجمة
 تحت نعليه صولجان الطواغيت رماء بركلة وبصفعة
 ان نماء الناصي مع الصبح فالتاريخ في درب ليله لم ينمه
 يحلل الجفن من غبار أمانيه ويشتاق لو يقبل شسعه

* * *

يا امير الكفاف غُضْ جفونا	عن شج في الكؤوس يرهن درعه !
نم غريب الرؤى بطهرك عني	وابق نجما لا يطمس الليل لمعه
في نجاسات حماتي انا وغد	سكرتي في مناهل الطين متعه !!
اتراني شردت في التيه طيرا	ضاع عن ايكه وضئع سجمه ؟

* * *

ايه يا شمة العفاف ايلقي	لنداك الاصم: رحماك سمعه ؟
ويل نفسي مما جنيت عليها	بعثها في المنى الذليلة سلعه !
اين مني انا المريض بنتني	ارج من هواك لم ارج نفعه ؟
اتضيئين ان زرعتك في حاني	ام تمسكين حزنا ولوعه ؟
اين مسراك هل احسك في قلبي	حينما الى الضياء ونزعه ؟
ام ترودينه شهيق بكاء	هو في شدوه يردد رجعه ؟
ام تدبّين في غواشيه افعى	تتمطى بلسمة اثر لسعه ؟
اتراك انتعيت منه مكانا	لم يطف فيه ناعب او يرعه ؟

* * *

في نجاسات حماتي انا وغد	سكرتي في مناهل الطين متعه !!
اتراني شردت في التيه طيرا	ضاع عن ايكه وضئع سجمه ؟

- نذير الحسامي -

* * *

مقالة السوط المصفور للجاهل المغرور

لمؤلف مجهول

عني بها وعلق عليها وقدم لها

عبد الإله نبهان

مقدمة التحقيق

□ عرض ونقد :

تعد مقالة السوط المصفور للجاهل المغرور ، من النصوص المضيئة التي نبتت في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما كانت الدعوة الى العلم والصناعة والتقدم والتحرر في أوجها ، وليست المقالة في أبعادها القصوى ، سوى صرخة وطنية غيور ، يبغى نفخ الروح وإيقاظ الموتى من سباتهم ، وتنبيه العقول من غفلتها وتغافلها . وقد ترك المؤلف لمواطنه وخوطبه العنان ، فهو ساخط غاضب يوبخ ويؤنب ويقرع ، ويدل قومه على الطريق التي ينبغي أن تسلك ، ويهاجم العلوم التي يراها سبب التأخر والتخلف .

ان هذه المرحلة التاريخية يمكن النظر إليها على أنها من المفاصل الرئيسية في تاريخ العرب المعاصر ، وفيها برزت وتجسدت معظم المشكلات والقضايا التي كان لها شأن كبير . أولى هذه القضايا : موقف العربي من الحضارة الغربية ، ماذا يأخذ وماذا يدع وكيف ؟ أيقصر على المنجزات المادية أم يفترق من الماديات والفلسفيات معا ؟ وكيف يمكن له أن يحافظ على أصالته في هذا الغضم الزاخر ؟ والقضية الأخرى الهامة ، قضية التعارض المصطنع بين العلم والدين ، وهي مسألة أثارت كثيراً من الجدل ، وإلفت حولها الفصول والرسائل والكتب وألقيت المحاضرات ، وامتد سلطانها الى صفحات الثمانيات القرآنية التي ظهرت في هذه المرحلة التاريخية وما تلاها . والقضية كلها - اذا تركنا جزئياتها - لا تمدو أن تكون انعكاساً لموقفين : موقف بعض المتدينين الذين لم يفهموا جوهر الدين وأصوله ، فأخذوا يحاربون الحضارة والعلم باسم الدين . والموقف الثاني : موقف بعض المفرضين أو المضللين - بفتح اللام وكسرهما مع التشديد - الذين أرادوا استغلال التقدم العلمي في أوربا ، ليحاربوا من خلاله الأديان ، فعملوا بتصيدون بعض الآيات الكريمة ، أو

الأحكام ، ليعرضوها على أنها تنافي العلم والتقدم والحضارة ، موهمين بذلك أنه لا مناص لشعب يريد التقدم من أن يترك دينه وعلومه التقليدية المعروفة .

كلا الموقفين آثار ردود فعل مختلفة ، وسبب ملاسبات كثيرة ، وخلق مناهج جديدة في التفسير والتأويل .

ونص المقالة التي بين أيدينا مرآة صادقة تنعكس فيها هاتان القضيتان بكل أبعادهما ، فالمؤلف يدعو مواطنيه ويحضهم على الاقبال على العلوم المصرية ، والتمتع بالمخترعات الحديثة ، ويلهب حماسهم بما يثريه فيهم من كوامن النخوة ، بتذكيرهم بأجدادهم وعلومهم وفنونهم ، ويشير مسألة الحضارة بالرد على بعض المتعنتين الذين لا يعترفون بفضل الحضارة الغربية ومخترعاتها الحديثة ، وينسبون كل فضل لليونان ، فيرد عليهم بما معناه : اذا كنتم تزعمون ان هذه المخترعات موجودة في كتب اليونان - وكتب اليونان عندكم منذ القديم - فلماذا لم تسبقوا الغرب اليها ؟ ثم يقرعهم بقوله : « والحال أن اللوم لا زال منصبا عليهم ونسبة الجهل ما برحت منحاذاة اليهم » . ويبين المؤلف أن هذه الفئة قد تنسب الى الكفر من يصدق بوجود بعض المخترعات المصرية ، وقد رد على هذه الفئة أقوالها بكلام نفيس نقله من كتاب « تهافت الفلاسفة » لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي .

ثم ضرب أمثالا من الحقائق الجغرافية التي لا تؤمن بها جماعة المتعنتين وتعاربها ، وأظهر استيائه من جهل هؤلاء القوم ، وعدم بالاتهم بحقائق الأمور فيما يتعلق بمختلف العلوم ، ورد تعنتهم وجمودهم وحرصهم على الجهل الى أسباب نفسية شخصية ، لأنهم يحرصون على مكانتهم ويخشون أن يظهر جهلهم أمام علم الجيل الجديد ، فهم يحاربونه بالأكابرة والسخرية والانكار .

ثم شن الكاتب حرباً على الخرافات البالية التي يؤمن بها عوام الناس ومن يضللونهم ، فهم لا يصدقون العلوم ببراهينها القوية وأدلتها اليقينية ، ولكنهم يمتقدون اعتقاداً جازماً بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، كإيمانهم وتصديقهم لقصة الثور الذي يحمل الأرض ، والحوث الذي يحمل الثور ، ينسبون هذه الترهات الى مصادر عالية ليوهموا أنفسهم وغيرهم بصحة اعتقادهم وصدق ادعائهم . وقد بينت في تعليقاتي على النص مصادر هذه الأخبار ، مما يساعد على تمييز صحيحها من زائفها .

ثم حاول المؤلف أن يبين التطابق والتوافق بين الآيات الكونية وبين العلوم المصرية ، فسر بعض تعليقات الشيخ أحمد محمد الألفي على بعض الآيات الكريمة مبرهنناً أنه لا تعارض بين العلم والدين . فما موقف أنصار الجهل من هذه البراهين ؟ انهم يقولون : ان هذا البحث حرام وأنه يفسد العقيدة فلا ينبغي سماعه ؟ !

وهنا ينبري كاتبنا ويأتي بالآيات الكريمة التي تحت الانسان على التفكير ، وتدفعه الى طلب العلم ، ويبين أن هؤلاء الجاهلين غارقون في جمع الأموال ، يبددون أوقاتهم في تكرار أحاديثهم التي تعودوها ، فهم يرددونها لا يملون ، ويميدونها فلا يسمون ، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله : (سماعون للكذب أكالون للسحت) .

ويورد الكاتب عددا من الشواهد الشعرية التي تحث على طلب العلوم المصرية ، وتحارب العلوم التقليدية كالبديع والنحو والصرف ، ويهاجم الشعر بالشعر .

ثم ينتقل الى ناحية هامة وهي الاقرار بالمعجز ، واظهار الدهشة المارمة أمام انجازات الحضارة الأوربية ، فمقولنا الضعيفة - كما يصور - لا تتصور عمل الكبريت الملون ، لما بالنا بالمخترعات المظلمة « كالتلفون والوايور والمكروسكوب وحافضة الصوت » فهذه هي الأمور الكبرى التي لا نستطيع أمامها حراكاً . وتذكرني هذه الدهشة والاعتراف بالمعجز ، بموقف الجبرتي عندما شاهد بعض تجارب كيميائية أجراها بعض ضباط الفرنسيين أيام حملتهم على مصر فقال بعد أن وصف تلك التجارب : . . . ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا (تاريخ الجبرتي ٣٧/٣) . وهذه الدهشة أمام منجزات الحضارة أمر طبيعي ومشروع ، على أن يتلوه شعور بتماسك الشخصية ، وثقة بالنفس ، حتى لا تذوب شخصية الفرد والمجتمع وتضمحل في غمرة دهشتها واعجابها .

ويهاجم المؤلف علوم العربية من نحو وصرف وبديع ، وكأنها هي العائق الذي يحول دون الاقبال على العلوم المصرية ، كما أنه يهاجم ألعاب التسلية وقتل الوقت المعروفة والمنتشرة في المقاهي .

ولما كان المؤلف ينمي على مواطنيه اهتمامهم بالشعر وما يتعلق به من بديع وبلاغة ، فإنه رأى أن يرسم خطة تربوية تعليمية مفادها أن لكل مرحلة من مراحل عمر الانسان علماً يناسبها ، فالشعر من العشرين الى الثلاثين ، وبعده التاريخ ثم الهيئة ثم الجغرافية . . . الخ . . . على أنه يعود بعد ذلك ، فيقر بفضل الشعر اذا كان حسناً ، ويورد أرجوزة للشيخ حسين الجسر تتضمن الحض على طلب العلوم ، ثم ينظم هو نفسه قصيدة وعظمية تدعو الى مكارم الأخلاق . ويضرب بعد ذلك أمثلة من الشعر الرديء الذي لا ينبغي الاهتمام به حسب رأيه .

ولنا الآن أن نتساءل : أكان هجوم المؤلف على العلوم التقليدية منصفاً ؟ وهذه العلوم التي هاجمها ، هل هي حقاً سبب التأخر والتخلف والجهل ؟

إذا نظرنا بيمين الانصاف ، وجدنا أن هذه العلوم كانت علوم قوم لم يكن لهم غيرها في وقتهم ، وما كان لهذه العلوم أن تعميق التقدم ، أو تقف في سبيله ، لو وجدت أسبابه وتحققت دواعيه ، وتوفر له من ينهض بأعبائه ، ولو أن المؤلف كان منصفاً ومتجرداً عن غرضه وانفعالاته ، لذكر أن الأوربيين كانوا - وما زالوا - يعتنون بلغاتهم ونحوها وصرفها وشعرها وبديعها وبلاغتها ، ويمقدون لها المؤتمرات ، ولا يبخلون على بحوثهم فيها بجهد ولا مال ، ومع ذلك فإنهم لا يرفعون عقيرتهم قائلين ان الاهتمام بالأدب واللفظة يميّز التقدم ويسبب التأخر ، فمن أين نبت أفكار مؤلفنا؟

للإجابة عن هذا السؤال رحت أقلب صفحات المجلد الثامن من مجلة المقتطف الصادر سنة ١٨٨٣ ، لأنني أشتاق تحقيقتي للمقولة ، تبين أن المؤلف قد قرأ هذا المجلد واقتبس منه ، ولم يغيب ظني ، وأصابته الرمية المقتل ، فلنستمع الى « فارس نمر » ص

٥٨١ : (أيقن علماءنا « بخرفشة النحاة » وعلماء الافرنج قد جابوا الأقطار ، وركبوا متن السحاب ، وطاردوا قوات الكون حتى أمسكوا بنواصي البرق، وذلّلوا أعناق الصواعق، فانقادت اليهم صاغرة ، وأصبح عاجزهم اذنادى البروق مثلثت بين يديه ، واذا أمر الصواعق أسرع تدك الأطوار ، وتنسف الصخور ، وتفتتح الأسراب طوعاً لما يريد) .

انها شنشنة أعرفها من أخزم ، وانها - وأيم الحق - انتقلت الى مؤلفنا فرددها معجبا بها ، دون أن يدرك انكسار القياس وانحسار مقومات البرهان في أمثال هذا الكلام الفج ، فكل علم له مقوماته وفوائده ، وليس بالخيز وحده يحيا الانسان ، ولا نستطيع أن نحمل علماً من العلوم وزر التخلف والتأخر ، لأن التخلف يرتبط بطبيعة المجتمع وتكوينه الداخلي ووضعه الدولي .

وأسائل : لو أن أولئك الناس الذين كانوا يعنون بالبديع والصرف والبلاغة والنحو، تركوا هذه العلوم ، ولم يتح لهم من يرسلهم في بعثات الى أوربا ، فهل سيتحقق التقدم بذلك ؟ !

يبدو لي أن غضب المؤلف على التخلف والجهل ، واستيائه من سماجة العاملين في حقل العلوم القديمة ، جعله يصب جام غضبه على علومهم ، وكأن هذه العلوم تتحمل أوزار انحطاط عقول ممارسيها ، فما وزر علم البديع اذا كان صاحبه مثلاً لا يقر بكروية الأرض، أو كان يماذي العلوم الجديدة ؟ !

ان هذه المواقف الانفعالية ، التي ليست في جوهرها سوى ردود فعل تلقائية عفوية ، تمنح هذه المقولة قيمة أدبية وتاريخية وفكرية ، انها مرآة صادقة تصور لنا طبيعة تفكير أحد المتعلمين في أواخر القرن التاسع عشر ، وانها دعوة حارة للحاق بركب العلم والحضارة . ولكن كيف يتم ذلك ؟ أيتم التقدم بالصراخ والمويل والشتم وتعداد مخترعات الأوربيين ؟ ان مقالات « فارس نمر » في المجلد الثامن من المقتطف - وقد قرأها مؤلفنا بلا ريب - تدور حول اصلاح الزراعة والصناعي والعلمي والأدبي ، فكيف كان الرجل يتصور اصلاح ؟ انه لم يكن عنده أي تصور لتنفيذ أي اصلاح ، وكل ما في مقالاته تعداد واحصاء لما أنجزه الأوربيون في ميادين الحياة ، ثم شتم للنحاة والصرفيين والبلاغيين وعلومهم لأنهم هم سبب التخلف ؟ ! ولتهدأ الآن روح « فارس نمر » لقد ذوت علوم النحاة وانحسرت ، وجف عود الصرف وذبل ، وتآود عود البلاغة وانكسر ، وانسحقت حلج البديع وعادت هشيماً تذروه الرياح ، ومع كل هذا ما زلنا نلهث في المؤخرة ، هذا اذا أحسننا الظن بأنفسنا .

على أن مؤلفنا يعود بعد تقريره وانتقاده ليدكرّ العرب بحضارة أجدادهم ، وينقل صفحات كاملة من كتاب أقوم المسالك للمصلح الكبير « خير الدين باشا التونسي » ، كما ينقل من مجلة المقتطف أقوالاً تمثل اهتمام الأجانب بعلوم العرب وصناعاتهم وتقديرهم لحضارتهم العظيمة .

ويأتي المؤلف بشواهد شعرية تدعم رأيه ، وهي ركيكة الأسلوب ، وتعد شواهد نموذجية لاستمرار ركافة عصر الانحدار والعصر العشوائي في القرن التاسع عشر .

ومن الغريب أن المؤلف الذي كان يدعو مواطنيه في أول مقولته الى الاعتراف بفضل الغربيين ، والى الاستفادة من علومهم ومخترعاتهم ، هذا المؤلف نفسه يورد قصيدة في آخر المقولة ، هي غاية في السخف والركاكة والرقاعة ، فقد حشيت بالفخر الأجوف ، والشتائم العامية المبثذلة الموجهة الى الغربيين ، ثم يمتدثر المؤلف عما أورده من الشعر ، بأن الشاعر كان متحمساً . فلم أوردها إذن ؟ ! انه في أعماقه يكره الغرب ، وينقم على قومه نقمة مبعثها الحب والحرص على مصلحتهم ، وهو مشئت النفس ، حائر الوجدان ، بين ماضٍ عريق وحاضر باهت ، وهذا ما جعله يحجل ويضطرب ، انه كالغريق يريد أن يتشبث بما تصل اليه يده ، ولو كان طحلباً أو نسيج عنكبوت . ان الفارق شديد بين أول المقولة بما فيه من اتزان وتفهم وحرص على العلم والانصاف . وبين تلك القصيدة التي اختتمت بها وما فيها من ركاكة ورقاعة .

على كل حال يبقى نص هذه المقولة من النصوص التي تهم دارسي هذا العصر من نواحيه جميعاً ، اللغوية والحضارية والعلمية والتاريخية والاجتماعية ، وسواء أصحت افتراضاتي التالية فيما يتعلق بالمؤلف ومكان التأليف أم لم تصح فان النص يبقى محتفظاً بقيمته ودلالاته المتنوعة . فمن هو مؤلف المقولة ؟

المخطوط ومؤلفه :

منذ عامين على وجه التقريب لا التحديد وضع صديقي الفاضل المفضل الأستاذ رفيق حمدان بين يدي مخطوطين صغيرين (قياس ٢١ × ١٤) يقع أولهما في ثلاث وخمسين صفحة ، وعنوانه : « مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام » والثاني له مواصفات الأول نفسها ، وعدد صفحاته سبع وأربعون صفحة كتبت بخط نسخي مقروء ، وفي الصفحة ثلاثة عشر سطراً ، وعنوانه « مقولة السوط المضفور للجاهل المغرور » وقد أثبت تاريخ النسخ في نهاية كل من المخطوطين سنة ١٣١١ هـ ، ولكن لم يذكر اسم المؤلف ، وكل ما وجدته من ذلك عبارة كتبت في آخر مقولة كشف اللثام : (تمت على يد كاتبه الحاج خرشد المسائل) ورسمت الغام مشابهة للميم ، وحبر العبارة وخطها مغاير للأصل ورحت أحاول البحث عن المؤلف محاولاً الاستفادة من كل القرائن الموجودة ، فمؤلف « مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام » حلبى " لاشك في ذلك ، لأن مقولته ليست أكثر من هجوم صاعق - ولكنه طريف - على أهل دمشق وعاداتهم تعصباً منه لحلب ، خطر لي أن يكون لهذه المقولة ذكر في اعلام النبلاء للطبطبائخ ففتشته فلم أعثر على شيء ، وقد خطر لي أيضاً أن يكون مالك النسخة هو مؤلفها ، فقد خطت على الورقة الأولى من كشف اللثام ما يلي : « ملكه الفقير اليه تعالى محمد ناجي الكردي خادم أموي حلب عفي عنه ٢٧ ح سنة ١٣١١ » ولكنني لم أرض عن هذا الافتراض بعد أن عرفت من أحد أقرباء السيد محمد ناجي الكردي أن الرجل لم يكن يكتب ويؤلف ، وإنما كان تاجر كتب وكان له ولع بجمع الصحف والمجلات .

أما مقولة السوط المصفور فليس فيها أية إشارة إلى المؤلف ، ولكنني رجحت أن يكون مؤلف المقولتين واحداً بسبب تشابه الخاتمة في كل منهما ، فمقولة كشف اللثام ختمت بما يلي : « وأرجو ممن نظر في هذه المقولة أن يفض الطرف عما وقع فيها من الخطأ ، ويسمح لي عن اللحن والركاكة إذ لا قدرة لي أن أنسق الكلام معرباً ومحسنأ بأنواع البديع والبلغة ، والمنصف من يقبل العذر ، ويغفر الزلات ، وصلى الله على من لا ينطق عن الهوى وآله وصحبه وأهل بيته وسلم تسليماً كثيراً آمين تمت ح ١٥ ر ١٣١١ . »

واختتمت مقولة السوط المصفور بما يلي : « وأرجو ممن اطلع على هذه المقولة المشوشة المبني ، أن ينظر إليها بعين الانصاف من حيث المعنى ، ولا يطلب مني ، تنميق العبارة ، ولا الجمل الزينات بالتورية والاستعارة ، فاني قليل البضاعة في هذه الصناعة ، فالمفلس معذور ، والكريم غفور ، وصلى الله على سيد خلقه ، ومن فاق الجميع بخلقهم وخلقه ، ورضي عن آله وصحبه وأهله وحزبه آمين . حرره في ح سنة ١٣١١ ، فالمقولتان حررتا في ح (أي : حلب على ما يبدو) في سنة واحدة وكتبنا بخط واحد ، وجلدتا بلون واحد وتنتهي كل منهما بخاتمة تشبه الأخرى ، كل هذا أوحى اليّ أن تكونا لمؤلف واحد . »

وانطوت الأيام ، والمقولتان عندي طي النسيان والاهمال ، ثم قدر لي العثور بين أوراق قديمة على مخطوط صغير يقع في أربع وسبعين صفحة (قياس ١٦ × ١٢) عنوانه : « سائحة أدب من ساحة حلب » لمحررها خورشيد أفندي الكردي ، وقد أرخ نسخها في حمص ١٣٢١ هـ ، ولم يذكر اسم الناسخ وأظن أنه الشيخ أحمد نبهان ، وكانت خاتمة السائحة كما يلي : « فالمأمول من الأفاضل ، غرض الطرف عن الغلل ، وحبذا ان صح لي من فضلهم هذا الأمل ، خصوصاً من بعض الأفاضل جاءت عامية ، وبعض الأفاضل مغالطة للأساليب العربية ، هكذا اقتضى الحال ، فإن لكل مقام مقال [كذا] ، ولعل دقيق وضعها يشفع في ركيك لفظها وفساد سجعها ، فإنه لما كان جل قصدي ابداء النصيحة ، لم أر حاجة لتقصي الألفاظ الفصيحة . . . الخ » .

فهذا الأسلوب في الخواتم ، يوحي اليّ أن مؤلف هذه المقولات كاتب واحد ، وخاصة أن بعض الأبيات التي وردت في السوط المصفور ، وردت أيضاً في سائحة أدب ، زد على ذلك أن الأفكار في المقولتين واحدة ، فتمتص الصناعة والازراء بالشعر والأدب والبديع واحد في المقولتين في كليهما ، فهو يقول مثلاً في سائحة أدب : « واني - والله - لأرى مخترع الابرة بالثناء أجدر من ابن المعتز الذي فاق أقرانه ببديعه وتصدير ، لأن تلك ضرورة الوجود في جميع الأقطار ، وهذه عديمة النفع عند أولي الأبصار ، فما قولك في مخترع آلة الطبع هل يقاس به مستنبط النظم والسجع . . الخ »

فإذا صح لنا استناداً إلى ما ورد من أدلة وقرائن أن نفترض أن مؤلف هذه المقولات هو شخص واحد وأنه هو خورشيد أفندي الكردي ، فمن هو خورشيد أفندي الكردي ؟

لقد حاولت التنقيب في بطون الكتب بقدر استطاعتي فلم أحظ بباطل ، سألت بعض الشيوخ من أهل العلم فلم تسمحهم الذاكرة بشيء ذي بال . وشامت المصادفة أن أقرأ ترجمة موجزة للسيد عبدالرحمن الكواكبي في معجم المؤلفين للأستاذ عمر رضا كحالة ، فوجدته يذكر أن السيد الكواكبي درس العلوم المصرية على خورشيد أفندي من أدياء الشرق ، وذكر الأستاذ سامي الكيال في كتابه « الأدب المعاصر في سورية » وأشار الطباق إلى أن السيد الكواكبي تلقى الفارسية والتركية على يد أديب في اللغتين ولم يذكر اسمه ، فهل يكون خورشيد أفندي الكردي هو نفسه خورشيد أفندي أستاذ الكواكبي ؟ وهل نستطيع أن نربط بين كون خورشيد أفندي مدرّساً للعلوم المصرية وبين هذه المقولات ؟ ربما (*) . إلا أن الأمر أولاً وأخيراً يبقى في نطاق الاحتمال والظن والتخمين . وحسبنا أن نضع هذا النص بين أيدي السادة الباحثين ليأخذ مكانه بين نصوص عصر النهضة ، ولعل أحداً من أهل العلم يهتدي بما تتيحه له علاقاته ومصادره إلى كثير مما غاب عنا علمه وجانبنا فيه الصواب ، وفوق كل ذي علم عليم .



الحمد لله الموصوف بالقديم ، ، باري المبرومات (١) من المدم ، مكوّن الأكوان ومديرها ، ومقدر الأمور ومديرها ، خلق الإنسان وفضّله على سائر الحيوان ، وأمره بالتبصر في بدائع مخلوقاته ، والتدبر في روائع مصنوعاته ، فاطّلع بمشيئته على بعض حكمته العظيمة الأحكام ، المنسكة في قالب الاتقان والانتظام . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى الصواب ، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب ، الذي أنزل عليه في محكم الكتاب : (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب) (٢) وعلى آله وأصحابه أهل الحميّة والدين ، القاطعين بسيوفهم رقاب العصاة الضالين المضلين ما سطمت شمس اليقين ، فأزالت بأنوارها غياهب غرور المفتريين . وبعمده فيقول الفقير إليه تعالى مؤلف هذه المقولة — غفر الله له وللمسلمين آمين : [ص ٢] .

* تولى الكواكبي سنة ١٣٢٠ هـ والمخطوطة كتبت سنة ١٣١٦ هـ . ويبدو أن يكون مؤلفها أستاذاً للكواكبي .
(المجلة)

ان من أعظم ما يوجب الأسف ، ويقضي بالحزن ، على من لم تزل تحركه الحمية الانسانية ، هو النظر فيما آل اليه حال وطننا من توارى شمس العلوم والمعارف عن أهله ، بعد أن كانوا في درجة من الفضل والتقدم معلومة مشهورة . ولا زال الأمر معهم بالتقهقر الى أن وقعوا في وهدة عميقة من الجهل المحض ، فسأت بذلك أخلاقهم ، وفسدت آدابهم ، وضاق معاشهم ، وأغلقت دونهم أبواب النجاح .

وكثيراً ما كانت تحركني المحبة الوطنية ، وتحثني على ذكر كليبات تمرب عن بعض تلك الأحوال التي اعترتهم وطست معالم مجدهم ، وعادت عليهم بالوبال وسوء المنقلب . وتذكرهم بما كان لسلفهم من العلوم وخرائب الفنون ، عسى تشبب في أجسامهم نيران الجد والاجتهاد تلافياً لما فات وهيبات . فشرعت بما كنت أنويه والله عالم بما أبدية وأخفيه فقلت : أن كثيراً من خواص أهل بلادنا - فضلاء عنوامها - ، إذا سمعوا ما للفرنجة من البراعة في الصناعة ، والسعة في العلوم والاكتشافات [٣] الجديدة - العلمية والعملية - أنكروا ذلك عليهم واستعظموا سماعه ، وما ذلك الا لأنه يكون سبباً لظهار جهلهم . وقصورهم في الهمة فدفعاً لهذا المحذور ، وتخلصاً من نسبتهم الى الجهل ، ترى إذا قيل لأحدهم : « أن الافرنج قد اخترعوا - مثلاً - قبة من القماش تحمل اناساً وتطير بهم في طبقات الجو (٣) » ، فيسيرون بها لأي جهة شاؤوها (٤) » يبادر حالاً بقوله : انها مأخوذة من كتب اليونان ، فانها كانت مستعملة عندهم .

كما أخذوا عنهم التلغراف (٥) والواهور (٦) والتلفون (٧) ، مع أنهم يعلمون بأنهم يكذبون في دعواهم . والسبب الذي يحملهم على أن ينفوا أصل الاختراع عن الافرنج المسيحيين ، ويشتبوه لليونان مع أنهم كانوا وثنيين ، هو ايهاهم (٨) بأن اليونان أمة خصها الله بالمعارف وأنزل الحكمة عليها دون غيرها ، وبذلك يكون غيرها من الأمم غير ملوم إذا لم يكن عنده علوم مثلها ، وبهذا الايهام يزعمون أنهم دفعوا الملام عن أنفسهم ، والتسواعدرا لجهلهم وعدم قدرتهم على الاختراع واكتشاف شيء ، والحال أن اللوم لازال منصباً عليهم [٤] ونسبة الجهل ما برحت منحاذاة اليهم ، إذ لو سلمنا بدعواهم الكاذبة أن الافرنج استنبطوها من كتب اليونان فلم لا يقدر أن يجاروهم في الأخذ منها - كما زعموا - مع أن كتب المذكورين ترجمت الى العربية ولم يكن الافرنج حينئذ يعرفون القراءة ولا الكتابة ولكن

(من كان يخلق ما يقو ل فحيتي فيه قليلة) (٩)

فهذا حال أهل بلادنا فيما ينسب للافرنج من الاختراعات المعسوسة ، حتى أنهم لربما أجروا هذه المكابرة في المخترعات التي ينتفعون باستعمالها كل يوم ، ويتزينون بغالب أنواعها . فما بالك في انكارهم ومكابرتهم في الاكتشافات العلمية التي تنسب للافرنج مما ليس يمكنهم أن يشاهدوها عياناً ، فانهم لا يمتقدون ولا يصدقون بها أصلاً ، ولربما القوا من قال بها أو ذكرها في الكفر . نعوذ بالله من جهلهم مع أن الدين ربما كان مشيراً اليها ، أو لم يتعرض لها بشيء من الانكار كما قال الاسام الغزالي (١٠) قدس سره العزيز في كتابه المسمى « تهافت الفلاسفة » ما نصه : « ليعلم أن الخلاف بينهم - أي الفلاسفة [٥] وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام :

الأول (١١) : يرجع النزاع فيه الى لفظ مجرد ، كتسميتهم صانع العالم (١٢) جوهر أ ، مع تفسير (١٣) الجوهر بأنه الموجود في لاموضوع ، أي : القائم بنفسه الذي لا يحتاج الى مقوم (١٤) .

والثاني : (١٥) ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلاً من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء (١٦) منازعتهم فيه كقولهم : ان خسوف القمر عبارة عن انحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث انه يقتبس نوره من الشمس . والأرض كرة والسماء محيطة (١٧) بها من الجوانب فاذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس . وكقولهم : ان كسوف الشمس معناه وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدين على دقيقة واحدة . وهذا المعنى (١٨) أيضاً لسنا نخوض في ابطاله ، اذ لا يتعلق به غرض ، ومن ظن أن المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضمف أمره ، فان هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا تبقى معها ريبة . فمن يطلع عليها ويحقق (١٩) أدلتها ويخبر [٦] بسببها عن وقت الكونين (٢٠) وقدرهما ، ومدة بقائهما الى الانجلاء ، اذا قيل له : هذا (٢١) على خلاف الشرع لم يسترب فيه وانما يستريب في الشرع . وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يظن فيه بطريقه . وهو كما قيل : « عدو حائل خير من صديق جاهل » انتهى كلام الغزالي (٢٢) . فعلى ذلك اذا قلت لهم حسبما قرره العلماء الأرباباويون وأثبتته الأدلة القوية القاطنة : ان الهواء المحيط بالكرة ارضية يبادل ثقله ثقل بحر من الزئبق مكتنف للكرة على عمق ثلاثين قيراطاً (٢٣) ، فتراهم حالاً يبادرون بالانكار ، ويقولون على سبيل الاستهزاء : بأي ميزان وزنه ؟ وبأي مكيال كآله ؟ فهذا لا يسلم به عقولنا فلا نصدقه أبداً . ويعددون من الألفاظ التي يستعملونها في أحوال الانكار والسخرية ليجعلوها (٢٤) كالدليل لانكارهم كقولهم : هذه سفسطة أو خرافة أو بدعة ، ويضحكون ويتفامزون ، واذا أردت أن تثبت لهم ذلك ، فضلاً عن أنهم لا يسمعون ليس لهم أذهان تقبل الدليل ، لعدم تمرينهم على [٧] سماع الحقائق من الناصح ، بل هم متمرنون على الاستهزاء والانكار والسخرية . والحال أنهم لو سمعوا وعوا لأظهر الدليل صدق ما جعلوه مستحيلاً بعقولهم الغليظة ، ولتذكروا أن الافرنج لو لم يكونوا يعلمون مثل ذلك لما قدروا على مد السكك الحديدية ، لأن مد قضبان الحديد متوقف على معرفة الارتفاع والانخفاض في سطح الأرض (٢٥) ، وهو متوقف على معرفة وزن الهواء (٢٦) ، فلو كان ذلك مجهولاً عندهم لغاتهم عمل السكة المذكورة . وكذلك عمل طلمبة (٢٧) الماء ، التي ترفع الماء من الجب الى سطح الأرض ، ما لم يكن عمقه أكثر من خمسة عشر ذراعاً ، والا فلا يكون ضغط الهواء كافياً لرفع الماء (٢٨) ، لأن قيراطاً مكعباً من الزئبق يعادل في الثقل قدماً مكعباً من الماء فتنبه . فقل لي - أصلحك الله - ما فائدة قولهم : ان عقولنا لا تقبل هذا ؟ فكأنهم يظنون أن عظام الأمور متوقف وجودها على قبول عقولهم السخيفة لها ! أو كان الافرنج مفتقرون لرواج مخترعاتهم الى شهادتهم لها الكلا ، ألم يعلم أهل تلك العقول [٨] الناقصة أن القوم غير مبالغين بانكارهم ، وليسوا بكثيرين باقرارهم ، وهم كل يوم في اختراع جديد واكتشاف غريب وترق عجيب ، وبذلك تحسنت أحوالهم ، وقويت نفوسهم ، وتجملت

بلادهم ، وطابت معاشهم ، وقهروا معانديهم ، واستحوذوا على أموالهم . فسبحان من يختار من شاء من خلقه لكشف أسرار حكمته . فما كان أجدر بهؤلاء المغفلين بدلا عن الإنكار أن يطلبوا دليلا على ما قيل لهم وحقيقة ما ذكر لديهم ، ويسموا بجدهم - أن كان لهم جد - الى معرفة ذلك أو تقليده على الأقل ، بل على الأقل الأقل أن يعرفوا وجهه من الامكان لتلايخسوا أحدا حقه كما هو شأن أولي العقل والحزم ، فان جميع هذه البضائع والاكتشافات لها قواعد علمية وأدلة يقينية يمكن لكل انسان بالتأمل والاشتغال أن يتعلمها ويتصور نتائجها بوضوح تام .

والذي يدلنا على شرف تلك العلوم وحلها دلالة يقبلها الفكر السليم ، هو أنه يوجد الآن عدد كثير من الآلات [٩] والاختراعات التي صنعتها الافرنج وجعلتها وسائل ومقاصد للعلوم وفنون عديدة في المكاتب السلطانية ، كالألات المتعلقة بالهندسة وفن الكيمياء والكهربائية والفلك وغير ذلك مما يساوي قيمته ألوفاً من الليرات ، وقد أنشأ جلالة مولانا معظم المكاتب الابتدائية في جميع ممالكه المحروسة اهتماماً بشأنها ، وربط الرواتب للمعلمين وللأولاد الفقراء الذين هم غير قادرين على صرف أوقاتهم بدون معاش يكتسبونه بكدهم ، وقد أنفق على ذلك المبالغ الباهظة ولا يزال منفقاً ، وزد على ذلك مصاريف الشبان من رؤساء عساكره المنصورة الذين يرسلهم الى عواصم أوربا ليتلقوا من مدارسها تلك العلوم ، فيرجعوا يثوبها (٢٩) في ممالكه المحروسة . فهل جميع ما يفعله سيدنا ومولانا أمير المؤمنين من هذه الأمور هو عبث على حسب زعمهم الفاسد ؟ أو يقصد أن يفش رعيته بذلك ؟ معاذ الله أن يكون ذلك منه وهو أحرص الناس على ترقى رعاياه وانقاذهم من ظلمات [١٠] الجهل مع مراعاة (٣٠) الشرع الشريف . فلو لم يتحقق نفع هذه العلوم مادياً وأدبياً لما فعله أصلاً وأمر بتعليمه ، لأن جلالة لا يقدم على أمر ما لم يوافق الشرع بموجب فتوى من المشيخة الاسلامية . ولكن أيت معاشر الجلاء الا المكابرة ، ولو بالمحسوس ، مخافة من أن يكونوا يوماً في أحد المجالس ويسألهم أحد الأولاد الناشئين في المكاتب الشاهانية بعض الأسئلة العلمية التي لا يقدرعون على الاجابة عنها . كما لو سألهم عن سبب الكسوف أو الزلزال أو مبيض البرق أو قمعة الرعد ونحو ذلك ، فانهم ان لم يجيبوا أصلاً ظهر جهلهم لدى من يوهونه بأنهم على شيء من العلم . وان أجابوا بما عندهم من التعاليل الباردة كنسبة الكسوف لوقوع الشمس من العجلة ، والزلزال لتحرك الثور الذي يحمل الأرض (٣١) ووميض البرق للمعان السوط الذي بيد الملك يسوق به السحاب ، والرعد لصوت زجره للسحاب ، صاروا سخريه بين القوم بعد وضوح [١١] تعاليل ذلك ومعرفتها أتم المعرفة لدى أغلب الأولاد المكتبلية (٣٢) فضلاً عن مشاهير الناس ممن علماء العصر الجديد ، ورفض تلك الخرافات . وما أحسن ما قاله العالم الفاضل حسن أفندي الطويراني (٣٣) : « ولو أردنا أن نصدق كل حديث يروى لنا لروينا الأعاجيب فقد ورد أن الله خلق آدم على صورة الرحمن (٣٤) . وورد : رأيت ربي في صورة شاب أمرد (٣٥) ، وورد أن الله ينزل في ثلث الأخير كل ليلة الى سماء الدنيا فينادي كذا وكذا (٣٦) ، وأن النيل والفرات وسيحون وجيعون تنزل من الجنة (٣٧) ، وأن الأرض طولها خمسمائة عام وعرضها وسعها وما بين كل أرض الى أخرى كذلك والسموات أيضاً (٣٨) . وأن أول طعام

المؤمنين يوم القيامة كبد الحوت الذي يحمل الدنيا (٣٩) ، وأن السموات بعضها من حديد وبعضها من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد وأن لها أبواباً ومفاتيح وغير هذا مما لا ينتهي من جريان الشمس على المجلة وجر الملائكة لها في بحر الفلك . وهكذا من الأمور التي برآ الله [١٢] منها رسوله ولكن ادّعاها المدّعون وكتبوها ونسبوها الى مصادر عالية بالطبع حتى يمكن أن يجبروا الناس على تصديقها الملو السند وشرف المقام ، ولكن كل ذلك ليس ببرهان مقبول » (٤٠) انتهى كلام حسن أفندي الطويراني . وقد ثبت كثير من أقوال الحكماء المتأخرين ما وافق آي القرآن ، وقد صرح بذلك العالم الفاضل الشيخ أحمد محمد الألفي (٤١) في جريدة الاسلام فقال : « قد ورد في القرآن المجيد ما يثبت تكور الأرض ودورانها طبقاً لما اكتشفه المكتشفون قال تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) (٤٢) أي خلف بعضهما بعضاً بسبب تكور الأرض ودورانها . وقال تعالى : (وأية لهم الأرض الميتة أحييناها) (٤٣) الى قوله تعالى : (ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) (٤٤) ، فانه لا يتمين عدم السبق الا بالتوالي والامكان لذلك الا بالتكور والدوران . وقوله : (وكل في فلك يسبحون) بالجمع في الموضعين ، يفيدان الأرض والشمس [١٣] والقمر يسبحون في فلك ، اذ لو كان المراد الشمس والقمر فقط لقال : وكلاهما في فلك يسبحان بالثنائية في الموضعين . وقال تعالى : (والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها) (٤٥) فانه جعل النهار الذي هو مقابل وجه ارض للشمس مجلياً لها ، والليل الذي هو الظلمة الأصلية للأرض مغشياً لها . وأسند فاعلية ذلك لفاعل آخر غير الشمس والقمر وهو الليل والنهار اللذان هما من آثار الأرض وغير ذلك من الآيات .

واذا كان هذا معلوماً ، فما يدل من الآيات الأخر على انبساط الأرض وطلوع الشمس وغروبها يمكن تأويله باعتبار الأبعاد والعرف الجاري ، وليس في قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها) (٤٦) ما يفيد أنها تدور حول أرض بل يمكن - والله أعلم - أن يقال : انها تجري لمستودعها ، أي : تدور حول نفسها ، فقد علمت أنه ليس في أصول الشرع ما يخالف الاكتشاف القطعي بل ولا الظني ، لكن لما كان البحث عن أصل التكوين ليس مقصوداً [١٤] للشرع ، وهو من وظائف العلماء الباحثين - كما تقدم - فلا تؤول (٤٧) النصوص الشرعية التي أساسها اليقين بما لا يطابق ما اكتشفوه بالدليل العقلي القطعي ، وأما الظني فلا » انتهى كلام الفاضل الشيخ أحمد محمد الألفي .

وأقول : ان أوضح وأصرح من هذا كله قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء) (٤٨) فانه من تأمل هذه الآية الكريمة حق التأمل ونظر فيها بعين بصيرته وجدها ناطقة نطقاً جلياً عن حركة الأرض ودورانها . والقول بأن هذا يكون عند قيام الساعة مدفوع من وجوه :
الأول : أن « ترى » فعل مضارع وهو حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال واذا تعارض المجاز والحقيقة قدمت الحقيقة كما هو مقرر في الأصول (٤٩) .

الثاني : قوله : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) (٥٠) فان ذلك لا يناسب أحوال الساعة التي تدرك الأرض دكاً وتنسف الجبال نسفاً حتى تتركها كالمهن المنفوش ، فان تلك الحالة حالة اخراب واعدام لا حال صنع [١٥] واتقان .

الثالث : أن الأليق بالمعجب من صنع الله أن يكون بالأمر الحالي المشاهد لا بالأمر الغائب المستقبل . وكيف التوفيق بين قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب) (٥١) وبين قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) (٥٢) فإن الآية الأولى تخبر عن حركة لا يشمر بها ، والثانية عن حركة تذهل الإمهات عن أولادهن فتنبه .

وقد تمسك قوم بسطاء بقوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحّاها) (٥٣) فجعلوها دليلاً على بساطة الأرض تأويلاً منهم للدحو بالبسط وهو لمعري دليل واه لأن الدحو معناه الالتقام والوضع (٥٤) . ويؤيد ذلك قوله تعالى : (والأرض وضعها للأنام) (٥٥) وقال الشنفرى (٥٦) من اللامية (٥٧) .

وأعدل منعوضاً ، كان فصوصه كتاب دحّاها لأعب فهي مثل (٥٨)

أي : القاهها وطرحها . وحسبنا دليلاً على ما ذكرناه في المقابلة [١٦] الواقعة في الآية الكريمة أعني قوله تعالى : (أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسوها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحّاها) (٥٩) فإنه قابل الرفع بالدحو وهو في معرض الامتنان على العباد بأنه خلق لهم مقراً يقرون عليه لا في بيان أنها بسيطة ، على أن بساطتها ليست أعظم من كبريتها حتى يذكر في معرض الشدة والعظم .

رجعاً الى ذكر أولئك البلهائم فإنه لا يسعهم حينئذ إلا أن يقولوا : هذا البحث حرام وانه يفسد العقيدة فلا ينبغي سماعه .

فليت شعري ما الذي تفعله هذه الأبحاث من الخلل في الديانة ؟ ومن حرم البحث فيها ؟ مع أنه تعالى أمرنا بالتفكر في ملكوت السموات والأرض والتدبر في بديع صنعه قال تعالى : (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً [١٧] وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار) (٦٠) ، روي أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام : (ويل لمن لا كها بين لحييه ولم يتفكر فيها) (٦١) وقال تعالى : (فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى) (٦٢) وقال تعالى في معرض التوبيخ للجهلاء : (وكأين من آية في السموات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون) (٦٣) فكيف يلام من تفكر في ملكوت السموات والأرض ، وعلم الوسائط والأسباب التي أقامها الحق سبحانه وتعالى وجعلها مترتبة على بعضها بحكمة وانتظام في خليقته وبذلك يزداد يقيناً وإيماناً ، ويدرك ما لا يدركه الجاهل أصلاً ، بل الجاهل بذلك لا يعلم قدرة الله وسعة ملكه ودقائق حكمته الا تقليداً ، والمقلد اليوم مصدق وغداً مكذب . ولكن ليعلم هؤلاء البلهائم [١٨] السخيفو المقول أن هذه المحاولة والتجلد لا يدفعان عنهم الجهل ، ولا يرفعان منهم القدر ، فلا بد من أن يأتي الزمن الذي لم يبق لهم حيثية أصلاً ، حيث يقتضي الأمر بأن يكون نحوهم في مثل الأولاد المكتبلية المهذبين كشجرة العليق فلا يقر للبستاني قرار

ما لم يطمعها ويخلص أشجار بستانه النافعة من شرها . نعم انهم بارعون في جمع الأموال من أي باب كان من غير مبالاة في حلال أو حرام ، وحديثهم العلمي هو الشعر الكذب ، كما يقال بينهم : أعذبه أكذبه (٦٤) فلو سمعوا مثلاً أحداً ينشد قول الشاعر : (من الكامل)

أو في السماء تكون قوة بأسه من الروع يوم البعث لم تتفطر

لرايتهم يهيمنون طرباً ويصيحون : الله الله ، ويهزون آدمغتهم تمجباً واستمذاباً لهذا الكذب المزوج بما يشبه الكفر ، وربما طلبوا اعادته مراراً ليلذذوا به أسماعهم ، فهم بذلك كما وصفهم [١٩] ربنا تعالى بقوله : (سماعون للكذب كآلون للسحت) (٦٥) والله در القائل فيهم : (من الكامل) .

من رمت منهم أن تبث بعقله نور الحقيقة قال : هذا أحق
وتراه ان حدثته بخرافة يهتز من طرب لها ويصفق

وسبب هذا الطيش والخفة والوقاحة فيهم هو أنهم لم يحصلوا مدة حياتهم سوى هذه الأمور السافلة ، وأما العلوم العالية فبميدة عن أفكارهم القاصرة ، فإذا لم يسلوا أنفسهم بتلك الخرافات ويروجوها بوقاحتهم وتمويههم ملأوا حياتهم وساء عيشهم . على أن علومهم وان زعموا نعمها لم تنفعهم في الوقت الحالي فما بالك في المستقبل حيث تنبغ أبناء المدارس في العلوم الرياضية الجديدة بالنفع . وقد أشار الى ذلك الأديب : اسحاق أديب (٦٦) بقوله : (من الطويل) .

هو العلم حتى يدرك المرء غامضه ولا يختشي فيما يقول معارضاً [٢٠]
وما الشعر الا شاغل عن نواله - فهذا قريض بات للعلم قارضا
وقد صرفت افكارنا نحو صرفنا وفي النحو بات الوقت والذهن غائضا
فذا ناصب منا يخالف رافعا وذا جازم منا يفاير خافضا
سفاسف اقوال تقادم عهدا فلم تبد مستورا ولم تجل غامضا
ملانا بها الاوراق وهي فوارغ من النفع الا بارق مرّ وامضا
وقال آخر : (من الكامل)

لا تحسبن الشعر علماً نافعا ما الشعر الا معنة وخبال
فالهجو قذف والثناء نياحة والعتب ذل والمديح سؤال (٦٧)

وأما من تعلم منهم الفقه فأجارنا الله منه ، فانه انما يتقنه ليكمل الحق بأطلا والباطل حقاً حسب الاقتضاء ، ومن النادر وجود واحد منهم على نهج الاستقامة بل الغالب منهم كما قال الشاعر : (من المتدارك)

سلاّب المال بلا حرج [٢١]
قم نحو حماء وابتهج

أما القاضي في بلدتنا
أن رمت الحق يكن بطلاً

وقال آخر : (من الكامل)

طلب العلوم ليرتقوا بتنافس
نيل المراتب عندهم بقلانس
وفخاره أن يرتدي بطيالس
شرف الفتى فيه بحسن ملابس
وغدونا في ظلم النهار الشامس
وتقاسموا لجح الضلال الدامس
غايات علم الناس حدس الحادس

قد كان وصف الأقدمين جميعهم
والآن زال العلم منهم أنما
وبطول ذقن المرء ادراك المنى
أترانا نرجو خير دهر قد غدا
ذهبت علوم قد أنارت ليلها
علماؤنا جهلوا حقيقة دينهم
ذهب اليقين فلا يقين وأنما

والحاصل أن هؤلاء القوم المغفلين على ما هم عليه من الجهل تراهم لا يقرون بفضل من أوصل المنافع إليهم مما يحتاجون إليه في مآكلهم ومشربهم وملبسهم وزينتهم وآدابهم ومداواة أمراضهم وهم مبشرون منافعها ، والذي ينبغي للإنسان ، أن لا يبغض [٢٢] أحداً حقه كما قال تعالى : (ولا تبغضوا الناس أشياءهم) (٦٨) ولا ينبغي أن يعتمد على مجرد عقله ، بل ينبغي أن يستوضح ما خفي عليه ادراكه . ألا ترى أن عقولنا جميعاً لا يمكنها أن تتصور عمل الكبريت ، خصوصاً الملون الشماع ، بل لو فرغت علبه منه وطلبت من أحدنا أن يملأها كما كانت لمجز عن ذلك . أفصبح لنا أن ننكره بمجرد كون عقولنا لا تتصور عمله ، ونحن كل يوم نوقد من فيه مصابيحنا ؟ وهل يليق بنا أن ننكر مصابيح الغاز (٦٩) الذي ننير به منازلنا بضمن بغض بما لا يمكن أن نبادل به من زيت الزيتون أو من شمع المسلول لو صرفنا أضعاف ما نصرفه على ذلك ؟ وكثيراً ما نرى آلة من عمل الأفرنج ولا نعرف لأي غاية صنعت حتى يفهمنا أحد منهم سرّها ، فهذا قصورنا في فهم صنائعهم الجزئية فما بالك في صنائعهم الكلية مثل السوابور (٧٠) والتلفون (٧١) وحافطة الصوت (٧٢) والمكسر سكوب (٧٣) وما أشبه ذلك . وأعظم وأهم الجميع الآلات الحربية التي عليها [٢٣] الاعتماد في حماية الدين والوطن . فهل تمهد من يحسن عمل كبسولة (٧٤) في جميع بلادنا (٧٥) ؟ كلا . فهل معرفتنا الشمر والنحو والبديع والأحاجي التي هي كالريح تسمع لها دويّاً ولا ترى لها جرماً تسد هذا الغلل ، وتقيم لنا عذراً من هذا التصور ؟ كلا ، لا يقول هذا إلا من طمس الله على لبه ورده إلى أسفل السافلين في المرتبة الحيوانية . وكان حكمه الله اقتضت أن لا يتيسر لأحد من أهل بلادنا اختراع شيء مفيد لأن عقولنا ضعيفة فلا تحتمل ذلك (٧٦) ألا ترى أن أحدنا إذا كان مثقناً علماً ولو خسيساً مثل الشطرنج (٧٧) أو المنقلة (٧٨) أو الدومنو (٧٩) أو لعب الحكم (٨٠) أو اللب بالنبوت (٨١) ، أو كان يعرف يقسم أربعين قبابة (٨٢) في سبعة صحون ، يكاد يعملو شبراً عن الأرض في مشيته

تيها وعجبا ، مع أن هذه العلوم لا نفع منها بل ضررها مقطوع به ، فكيف لو توفق لعمل شيء مفيد للناس ؟ فلا شك أنه يرى نفسه حريته بأن يحصلها الناس على رؤوسهم .

نعم ان الانسان يرغب في مطالعة دواوين الشعر وهو [٢٤] في سن العشرين الى الثلاثين كما يقتضي طوره ، فاذا تجاوز هذا السن ترك الشعر وانتقل الى علم أرقى منه كعلم التاريخ ثم الطبيعة ثم الهيئة ثم الجغرافية وهكذا كلما ترقى عقله يترقى طلبه للعلوم . أما كونه يبلغ الأربعين والخمسين من عمره وهو باق في نقطة واحدة من الشعر والبديع والاستمارة وما أشبه ذلك ويقنع نفسه بأنه على شيء من العلوم فذلك ضرب من الجنون وقصور في الهمة ، ألا ترى أن الطفل متى قدر على أن يمسك في يده شيئا وأعطيته قطعة من الورق مثلاً فإنه يأخذها فرحاً بها فيقلبها وينظر في ظاهرها وباطنها ويتشاكل بها عن البكاء ، وحينما تطول مدة بقائها في يده يتركها ويبكي فإذا رددتها إليه ثانية لم يأخذها ، وأما ان أعطيته غيرها على هيئة جديدة كما اذا كانت مكتوبة قبلها ثم اذا رأى غيرها مذهبة ترك المكتوبة وطلب المذهبة وهكذا ينتقل من شيء الى شيء أسوأ وكلما ترقى عقله ترقى مقصده على الدوام [٢٥]

نعم لا بأس بالشعر الحسن اذا كان متضمناً مواظ (٨٩) وحكماً من شأنها نهاض الفكر والتنبية على محاسن الآداب والارشاد والحث على المحبة والاجتهاد كقول الشيخ حسين الجسر الطرابيشي (٩٠) مؤلف الرسالة الحميدية : (من الرجز)

وكن محب الوطن المعظم	ذا غيرة عليه في التقديم
فجبه عله من الايمان	وبفضه من اعظم الخسران
وابذل لهذا الخلق المجهودا	حتى يكون طبعك المحمودا
فلا ينال المرء من فلاح	حتى ترى الاوطان في نجاح
فغيرها خير لكل واحد	من أهلها من واجد وفاقد
فما نجاح الأمم الغريبه	الا بهذي الغصلة السنيه
وباكتساب العلم والفنون	وغير ذا من واهن الفنون
فاصبحت ديارهم جنانا	غنية وعزها مصانا
وقد غدوا أعزة الملوك	أعظم الفنى والصعلوك
وكل ذا من حبه للوطن	وكسبهم لكل فن حسن [٢٦]
هذا هو التمدن المحمود	اليه يسعى الطالب السعيد (٩١)

وقلت متشبهاً بالحكام ومقلدا للشعراء : (من البسيط)

من يطلب التبر من ترب الحديد فذا
من أحق الناس أو من جملة البهم

من ينتقد لك أعمالا تشان بها
وان صحبت فتى من أجل ثروته
لا تبد قولاً اذا ما بان تجده
أعن أخاك اذا ما كنت ذا سعة
يستعبد الحر في صنع الجميل كما
ان البغيل الرفيع الأصل مضطهد
صاحب أخا الحلم تامن من بوائقه
ومن تظاهر بين الناس في ورع
واحكم على من يرى جم الرفاق له
وكثرة المال بالأنذال تفعل ما
نرجو المذرة من القراء الكرام عن ركافة هذه الأبيات ولهم الفضل .

وأما الشعر الرديء كقول القائل (٩٢) : (مجزوء الرجز)

يا سابعاً في بركك وصائداً في شبك
لا تحقرن كككي فككي كككك

فسماع نهيق العمار ربما كان أطرب من هذا وأمثاله ، كانه ظن أن كافاته تقوم مقام كافات الشتاء (٩٣) ، لقد أخطأت استه الحفرة . ويحسن هنا أن نورد ما نقله المرحوم خير الدين باشا التونسي (٩٤) في كتابه « أقوم المسالك » عن مسيو دوري وزير المعارف الممومية بفرنسا (٩٥) ، فلعل الذي يسمعها من خواص أهل بلادنا تدب فيه حرارة الغيرة على حاله ووطنه ، فيصرف همته في العلوم والمعارف لاستحصان المنافع التي يحتاج إليها ترقى الوطن وتجمله في الصنائع والفنون ، قال المسيو المذكور ما ترجمته : « بينما كان أهل أوروبا تائهين (٩٦) في دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سم الخياط ، اذ سطع نور قوي من جانب الأمة الاسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك [٢٨] حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقروان ومصر وفاس (٩٧) وقرطبة (٩٨) مراكز عظيمة لدائرة المعارف . ومنها انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوروبا في القرون المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنوناً علمية يأتي بيانها ، . الى أن قال (٩٩) : « كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم ، مؤداة بلغتين : الحميرية في اليمن والقرشية في الحجاز وبالأخيرة (١٠٠) جاء القرآن . ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف ، فأخذوا عن اليونان تأليف أرسطو (١٠١) وشرحوها بأمان نظر ، لكن من سوء (١٠٢) البخت لم يأخذوا الفلسفة

من كتب اليونان الأصلية ، وانما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام ، فهم ترجموا المترجم ، فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربي حفيد ابن رشد (١٠٣) الى أوروبا في القرون المتوسطة [٢٩] وجد بها التحريف أكثر مما وقع فيها أولا . وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى ، والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية ، وفي أوائل القرن التاسع المسيحي أمر الخليفة المذكور عالمين من فلكية بغداد أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خطوط الطول بصحراء سنجار ويزناها ليثبت بذلك تكوين الأرض بالمشاهدة ، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي (١٠٤) الخط المقيس ، وقد شرح العرب كتاب اقليدس (١٠٥) وهذبوا زييج (١٠٦) بطليموس (١٠٧) وحرروا حساب تسريع منطقة البروج ، كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال والفرق بين السنين الشمسية والزمنية ، فوجدوا بينهما عدة دقائق ، ومنهم حازت مدينة (سمرقند) قبل أوروبا بكثير محل رصد عجيب (١٠٨) . ويمكن انهم نقلوا اليها على ذلك [٣٠] الوجه البوصلة أي : بيت الابرّة ، والبارود الذي تعلموه من أهالي (١٠٩) الصين كما يعترف لهم أهل أوروبا بمزية اختراع الكاغذ (١١٠) من القماش ، وبذلك كثرت الكتب وتدنّت أسعارها . وقد اشتهر العرب أيضاً بمعرفة الطب الذي كانوا تلقوه من كتب اليونان ، ولا بن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس (١١١) شاهدة بما ذكر . ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا في مدة واحدة (١١٢) حكماء وأطباء مشاهير مثل أبي علي بن سينا المتوفى سنة ٤٢٦ هـ ، وابن رشد المذكور . وقد بلغوا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم في ذلك الوقت يرغبون في معالجتهم ايّاهم ، كما يحكى أن بعض ملوك قسطنطينة كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهدى أن تكون معالجتهم بقرطبة ، وحصل من لطف الخليفة على الاذن في أن يذهب ويدأويه المسلمون . ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه [٣١] واستعمال الراوند (١١٣) وأدوية كثيرة . ومن العلوم التي لهم الفضل فيها الجغرافية . وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ورغبتهم في الأسفار الخطيرة لافتراض (١١٤) الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التي لم يصل اليها أهل أوروبا أو نسوها بعدما كانت معروفة لهم (١١٥) ومن مشاهيرهم في هذا الفن أبو الفداء (١١٦) والمسعودي (١١٧) والادريسي (١١٨) ، وهذا الأخير هو الذي استدعاه روجير (١١٩) ملك صقلية وألف عنده كتابه الغريب الذي سماه : « نزهة (١٢٠) المشتاق » (١٢١) . ومن مآثر العرب اصطناع الجوابسي (١٢٢) والفوارات والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر التي كانوا يجلبونها من المشرق (١٢٣) ومن مقاطع اسبانيا الجنوبية . ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذي بنّاه « عبدالرحمن الأول » (١٢٤) بقرطبة وكان به ألف وثلاث وتسعون (١٢٥) أسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل ثم قصر الزهراء الذي لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم (١٢٦) وقد بنّاه « عبدالرحمن الثالث » (١٢٧) انتهى [٣٢] كلام المسيو مسيودوري (١٢٨) .

وفي تاريخ العرب (لسدليو) (١٢٩) مدرس علوم التاريخ بأحدى مدارس فرنسا وأحد أعضاء جمعية المعارف بها ما معناه « اني منذ مدة طويلة تنيف على العشرين سنة مشغول ببيان مزايا العرب على غيرهم من الأمم فيما يتعلق بالعلوم والتقدم في التمدن مدة قرون متطاولة ، من أيام اليونان بالاسكندرية الى أيام مصر الجديد ، فلزماني أن أجمع ما تيسر

لي من الأدلة على عظم هذه الأمة التي لم يعرف قدرها الى الآن ، وأعرضه على ما لغيري ممن تكلم عليها فيتأسس تاريخاً لها (١٣٠) لها عمومياً (١٣١) ، وان كان ذلك مما لا تفني به طاقة انسان واحد ، وقبل الشروع في ذلك على وجه الاختصار يلزمني أن أندب الناس الى التأمل في أحوال هذا الجنس الذي كان كثير الفتوحات عديم الاستيلاء عليه في سائر مغازيه ولم يزل مدة أربعة آلاف سنة على حال واحد في اكتساب الفضائل والمزايا التي تميز بها على غيره ، والترتيب والمعادن [٣٣] الخاصة به . ومن حجج ذلك أن الوقت الذي كانت فيه الممالك القديمة في مبدأ تكوينها ذات حيرة ، كان هذا الجنس اذ ذاك قائماً بنفسه قادراً على الاغارة على غيره ، فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة عشر قرناً قبل التاريخ المسيحي ، ثم بعد أن رجع الى حدوده الأصلية دافع عن نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام وامتنع من تسلط قبرس (١٣٢) واسكندر ودام في استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملوكاً الدنيا ، وبعد ظهور النبي (ﷺ) الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً واحداً ، ظهرت للميان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج (١٣٣) في اسبانيا الى نهر الفانج (١٣٤) في الهند ، ورفعت على منار الاشادة (١٣٥) اعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة كأنها نسيت بالمرّة ما كان عندها [٣٤] من التمدن الروماني واليوناني ، وبمعدن انقسام ممالك الاسلام لم تتعطل العلوم والآداب التي نتجت على أيديهم ، فان خلفاء بغداد وقرطبة ومصر وان ضعفت قوتهم الملكية والسياسية فان سلطنتهم الروحانية لم تنزل قوية مطاعة في كل جهة لاجتهادهم في توسيع دوائرها بقدر طاقتهم ، وقد نال النصارى الذين استطاعوا اخراج العرب من اسبانيا بالخلطة معهم في الحروب معارفهم وصنائعهم واختراعاتهم ، ثم المغل والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانوا خدماً في العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب ، والى الآن لم نطلع في أوربا على الأصول التي تبين لنا عادات العرب اطلاقاً تاماً ، اذ لم يعرف عندنا من تواريخهم الا تواريخ أبي الفداء وأبي فرج الأصبهاني (١٣٦) والمقرئزي (١٣٧) وابن الأثير (١٣٨) ونبذة من تاريخ ابن خلدون (١٣٩) ونجهل بالمرّة تواريخ كثيرة نود لو نجد من يترجمها لنا ، وان كان [٣٥] المقدار الذي حصل عندنا كافياً في رد غلط من غلط من أهل أوربا في شأن العرب . ثم اني ذكرت في تاريخنا هذا ما يتعلق بفتوحات الخلفاء الأولين وبتاريخ دولة بني أمية بدمشق وقرطبة وبتاريخ دولة بني العباس ببغداد والفاطميين بمصر ، وبانقسام الممالك الاسلامية بالشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم ، فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة وزدت عليه شيئاً لم يوجد في التواريخ السالفة وهو برنامج التمدن الذي قد توشجت (١٤٠) عروقه في الدنيا القديمة واستمرت آثاره ظاهرة الى الآن لكل من يبحث بالجد عن أصل المعارف منا ، وفي أوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجد في المعارف والعلوم فكانت اذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقّة (١٤١) واصبهان وسمرقند تتسابق في ميدان العلوم مع بغداد تحت بني العباس ، وترجمت في تلك المدة كتب اليونان وقرئت [٣٦] بالمسارس وشرحت وسرت حركات عقولهم في جميع مواد المعارف الانسانية فنتج عنها من الاختراعات الغريبة ما شاع صيته في أوربا . فبين بلا اشكال أن العرب هم أساتيدنا بلا انكار لكونهم جمعوا الأدوات المؤسسة عليها تواريخنا المتوسطة ،

وبدؤوا (١٤٢) بكتابة الرحلات واخترعوا التاليف في تاريخ وفيات الأعيان ووصلوا في صناعة اليد الى غاية لا تعد ، وبقيّة آثار ابنيتهم مما يدل (١٤٣) على اتساع معارفهم ، وكذلك اختراعاتهم الغريبة تزيد بيان الفضائل التي لم ينزلوا بها الى الآن منزلتهم التي يستحقونها بسببها ، فان علوم الفيزيك والطب والتاريخ الطبيعى والكيمياء والفلاحة ، لما جاءت (١٤٤) في أيديهم ازداد فيها الغريب مع كونها من المحسوسات التي لا تصرف لها همهم صرفاً تاماً ، فكيف بالعلوم العقلية التي اجتهدوا فيها اجتهاداً يفوق العدم من مبدأ القرن التاسع الى انتهاء القرن الخامس [٣٧ عشر] ثم نقول : ما نسبة ما عرفناه الآن منهم ببحثنا الى ما بقي مجهولاً لنا من ذلك . وبالجملّة فالعرب هم منبع معارفنا ، ولم نزل الى الآن نطلع على أشياء من مخترعاتهم التي كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم ، ثم قال في شأن التمدن العربى ، انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم وانقشمت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ، ولم يكنهم الاحتفاظ على كنوزها التي عشروا عليها ، بل اجتهدوا في توسيع دوائرها ، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها (١٤٥) ، ثم استشهد بقول اسكندر هبلط (١٤٦) : ان العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ نهر الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا وبين العلوم واسباب التمدن ، فتناولتها الأمم (١٤٧) على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً [٣٨] لا يشبهه غيره . فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني اسرائيل الذين لا يطيقون خلطة أحد من الناس ، فيخالطون غيرهم من غير أن يختلطوا به ، ولا يتبدل طبعمهم بكثرة المخالطة ، ولا ينسون أصلهم الذي خرجوا منه ، وما أخذت أمم ألمانيا في التمدن الا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم ، بخلاف العرب فانهم كانوا يحملون التمدن معهم ، فحيثما حلوا حل معهم ، فيثبتون في الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهديباتهم وأشعارهم الشهيرة التي هي أساس بنى عليه المنسقر (١٤٨) والتريدور (١٤٩) وأشعارهم . ثم قال (١٥٠) وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها ، في سائر الأوقات ، ثم لما امتدت سلطنتهم من البريني وهي جبال بين فرنسا واسبانيا الى جبال هملاي التي بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض . وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم [٣٩] المحرقة ، فسيرتهم في ذلك السائر بها الى الآن أهل بلنسية (١٥١) روضة اسبانيا صالحة أن نجعلها أسوة نقتدي بها في نلاحتنا الفرنساوية ، وأما الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلاد الرومانيين العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها ، وكفاهم شهرة في ذلك سلاح طليطلة التي كانت تحت سلطانهم باسبانيا ، وحريريات غرناطة والجوخ (١٥٢) الأزرق والأخضر بمدينة كونسنة ، والسروج والخروج بقرطبة ، وكان أهل أوروبا يشترون هذه المهمات بأعلى ثمن ويتنافسون فيها مع شدة نفرتهم من أهلها المخالفين لديانتهن . ثم قال بعد ذلك : ونمود الآن فنقول : (١٥٣) انه ثبت عندنا بما صنّفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب في ذلك الوقت الذي وصل صيته الى أوروبا النصرانية ، وهذا حجة

على أنهم كما قال غيرنا ، ونحن نعترف بهم أساتيدنا ومعلمونا (١٥٤) الذين اهتدينا بنور علومهم وتمدّهم وآدابهم ، انتهى [٤٠] كلام المسيو سدليو .

فالمعجب كل المعجب من قوم يقول لهم الافرنج : قد أخذ أسلافنا كثيراً من حقائق علم الفلسفة والهيئة والطب والكيمياء عن أسلافكم ، ولو لم يقتبسوا من نور علومهم لبقينا في ظلمات الجهل الى الآن ، وهم يتبرؤون منها ومن نسبتها الى أسلافهم حتى أنهم يكفّرون من قال بها أو يفستّقونه ، فسبحان من يداول الأيام بين العباد وله المراد فيما أراد واليه المآد . ولا بأس من أن نذكر ما جرى في جمعية علماء اللغات الشرقية بمدينة ليدن لما فيها من الفوائد وذلك أنه من مدة عشر سنوات عينت علماء اللغات الشرقية مكان اجتماعهم مدينة ليدن من بلاد دولة هولاندة كما هي عادتهم في كل ثلاث سنين ، وكانت الجمعية المذكورة مؤلفة من سائر طوائف أوربا من كل ملة بلا استثناء ، والذي كان من طرف الدولة العلية حضرة الشيخ أمين أفندي المدني (١٥٥) ففسي نهاية اجتماعهم بمثل المذكور رسالة الى مجلة [٤١] المقتطف البهية في بيروت بخلاصة ما جرى في الجمعية فنشرتها في وقتها بحروفها فاقتطفنا منها ما يأتي : قال بعد أن ذكر معاورات العلماء وخطبهم وانتقاداتهم أقوال بعضهم من غير خروج عن حد الأدب (١٥٦) : أن أحد علماء الفرنساويين واسمه المسيو رينان (١٥٧) كان ألف رسالة أنكر فيها على العرب ظهور واحد منهم بمظهر الفلسفة أو الحكمة ، فلما جرى ذكرها وذكر مؤلفها التفت أحد العلماء الانكليزيين واسمه الدكتور «تين» وقال : لا ينكر فضل العرب وعلومهم (١٥٨) الا من عميت بصيرته ، فان أوربا على تقدمها في العلوم ، وجدّها واجتهادها لو لبثت مائة عام وهي تقرأ لا يمكنها أن تعرف مقدار فلاسفة العرب في الأندلس فقط فضلاً عن فلاسفة المشرق ، ونحن لولا هؤلاء الفلاسفة ما وصلنا الى شيء من علوم الأولين ثم لا زلنا ولا نزال كلما وجدنا حجراً مكتوباً أو عظمة أو خزفة (١٥٩) أو جلد من آثار (١٦٠) العرب نستخرج منها تواريخ ونوادير وفوائد لكن الأولى عدم الرد على المسيو [٤٢] رينان لأنه جاحد لمصادر يكابر في الحس كمن ينكر ضوء الشمس عناداً على أن جميع الأفكار الحاضرة لا تقصد الا توحيد الكلمة والتأليف بين النوع الانساني على اختلاف العوائد والمعتقدات بخلاف المسيورينان فإنه يحاول أن يشق العصا حتى يردّها جذعة . انتهى كلام الدكتور تين . ثم قال الشيخ أمين أفندي المذكور : (١٦١) ومما يستحق البيان أيضاً أننا في المشرق لا نعرف أحوال أهل أوربا ولا العلوم التي يشتغلون بها ولا الكتب التي طبعوها في شيء ديني أو علمي (١٦٢) وقد وجدت فيهم قوماً يشتغلون بمذهب الحنفي (١٦٣) وقد طبعوا فيه كتباً عظيمة منها شرح القدوري (١٦٤) وفتاوى القسروي (١٦٥) والتاويج في الأصول ، وبعضهم يشتغل بمذهب الشافعي (١٦٦) ، وقد طبعوا (١٦٧) منه : التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي (١٦٨) بغاية الجودة والضبط ، ومنهم من هو شارح في شرح الورقات لامام الحرمين (١٦٩) ، وقد طبعوا صحيح البخاري (١٧٠) وتفسير البيضاوي (١٧١) وغير [٤٣] ذلك من الكتب الشرعية (١٧٢) الاسلامية وبعضهم مجد (١٧٣) في تدريس هذا التفسير مع التحقيق والتدقيق والمعاورة بينه وبين تلامذته . وأخبرني رجل منهم أنه يقرأ كل يوم عن ظهر الغيب جزءاً من القرآن المجيد ، ثم اذا صرفنا النظر عن غايات الافرنج في طبع هذه الكتب فأين يبيمونها وهم لا يطعمون أقل من خمسمائة نسخة من كل كتاب ، واني مع

اشتغالي بالكتب مدة سنين ما رأيت أكثرها في بلاد المشرق . ولا سمعت بأنه طبع منها (١٧٤)، ويخشى (١٧٥) ان دام هذا الاعتناء في أوربا أن تشد إليها رحال التحصيل من سائر الأقطار، حتى في طلب العلوم الشرعية الإسلامية ، لأن الفرنج متى اشتغلوا بعلم فانهم لا يتركونه بل (١٧٦) يفوضون في بحاره فيستخرجون درء من طينته خصوصاً (١٧٧) أن ملوكهم يجدون في تمهيد السبل ، وعلماءهم أسخياء بما لديهم ، وكتبهم سهلة التناول والاعارة وبلادهم رغبة الميش ، والأبدان فيها صحيحة ، والأديان حرة، فكل هذه أسباب داعية [٤٤] الى انجذاب العالم اليهم . انتهى كلام الفاضل الشيخ أمين أفندي المدني والله درء الشاعر حيث يقول : (من البسيط)

مهلا فلا خير بابن قد زرى باب
لهم على قوم اسماعيل ذي النسب
معالم العرب كل العلم والادب
يتلوه والشعر حتى كل منتخب
في ارض اندلس من تلکم الكتب
ارزاقنا آه واحزني وواعجبي
على غني فاكتسى طوقا من الذهب
ذا اللص فالدهر حكم غير منقلب
على بني العرب أهل الاصل والحسب
فكرموا سلماً تمتد للشهب
فالعرب سادتكم من سالف العقب [٤٥]
ما جاء سيده الا من الجنب
لم يلف بينهما - والله - من نسب
ومن ذكاء ومن صفو ومن طرب
مروءة دأبها تبدو لدى الطلب
فاغتلتموه وشتتم ذمة العرب
قيرى ضيوف واحسان لمفترب
فما خلائكم يا أمة اللجب
ومن عتو ومن حق ومن غضب

حتى م تزررون يا فرنج بالعرب
ما فضل قوم من الاوباش لا نسب
ان كان بالعلم جثتم تفخرون فمن
اخذتم الطلب عنهم والحساب وما
تذكروا ما غنمتم يوم ندوتكم
فهل فضلتم علينا باختطافكم
واي فضل للصوص دب في غسق
فسوف يقبض جاسوس الزمان على
لا تفخروا يا بني الفرنج في شطط
صعدتم الاوج لكن فوق سلمهم
وطهروا عند ذكر العرب السنكم
مهما سما العبد واستعلى وزادغنى
ذي فطرة العرب عزت أين فطرتكم
انشاهم الله من جود ومن كرم
ومن نمام ابي الا الثبات ومن
هم الذين لتاريخ القديم حموا
حسن الوفا والولا يغري لهم وكذا
هذي خلائكم والكل شاهدها
دحاكم الله من لؤم ومن عنت

فما نطقتم بغير المين والكذب
 خلّ سوى الفضة البيضاء والنشب
 ولا حنوء ولا عون لمنتكب
 أنس لديكم ولا بشر لمرتقب
 حتى تعود لكم بالنهب والسلب [٤٦]
 تزرّوا بهم كاذدراء الشوك بالعنب
 تذكّر يا بني حمالة العطب
 كل المناطق من قطب الى قطب
 وأرسلوا فخرهم يعلو على السحب
 ما بينكم واذا غابوا فلم تغب
 غير الحروب ودفع الناس في الحرب
 رأس المدار وهم الغرب للذنب

كانما معهد الطاغوت عندكم
 فلا صديق لكم غير النضار ولا
 ولا وفاء ولا عهد ولا ذمم
 لم تحسنوا غير تعبيس الوجوه فلا
 ولم تمدوا يدا للوث ان قصدت
 هيهات ما العرب تهوى ذي الطباع فلا
 تادبوا كلما للعرب عن لكم
 العرب قد ملكوا الدنيا وقد فتحوا
 وقد تعالوا وسادوا وارتقوا وسطوا
 وهاك آثارهم بالفوز شاهدة
 فما فضائلكم بالأرض نحسبها
 تبارك الله ان الشرق هم الى

كان شاعرنا المجيد أخذته الحدة حتى توسع في هجوم القوم زيادة عن ما يقتضي ، وعلى كل حال لافض فوه . فليعمل أهل هذا الزمان موازنة بينهم وبين أسلافهم الكرام ليعلّموا في أي درجة كانوا من الترقى وما صاروا هم فيه من الانحطاط ، نسأل الله أن يوفّقنا لما فيه رضاه بجاء من شرف السماء قدما . آمين .

وأرجو ممن اطلع على هذه المقالة المشوشة المبني (٤٧) أن ينظر إليها بعين الانصاف من حيث المعنى ، ولا يطلب مني تنميق العبارة ، ولا الجمل المزيّنات بالتورية والاستمارة ، فاني قليل البضاعة في هذه الصناعة . فالمفلس معذور والكريم غفور وصلى الله على سيد خلقه ومن فاق الجميع بخلقه وخلقه ، ورضي عن آله وصحبه وأهله وحزبه آمين .

حرر في سنة ١٣١١

الهوامش :

١ - في الأصل : البروات .
 الجبرتي ٣٣/٣ فقد صوره على انه اعجوبة من الاعاجيب
 وانظر المختطف المجلد السابع ص : ٦١٦ : اختراع
 البالون .

٢ - آل عمران : ١٩٠ .

٣ - يبدو انه يريد « المنطاد » وهو قبة هوائية ترتفع في
 الجو . هكذا عرفه في المنجد ، وهو تعريف غير دقيق
 والاولى - فيما ارى - أن يقال : انه قبة مصنوعة من
 قماش كتيم تملأ بغاز أخف من الهواء لترتفع حاملة معها
 ما يتعلق بها . وانظر وصف المنطاد في كتاب تاريخ

٤ - في الأصل : شاولها .
 ٥ - Telegraph : هو ارسال الخبر بالاسلكي وهو
 ما نسميه : البرق - انظر مجلة مجمع اللغة العربية
 بدمشق م ٧٤٣/٥٠ الرجوع للملايلي .

- ٢٦ - يبدو أنه يريد معرفة مقاومة الهواء الساكن ومقاومة الرياح الهاتجة لجسم القطار . انظر السكك الحديدية ص ٢٣٧ ، للمهندس عبد النافع شاهين .
- ٢٧ - المصنعة .
- ٢٨ - يصح هذا المقياس في الشروط النظامية للضغط الجوي . والا فان المعنى يختلف زيادة ونقصانا باختلاف ارتفاع او انخفاض عن سطح البحر .
- ٢٩ - هكذا في الاصل .
- ٣٠ - في الاصل : مراعات .
- ٣١ - انظر هذه الاخبار وامثالها في كتيب صغير بعنوان : بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن احمد بن اياس . طبع في مصر ، المكتبة السعيدية بجوار الأزهر .
- ٣٢ - نسبة ترمية الى المكتب .
- ٣٣ - حسن حسني « باشا » بن حسين عارف الطويراني ١٢٢٦ هـ - ١٣١٥ هـ ، ١٨٥٠ - ١٨٩٧ م : شاعر من مشيخ تركي الاصل مستعرب . ولد ونشأ بالقاهرة ، وجاهل في بلاد اسية وافريقية والروم والامام بالقسطنطينية الى ان توفي . كان ابي النلس بعيدا عن التزلف للكبراء ، وكان يجيد الشعر والانشاء باللغتين العربية والتركية . وله في الاولى نحو ستين مصنفا وفي الثانية نحو عشرة . واكثر كتبه مقالات وسوانح . من الاعلام ٢٠١/٢ باختصار . وانظر معجم المؤلفين ٢١٦/٣ .
- ٣٤ - في كتاب المعارف ١١ ثم قال الله عز وجل : نخلق بشرا بصورتنا ، فارد بالمعهد القديم : سير التكوين ١ ص ٢ : وقال الله : نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا .
- ٣٥ - هذا حديث موضوع . انظر كتاب الطالب في احاديث مختلفة المراتب ص : ١١٠ .
- ٣٦ - عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الاخر ويقول : من يدعوني فاستجب له . ومن يسألني فاعطيه ، ومن يستغفرني فاعفر له . صحيح البخاري : ١٣١/١ باب الدعاء والصلاة في آخر الليل . الترمذي : برقم ٤٤٦ . والهديث صحيح ، ولا وجه لانكار ما فيه ولا حجة الا اللهم السطحي ، ولقد شرحه الامام ابن تيمية مبينا مقاصده ودلالاته وطبع شرحه في المكتب الاسلامي بدمشق .
- Vapor ومعناها البخار ، وما ادري ايрид المؤلف بها القطار ام مولد النفط المستخدم في المطبخ .
- Telephone : هاتف - المرجع - وانظر مجلة مجمع اللغة العربية م ٥٠ ص : ٧٤٤ .
- ٨ - هل يريد وهمهم ؟ او أنهم يوهمون غيرهم من اوهم يوهم ايهاً .
- ٩ - وضع الكاتب هذه العبارة بين قوسين (هو بيت من الشعر من مجزوء الكامل) .
- ١٠ - الامام ابو حامد الغزالي - حجة الاسلام - محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي ، ولد بالطابران احدى قريعتي طوس بخراسان سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م وتوفي سنة ٥٠٥ هـ - ١١١١ م . فقيه . متكلم اصولي ، صوفي . مشارك في انواع من العلوم . معجم المؤلفين ٣٦٦/١١ .
- ١١ - في التهافت : قسم يرجع النزاع فيه ٧٧ : ٧٧ .
- ١٢ - في التهافت جملة اعتراضية : - تعالى عن قولهم - .
- ١٣ - في التهافت : تليهم .
- ١٤ - في التهافت : الى مقوم يقومه . وقد حذف الكاتب بقية كلام الغزالي على سبيل الاختصار .
- ١٥ - في التهافت : القسم الثاني : ٧٨ .
- ١٦ - في التهافت : الانبياء والرسول - صلوات الله عليهم .
- ١٧ - في التهافت : محيط .
- ١٨ - في التهافت : وهذا الفن .
- ١٩ - في التهافت : يتحقق .
- ٢٠ - هكذا في الاصل . والصواب : الكسوفين كما في التهافت : ٧٨ .
- ٢١ - في التهافت : ان هذا .
- ٢٢ - تهافت الفلاسفة : ٧٧ - ٧٨ ط : دار المعارف . ص : ٤ ط مصر سنة ١٣١٩ هـ .
- ٢٣ - نقل الكاتب هذه المعلومات من مجلة المقطف م ٨ ص : ٦٦٨ .
- ٢٤ - في الاصل : ليكملونها .
- ٢٥ - يعني معرفة فرق المنسوب بين النقاط المختلفة على سطح الارض ومعرفة أماكن العطر والردم لكي لا يتجاوز الميل الاعظم المسموح به في السكك الحديدية .

٥٧ - وهي القصيدة المعروفة بلامية العرب . وقد نشرتها مشروحة وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٦٦ بتحقيق الأستاذ عبد المعين اللوحي ومطلعها :

القيموني بنو امي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لا ميل
٥٨ - هذا البيت الثالث والاربعون من القصيدة . المنحوس :
القليل اللحم . الفصوص : جمع فص وهي لواصل
الطعام . دحاشا : فرشها . والمعنى : ووسادتي ذراعي
التي قل احبهما ، فكان لواصلها كعاب من الطعام منتصبة .
الشرح : ٤٢ .

٥٩ - النازعات : ٢٧ .

٦٠ - آل عمران : ١٩١ .

٦١ - انظر روح المعاني ١٥٧/٤ وفيه : ويل لمن قراها ولم
يتفكر فيها .

٦٢ - الروم : ٥٠ .

٦٣ - يوسف ١٠٥ في المخطوط : وكم من آية .

٦٤ - إشارة الى قول النقاد قديما اعذب الشعر اكذب .

٦٥ - المائدة : ٤٢ .

٦٦ - هكذا في الاصل . الصواب : اديب اسحق : « ١٢٧٢ -
١٣٠٢ ، ١٨٥٦ - ١٨٨٥ » اديب اسحق الدمشقي :
اديب ، حسن الانشاء . له نظم . حرر في بعض صحف
بيروت . سافر الى الاسكندرية ثم الى القاهرة واصدر
فيها جريدة (مصر) سنة ١٨٧٧ م ثم عاد الى الاسكندرية
وعمل في الصحافة . سافر الى باريس ١٨١٠ واصدر
جريدة مصر القاهرة . ثم عاد الى بيروت فمصر ، وغادر مصر
بعد الثورة العراقية وتوفي في قرية الحدث (بلبشان) .
عن الاعلام ٢٧٤/١ .

٦٧ - ورد البيتان غير منسوبين في كتاب فتح الرحيم الرحيم
شرح لامية ابن الوردى ص ٩٠ ط : مصر ١٣١ .

٦٨ - الاعراف : ٨٥ .

٦٩ - النقط .

٧٠ - سبق ذكرهما .

٧٢ - يبدو انه يريد الاسطوانة .

٧٣ - الجهر .

٣٧ - بدائع الزهور : ١٢ - قارن بالمعهد القديم ، سطر
التكوين : ٣ .

٣٨ - بدائع الزهور : ٦ .

٣٩ - قال ابو سعيد قال النبي ﷺ : اول طعام يأكله اهل
الجنة زيادة كبد حوت عدن . البخاري : ٨٨/٤ كتاب
الرقائق ، باب صلة الجنة والنار .

٤٠ - نلاحظ ان السيد حسن الطويراني خلط في كلامه الصحيح
بالزائف ، وكان عليه ان يميز بين الاول والآخر
قول الى صاحبه وينزاه مكانه اللائق به في الالهام
والقول .

٤١ - ورد ذكره في تاريخ الأستاذ الامام ٩٥٩/١ .

٤٢ - الفرقان : ٦٢ .

٤٣ - يس : ٣٣ .

٤٤ - يس : ٤٠ .

٤٥ - الشمس : ٤٥١ .

٤٦ - يس : ٣٨ .

٤٧ - في الاصل : تاويل .

٤٨ - النمل : ٨٨ .

٤٩ - من حكم اللفظ ان يعمل على حقيقته اذا تجرد ،
ولا يعمل على مجازه الا لدلالة . لأن واضح الكلام
للمعنى انما يفهم ليكتفي به في الدلالة عليه ويستعمله
فيه . المعتمد في اصول الفقه ٣٥/١ .

٥٠ - النمل : ٨٨ .

٥١ - النمل : ٨٨ .

٥٢ - الحج : ١ ، ٢ .

٥٣ - النازعات : ٣٠ .

٥٤ - قال ابن فارس : الدحو : الدال والحاء والواو اصل
واحد يدل على بسط وتمهيد . معجم المقاييس : دحو .
قلت : ومعنى البسط والتمهيد لا يناقض معنى كروية
الأرض لأن الجسم العظيم المكور يكون ظاهره كالسطح
المستوي : وانظر مفاتيح الغيب ٤٨/٣٩ .

٥٥ - الرحمن : ١٠ .

٥٦ - ثابت بن اوس الأزدي . شاعر جاهلي صعلوك . قتل
حوالي عام ٥١٠ م .

٩٣- كافات الشتاء جمعها محمود بن نعمة الشيخ أبو الفداء
الشرافى المتوفى سنة ٥٥٦ هـ بقوله :

جاء الشتاء وعندي من حوائجه

سبح اذا القطر عن حاجتنا حسبا

كيس وكمن وكانون وكاس طلا

مع الكتاب و... ناعم وكسا

النجوم الزاهرة : ٣٥٨/٥ . وانظر مقامات الحريري :
١٨٧ « المقامة الخامسة والعشرون » وانظر ايضا حليمة
البشر ١٥١٣/٣ .

٩٤- خير الدين باشا التونسي ١٢٢٥-١٣٠٨ هـ / ١٨١٠-١٨٩٠ م
وزير مؤرخ ، من رجال الإصلاح الاسلامي . شرع في الاصل ،
قدم صفحا الى تونس ، فالتصق بصاحبها (الباي احمد)
والثرى ، وتعلم بعض اللغات وتلقد مناصب عالية
اخرها الوزارة وفي سنة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م اُبعد
عن الوزارة . فخرج الى الاستانة وتلقب من السلطان
عبد الحميد فولاد الصدارة العظمى (سنة ١٢٩٥ هـ)
فحاول اصلاح الامور ، فاعياه ، فاستقال (سنة ١٢٩٦ هـ)
ونصب عضوا في مجلس الاميان ، فاستمر الى ان تولى
بالاستانة . له كتاب اقوم المسالك في معرفة احوال
الممالك . الاعلام : ٣٧٥/٣ .

٩٥- ترجم له في حاشية اقوم المسالك ص ١٢٠ بما يلي :
فكتور دوروى : Victor Duruy (١٨١١ - ١٨٦٤) مؤرخ ،
وزير التعليم بفرنسا من ١٨٦٣ الى سنة ١٨٦٩ ثم
عضو بالاكاديمية الفرنسية ابتداء من ١٨٨٤ - التظف
خير الدين هذه الصفحات من كتابه : تاريخ القرون
الوسطى منذ سقوط الامبراطورية الغربية الى وسط
القرن الخامس عشر - ط باريس ١٨٦٧ ص ١١٢-١٢٨
(فصل حضارة العرب) .

٩٦- في اقوم المسالك : بينما اهل اوديا قائلون .

٩٧- في اصلنا المخطوط : فارس وهو تصحيح . والتصحيح
من اقوم المسالك ص ١٢٠ .

٩٨- في اصلنا المخطوط : فرطاجنة والتصحيح من اقوم
المسالك .

٩٩- اقوم المسالك : ١٢١ - ١٢٢ .

١٠٠- في المخطوط : وبالاخير .

- الطعم .

- قال الجبرتي بعد ان شاهد بعض تجارب الكيمياء ايسام
العملة الفرنسية على مصر « سنة ١٢١٣ هـ » : واهم
فيه امور واحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج
لا يسمها عقول امثالنا - تاريخ الجبرتي : ٣٧/٣ .

١- قارن بموقف الجبرتي السابق ذكره في المقدمة .

١- فارسي معرب وبعضهم يكسر شيمه - المعرب : ٢٥٧ .

١- من المأب التسلية لا يزال الناس يلعبونها في مناطق
من الجزيرة السورية . وفيها ينقل الحمص من تجويف
الى تجويف ضمن خشبة معدة لذلك .

١- يبدو انه يريد الداما وهي لعبة تركية لا تزال منتشرة
في مقاهي بلادنا .

٨- لم اعرف هذه اللعبة .

٨- معنى الثبوت العصا الخفيفة والفرع الثابت من الشجر
ولعله يريد بذلك لعبة ادواتها عصوان غليظتان يتبارز
بهما لاعبان .

٨- ربما كان يريد بالقبضة ما يطلق عليه « العرة » وهي
جزء من كرش الفم يحشى بالرز والمعصم ولعل الكلمة
شائعة حتى الآن في حلب وهناك اسرة بهذا الاسم كما
ان الكلمة متداولة في حمص .

٨- في الاصل مواظلا .

٩- حسين الجسر ١٢٦١ - ١٣٢٧ هـ ، ١٨٤٥ - ١٩٠٩ م
حسين بن محمد بن مصطفى الجسر الطرابلسي الحنفي ،
عالم ، اديب ، صحافي . ولد بطرابلس الشام ، وانشأ
جريدة « طرابلس » وتولى بها في وجب . من آثاره :
الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقيقة
الشريعة الحميدية ، الكواكب الدرية في الفنون الادبية .
معجم المؤلفين ٥٨/٤ .

٩١- النص منقول من مجلة المقتطف . السنة الثامنة .
ص : ٥٨٩ .

٩٢- الابيات لرجال مصري يعرف بالمشتراني ويلقب بأديب
القلة . والكلمك المذكور في الشعر هو مركب من مركب
صعيد مصر ليس فيه سماء . انظر بدائع البداة : ٣٨/١ .

١٠١ - أرسطو طاليس ٣٨٤ - ٣٢٢ ق م وهو أشهر من أن يعرف .

١٠٢ - في المخطوط : نسو .

١٠٣ - ترجم له في حاشية أقوم المسالك : ١٢٢ ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٠ م يلقب بالعديد لأن جده كان قاضيا مفتيا مالكيًا بقرطبة وكذلك أبوه من بعده . كان يلقب أيضا بشارح أرسطو . ولد بقرطبة ومات بمراكش . من أشهر تآليفه : تهاافت التهاافت يرد فيه على الفساذي .

١٠٤ - في المخطوط : طرف .

١٠٥ - الفيلدس : رياضسي يوناني في القرن الثالث ق م مشهور بكتابه في الهندسة (الأصول) .

١٠٦ - الزيج : كتاب في الجداول الفلكية .

١٠٧ - بطليموس : فلكي يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي وهو صاحب كتاب « الجسطي » .

١٠٨ - النص في أقوم المسالك كما يلي : فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية عدة دقائق . واخترعوا للتحريرات آلات جديدة . الى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية . ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل اوروبا بكثير محل رصد عجيب .

١٠٩ - في أقوم المسالك : اهل : ١٢٤ .

١١٠ - الورق . والكاغد : فارسي مغرب .

١١١ - جالينوس : ١٣١ - ٢٠١ م اهتم العرب بطبه .

١١٢ - في أقوم المسالك : ١٢٤ : وقت واحد .

١١٣ - جاء في حاشية أقوم المسالك : الراوند نبات عريض الودق يؤكل ، خاصيته الطبية اطلاق البطن وتقوية المعدة .

١١٤ - في المخطوط : بافترض .

١١٥ - في المخطوط : عندهم .

١١٦ - جاء في حاشية أقوم المسالك : ١٢٥ : أبو الفداء المسلك المؤيد اسماعيل بن علي من سلالة صلاح الدين الأيوبي (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١ م) شساردا في الحروب ضد الصليبيين وأصبح ملك حماة . صاحب كتاب في الجغرافية : تقويم البلدان وكتاب في التاريخ مختصر تاريخ البشر .

١١٧ - عرف به في الحاشية : (ت ٣٥٤ هـ / ٩٥٦ م) ولد ببغداد . صاحب مروج الذهب ، وكتاب التنبية .

١١٨ - الإدريسي : (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م) من مواليد سبنة . تعلم بالأندلس وخدم الملك النرمانى روجار الثاني بصقلية ، صاحب كتاب في الجغرافية « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » المشهور بكتاب روجار . وفي تاريخ ولاته خلاى .

١١٩ - ملك من الفرنج ، صاحب صقلية ، هلك بالخوانيق سنة ٥٤٨ هـ / ١١٤٨ م . تاريخ الأدب الجغرافي ٢٨٢/١ .

١٢٠ - في المخطوط : نزهت .

١٢١ - لفز المصنف الى الصفحة ١٢٦ من أقوم المسالك .

١٢٢ - لم اهتم الى نهاها ، وفي المنجد : الجيوب القميص وجمعه اجواب .

١٢٣ - في المخطوط : الشرق .

١٢٤ - عبد الرحمن الاول : ١١٣ - ١٧٢ هـ / ٧٣١ - ٧٨٨ م . أو السداحل ، فر من العباسيين وأسس بقرطبة الدولة الاموية « ١٣٨ هـ - ٧٥٦ م » سمي صقر قریش أباسه . عن حاشية أقوم المسالك ص : ١٢٧ .

١٢٥ - في المخطوط : وتسمين .

١٢٦ - عبارة (في العظم) سقطت من المخطوط .

١٢٧ - عبد الرحمن الثالث « ٣٠٠ - ٩١٢/٣٥٠ - ٩٦١ م » أو الناصر ، ثامن أمراء بني أمية بالأندلس وحده صلوف البربر والعرب ، وعاشت الأندلس في عهده عصرها الذهبي . عن أقوم المسالك : ١٢٧ .

ملاحظة : ولد عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م . وولي الخلافة عام ٣٠٠ هـ .

١٢٨ - الكلام لم ينته وانما اكتمل مؤلفنا بما نقله . انظر أقوم المسالك : ١٢٧ وما بعدها .

١٢٩ - Sedillot - ١٨٠٨ - ١٨٨٧ . مؤرخ وكاتب عام المكيوليج دي فرانس ابتداء من ١٨٣٢ ، ثم كاتب عام لمدرسة اللغات الشرقية بباريس . صاحب تآليف « تاريخ العرب » ط : باريس ١٨٥٤ . عن أقوم المسالك : ١٣٠ .

١٣٠ و ١٣١ - هكذا في أقوم المسالك والمخطوط .

- ١٣٢ - Cyrus : ملك الفرس ٥٥٨ ق م ابن المبيز ، كان
مسيطرا على آسيا الغربية - عن اقوم المسالك : ١٣١ .
- ١٣٣ - يبدو انه يريد نهر « تاجة » الذي ينبع من هضبة
اسبانيا ويصب في المحيط الاطلسي مارا بمجريط .
وطليطلة وطليرة وهو اطول نهر في اسبانيا والبرتغال .
طوله ١٠٠٠ كم .
- ١٣٤ - نهر الفانج ينبع من هملايا ويصب في خليج البنغال .
طوله : ٣١٠٠ كم .
- ١٣٥ - في المخطوط : الاشارة .
- ١٣٦ - في اقوم المسالك : ابي الفرج وهو الصحيح .
- ١٣٧ - تقي الدين احمد بن علي القرطبي : (٧٦٩ - ٨٤٥ هـ /
١٣٦٧ - ١٤٤١ م) عن معجم المؤلفين ١١/٢ .
- ٣٨١ - عز الدين ابو الحسن علي ، (٥٥٢ - ٦٣٠ هـ /
١١٠٠-١٢٢٣ م) من مواليد الموصل ، حارب الصليبيين
في جيش يقوده صلاح الدين الايوبي . صاحب كتاب
الكامل في التاريخ . اقوم المسالك : ١٣٢ .
- ١٣٩ - عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ -
١٤٠٦ م) عرف بمقدمته وتاريخه .
- ١٤٠ - في المخطوط : توشحت .
- ١٤١ - الرقة : قاعدة ديار مصر في الجزيرة على الفرات .
اقوم المسالك : ١٣٣ .
- ١٤٢ - في المخطوط : وبدوا . وكتبت الهمزة مفردة في اقوم
المسالك : ١٣٣ .
- ١٤٣ - بداية ص ١٣٤ في اقوم المسالك .
- ١٤٤ - في المخطوط : جات .
- ١٤٥ - بداية ص ١٣٥ في اقوم المسالك .
- ١٤٦ - Alexandre Humboldt ، ١٧٦٩ - ١٨٥٩ ، رحالة
وجغرافي الماني . عن اقوم المسالك : ١٣٥ .
- ١٤٧ - في المخطوط : تلك الامم .
- ١٤٨ و ١٤٩ - المنستر والتريدور : دجيل الماني وفرنسي .
طائفة من الشعراء الفنايين ظهرت في القرون الوسطى
بالمانيا وفرنسا . عن اقوم المسالك ١٣٥ .
- ١٥٠ - انظر ص ١٢٧ من اقوم المسالك .
- ١٥١ - في المخطوط : بلنسة .
- ١٥٢ - في حاشية اقوم المسالك ص ١٢٨ : الجوخ : « فارسية ،
نسيج من الصوف » وانظر مجلة مجمع اللغة العربية
م ٥٠ ج ٤ ص ٧٤٦ .
- ١٥٣ - انظر ص ١٣٥ في اقوم المسالك .
- ١٥٤ - هنا ينتهي النص في اقوم المسالك ١٣٥ .
- ١٥٥ - ذكر صاحب معجم المؤلفين ٩/٣ : امين بن علي المدني
وقال : كان حيا ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٧ م مؤرخ ، اديب .
للت : والرسالة المذكورة نشرت في المجلد الثامن من
المقتطف سنة ١٨٨٣ فمن المقبول ان يكون صاحب
الرسالة هو نفسه المذكور في معجم المؤلفين .
- ١٥٦ - المقتطف ٢١٩/٨ .
- ١٥٧ - ارنست رينان : ١٨٢٣ - ١٨٩٢ مؤرخ وناقد ومستشرق
فرنسي الف رسالة عن ابن رشد والرشدية .
- ١٥٨ - في المقتطف : علم العرب وفصلهم .
- ١٥٩ - في المخطوط : خرفة . والتصحيح من المقتطف .
- ١٦٠ - في المخطوط : مائر .
- ١٦١ - المقتطف ٢٨٩/٨ .
- ١٦٢ - في المخطوط : او غيره .
- ١٦٣ - نسبة الى الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي
٨٠ - ١٥٠ هـ / ٦٩٩ - ٧٦٧ م .
- ١٦٤ - احمد بن محمد بن احمد بن جعفر بن حمدان البغدادي
المشهور بالقدوري نسبة الى بيع القدور (٣٦٢-٤٨٢ هـ /
٩٧٣ - ١٠٣٧ م) فقيه حنفي ، انتهت اليه رئاسة
اصحاب ابي حنيفة بالعراق . وتولي ببغداد في رجب .
معجم المؤلفين ٦٦/٢ .
- ١٦٥ - لم اهتم الى مؤلف بهذا اللقب . والارجح انه يريد
لناوي الانقروني من فقهاء الاتراك .
- ١٦٦ - نسبة الى الامام محمد بن ادريس الشافعي ١٥٠-٢٠٤ هـ
٧٦٧ - ٨١٩ م .
- ١٦٧ - في المقتطف : قطعوا من كتبه .

١٧٠ - البغدادي : محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المصنف
البغدادي ، الجبلي (أبو عبد الله) محدث حافظ ، فقيه
مؤرخ ، مشارك في علوم . (١٩٤-٢٥٦ هـ ٨١٠-٨٧٠ م)
/ وأهم كتبه : الجامع الصحيح . معجم المؤلفين ٥٢/٩

١٧١ - البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) عبيد الله
ابن عمر بن محمد علي البيضاوي ، الشيرازي
الشافعي ، (ناصر الدين ، أبو سعيد) قاضي ، عالم بالغة
والتفسير والعربية والمنطق والحديث . توفي بتهريب
معجم المؤلفين ٩٧/٦ .

وتفسيره المشار اليه اسمه : أنوار التنزيل وأسرار
التاويل في التفسير وله طبع عدة مرات .

١٧٢ - في المقتطف : كتب الشريعة .

١٧٣ - المقتطف : وترى بعضهم مجدا .

١٧٤ - كلمة « منها » ليست في المقتطف .

١٧٥ - في المقتطف : وأخشي .

١٧٦ - في المقتطف : ثم يفوضون .

١٧٧ - في المقتطف : خصوصا وملوكهم .

١٦٨ - أبو اسحاق الشيرازي : ابراهيم بن علي بن يوسف
ابن عبدالله : ٣٩٣ - ٤٧٦ هـ / ١٠٠٣ - ١٠٨٣ م : فقيه
شافعي ، اصولي ، مؤرخ ، اديب ، ملقب
بجمال الدين .

له كتاب التنبيه ، والمهذب « في اللغة » . الف في
الاصول كتاب « اللص » وهذه الكتب كلها
مطبوعة . الفتح المبين في طبقات الاصوليين ١/٢٥٥ .

١٦٩ - امام الحرمين ٤١٩ - ٤٧٨ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م
عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ،
أبو المعالي ، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين : أعلم
المتأخرين ، من أصحاب الشافعي . ولد في جوين
(من نواحي نيسابور) ورحل الى بغداد ، فمكة حيث
جاور أربع سنين ، وذهب الى المدينة فالتقى ودرس ،
جامعا طرق المذاهب ، ثم عاد الى نيسابور فبنى له
الوزير نظام الملك « المدرسة النظامية » فيها . عن
الاعلام ٣٠٦/٤ . وكتاب « الورقات » في اصول الفقه .
معجم المؤلفين ١٨٤/٦ .

مراجع التحقيق

- ١ - أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب للشيخ محمد بن السيد درويش الشهير بالحوت . بيروت سنة ١٣١٩ .
- ٢ - الاعلام : خير الدين الزركلي - الطبعة الثالثة .
- ٣ - القوم المسالك في معرفة أحوال المالِك : خير الدين باشا التونسي . بتحقيق المنصف الشنولي - الدار التونسية للطباعة والنشر .
- ٤ - بدائع البداة : علي بن طاهر الأزدي . بهامش معاهد التنصيص . المطبعة المصرية البهية ١٣٠٤ .
- ٥ - بدائع الزهور : محمد بن أحمد بن أبياس . طبع مصر بالتزام سعيد علي الطوسي .
- ٦ - تاريخ الأدب الجغرافي : كراتشكوفسكي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . مصر : جامعة الدول العربية .
- ٧ - تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده : الشيخ محمد رشيد رضا . مصر : مطبعة المنار - ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م .
- ٨ - تاريخ الجبرتي المسمى عجائب الآثار في التراجم والأخبار : عبد الرحمن الجبرتي . المطبعة العامرة الشرفية ١٣٢٣ هـ .
- ٩ - تفسير الرازي : فخر الدين الرازي . المطبعة البهية بمصر .
- ١٠ - تهافت اللاسلطة : أبو حامد الغزالي . تحقيق د. سليمان دنيا . دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة .
- ١١ - حلية البشر : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، تحقيق العلامة محمد بهجة البيطار . مجمع اللغة العربية بدمشق .

- ١٢ - روح المعاني : السيد محمد الأوسي البغدادي • طبعة مصورة عن مطبعته الأصلية الثانية •
- ١٣ - السلك الحديدية : المهندس عبد النافع شاهين • الإجمالي الجامعية بجامعة دمشق •
- ١٤ - سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي • أشرف على طبعه : عزت عبيد الدعاس • حمص ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م •
- ١٥ - صحيح البخاري : محمد بن اسماعيل البخاري أبو عبدالله • المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٦ هـ •
- ١٦ - العهد القديم : المطبعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٠٩ •
- ١٧ - الفتح المبين في طبقات الأصوليين : عبدالله مصطفى الراعي • بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م •
- ١٨ - اللامتنا : للشنفرى والطبراني • أعدهما وعلق عليهما الأستاذ عبدالعزى الملوحى • وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٦ •
- ١٩ - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق •
- ٢٠ - مجلة المقتطف : يعقوب صروب وفارس نور - المجلد الثامن ١٨٨٣ •
- ٢١ - المرجع : عبدالله العلابي • بيروت ١٩٦٣ المجلد الأول •
- ٢٢ - المعارف : ابن قتيبة • تحقيق الدكتور ثروت عكاشة • طبع دار الكتب المصرية ١٩٦٠ •
- ٢٣ - المعتمد في أصول الفقه : أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي بتحقيق محمد حميد الله بتعاون مع محمد بكر وحسن حنفي • نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٦٤ •
- ٢٤ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة • مطبعة الترقى بدمشق : ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م •
- ٢٥ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي • نشره الدكتور أ.ي. ونسلوك • لندن ١٩٣٦ طبعة مصورة عن الأصل •
- ٢٦ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقي • طبع كتاب الشعب بمصر •
- ٢٧ - معجم مفاتيح اللغة : ابن فارس • بتحقيق عبد السلام هارون • مصر ١٣٦٦ هـ •
- ٢٧ - العرب : الجواليقي • بتحقيق أحمد محمد شاكر • وزارة الثقافة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م •
- ٢٩ - مقامات الحريري : أبو محمد القاسم بن علي • طبعة بولاق ١٣٠٠ هـ •
- ٣٠ - المنجد : المطبعة الكاثوليكية - بيروت • الطبعة (١٧) •
- ٣١ - النجوم الزاهرة : ابن تفرج بردي • طبعة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية •

عبدالله نبهان

★ ★ ★

جزء من حكايات أبي بسطام

شعبة بن الحجاج

تحقيق
عبدالله محمد الدرويش

تأليف
أبي القاسم البغوي

مقدمة :

تعود صلتني بهذا المخطوط - أو صلتني بشعبة - الى اكثر من سنة . حيث ذكر لي احد الاساتذة الافاضل ، اسم شعبة بن الحجاج ، فكان غريباً بالنسبة لي ، فهو يعتبر من الرجال المغفورين .. فاحببت أن أعرف عنه ما أستطيع ..

وبدأت الرحلة ..

بدأت بقراءة كل ما يتعلق بأمير المؤمنين في الحديث في أي كتاب .. في أي فهرس ، كنت اقلب فهارس الكتب الكبيرة ، وابحث عن اسم شعبة ..

وتابعت الرحلة .. واختلفت الطرق اليها .. فبدأت الرحلة كان في الكتب المطبوعة .. قراءة .. ونقل .. وملاحظة .. رحلة طويلة ...

وتذكرت تراثنا الضخم الذي لم ير النور بعد .. أسرعت لمراجعة فهارس المخطوطات، القديمة والحديثة .. عشت معها .. عشت خلالها أياماً وليالي .. بحثت فيها عن كتب شعبة عن تراث شعبة .. لمعرفة .. للحصول عليها .. وركبت السفينة .. دخلت اليم .. دخلته مع معرفة صعوباته .. وعرفت أسماءها ، ولم أحصل عليها .. ولا على مكانها ..

من خلال تلك القراءات عثرت على كتاب « حكايات أبي بسطام شعبة بن الحجاج » .. مؤلفه : ابن بنت احمد بن منيع البغوي .. عشت معه ساعات .. واستفدت منه كثيراً ..

وصف المخطوطة

قال عنها الدكتور يوسف المش في فهرسه (٢١٩) : « جزء فيه حكايات أبي بسطام شعبة ابن الحجاج بن الورد المتكي الواسطي ، تأليف : أبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي . فيه أخبار عن شعبة [٢١٦ - ٢٢١] . في مجموع من [١٦ - ٢٤] » .

١٨ × ١٣ سم ، نحو ٢٠ سطراً ، ٢ سم حاشية ، خطان مختلفان جميلان . نحو سنة ٦٦٤ هـ . سماعات عديدة . مجموع [٢٢ (١٦)] » .

وهذه النسخة كانت وفقاً على المدرسة الضيائية بسفح جبل قاسيون ، وقفها الشيخ علي الموصلي المحدث ، كما جاء على المخطوط .

وقد اطلعت على ترجمة شعبة في كتاب : « سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي ، مخطوطة في المجمع العلمي العربي - فوجدت أن الذهبي - رحمه الله تعالى - قد روى قسماً منها في ترجمته لشعبة ، يسنده إلى المؤلف ، قال : « قرأت على أحمد بن محمد الحافظ بمصر ، وأحمد بن عبد الرحمن العلوي بدمشق ، قال أنبا عبد الله بن عمر ، أنبا عبد الأول بن عيسى ، أنبا عبد الرحمن ابن محمد بن عفيف البوشنجي في سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، أنبا عبد الرحمن بن

أبي شريح الأنصاري بهراة ، أنبا أبو القاسم البغوي سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، فكانت ممينة لي . » .

كما أن الذهبي أخذ الخبر من الطريق ذاته وهو سند نسختنا ، وهو : « تأليف أبي القاسم عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البغوي . رواية أبي محمد عبد الرحمن ابن أحمد بن محمد بن أبي شريح عنه ، رواية أبي منصور عبد الرحمن بن محمد بن عفيف البوشنجي عنه ، رواية أبي الوقت عبد الأول ابن عيسى بن شعيب عنه ، رواية أبي المنجا عبدالله بن عمر بن علي بن عمر بن الليثي عنه » . والنسخة قليلة الأخطاء . ومراجعة من قبل العلماء ، وعليها سماع وبعض التصحيحات ، والله أعلم .

ترجمة المؤلف*

اسمه وولادته :

عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه . أبو القاسم البغوي . المعروف بابن بنت أحمد بن منيع البغدادي .

أصله من بغشور « منطقة بين هراة ، ومرو الروذ ، والنسبة إليها : بغوي » .

* استخلصت هذه الترجمة من : « البداية والنهاية لابن كثير » (١٦٣ : ١٦٤) ، و « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي » (٢٢٧ : ٢٣٠) ، و « تذكرة الحفاظ للذهبي » (٧٣٧ - ٧٤٠) ، و « الكامل في التاريخ لابن الأثير » (١٦١ : ٨) ، و « معجم المؤلفين لكفالة » (١٢٦ : ٦) ، و « الأعلام للزركلي » (٢٦٣ : ٤) ، و « شذرات الذهب لابن العماد » (٢٧٥ : ٢٧٦) ، و « طبقات الشافعية للنسبكي » (١٠٣ : ٤) ، و « الفهرست لابن النديم » (٣٢٥) ، و « فهرس الحديث للألباني » (٢٣٦ - ٢٣٧) ، و « فهرس التاريخ للمش » (٣١٩ ، ٢٢٥) ، و « المعبر في خبر من غير للذهبي » (١٧٠ : ٢) ، و « كشف القنون لحاجي خليفة » (٦٧٤ : ١) ، و « هدية العارفين للبغدادي » (٤٤٤ : ١) .

ولد في أول رمضان في بغداد سنة ثلاث
أو أربع عشرة ومائتين . وقام برعايته جده
أحمد بن منيع .

شيوخه :

اعتنى به جده اعتناء جيداً ، كما أشرف
عليه أيضاً عمه علي بن عبد العزيز . فحضر
مجلس عاصم بن علي ، وعلي بن الجعد ،
وعلي بن المديني ، وأحمد بن حنبل .

وكانت أول كتابته للحديث سنة خمس
وعشرين ومائتين . وساعده على ذلك أنه
كان ناسخاً للكتب ، فحصل له من ذلك خير
كثير . وقد جمعت أسماء شيوخه في كتاب ،
فكان عددهم ثلاثمائة شيخ .

تلامذته :

عندما اشتد ساعده أقبل عليه طلاب العلم ،
ولا سيما أنه قريب عالين جليلين ، ومربي في
حضنيهما . فحدث عنه ، الدارقطني ، وابن
ساعد ، والجماعي ، والقطيبي . وابن
ثناء العلماء عليه :

مدحه خلق كثير من العلماء من هؤلاء

— مثلاً : — موسى بن هارون الحافظ ، قال
« كان ابن بنت منيع ثقة صدوقاً » . ف قيل له :
« ان ههنا ناساً يتكلمون فيه » . فقال :
« يحسدونه » . ابن بنت منيع لا يقول الا
الحق » . وقال أين أبي حاتم ، وغيره :
« أحاديثه تدخل في الصحيح » . وقال
الدارقطني : « كان البغوي قلاً ما يتكلم على
الحديث ، فإذا تكلم كان كلامه كالسمار في
الساج » . وقال الدارقطني أيضاً ، وقد
سأله السلمي عنه ، فقال : « ثقة ، جليل ،
امام ، أقل المشايخ خطأ » . وقال أبو بكر
الخطيب : « كان ثقة ، ثبتاً ، فهماً ، عارفاً » .
وقال الذهبي : « الحافظ ، الثقة ، الكبير ،

مسند العالم » . وقال ابن كثير : « . . . وقد
تفرد عن سبع وثمانين شيخاً ، وكان ثقة
حافظاً ، ضابطاً ، روى عن الحفاظ ، ولم
مصنفات » .

وذكره ابن عدي في الكامل فقال : « كان
البغوي صاحب حديث ، وكان وراقاً ، كان
يورق على جده وعمه ، وغيرهما . . . وكان
يبيع أمل نفسه كل وقت . . . ثم قال : طال
عمره واحتاجوا اليه وقبله الناس ، ولولا
أنني شرطت أن من تكلم فيه فتكلم ذكرته ،
والا كنت لا أذكره » .

مصنفاته :

ذكر للبغوي عدد من المصنفات ، هي :

— معجم الصحابة .

— الجمعيات « في الحديث » .

— المعجم الكبير .

— المعجم الصغير .

— المسند .

— حكايات أبي بسطام شعبة بن الحجاج .

— أخبار عمرو بن مرة .

— مختصر المعجم .

— مسائل عن أبي عبدالله أحمد بن حنبل .

— مسند الحب ابن الحب أسامة بن زيد .

— تاريخ وفاة الشيوخ الذين أدركهم البغوي .

— السنن في الفقه على مذاهب الفقهاء .

وقد أخطأ من نسب اليه تفسير « معالم
التنزيل » وكان مصدر هذا الخطأ ظنهم أن
أبا مسعود الفراء البغوي هو نفسه
أبو القاسم البغوي .

وفاته :

وافت المنية البغوي في ليلة عيد الفطر
سنة سبع عشرة وثلاثمائة . وله من العمر

« كان شعبة مولى للأزد ، ومولده ومنشؤه واسط ، وعلمه كوفي ، وكان له ابن يقال له : سمد بن شعبة (١) . وكان له أخوان بشار [١٧ - أ] وحما ، وكانا يمالجان الصرف ، وكان شعبة يقول لأصحاب الحديث : ويلكم الزموا السوق ، فانما أنا عيال على أخوي . قال : وما أكل شعبة من كسبه درهماً قط » (٢) .

حدثنا (٣) جدي أحمد بن منيع ، قال : سمعت أبا قطن ، قال : « ما رأيت شعبة ركع قط الا ظننت أنه نسي ، ولا قعد بين السجدين الا ظننت أنه قد نسي » (٤) .

حدثني أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن شويه ، قال : سمعت أبا الوليد ، يقول (٥) : سمعت شعبة ، يقول : « اذا كان عندي دقيق وقصب فما أبالي ما فاتني من الدنيا » (٦) .

حدثني عياش بن محمد مولى بني هاشم ، حدثني قراد أبو نوح ، قال « رأى عليّ شعبة قميصاً » ، فقال : « بكم اشتريت هذا ؟ » . فقلت : « بثمانية دراهم » فقال لي : « ويحك ! أما تتقي الله تلبس قميصاً بثمانية دراهم ؟ ألا اشتريت قميصاً بأربعة ، وتصدقت بأربعة ؟ كان خيراً لك » قلت : « يا أبا بسطام انا مع قوم نتجمل لهم ! » فقال شعبة : « أيش تتجمل لهم ١٩ » (٧) .

حدثني علي بن سهل النسائي ، ثنا عفان ، ثنا حماد بن زيد ، قال : قال لنا أيوب : « الآن يقدم عليكم رجل من أهل واسط ، يقال له : شعبة . هو فارس في الحديث . فلما قدم شعبة أخذنا [١٧ - ب] عنه » .

حدثني عبد الله بن سعيد الكندي ، ثنا وليد بن حماد ، قال : سمعت عبد الله بن ادريس ، يقول : « ما جمعت بينك وبين الرجال مثل سفيان وشعبة » (٨) .

مائة سنة وثلاث سنين وشهور ، وخالف ذلك ابن الأثير ، فقال : « وكان عمره مائة سنة وستين » . ودفن في نفس الليلة التي توفي فيها ببغداد وقبر في مقبرة باب التبن . وقال ابن الجوزي : مات « وهو صحيح السمع والبصر والأسنان : يطأ الاماء » . رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته .

★ ★ ★

جزء فيه من حكايات أبي بسطام شعبة

ابن الحجاج

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا الشيخ الصالح أبو المنجا عبدالله ابن عمر بن علي الليثي ، قراءة عليه وأنا أستمع ، قال : أنبأ أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب . قراءة عليه ، ونحن نستمع ، قال : أنبأ أبو منصور عبد الرحمن ابن محمد بن عفيف البوشنجي ، المعروف بكلازي ، قراءة عليه ، وأنا أسمع في الحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، قيل له : أخبركم أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد بن يحيى بن مخلد بن عبد الرحمن بن المفيرة بن ثابت الأنصاري الهروي المعروف بابن أبي شريح الزاهد ، قراءة عليه وأنت تسمع بهراة فأقر به (١) ، أنبأ أبو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز ابن بنت أحمد بن منيع البغوي ببغداد سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، قال :

حدثني عبدالله بن أحمد بن حنبل ، حدثني أبي ، قال سمعت يزيد بن هارون ، يقول : « شعبة مولى للأزد عتاقة » . حدثني أحمد بن زهير النسائي ، ثنا سليمان بن أبي شيخ ، حدثني صالح بن سليمان ، قال :

حدثني أبو بكر بن زنجويه ، ثنا عبد الرزاق ، عن أبي أسامة ، قال : « وافقنا من شعبة طيب نفس ، فقلنا له : حدثنا ، ولا تحدثنا إلا عن ثقة » . فقال : « قوموا » . (١٠) .

حدثنا اسحاق (١١) بن ابراهيم المروزي ، ثنا أبو عبيدة الحداد ، قال : سمعت شعبة ، يقول : « وقفوهم يصدقوا أو يكذبوا » (١٢) .

حدثنا علي بن سهل ، ثنا عفان ، ثنا حماد ابن سلمة ، قال : (جاء شعبة الى حميد ، فسأله عن حديث أنس ، فحدثه به » . فقال له شعبة : « سمعته من أنس ؟ » . قال : « فيما أحسب » . قال شعبة : بيده هكذا . . . وأشار بأصبعه ، لا أريده ، ثم ولى . فلما ذهب ، قال حميد : « سمعته من أنس كذا وكذا مرة . . . ولكن أحببت أن أفسده عليه » (١٣) .

حدثني عبدالله بن أحمد ، عن أبيه ، عن عفان ، نحوه ، قال فيه : « قد سمعته من أنس ، ولكن شدد [١٨ - أ] علي فأحببت أن أشدد عليه » (١٤) .

حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري ، قال : سمعت يحيى بن سعيد ، يقول : قال لي شعبة : « كل من كتبت عنه حديثاً فأنأ له عيب » (١٥) .

حدثنا الفضل بن سهل ، قال يعقوب الحضرمي - يعني ابن اسحاق - قال : حدثني من سمع سفيان الثوري ، وذكر عنده شعبة ، فقال : « ذاك أمير المؤمنين الصغير » (١٦) .

حدثنا ابن زنجويه ، قال يعقوب الحضرمي ، قال : قال شعبة : « سفيان أمير المؤمنين في الحديث » .

حدثني عياش ، نا أبو بكر بن أبي الأسود ، قال : قال عبد الرحمن : « كان سفيان ، يقول : شعبة أمير المؤمنين في الحديث » (١٧) .

حدثني ابن شويه ، نا عبدان بن عثمان ، عن أبيه قال : « قومنا حمار شعبة وسرجه ، ولجامه : بضمة عشر درهماً » (١٨) .

حدثنا أحمد بن زهير ، قال : سمعت يحيى بن معين ، يقول : « كان يحيى بن سعيد القطان اذا سمع الحديث من شعبة ، (١٩) لا يبالي أن لا يسمعه من غيره » (٢٠) .

قال : وقيل ليحيى بن معين : « ما تقول في شعبة وسفيان اذا اختلفا في حديث الكوفيين ، فقال : « كان سفيان أحفظ للرجال » .

رأيت في كتاب علي بن المديني بخطه الى أبي عبدالله أحمد بن حنبل - رحمه الله - وحدثني به صالح بن أحمد ، عن علي ، قال : سمعت يحيى بن سعيد ، يقول : سمعت يحيى بن سعيد ، يقول : « كان [١٨ - ب] شعبة أعلم بالرجال فلان عن فلان . . . وكان سفيان صاحب أبواب » (٢١) .

قال يحيى : « كان شعبة لا يحدث عن الضحاك بن مزاحم » (٢٢) .

حدثنا سريج بن يونس ، نا : مسلم ابن قتيبة ، عن شعبة ، قال : « قلت لمشاش : سمع الضحاك ، من ابن عباس ، رضي الله عنهما ؟ قال : ما رأي قط » (٢٣) .

حدثنا أحمد بن ابراهيم العبدى ، نا : أبو داود الطيالسي ، عن شعبة ، قال : « كان أيوب يمشي الى مسجد بني ضبيعة ، يسألني عن الحديث » قال شعبة : « وحدثت أيوب يوماً بحديث قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب : أن امرأة أرادت الحج ، فقال أيوب : هاتوا اسناداً مثل هذا » (٢٤) .

حدثني أحمد بن زهير ، قال : سمعت يحيى بن معين ، يقول : قال يحيى بن سعيد : « كان شعبة من أرق الناس ، كان ربما مر به

سائل ، فيدخل الى بيته ، فيعطيه ما يكتنه » (٢٥) .

حدثني أحمد بن زهير ، نا : أحمد بن نبل ، نا : يحيى بن سعيد قال : قال شعبة : « أتى اليّ سليمان التيمي وابن عون عزياني بأبي ، فقال التيمي : ثنا أبو نضرة ، فقال ابن عون : قد رأيت أبا نضرة ، فقال التيمي : فما رأيت ؟ » (٢٦) .

حدثنا أبو عبد الرحمن بن شبويه ، قال : سمعت أبا الوليد ، يقول : [١٩ - أ] « اختلفت الى حماد بن سلمة ، قبل أن اختلف الى شعبة ، فقال لي حماد : اذا أردت الحديث فالزم شعبة » (٢٧) . قال : وسمعت أبا الوليد ، يقول : سمعت حماد بن زيد ، يقول : « اذا خالفني شعبة تركت ما في يدي لأنه لم يرض أن يسمع الشيء مرة حتى يعود فيه مرتين ، وكنا نحن نجزيه » (٢٨) .

قال ابن شبويه ، وحدثني أبي ، حدثني النضر بن شميل ، قال : « ما رأيت أرحم بمسكين من شعبة ، وكان اذا رأى المسكين لا يزال ينظر اليه حتى يغيب عنه » (٢٩) .

قال ابن شبويه ، وثنا مسلم بن إبراهيم ، قال : « كان شعبة اذا قام في مجلسه سائل لا يحدث حتى يعطى » (٣٠) ، فقام يوماً سائل ثم جلس ، فقال : ما شأنه ؟ (٣١) قالوا : ضمن عبد الرحمن بن مهدي أن يعطيه درهماً » (٣١) .

حدثني ابن زنجويه ، ثنا محمد بن أبي غالب ، حدثني هشيم ، أنبا شعبة ، قال : « خذوا عن أهل الشرف فانهم لا يكذبون » (٣٢) .

حدثني عبد الله بن أحمد ، حدثني أبي ، ثنا أبو داود ، عن شعبة قال : قال لي سفيان : « تعلينا بواسط » (٣٣) .

أخبرنا [١٩ - ب] عبد الله ، ثنا محمد ابن طريف أبو بكر الأعمش ، ثنا قراد أنه سمع شعبة ، يقول : « كل شيء ليس في الحديث سمعت ، فهو خل وبقل » (٣٤) .

وحدثنا أبو بكر الأعمش ، ثنا محمد بن جعفر المدائني ، عن ورقاء ، قال : قلت لشعبة : « لم تركت حديث أبي الزبير » . قال : « رأيت يزن فاسترجع في الميزان فتركته » (٣٥) .

حدثنا عمرو بن محمد الناقد ، ثنا وكيع ، قال : قال شعبة : « فلان عن فلان : مثله لا يجزيه » (٣٦) . قال وكيع : وقال سفيان الثوري : « يجزيه » .

حدثني عبد الله ، حدثني أبي ، ثنا حجاج ، عن شعبة ، قال : قال لي أيوب : « أنت تعب الاسماء ، وهذا اسماء » قال : قلت : « أبو المهلب لم يسمعه من أبي » (٣٧) .

حدثت عن عبدان أنه ، قال : سمعت أبي ، يقول : قال شعبة : « وأي شيء ألد من أن تلقى شيخاً في يوم ريح قد لقي الناس ، وأنت تستشير ، وتستخرج منه العلم ، قد خلوت به » (٣٨) .

حدثنا عمرو بن محمد الناقد ، (٣٩) وسريج بن يونس [٢٠ - أ] وابن عباد ، وابن المقري ، قالوا : ثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، قال : أخبرني عمرو بن أوس الثقفي ، قال : أخبرني عبد الرحمن ابن أبي بكر ، قال : « أمرني رسول الله ﷺ ، أن أردف عائشة ، فأعمرها من التنعيم » (٤٠) ، قال عمرو الناقد : قال ابن عينية : « كان شعبة يعجبه مثل هذا الاسناد - يعني : أخبرني - قال ، أخبرني » .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، ثنا عبد الله بن إدريس ، قال : قلت لشعبة :

حدثنا علي بن سهل ، ثنا عفان ، قال : سمعت شعبة ، يقول : « لولا حوائج لنا اليكم ما جلست اليكم » . قال عفان : « وكانت حوائجه ، يسأل لجيرانه الفقراء » (٤٣) .

قال : وسمعت شعبة ، يقول : « من ذهبنا الى أبيه فأكرمنا فجاءنا ابنه أكرمناه ، ومن أتيناها فأهاننا ، فأتانا ابنه أهناها » (٤٤) . حدثني عمر بن شبثة ، ثنا عفان ، قال : قال يحيى بن سعيد : « ما رأينا أحدا قط أحسن حديثا من شعبة » (٤٥) .

حدثنا أحمد بن إبراهيم ، ثنا (٤٦) أبو داود ، ثنا شعبة ، قال : قلت لمعاوية بن قرة ، وذكر حديثا ، فقلت له : « من حدثك به ؟ » قال : « حدثنيه فلان ، استرحت من رهقك ، يا شعبة » (٤٧) .

حدثني علي بن سهل ، ثنا عفان ، قال : « كان شعبة يغضب بالحمرة » (٤٧) . حدثني عبدالله بن أحمد ، قال : سمعت أبي ، يقول : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : مات شعبة سنة ستين ، وهو ابن خمس وسبعين » (٤٨) * .

« كان مهدي بن ميمون عندك ثقة ؟ قال : نعم . قلت : فانه أخبرني عن سلم العلوي أنه رأى أبان بن أبي عياش عند أنس » قال شعبة : « سلم الذي كان يرى الهلال قبل الناس بليلة » ؟ (٤٩) .

حدثنا محمد بن اسحاق ، حدثني ابن أبي رزمة ، ثنا عبدان ، حدثني أبي ، عن شعبة ، قال : « لولا الحياء من الناس ، ما صليت على أبان بن أبي عياش » (٤٢) .

حدثنا سويد بن سعيد ، ثنا علي بن مسهر ، قال : « سمعت أنا ، وحمزة الزيات ، من أبان بن أبي عياش خمسمائة حديث ، أو ذكر أكثر ! فأخبرني حمزة الزيات أنه ، قال : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فعرضتها عليه ، فما عرف منها الا اليسير ، خمسة أو ستة أحاديث ، فتركت الحديث عنه » .

حدثنا محمد بن عبدالله المخرمي ، ثنا أبو داود الطيالسي ، ثنا شعبة عن [٢٠ - ب] سعيد بن مسروق ، قال : قال رجل : « يا أبا بسطام ! من سعيد بن مسروق ؟ » قال : « أبو سفيان الفقيه » .

الهوامش :

١ - تهذيب التهذيب (٤ : ٣٣٨) - تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٣) - التاريخ الكبير للبغداد (٤ : ٢٤٤) - فلسفة الصلوة لابن الجوزي (٣ : ٣٥) - ذيل تاريخ الطبري (٦٥٦) .

١ - ورد ذكر ابن شعبة في « كتاب المراسيل » لابن أبي حاتم . وفي كتاب « معرفة علوم الحديث » للحاكم .

٢ - تاريخ بغداد للطبيب البغدادي (٩ : ٢٥٥ - ٢٥٧) - تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٦) . وسير النبلاء للذهبي (٦ : ٦٧) .

٣ - ورد في حاشية الأصل تصحيح لكلمة « حدثنا » ب « حدثني » . وقد وافق الذهبي التصحيح .

٤ - حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصبهاني (٧ : ١٤٥) وسير أعلام النبلاء ، للذهبي (٦ : ٦٧) .

٥ - جاء في حاشية الأصل تصحيح كلمة « يقول » ب « قال » .

٦ - حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) . وسير النبلاء (٦ : ٦٧) .

٧ - المرجع السابق .

٨ - حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) ، وسير النبلاء (٦ : ٦٧) . والجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان (١ : ٤٧) .

٩ - سير النبلاء (٦ : ٦٧) . ولد مدح شعبة سليمان بالقول كثيرة منها ما ورد في سنن أبي داود (٢ : ٢٢٠) : « قال رجل أشعبة خالفك سليمان ، قال : دفعتني . وقال في موضع آخر : سليمان أحفظ مني . وكل من خالف سليمان ، فالتقول قول سليمان » .



- ١٠- سير النبلاء (٦ : ٦٨) .
- ١١- جاء في حاشية الأصل تصحيح كلمة كلمة « اسحق » بـ « عبد الله » .
- ١٢- سير النبلاء (٦ : ٧٠) .
- ١٣- حلية الأولياء (٧ : ١٥٠) . والأسئلة العشرة الكاملة للمكتوي (١٦٢) .
- ١٤- المرجع السابق . وسير النبلاء (٦ : ٧٠) .
- ١٥- يشدد شعبة كثيرا على « حدثنا » ولذلك ورد عنه في ذلك : « كل حديث ليس فيه حدثنا واخبرنا فهو خل » وبقل « اذا كان في الحديث حدثني وسمعت فهو دست بدست ، واذا لم يكن فيه سمعت واخبرني ، فهو خل وبقل » « كل حديث ليس فيه حدثنا فهو مثل الرجل في فلاة معه بعير بلا عظام » انظر حلية (٧ : ١٥٤) ، وتذكرة السامع والتكلم (٩٠) ، وسير النبلاء (٦ : ٦٨) .
- ١٦- حلية الأولياء (٧ : ١٤٧) . والمجروحين لابن حبان (١ : ٤٦) . وشرف اصحاب الحديث للطغيب البغدادي (١١٥) وسير النبلاء (٦ : ٦٨) ولكنها جاءت بسند الرواية التي قبلها .
- ١٧- المرجع السابق .
- ١٨- حلية الأولياء (٧ : ١٤٧) والمجروحين (١ : ٤٧) ، وتاريخ بغداد (٩ : ٢٦٢) وسير النبلاء (٦ : ٦٨) .
- ١٩- جاء في حاشية الأصل بدل « لا » . « لم » .
- ٢٠- ولد ورد من هذا القبيل اقول كثيرة منها قول حماد بن زيد : حلية الأولياء (٧ : ١٥٣) : « ما ابالي من خالفني في حديث ، الا ان يكون شعبة » فان شعبة كان معنيا بالحديث ، كان يأتي الشيخ يكرر عليه « . وقول سفيان : مقدمة المعرفة (١ : ١٦٢) « كانوا اذا خالفوني بالكوفة لا التفت اليهم ، اقول ما قال مسعر ؟ وما قال شعبة ؟ » . وقول يحيى ابن سعيد : مقدمة المعرفة لابن ابي حاتم (١ : ١٦٠) : « ليس احد احب الي من شعبة ولا يعدله احد عندي » .
- ٢١- جاء في تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٦) بشكل يشبه هذا « شعبة احفظ للمشايع ، وسفيان احفظ للأبواب » وسير النبلاء (٦ : ٦٩) .
- ٢٢- مقدمة المعرفة لابن ابي حاتم (١ : ١٣١) - سير النبلاء (٦ : ٧٠) .
- ٢٤- سير النبلاء (٦ : ٧٠) .
- ٢٥- حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) - تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٣) - سير النبلاء (٦ : ٦٨) .
- ٢٦- سير النبلاء (٦ : ٧٠) .
- ٢٧- مقدمة المعرفة (١ : ١٢٧ - ١٢٨) .
- ٢٨- راجع التعليق على قول : « كان يحيى بن سعيد انظر اذا سمع الحديث من شعبة ، لا يبالي ان لا يسمعه من غيره » . ويعبر شعبة عن هذه الفكرة ، فيقول : « ما رويت عن رجل حدثنا الا آتيته اكثر من مرة ، والذي رويت عنه عشرة آتيته اكثر من عشر مرار » . تهذيب التهذيب (٤ : ٣٤٦) . وقال ايضا : « اختلفت الى عمرو بن دينار خمسمائة مرة ، وما سمعت عنه الا مائة حديث » . حلية الأولياء (٧ : ١٤٧) . ويقول ابو الوليد : « سالت شعبة عن حديث ، فقال : والله لاحدئتك به ، لم اسمعه الا مرة » . حلية الأولياء (٧ : ١٤٨) وسير النبلاء للذهبي (٦ : ٧١) .
- ٢٩- المجروحين من المحدثين والفضلاء والمتروكين لابن حبان (١ : ٣٠) .
- ٢٩- حلية الأولياء (٧ : ١٤٦ - ١٤٧) .
- ٣٠- كانت مكتوبة في الاصل بالف ممدودة .
- ٣١- حلية الأولياء (٧ : ١٤٧) .
- ٣٢- حلية الأولياء (٧ : ١٥٥ - ١٥٦) ، والمجروحين (١ : ٢٤) ، وسير النبلاء (٦ : ٧٠) .
- ٣٣- يريد سفيان ان يقول : « تعال الينا بواسط » .

٣٤- حلية الأولياء (١ : ٧) «...» وكان شيخه سمعت وأخبرني فهو خل وبقل . وسير النبلاء (٦ : ٦٨) .
وانظر التمهيدات السابقة .

٣٥- حلية الأولياء (٧ : ١٥٣) وفي المروجين عبارة قريبة منها (١ : ٣٠) وسير النبلاء (٦ : ٦٨) .

٣٦- سير النبلاء (٦ : ٧٠) «...» وهو يريد تبين أن الحديث لا يكون جيداً ومقبولاً إذا ذكر فيه «فلان عن فلان» بل يجب أن يقال : «حدثنا فلان ، حدثنا فلان ...» حتى يجزي . بخلاف سليمان فإنه أقل تشدداً .

٣٧- مقدمة المعرفة (١ : ١٢٩) ، وأبي هو : ابن كعب .

٣٨- سير النبلاء (٦ : ٧٠) ، وجاءت في مقدمة المعرفة كما يلي : «وأي شيء أله من أن تغلو بشيخ قد لقي الناس ، فانت تستشيره ، وتستخرج منه علماً» .

٣٩- الفسط من الاكمال ٤ ، ٢٧٢ .

٤٠- سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي في الحديث رقم (٢٩٩٩) والحديث رقم (٣٠٠٠) .

٤١- يعني مكانه يضعفه ويكذبه .

٤٢- مقدمة المعرفة (١ : ١٣٤) «...» وكان شعبة ذا خبرة فائقة على الحديث ، حتى أنه كان يأتي الى الوضاعين ، ويقول لهم - على حسب قول الشافعي - : «كان يجيء الى الرجل فيقول : لا تحدث ولا استمدت عليك السلطان» .

الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤ : ٢٧٠) «...» سير النبلاء (٦ : ٧٠) «...» وآداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم تحقيق عبد الفتي عبد الخالق (٢٠٩) . ولم يكن يحب السكوت عن الحق أبداً فتراه في شأن أبان تروى عنه القصص منها ما ذكره حماد بن زيد : «لقيني شعبة بن الحجاج ومعه مدره ، فقلت : يا أبا بسطام ، أين تريد ؟ قال : الى أبان بن أبي عياش أدعوه الى القاضي ، فإنه يكذب ، فقلت : اني أخاف عليك عبد القيس ، قال : فكلمته ، فانصرف ، قال حماد : ثم لقيني شعبة بعد ذلك ، فقال لي يا أبا اسماعيل ! اني نظرت في ذلك فلم يسعني السكوت» حلية الأولياء (٧ : ١٥٠) .

٤٣- حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) «...» ذلك قوله : «لولا المساكين ما حدثت ، فاني أحدث ليعطوا» حلية الأولياء (٧ : ١٥٧) .

وسير النبلاء (٦ : ٦٨) .

٤٤- سير النبلاء (٦ : ٦٨) .

٤٥- سير النبلاء (٦ : ٦٨) «...» وفي تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٥) جاءت على النحو التالي : «قال أبو الوليد الطيالسي : قلت ليعيسى بن سعيد : رأيت أحداً أحسن حديث من شعبة ؟ قال : لا ، قلت : فكم صحبته ؟ قال : عشرين سنة» .

٤٦- جاء في حاشية الأصل تصحيح كلمة «ننا» بـ «ابنا» .

٤٧- سير النبلاء (٦ : ٧٠) .

٤٨- الطبقات الكبرى لابن سعد (٧ : ٢٨٠ - ٢٨١) «...» اتفق جميع المزيخين على وقت وفاته شعبة . ولكنهم اختلفوا في عمره وولادته . فقال ابن زنجويه : «ولد سنة (٨٢) هـ . وله (٧٧) عاماً» . تهذيب التهذيب (٤ : ٣٤٥) . وقال

أبو زيد الهروي : «ولد ... سنة ثنتين وثمانين» . تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٤) ، وسير النبلاء (٦ : ٦٦) .

وقال ابن حبان وشرف الدين العاملي : «مولده سنة (٨٣)» . مشاهير علماء الأمصار لابن حبان الترجمة (١٣٩٩) وفي كتاب المراجعات (١١٠) . وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير (٦ : ٥٠) «عمره (٧٧) عاماً» . وفي تاريخ خليفة

ابن خياط (١ : ٣٩٨) : «ولد سنة سبع وثمانين» . وفي ذبول تاريخ الطبري (٦٥٦) : «ولد سنة (٨٥)» . وفي سير النبلاء (٦ : ٢٦٦) قال : «قيل ولد سنة ثمانين في دولة عبد الملك بن مروان» . وفي تاريخ بغداد للخطيب

البغدادي (٩ : ٦٦) ، قال : «مولده سنة (٨٣)» . وفي أعيان النبوة (٣٦ : ١١٣) قال : «ولد ... سنة (٨٥)» .

أو (٨٣) أو (٨١) «...» وقال البغدادي في التاريخ الصغير (١٨٣) : «شعبة أكبر من الثوري بمشر سنين» . وعلى ذلك فمهر شعبة إما (٨٠) أو (٧٩) أو (٧٨) . ويصحب تحديد مواده تماماً ، ولكنني أرجح سنة (٨٥) هـ .

* الى هنا انتهت حكايات أبي بسطام شعبة بن الحجاج . ويليه في المجموع . أخبار عمرو بن مرة للبيهقي .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

تاريخ ما أهله تاريخ البادية العربية

روائع من الأدب الشعبي في بؤادي الأقطار العربية

محمد صالح برندي

للأدب الشعبي - منذ القديم - صلة وثيقة ببؤادينا وربوعنا العربية،
لأنه يعبر عن عاداتها وتقاليدها البدوية الأصيلة ، وهو منبثق من
صحرائها ورمالها وفيافيها وقفارها ، كما أن له طابعا خاصا من الروعة ،
وجمال الأسلوب ، وقوة العاطفة ، وما ذلك الا لأنه يعبر عن الشعور
الصااق للبيئة التي يعيش فيها .

وسأعرض قصة من ذلك الأدب ، رواها الرواة عن أحد أعلام البؤادي والقفار
العربية من رواد ذلك الأدب الشعبي ، وهو الأمير عبدالله الفاضل أحد رؤساء
عشيرة الحسنة ، وهي قبيلة عربية نزحت في الأزمنة الغابرة عن موطنها الأصلي في
الجزيرة العربية ، الى بؤادي الأقطار العربية الأخرى ، وسكنت بادية تدمر في
سورية ، وبمد ذلك هاجرت الى بادية حمص وحماة من المدن السورية .

يرجع تاريخ هذا الأمير الى نهاية القرن الثامن عشر ، أيام الحكم العثماني
في البلاد العربية ، وكان سلاح البدو والسيف والرمح ، وكانوا يقاتلون على
ظهور الابل والخيول العربية الأصيلة .

ان الأخبار المتواترة عن هذا الأمير، تدل على أنه كان مثالا في الكرم
والشجاعة العربية ، والاعتزاز بالنفس ، وشدة البأس ، وقوة الشكيمة ، فهو
يفخر بقبيلة « الحسنة » ويقول في ذلك :

هلي رايات بالدنيا بيض لهم كرام ويمن الغايف بظلمهم
يتيه الفيهب المسما بظولهم هلي باشات على الشد وطئاب

أي : إن أعلام قومه وراياتهم بيض بأفعالهم الحميدة ، لأنهم كرام ، والمستجير
الخائف على نفسه يجد الأمن والطمأنينة في ربوعهم ، كما أن الشخص القوي
الشديد لا يستهدي طريقه في خيام المشيرة المنتشرة في كل مكان بالبادية ، وهؤلاء
القوم هم السادة وغيرهم من البدو القاطنين في خيام الصحراء تبع لهم .

فكانه يريد أن يعبر عما افتخر به الشاعر العربي القديم بقوله :
بيض صنائعنا خضر مرابعنا سود وقائعنا حمر مواضعنا
ويقول هذا الأمير مفتخراً بقومه أيضاً :

هلي عز النزيل وعز من كال فكال الروزما ما هم حجر منكال
ان جاك الناس مي هظل من كول هلي نيسان طمّ العاليات

أي : ان قومي عز للضيف والجار ، وقوة وفخر لكل من قال قولاً ، وهم
عظام ثقال بوقارهم ورزائهم كالحجر إذا رزته ، فليسوا خفاف الوزن (ويقصد
بذلك الهيبة والشخصية) كحجر المنقلة وهي لعبة بدوية مشهورة ، وإذا كان غيرنا
يشبه الماء الذي جرى من النبع ، فأهلي هم الفيض والقوة كالماء في شهر نيسان
الذي يطفو على الجبال والنواتي ويغمها ويفمرها بسيله وتدفعه لأن في
هذا الشهر تداهم الشمس ثلوج الشتاء فتذيبها وتصبح مياهها متدفقة غزيرة .

ويفخر هذا الأمير بعادات قومه الأخرى أيضاً ، عادات العرب القدامى ، وهي
الزواج من بنات الأسرة ، ليبقى النسل محافظاً على صفاته العربية المتوارثة
وبخاصة الصفات التي تكون شخصية فتى الصحراء العربي فيقول :

كبار الناس اهلنا من جدينا ولا نزل على الماهم جدينا
الناس النجم واحنا الجدينا جثير من النجم علا وضاب

أي : إن أهلنا من عظماء الناس ، وخوّلتنا من العمومة ولا نحقد أو نحمل
ضغناً على الذين ليسوا مثلنا على هذه الشاكلة ، ولكن إذا كان الناس نجوماً
فنحن نجم الجدي الشابت الذي لا يزول بينما النجوم الأخرى تهوي وتسقط

وتغيب ، ويريد بذلك اظهار شأن قبيلته ومكانتها ومنزلتها الاجتماعية بين قبائل البدو الأخرى القاطنة في البادية .

وشاء القدر أن يصاب هذا الأمير بمصائب جسام عجمت عوده ، وخبرت مضاهه وتركت أكبر الأثر في نفسه ، حيث أصيب بمرض الجدري الوبيل .

* * *

في ربيع احدى السنين كان الأمير عبدالله الفاضل يتجول في تلك البادية الحبيبة الى نفسه التي يرى صعيدها أحب اليه من أي شيء آخر من أجواء المدن والقرى المجاورة .

كانت خيام المشيرة منتشرة في كل مكان وقد تناثرت في بطون الأودية والقفار وبدا الجو جميلاً طليقاً في الكشبان المترامية الأطراف وقد زركشت أودية الربيع المتلألئة تلك البطاح وخلعت عنياتها ثوباً قشيباً من البهاء والرائه ، وكان الهدوء والأمن قد استتباً في أرجاء تلك الربوع الصحراوية ، بفضل سهر الأمير ورجاله واهتمامه بتلك الناحية فقد كان للهيبة والقوة اللتين يتمتع بهما أكبر الأثر في انتشار السلام بين أنحاء القبيلة ، فلا غارات جاهلية ، ولا اعتداء من أحد على آخر ولا حوادث سطو أو نهب في عشيرة « الحسنه » ، وهذا ما جعل الأمير يفخر بهذا الوضع حتى يرى أنظار رجال المشيرة تشرئب اليه وتأخذ برأيه وترجع اليه في كل المشكلات والأمور فكان هو المرجع المدني والقبلي لكل شؤونهم ومنازعاتهم ، وعلى هذا فقد كان يركب ناقته السريمة القوية الملقبة بـ « البويضة » وقد وضع عليها الهودج المزركش والحلل الفاخرة والجميع يعرفونها من منظرها وهيئتها انها ناقة الأمير ، وفي الحالة التي لا يمتطيها صاحبها فانها كانت ترعى في أي مربع تذهب اليه دون أن يستطيع أحد أن يكفها أو يردّها ، كما أنها ترد أي منهل تشرب منه ابل المشيرة دون أن تلقى أية صعوبة أو عناء وما ذلك الا لأنها « البويضة ناقة الأمير » وهذا ما عبّر عنه بقوله :

عليح الراي من فاضل يا ديرة وخشم الضد بالمرفف نديره

كفز ترمي البويضة بكل ديرة غرم هالشوارب واللعي

أي : تمتعي أيتها الديار العزيزة بالأمن والهدوء والسلام من عبدالله

الفاضل ، لأننا سنقوم أنوف الأعداء بالسيوف وهذه ناقتي البويضة ترعى في كل مكان ولا يستطيع أحد أن يجابهها بالصد أو المنع رغم شوارب الخصوم ولحامهم (وهو يرى في وضع البادية بزمناه هدوءاً وأمناً يعود الفضل فيه الى هيئته وخشية الأعداء من صولته وقوته ويستدل على ذلك بأمر ناقتة التي أطلق لها الغدو والرواح والمرتع في أي مكان ينبت فيه الكلا .

ففي وجود ناقتة وتجولها نذير للأعداء والخصوم أو الذين يحاولون الاخلال بالسكينة في ربوع العشيرة بأن الأمير القوي المرحوب الجانب وراءها يرى ويسمع ويدرك عن العشيرة كل ما يكرصفوها .

ولكن الوجوم قد بدا على وجوه أفراد القبيلة وخيم الحزن والكآبة على جنباتها في تلك السنة لأن مرض الجدري الوبيل قد ظهر وانتشرين الخيام القريبة والبعيدة ، وكانت الأخبار المتواترة تدل على وجود اصابات وضحايا كثيرة من فتك ذلك المرض ، ولم تكن الوسائل الطبية الحديثة من اللقاح والوقاية معروفة في ذلك الحين ، وكانت السلطات التركية التي تهيمن على البلاد العربية غير مهتمة بشؤون هؤلاء البدو الذين تراههم متنقلين في الصحراء ، لا يخضعون لسلطانها في معظم الأحيان ، فهي لهذا لم توجه عناية كبرى لمكافحة ذلك الداء والقضاء عليه سواء أكان في المدن أم في الصحراء ، فاستفحل الداء الخطر الذي قضى على الكثيرين ، وأعمى العديدين وشوه وجوه معظم الذين أصيبوا به وقد رلهم أن ينجوا من الموت ، وكان ينتشر بسرعة خاطفة بين أفراد العشيرة فلا توجد خيمة الا وقد أصيب بعض أشخاصها بعدواه ، منذراً بالخطورة الكبيرة والضحايا الجمة والخسارة الفادحة .

هب رجال العشيرة وقادتها مذعورين من استفحال هذا الداء في ربوعهم وباتوا يتنادون الى عقد الاجتماعات العديدة للتشاور وتبادل الرأي في مكافحته وخاصة حين رأوا أن الاصابات قد ازدادت بين الرجال والنساء والأطفال وليس بنافعهم الانتقال من بقعة الى أخرى في هذه الصحراء المترامية كما هي عادتهم في التنقل سعيًا وراء الكلا والماء فالداء المخيف يلاحقهم وكان ذلك العام الذي داهمهم به مرض الجدري نادرًا الأمطار وقد تراءى العشب قليلا من جراء ذلك في مرامي

الأبصار وبدأت المياه تنضب من الآبار ، فكان لا بد لهم من البحث عن وضع ينقذهم من هذه الخطوب الكبيرة النازلة بساحتهم وقد ترمى الى مسامحهم أن سلطات الحكومة بدأت تهتم بمكافحة هذا الداء بالوسائل المعروفة التي كانت بين يديها في المدن ولكن تلك المكافحة لم تصل الى كثران الصحراء وخيام البدو ، وهذا ما دعا رجال المشيرة وقادتها للتفكير بالنزوح الى مشارف المدن القريبة من بواديهم وهي مدينتا حمص وحماة حيث المسافة قريبة بينهما ، ليكونوا على مقربة من السلطات واهتمامها وامتداد أيديها اليهم ، لاسما فهم بالدواء أو وسائل المكافحة الأخرى وليتسنى لهم أيضاً الحصول على الماء .

وفي تلك الأيام المصيبة التي مرت بهم أصيب الأمير عبدالله بداء الجدري وسرت عدواه الى خيمته فأصيب معه زوجته ليلي أيضاً ومات ابنه به ، وهذا ما دعا الى التخلف عن اجتماعات رجال المشيرة المتكررة التي يعقدونها للنظر في وضعهم ازاء هذا الداء الخبيث .

وقد عرف البدو منذ القديم أن المرض الفتاك ينتقل بعدوى الملابس الى الباقيين لذلك درجوا على عادة مبدئية لمكافحة سريانه الى الآخرين وهي عزل المريض في خيمته وابقاؤه بعيداً عن خيام المشيرة الأخرى ، وكان لا بد لهم من اتخاذ قرار حاسم ، وقد عزز عليهم أن يقعد المرض زعيمهم ورئيسهم ويدعوه للتخلف عن قيادة اجتماعاتهم وعهدهم به أنه كان السباق لكل أمر جلل أو شأن كبير يحل بالمشيرة أو مصاب يداهمها حيث كان رأيه هو النافذ ، وكلمته هي المسموعة .

والواقع أن خطورة الوضع التي ازدادت سوءاً بمرض الأمير وزوجته دعته الى عقد اجتماع نهائي أخير حضره الأمير فاضل والد عبد الله وهو شيخ طاعن بالسن قد تجاوز العقد السابع من العمر وأوهنت الأيام قواه ، وأحنت الشيخوخة ظهره ، فدلقت الى القوم وهويدب ديباً يتوكأ على عصاه بيد عارية الأشاجع ، وقد ارتسمت امارات الاهتمام ودلائل الأسى على وجهه وقسماته المكدودة .

وأخيراً أقر المجتمعون الرأي الذي أزمع عليه معظم الرجال وفكروا فيه منذ

حين وهو الرحيل عن هذه الديار من البادية الى جهات أخرى ، وترك المصابين بالجدرى في أمكنتهم بالصحراء ليقضي الله بهم أمراً كان مفعولاً ودون استثناء أحد بما في ذلك الأمير عبد الله نفسه وقد صعب عليهم أن يتركوا قائدهم وفارسهم المغوار ولكن لا بد من ذلك الوضع الذي ألجأتهم اليه الظروف القوية القاهرة الخطيرة وقد وافق والد الأمير على رأيهم ولم يستطع أن يعترض أو يبدي حلاً ما فالأمر جلل والمصيبة عظيمة ومصلحة الجميع خير من المصلحة الخاصة ، الا أن هناك أصوات بعض الرجال الذين يقدرعون الأمير وشجاعته وفضله على المشيرة قد استنكروا تركه في البادية فريسة للمرض وضحية للداء ، ولكن لم يكن بوسعهم اجراء شيء تجاه عادات البدو الموروثة .

في عشية احدى الليالي كانت الرياح الخفيفة الندية تهب من حين الى آخر فتنتمش النفوس وتفرح القلوب ، وقد سطع القمر متلألئاً بهياً في سماء الصحراء الشاسعة ، وتلألأت النجوم والكواكب منيرة ذلك الأفق الواسع بنورها الفضي ، وقد انعكس نشاط الطبيعة على وجوه الرجال وسرت عدواه الى أجسامهم وعزائمهم فكانوا يشاهدون في حركة دائمة لا تفتقر ، وقد أخذوا أهبتهم للرحيل وبدأوا في تلك الليلة القمرية يحزمون أمتعتهم للتأهب والرحيل ، فكان رب الأسرة منهم يقوم بعمل ما يجب عليه يساعده في ذلك أولاده وزوجته وذووه ، وقام الرجال الأشداء في المشيرة بنقل المصابين بداء الجدرى ووضعهم في خيام خاصة نصبوها بعيداً عن مضارب القبيلة ووضعوا الى جانبهم أواني فيها الطعام والماء ، أما الأمير عبد الله الفاضل فقد وضعوه هو وزوجته ليلى في خيمة كبيرة ، ونحروا له بكرأ من الابل طعاماً لهما ، ووضعوا الماء وما يلزم من الأغذية والحشايا وتركوا له خادماً قوي الجسم مفتول الساعدين ، نشيطاً ليقوم بخدمتهما ، كما تركوا أحد كلاب الأمير القوية ويدعى (شير) ليقوم بحراستهما .

كان الأمير رهين المرض في الخيمة التي وضع بها ، وقد استولت عليه حمى ذلك الداء فهدت قواه ، وانحلت جسمه ، وجعلته طريحاً تنتابه الغيبوبة التي لا يصحو منها الا في بعض الأحيان فيستعيد بعض وعيه ومداركة ثم لا تلبث وطأة الداء الخبيث أن تشتد عليه فتجمله يعود الى غيبوبته الأولى ، وهكذا كان . . .

وربما كان الأمير قد علم لماذا بقرار القوم بالرحيل العاجل ولكن ماذا كان
بوسمه أن يفعل ؟ فالمرض الجاثم على صدره أشد وطأة عليه وأعظم بلاء لأن
الحمى تشتد عليه بين آونة وأخرى والموت أقرب اليه من حبل الوريد .

وما أعظم هذه اللحظة ، وما أشدها وقماً في نفس ذلك الشهم الشجاع ، الذي
لم يخشَ المصائب الكبيرة الجسام التي لقيها في حياته ولكن الحوادث أقوى من
الرجال .

مضى رجال القوم في تأهبهم واستعدادهم للرحيل ولم يستطيعوا أن يركنوا
الى النوم طويلاً في تلك الليلة فقد نعموا باغفاءة قصيرة ، ما لبثوا أن استفاقوا
بمدها في وهن الليل وقد علت ضوضاء الرجال وأصوات الحيوانات وعواء الكلاب
فأيقظت النائم وحفزت المتراخي والساجي للوثوب والعمل والتهيو فقد أزعج
موعد الرحيل .

بدأت قوافل المشيرة برجالها ونسائها وطمائنها ومواشيها قبل حلول الفجر
بالارتحال وسارت تقطع الفيافي والرمال، وتسير بما في ذلك والد الأمير وأولاده
وزوجته الثانية (ثريا) وقد ودع القوم فارسهم ورئيسهم المغوار بالقاء النظرة
الأخيرة عليه بمرارة ولوعة ، وارتحلوا وقلوبهم تنفطر حزناً وأسىً على ما حل
به وساروا وهم يلتفتون الى خيمته قبل فراقهم له وقطعت طمائنها وهوادجهم
وركابهم مسافة يسيرة ، عند ذلك نبج الكلب (شير) حارس الأمير نباحاً محزناً
باكياً من وقع الفراق وكان عواؤه قوياً متواصلاً مما جعل الأمير يستيقظ من
غيبوبة المرض فسأل خادمه عن الأمر فأنبأه هذا أن القوم قد ارتحلوا لا يلوون
على شيء لأنهم قد نفذوا ما عزموا القيام به ، وان الكلب يبكي الألفة والفرقة ،
فلم يهدأ عواؤه طوال ذلك اليوم ، فبرى الأمير الوضع وهو طريح الفراش
فيقول لكلبه :

هلك شالوا على مكحول يا شير واخلوا لك عظام الخيل يا شير
يا لو تبكي بكل الدمع يا شير هلك شالوا على حمص وحماة

أي : أن قومك أيها الكلب (شير) قد حملوا أمتعتهم على الابل القوية ورحلوا
وتركوا لك لحوم النوق وعظامها ولو سكبت على فراقهم دموعاً غزيرة، وبكيتهم

ما شاء لك البكاء فلن تستميدهم لأنهم قصدوا الى مدينتي حمص وحماة ،
وتركوك وحيداً في هذه البادية فخفف من عوائك وأقلل من بكائك .

رجع الأمير الى نفسه بعد ذلك وتأمل الأرزاء المكددة به والمصائب
النازلة عليه من كل جانب فوجد أنه يتبع في عزلة كثيفة ووحشة شديدة بعد أن
ارتحل عنه أهله وذووه ، وتركه القوم وهجرته العشيرة ، وكان المرض قد
أضنى جسمه ، وأحمد قواه ، وغير ملامح وجهه ، وزعزع كيانه ، في هذه الأرض
القفز التي لا يسمع بها إلا عواء بعض الحيوانات الشاردة، هنا وهناك، يشاركها
كلبه شير .

كانت الرياح السافية تهب حسرة كثيفة مشبعة بهوائها الساخن من حين
لآخر في آفاق الصحراء الواسعة فتلطم أعمدة الخيمة وتحركها ، تنهد الأمير
بحسرة وحرقة ومرارة وأسى وسرح طرفه في الأفق البعيد فرأى أنه قد أصبح
كعمود في عباب هذه الصحراء المتلاطم ، برماله ورياحه الهوج الماتية تلعب به
كما تشاء ، وقد غمر الحزن المميت قلبه وأغم فؤاده ، وحال بينه وبين أهله
الذين تركوه في فجوج الصحراء وبين نجاحها ووديانها حيث قطعها قوافل
العشيرة بالنوق والجمال القوية السريعة وهذا ما عبر عنه بقوله :

أهلي بالدار خلوني وشالوا وخلوني كجمود ببطن شالوا
على حذب الظهور اليوم شالوا وحاييل دونهم كوروسراب

يقول : ان أهلي قد ارتحلوا وحملوا أمتعتهم وتركوني وحيداً كالعمود في الشلال
يتقاذفه موجه ويحمله من مكان الى آخر ، وقد سافر هؤلاء القوم على متون النوق القوية،
وحال بيني وبينهم أنجاد الأرض وأغوارها وفيافيها .

بزغ الفجر صبيحة أحد الأيام طلقاً رخياً، فنشر أشعته الفضية البهيجة في أفق تلك
الصحراء الشاسعة ، وألقى ظلاله البهية على فيافيها وحصبائها ورمالها الكبيرة ، وما لبثت
الغزالة في أفق السماء أن تبدت من خدرها ، فتجلى رواؤها وسناؤها المشرق ، كان جمال
الصحراء يبدو في أبهى حله ، وأمتع مباحه، فقد خلعت أشعة الشمس على كتيبان الرمال
وأنجادها ، ووهادها حلة قشبية من الجمال المنمش المتنع .

ساد السكون والهدوم تلك الفيافي والبقاع السحيقة فلا تسمع الا عواء الكلاب وبعض
الأصوات المأبرة هنا وهناك من الناس الذين استيقظوا على ضوم الفجر وانطلقت تمد

العنان لنشاطها بظلال أشعة الشمس التي امتدت إليها رويداً رويداً فأكسبتها انطلاقاً من خمولها ، وأمدتها بفيض من الحيوية وانشرح الصدور . بعيداً عن الأمير الذي كان غارقاً في عزلته ، قابلاً في خيمته ، سادراً في غيبوبته .

مضى يومان على ارتحال القوم وكانت خيمة الأمير المريض جاثمة في أحضان الرمال وقد خيم عليها الصمت والحزن العميق ، فالأمير سادر في مرضه سابح في خضم من الأسى والعزن ، وإلى جانبه زوجته ليلي وقد خف عوام الكلب شير بعد أن بكى على فراق القوم ، جلس الخادم القوي تجاه باب الخيمة يراقب بنظره الثاقب الأفق البعيد الممتد إلى ما لا نهاية ، وقد ظهر في الجو بعض الطيور الجارحة وهي ترفرف وتصفق بأجنحتها غادية رائحة من مكان إلى آخر ، في هذه الأثناء استفاق الأمير من غيبوبة المرض فسارع الخادم إليه وأعلمه بسضي يومين على ارتحال القوم عنه ، فتنهد حسرة وأسفاً وأرسل الدموع غزيرة حارة وتنهد بحرقة وأسى قائلاً :

هلي ما راعهم صايح ولوماي ولا ينفع بهم عذلي ولوماي
عسنتهم عكب هالفوزة ولوماي تسرووا وارووا الزود العفا

أي : ان قومي قد نفذوا ما يريدون وأصروا على ما قرروه ، ولم يستجيبوا لصوت الرادع أو اللائم ، كما لم ينفعهم عذلي ولومي ، ثم يرجع الأمير إلى الأمل بعد ذلك ويرجو أن يكون قومه وأهله بعد هذه المسافة التي قطعوها مدة يومين في الصحراء قد وجدوا المياه الغزيرة التي كانوا يقصدونها ولعلهم قد ارتووا منها وسقوا مواشيهم بما فيها النوق الاحتياطية التي توضع مع المواشي الأخرى لليلعات والأعمال العادة .

وكان الأمير بشعره الأنف الذكر يمتد على قومه لأنهم جحدوا فضله وأنكروا أثره البارز في العشيرة بتركهم إياه وحيداً في الصحراء فريسة للمرض والهموم ، وربما كان يرجو منهم كما يتضح من قوله ، جملة معهم أو البقاء بجانبه - ولكن نفسه الأبية لم تجعله يذكر ذلك بلفة التوسل والاستعطاف بل نوه بلهجة النصيح واللوم والعذل . على أن الأمير قد وجد العذر بصورة ضمنية لقومه ورجا لهم أن يجدوا الماء الذي كان ضالتهم المنشودة .

وهكذا فإنه لم يحقد عليهم لأنه عميد العشيرة وفارسها الشهير فلا غرابة إذا تمنى الخير لهم فمصلحة العشيرة فوق كل مصلحة ولهذا أقر رأي الأغلبية من القوم ولسان حاله يردد ما قاله الشاعر العربي القديم :

وما أنا إلا من غزية ان غويت وان ترشد غزية أرشد

وهكذا كان ... ما برح الأمير رهين المرض ، حبس الخيمة في تلك الفيافي المنقطعة ، وزاد في ألمه ارتحال قومه وأهله وأولاده عنه ، فلا أنيس يؤانسه في محنته سوى هذا الخادم الذي يقوم على خدمته ورعاية شؤونه ، وزاد في ألمه وجود زوجته ليلي بجواره مريضة ساجية ، وهكذا فقد استسلم للصبر وارتقب قضاء الله وقدره .

وفي إحدى الليالي اشتد المرض بزوجته وأحاط بها الردى ، وأناخ بجسمها الموت فسكنت نائمها ، واستراحت من آلام الداء الوبيل ، الذي لم يرحم صباحا الغض ، وشهد الخادم احتضارها وموتها فأيقظ سيده من غيبوبته وأعلمه واقع القدر .

تحامل الأمير على نفسه ونهض وأطل برأسه على جثمان الزوجة التي ودعت الحياة ، فرأى وجهها الهامد قد غطى بالنقاب وذهبت المنون بنضارته ولم تبق إلا عيناها الساجيتان وكان منظراً مؤلماً أحزن الأمير ، وأدمى فؤاده ، فبكى ما شاء له البكاء ، ونزلت عبراته الفزيرة ساخنة على خديه الكامدين من فؤاد كليم ، وجسم سقيم مغمم بالأسى والأحزان والأوجاع ، وما لبث أن أنشد :

يا ليلى مغفية الوجنة بس العين ومالك شبه من الجازي بس العين
يا فاضل بطل اللونة بس عين عليهم طول ما أنت بالحياة

يقول : يا ليلى الراحلة التي أخفى النقاب وجنتيها وأذبل الموت نضارة وجهها فلم يظهر من الوجه إلا المينان اللتان تشبهان عيني الغزال ، ثم يرجع الى نفسه ويناجيها قائلاً يا فاضل أترك الأئين والتوجع ، والتوله فانه لن يفيد والزم الألم والصبر الصامت على من تحب ما دمت على قيد الحياة .

فكانه يريد أن يعبر عما جاش في صدر العربي القديم عندما رثى حبيبته بقوله :

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى أجاب الأسى طوعاً ولم يجب الصبر

لقد قام الخادم بدفن الزوجة في قبر حفرة لها بعيداً عن الخيمة ، ولاحظ أن سيده قد أمعن في البكاء في ذلك اليوم وما لبثت دموعه أن انسكبت بلوعة وحرقة ، في كل منظر رآه به في مصيبتته التي رزى بها ، وما أعظم وقع المصائب على قلب هذا الرجل الشهم ، بل ما أكثر تتابعها فقد بدأت بالمرض وتترك الأهل له وارتحلهم عنه ، وما هي الآن سهام المنايا قد أفقدته زوجه ، والشيء البارز الذي لم يبرح يفكر فيه الخادم ويمجب منه هو بكاء الأمير وقد عهده منذ أن نشأ بخدمته من الصغر جلدأ ، صبوراً لا يعرف الخوف والوجل الى نفسه سبيلاً ولم يره باكياً حتى في أشد المواقف هولا خلال حياته الطويلة المسلاى بالمعارك والحروب ولكم شهد مواقع أصيب أو جرح بها ، أو فجعه الزمان بأصدقائه وأقاربه وأولاده ٠٠٠ فما باله اليوم يبكي بكاء الأطفال ؟ ويمول عويل النساء ؟ لقد اعتقد الخادم بعد أن تأمل طويلاً في وضع الأمير أنه يبكي نفسه بتلك الدموع ، بل يرثى حياته التي أوشكت على المغيب بعد أن رأى جسمه الهزيل قد أصبح كالهيكل العظمي ، ورأى عينيه قد ذبلتا وخمدت حدتهما وخبارا وأهما المتوقد ، وقد اضمحلت تلك الحيوية التي ملؤها الشجاعة والاباء والاعتداد بالنفس ، فأسفاً للخطوب والحوادث المؤلمة التي تردى النفوس وتدمى القلوب الكبيرة .

وأخيراً حصلت لدى الخادم القناعة أن الأمير يقترب من الموت وأنه على شفا جرف هار منه ، وألا أمل يرجى لشفاؤه وبرنه .

كان وجهام المشيرة وخاصة والد الأمير وذووه قد زدوا الخادم قبل رحيلهم بتعليماتهم وأوامرهم التي تقضي بخدمة الأمير وزوجته والسهر عليهما حتى ينتهي صراعهما مع المرض ، فان شفي أحدهما أو كلاهما فليات به الى مضارب المشيرة التي حددوا مكانها له ، وان ماتا فليدفنهما وليحضر بنفسه ويلحق بقومه ، فبعدما شهد الخادم وفاة زوج الأمير ورأى حالته قد ساءت ورأى أنه وارد قبره اليوم أو غداً ولا حق بزوجه ، لم يشأ الانتظار وعزاً عليه أن يرى سيده يموت ويقوم بدفنه ، وربما خشي أن يدممه المرض وتنتقل اليه العدوي بعد أن ضعفت عزائمه ووهنت قواه من رهبة الموت وهول الموقف فاستبد به ضعف العزيمة وخور الهمة والثالث عليه الأمر ولم يدر ماذا يفعل فهام على وجهه وهو يهذي كأنما به مس من الجنون ، وكان يردد شعر الأمير في رثاء زوجه وقد حفظه لأنه تأثر به ونزل بقلبه ولا سيما وقد رآه باكياً حين انشاده .

وأخيراً ساقته قدماء الى مشارف خيام المشيرة وعندما رأى نفسه على مقربة منها انتبه قليلاً من غفلته ومن هواجسه التي كان سابغاً بها وفكر فيما يقول للقوم الذين يرتقبون أنباء الأمير بلفظة واشتياق ، وعندما وصل اليهم أبلغهم ما نوى أخبارهم به وهو موت الاثنين وقيامه بدفنهما اعتقاداً منه أن ذلك ما يتوقمه القوم ، ولعلمه أن النجاة قليلة ونادرة من براثن ذلك الداء الذي افترس الكثيرين ، وهيهات أن ينجو منه أحد الا من مد الله له عمره وهم قلة .

لهذا لم يساور القوم شك في ادعاء الخادم فعزّنوا على موت الأمير ، وعلموا أنهم قد فقدوا فارساً شهماً ستذكره المشيرة دوماً ، وأنى لغيره أن يملأ فراغه ؟ وأقاموا المآتم والتمازي في كل منزل وخيمة لأنهم يحبونه ويقدرون صفاته الفريدة وإخلاصه لهم وفضله عليهم .

بقي الأمير في خيمته الكثيبة العزينة التي خيم عليها المرض والوحدة والألم المريع ، كان بين حدي مقص الفناء يدنو منه الموت رويداً رويداً ويقترب منه شبح المنون بوجهه الكالح المر ، ويدهمه المرض المضال بوطاته الشديدة فعندما يستسلم الى اغفامة أو غيبوبة من النوم يظنها النومة الأخيرة التي لا صحوة بعدها ، وهكذا حالته بين يأس ورجاء ، وشدة ، وأمل ، لا يعرف ماذا يخبئ له الغد المجهول في ثنايا طياته ، وغياهب مجاهله ، لقد انثالت على قلبه المعن والأزراء وأحاطت به وتماورت جسمه سهام الردى ونصال المرض فلم تبسق منه الا هيكل عظمياً يلفه أديم هزيل وجسم نحيل يتردد به نفس متقطع ، وأنين متحسرج ، على أن الرجال ذوي النفوس الكبيرة والمزائم العظيمة عندما تنزل بساحتهم المصائب وتبلوهم النوائب يتذرعون بالصبر ويلجئون الى احتمال المكاره والآلام مهما كانت جليلة ، فهناك يبدو معدنهم الأصيل الذي تأتية النار فتصهره من شوائبه وأدرانته وتظهره بطبيعته وتجلو رونقه ولما نسه ، وهذا ما جرى لهذا المسكين فقد استسلم لقضاء الله وصبر وتالم بمرارة وحزن وكان يعبر عن مآسي قلبه بأشعاره الشعبية التي تخرج من قلبه الكليم وفؤاده الجريح ونفسه الملتاعة فحسبه من هذه المصائب ما نزل بساحته وكفاه من البلاء ما حل به وكان لسان حاله يقول :

رايت الدهر يجرح ثم ياسو يؤسي او يعوض او ينسي
ابت نفسي الهلاع لرزه شيء كفى رزءا بنفسي رزه نفسي

شامت الأقدار في صبيحة يوم من الأيام أن تمر قافلة من العرب الرحل وقيل انها من (الصليب) فشاهدت تلك الخيمة التي تذررها الرياح وعندما خيم أفرادها بجوارها ودنوا منها وشاهدوا الأمير طريح الفراش يصارع الموت ويقاوم الألم وكأنه رنا اليهم ببصره من خلال الصعوات القليلة التي كان يستفيق منها بعد غيبوبة المرض المستمرة التي كانت تدهمه من آن لآخر ، ولعله أراد أن يعبر عن وضعه ويعرف زواره بمحنته وبمصيبته بقوله :

هلي شالوا وخلوني طريحاي الفرش يا جرح دلالي طري حي
نحل جسمي وبكى طاري حي تلح الروح بين ضلعي والحشا

يقول : ان أهله قد ارتحلوا وتركوه طريح الفراش وجراحه لما تندمل حيث نحل جسمه وأصبحت حالته كما هي فروحه متردة بين ضلوعه وأحشائه .

ولكن أفراد القافلة الذين لا يجهلون وضع ذلك المرض الغبيث أردكوا فوراً أنه مصاب به فمكفت عجوز منهم لها المام بالطب العربي وعالجته بساً تعرفه من خصائص العقاقير والحشائش التي تنبت في البادية ، وقد قيس الله الشفاء للأمير فتحسن وضعه الصحي تدريجياً وزال عنه خطر الموت .

ترك الأمير الخيمة وبقي مدة يستجم فيها بعد أن ابتسم له الزمان قليلا وقد غير المرض وجهه ، وبدت ندوب الداء الوبيل تملوه من كل جانب وكان للمدة الطويلة التي قضاها أكبر الأثر في جسمه ونفسه ، فقد دب الهزال في عوده الناحل ، وتسرب الضعف الى كيانه وجسده فأصبح غليلا سقيماً ، وتشربت نفسه شمار التألم والقطيعة من أهله وذويه وأفراد عشيرته الذين أنكروا فضله وتركوه فريسة للدماء ونبذوه في هذه الصحراء وهو الذي افتخر بهم كثيراً ورفعهم بشمره الى ذرا الفخر والحماة وأضفى عليهم من شخصيته ثوب المز والمفخرة ، فقد أكثر في أبياته وشمره من التباهي بهم وبدت معظم أبياته بكلمة (هلي) أو أهلي الذين اعتمد عليهم كثيراً وجعلهم جزءاً من شخصيته وكيانه ، وهذا الفخر ولو أنه طيبة أصيلة في نفس العربي الأصل الا أنه لم ينسه أن ينكر عليهم الموقف الذي وقفوه تجاهه وأن يعمل على تركهم وينوي أن يولي وجهه قوماً آخرين وألا يعود اليهم .

ولهذا نجده في أبياته ينحي عليهم باللائمة والتشهير ويصب جام غضبه عليهم فهو يرى أن قومه ولو أنهم تابعوا عاداتهم القبلية القاضية بمزول الرجل المصاب الخطير الذي يخشى أن يسري دأؤه الى الآخرين في الصحراء وهم عرب متنقلون من واد الى آخر ومن بادية الى أخرى الا أنه ما كان أجدرهم ألا يطبقوا هذه القاعدة عليه وهو فذ في رجولته وشاعريته وقيادته للمشيخة ، فهو يقول :

هلي شالوا بليل وما سقوني واخلوني شبيه الماسكوني
طلبت المي منهم ما سقوني يويلي من هلي بان الجفا

أي : ان أهلي ارتحلوا في الليل ولم يأخذوني معهم وتركوني في هذه الصحراء ،
شبيها بالأسير حتى انهم لم يمرجوا عليّ حين الرحيل ويسقوني الماء . ويقول ان هذه
الجفوة والقطيعة كلها قد بدت منهم .

ويتمنى لو أن عشيرته قد قررت أخذه وعدم تركه في هذه الصحراء ليشاركهم أتراحهم
وأفراحهم ويبقى معهم حتى ولو أرداه المرض أو أودى بحياته فخير له وهو الفارس الكريم
أن يموت بين اخوانه وخلانه وألا يبقى وحيداً في هذه الصحراء فيقول :

هلي شالوا بليل وما اعلموني واخلوني شبيه المعلموني
تمنيتك بروحي معلموني معاهم لا صميل ولا زهاب

يقول : ان أهله ارتحلوا في الليل دون علمه وتركوه كالجماد المرمي في الأرض أو
المعالم الدالة عليه ويتمنى لو أن نفسه باقية مع أهله وخلانه دون أي شيء آخر يأسف عليه
أو يتنمأ من الزاد أو المال .

وهكذا ظلت نفس الأمير جريحة مثالة تلوم ذويها وتؤسي نفسها بالأمانى وتعلم
مصائبها بالأمال حتى طالت مدة النقاهة التي بقي فيها ذلك المرض فاشتد عوده ورأبت
الأمال ذلك الصدع في نفسه وبانت أمام عينيه آمال الحياة وضاحة مشرقة الا أنه آلى ألا
يعود لقومه فاتجه شمالاً لا يكاد يستقر بمكان حتى يلقي عصا ترحاله في آخر إلى أن ساقته
الأقدار إلى جهات الجزيرة عبر نهر الفرات ورافده نهر البليخ لدى الشيخ (تيمور باش)
أحد رؤساء عشائر الأكراد وجد الشيخ إبراهيم رئيس عشائر (المليّة) الذي كان يقطن
مع عشيرته في تلك البوادي وهذه العشيرة قد أجلاها الأتراك الحاكمون في تلك الأوقات عن
موطنها الأصلي إلى هذه الربوع .

كتم أمير عبدالله الفاضل شخصيته وأخفى وجهه بغطاء رأسه حتى لا يعرفه أحد وعمل
لدى الشيخ المذكور (يقدم القهوة للقوم) في سرايع الضيافة وهو يحاول أن يعتمد على أي
إنسان آخر وألا يتصل بأحد ، وبقي مدة من الزمن على هذه الحالة وحيداً فريداً معتزلاً
عن الناس ، محاولاً أن ينسى شخصيته وقومه وهياته له ذلك . . . !

كان يحكم عمله في نادي القوم يسمع أخبار العشائر ويصل إلى سمعه أنبأؤها من
الوفود القادمة من الشمال والجنوب ، ومن بوادي الفرات والشام حتى وصله قادم من
بادية حمص وحماء فحدثه عن أخبار قومه ، وما سمعه دون أن يحاول الأمير أن يعرف
محدثه بشخصيته ، إلى أن سأله عن عشيرته فأجابه ان عشيرة « الحسنة » بعد غياب الأمير
الفاضل أو بعد موته وهو المعتقد السائد بمدرضه قد ضمفت منزلتها بين القوم ، ولم يعد
يسمع برجل آخر يماثل الأمير في شجاعته وكرم منزلته ، وكان محدثه لا يعلم أنه يحدث الأمير

نفسه ، وقد حرك هذا الحديث أشجان الأمير الدفينة في نفسه فانطوى عليها وتألم وزفر
زفرة حرى من صميم قلبه وأنشد :

هلي لب الجواهر لو لعنا ويحق لنا عليهم لو لعنا
مريت بحي أهلنا ما عينه الزعيم وبه لقوة للجنا

فيقول ان أهله كفرند السيف اذا تلا لأبريقه ولعمانه ولهذا حري بنا أن نذكرهم
ونبكي عليهم ، وعندما مرت بحي الأهل والأحبة لم أجد الزعيم القائد الذي يلاقي الأعداء
ويردهم . وكان الأمير يعني نفسه بذلك ويتكلم بلسان محدثه بل قرن بين فخره بقومه
وبين فقدانه وخلو عشيرته منه .

وفي ليلة من الليالي تبارى فيها الشعراء بمربع الشيخ تيمور باش بأبيات العتابا
وانغامها المنبثقة من وصف الأفراد بالشجاعة أو الكرم أو التي تحت على نهج المروءات
والبطولات واتخاذ المواقف المثلى المعبرة عن النخوة والحمية والشهامة ، والتفاخر بالأهل
والعشيرة والتباهي بمآثر القوم ومناقبهم ، ويظهر أن الأمير قد أزجه مضيفه ببعض
الكلمات النابية مما حرك أشجان نفسه ، وأثار المروءة والنخوة في كيانه ، فرنا بعصره البعيد
الى ماضي قومه وعزته ، وعجب من الظروف وأحداث الزمان التي جعلته أشبه بالخادم بين
ظهراني هؤلاء القوم الذين لا يشبهون قومه في عاداتهم وكرمهم وشجاعتهم واضطجع الأمير
متربحاً من الهم ، والألم والأسى يمصران نفسه ، ولكنه لم يستطع أن يتذوق طعم النوم
بعد انصراف الناس من ندوة الشيخ ، فما كان منه الا أن صار يتفنى ألماً وحرناً كالطائر
الذبيح قائلاً هذه الأبيات :

١ - هلي ما لبسوا خادم سمالهم وبقلوب العدا بايت سمالهم
الناس النجم واحنا سمالهم كواكب وأسهرن ليل الدجى
٢ - هلي للشاذري طاحون يسحون دواهيك لعظم الضد يسحون
هلي ما قدموا مايدات بصحون خنادقهم تحفرت من عشا
٣ - هلي لو شح قوت الناس عدنا كرام واليتيم يعيش عدنا
بعد ما كنا ذر وللناس عدنا نكدرى بالذي ما له ذرا

يقول في البيت الأول : ان قومه لم يلبسوا الخدم ثيابهم وأسماهم البالية وهم
سما تملو غيرها من الأقوام الأخرى التي هي كالنجوم المتجولة بالنسبة للسما الثابتة .

ويقول في البيت الثاني : ان أهله يختزنون القهوة كأنها القمح الذي تطلعنه الطواحين
وهم أبطال يسحقون خصومهم ولا يقدمسون الطعام للضيوف بالصحون والأواني .

ويقول في البيت الثالث : ان الناس اذا أصيبوا بالقحط والجذب فقومه يعيدون لهم
ما شحت عليهم الطبيعة به وانه أصبح لاجلدى أناس ليس لهم دالة على غيرهم .

ثلاثة أشياء رمى الأمير بها مضيفه الشيخ تيمور باش وقومه وقد استهجنها وكأنه يعيرهم بها وهي :

١ - أن هؤلاء الناس يلبسون الخدم ثيابهم البالية وقومه لا يفعلون ذلك وربما كان قد عرض عليه باعتباره يصب القهوة لديهم أن يلبس بعض أسمال أولئك القوم ، بل ربما كانت هي سبب نقمته وإشارة نفسه وهم لا يعرفونه .

٢ - وثانيها أنهم يقدمون الطعام للضيوف في صحن وقومه لا يفعلون ذلك بل يقدمونه في مناسف وصواني كبيرة وهي عادة لا يجهلها من يعرف طباع العرب وعاداتهم .

٣ - وثالثها وهو عجه من هذا الزمن الذي رماه بين هؤلاء القوم الذين يراهم أشبه بالنازحين الذين أجلوا عن ديارهم .

انتبه المضيف الشيخ تمورباش بدقة الى ما ترمي اليه هذه الأبيات رغم عدم اجادته للغة العربية الشعبية وفهمه بدقة معانيها ، وقد دله ذكاؤه على مدلولها ومغزاها ، فشار في وجه الأمير يسائله : من أنت ؟ ومن هم قومك الذين افتخرت بهم هكذا ؟ وما زال يحاوره ويجادله حتى قال له دون أن يفصح له عن شخصيته انه من عشيرة « الحسنة » العربية القاطنة في بادية تدمر وحمص وحماة وانما قاله عن عاداتهم وكرمهم وشجاعتهم صحيح .

فما كان من الشيخ المضيف الا أن أجابه مستحق من صحة ما قلته عن قومك ا

ويقول الرواة انه أرسل أربعين رجلاً تحملهم النوق السريمة وأوصاهم بزيارة عشيرة الحسنة صباح مساء للوقوف على عاداتهم فكان أن تأكد هؤلاء الرسل صحة ما ذكره الأمير عن قومه من الشجاعة والكرم وأروهم يقدمون الطعام بمناسف ضخمة للضيوف ويتركون زاداً وفيراً للطارقين اذا ارتحلوا وجأؤهم ليلاً يريدون القرى . فكان كرم هؤلاء القوم قد عناهم الشاعر العربي بقوله :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسالون عن السواد المقبل

وعندما عاد الرسل وأخبروا الشيخ بما شاهدوه عن قوم الأمير ، انفرجت أسارير وجهه واغتبط من صحة ما ذكره هذا الشخص الذي يصب القهوة في نأديه وأنه لم يرسل قوله جزافاً ، وأن للشيخ أن يعرف هويته ما دام قد تنفى بالمكانم وافتخر بالمآثر وأخيراً عرفه وأنه عميد عشيرة « الحسنة » دون منازع ، فاسف الشيخ لأن مثل هذا الأمير الذي جار عليه الزمان صار عنده على هذه الشاكلة ، فقام وعانقه واعتذر له وأسف لحاله وأغدق عليه الهدايا والنعم من الابل والضأن والغنم والكسوة الفاخرة والمال ويقال انه عرض عليه أن يزوجه إحدى بناته فاعتذر الأمير بلطف متمللاً بسوء صحته ونحول جسمه .

ارتحل الأمير مع قافلته راجعاً الى باديته بعد غياب طويل عنها وعن عشيرته يربو على أربع سنوات وقد تعددت الروايات في كيفية صلحه مع قومه وعودته اليهم بعد أن ظنوا أنه في عداد الأموات ولكن الرواية الشائنة التي رواها الكثيرون أنه خيم بجوار قومه

بصفة شاعر أو زائر متجول وأخذ يتسقط عن كتب أخبار القوم وأخبار أسرته فعلم أن والده قد كف بصره وأن زوجته « ثريا » ما زالت في المنزل وأن عمادة المشيرة قد اغتصبها بعض أقاربه منه وأهان أهله والحق بهم الذل فما كان منه إلا أن جاء متخفياً إلى الخيمة التي يقيم بها والده فرأى فيها زوجها والده كما رأى فيها سيفه وزبافته معلقين وفي المساء جاءت غنمه من المرعى فأخذ يعض النعاج وذبحها ودفنها لغيره ليسلخ جلدها ويقدمها قرى - كمادته حينذاك - قبل النكبة، وخامر الشك زوجته بشخصيته ولا سيما وقد أخذ يصنع القهوة ويجعل للمهباج المدني دقات خاصة مشجية لا يعيدها غيره ، فاستمالت الدقات الناس الذين اجتمعوا حول الخيمة من كل مكان ، ويقال إن الزوجة استمانت بشاعر حرك شجونه حينما أنشد بعض الأبيات له ولا سيما البيت المذكور في زوجته « ليلي » التي رثاها على فراش الموت وبكى حينذاك وهي قصة الخادم التي رواها للأسرة وكانت هذه أكبر بينة أكدت شخصيته وأبانتها بوضوح .

سر الأب والزوجة من ذلك اللقاء - غير المنتظر - ويقال إنه تقلد سيفه واستدل على شخصية من اغتصب الزعامة منه وأهان أسرته فقتله وعندما شاع بين القوم عودة الأمير أعيدت ناقته « البويضة » التي اختفت باختفائه كما أعيدت إليه بعض النعم التي اغتصبت من أسرته وتوافد الناس عليه من كل حدب وصوب مهنئين معلنين ولاءهم لزعامتة وعودتهم إلى عمارته .

عاد الأمير بعد ذلك إلى صحرائه بنفس متألّة تتأمل أحداث الزمان وأرزاءه الأليمة وبقي في بيده يشم رائحة الفبار المنبعث من وقع أخفاف الابل وحوافر الخيل في الصحراء ويرى بجانبه زوجه « ثريا » الوفية التي حافظت على وده وعهده ، فتثور في نفسه نوازع العربي الشجاع بين البادية وغبارها وبجواره المرأة التي لا غنى له عنها ، يرى في هذا المنظر أريجاً وعنبراً أفضل من غبار المدن في حمص وحمّة اللتين يدعوها بالقري الموحمة أي (الفاسدة الهواء) حيث يقول :

هلا بشيري والدنيا مسكبة غسل ياريق (أبو كذله) مسكبه
عجاج الفلن عنبر والمسك به أخير من القرايا الموحمة

فيرجب بزوجه « ثريا » والسماء ممطرة ويرى أن ريقها كالملسل (وأبو كذله) كناية عن المرأة في البادية وكأنه الشاعر الفارسي الجاهلي عمرو بن معد يكرب الزبيدي حين نظر إلى زوجه مقبلة بين الظمائن فيقول :

وبسدت ليس كأنها بسدر السماء إذا تبدى

وبقي الأمير بصحرائه يفاخر بقومه ويمدد صفاتهم التي من أبرزها الشجاعة والكرم فيقول :

هلي عوج المناسف مندل لهم ودرب الكرم سابق من دليلهم
كروم الناس تشرب من دلالهم هلي بالكون عيين الطلاب

أي أن مناسف الكرم الفخمة تدل على قومه وعادة الكرم ثابتة لهم من أصلهم
ومعدنهم كما أن فرسان القوم تزور نواديهم وتشرب قهوتهم وهم الشجمان في معارك
العروب .

ويقول أيضاً :

هلي يا هل المحمس والبريق وقهوة غيرهم حنظل برقي
هلي يا هل الزواصق والبريق سباع الغاب لو صاحوا ضحى

أي : إن أهله أهل القهوة والابريق ولوازمها وهو لا يتذوق طمأ لها عند غيرهم وهم
يشبهون الصواصق والبرق وهم أسود إذا حملوا على العدو في الضحى .

وهكذا عاد الأمير الى عزه وابتمس له الدهر بعد أن عبس وأذاقه المصائب والنكبات
الكبيرة فبقي كالطود في صحرائه يتحدى مصائب الزمان بعد أن صبر على بلوائه ومحنته
ورأى في نفسه أن المصائب قد صهرته وصفت معدنه العربي الأصيل فيقول :

يفاضل ما تشيلك كل عنداي وليث ينطح الطابور عنداي
يلولا المعدنين تصير عنداي هنا هن وأمر بعمر السدى

أي يخاطب نفسه ويقول انه قوي شديد لا تستطيع أية ناقة أن تحمله وهو أسد
يلاقي كتيبة من الجيش وحده ولو أن الفضة والذهب امتلكهما لكرم بهما وأنفقهما والحق
بهما حمر النعم وكرام النوق وعتاق الخيل .

وهكذا تبدو شخصية الأمير مثالا للرجولة العربية في الصحراء والكرم والصبر على
أرزاء الزمن وقد تغنى بمآثر قومه ولم يحقد عليهم رغم عتبه الشديد على ما صنعوه به
فشموره شعور الصابر الشجاع الكريم المتألم الذي كان يفالب الزمان والزمان يغلبه
ويصارع الأحداث والأحداث تصرعه . وهكذا كان شأن العربي الأصيل في صحرائه الذي
لا تلين قناته لمصائب الزمن وأحداثه .

أما شعره الشعبي كما هو واضح من أبيات العتابا المذكورة له فيتصف بطابع القوة
والجزالة وشدة الماطفة والصدق ، وقد تغنى بقومه كثيراً وهو أول من استعمل كلمة
/ هلي / في الفخر وقد أخذ عليه البعض اكثاره من التحدث بمآثرهم ومناقبهم وصفاتهم
الا أنهم لم ينكروا عليه الصدق فيما ادعاه ، والواقع أن صفات قومه التي تغنى بها هي
صفاته ، فكانه كان يرى نفسه في قومه ويحاول أن يظهر رجولته وشجاعته في طابع عشيري
قبلي أصيل .

وبما أن شعره جزل قوي فقد حاول غيره تقليده ولكنهم لم يفلحوا ويميز نقاد
هذا الأدب الشعبي بين الشعر الأصيل الجزل وبين التقليد المبذل بكل سهولة وبساطة
ولم يخل شعره من التكرار واعادة الألفاظ .

وله أبيات أخرى عديدة من العتابا غيرمذكورة في هذه القصة ولكنها في جوهرها ومدلولها لا تخرج عن معاني الأبيات المتقدمة وشعره له أثر بارز في العتابا والأدب الشعبي ويمد الأمير من روادها المشهورين بل هو رب السيف والربابة أو الشعر أو القلم إذا صح التعبير ، وما أشبهه بشعر أبي فراس الحمداني حين يقول :

انا اذا اشد الزمان وناب خطب وادلهم
الفيت حول ييوتنا عده الشجاعة والكرم
للقا العدا ييضم السيوف وللندي حمر النعم
هذا وهذا دأبنا يسودي دم ويسراق دم

وتاريخه تاريخ البادية والقفار وشعره شعر البداوة والصحراء والرجولة المربية والصبر على أرزاء الزمان ومصائبه وربما كانت سيرته أحياء لما أهمله تاريخ البادية من رجالها وفرسانها المشهورين الذين أعجب بهم الكثيرون وتناقل أخبارهم الرواة وما زالوا يذكرونهم في كل مناسبة ويشيدون بذكورهم وآثارهم .

محمد صالح بربندي



مركز تحقيقات کاتبی و علوم اسلامی



طرفه بن العبد البكري الشاعر القليل

درية الخطيب ولطفي الصقال

« وأما أجهام للرجال ، وأبذهم في
المقال ، وأضربهم للأمثال فطرفه »
« البيهقي »

نسبه ولقبه :

طرفه بن العبد البكري، شاعر فعل (١) من فحول شعراء الجاهلية ، ومن أصحاب المملكات
ينتهي نسبه الى عدنان (٢) ، الجد الأكبر للعرب .
اسمه عمرو ، وطرفة لقب له ، يقول الفيروز آبادي : « والطرفاء شجر وهي أربعة
اصناف منها الأثل ، الواحدة طرفاء ، وطرفة محركة ، وبها لقب طرفه بن العبد . . أو
لقب بقوله :

لا تنعجلا بالبكاء اليوم مطررفا ولا اميركنما بالدار اذ وقفا (٣)

وأورد أبو تمام لقبه : « طرفة » - بتسكين الراء - في بيته الذي يقول فيه :

أذكرتينا المتلك المضلل في الهوى والأعشى وطرفة وتبيدا

وتبعه البحتري فقال :

وكذلك طرفة حين أوجس ضربة في الرأس هان عليه قطع الأكحل (٤)

ويكنى بأبي عمرو (٥) ، وأبي اسحاق (٦) ، وأبي فضلة (٧) ، وأبي سمد (٨) ، وأمه وردة
بنت قتادة بن مشنوم ، وأخوه معبد وخالد (٩) ، وأختاه الخرنق بنت هفان ، أخته لأمه
أو لأبيه ، وهي شاعرة ، وكبيشة (١٠) ، وخاله المتلمس ، وعمه المرقش الأصفر وهم أبيه
المرقش الأكبر ، وابن عمه عمرو بن قمينة ، وهؤلاء الأربعة شعراء ، وخالته فكهة بنت
قتادة (١١) .

كان طرفة آدم ، أزرق ، أوقص ، أفرع ، أكشف ، أزور الصدر ، متاثل الخلق ، ويقال انه أخرج لسانه ، فاذا هو أسود ، كأنه لسان ظبي (١٢) .

نشأ بين قومه في البحرين ، معترضا بهم ، وبشرفهم ، أبياً ، معتدا بنفسه ، في حسب من عشيرته ، ولذلك كان جريئاً على الهجاء والنقد ، هجا صهره زوج أخته الخرنق - عبد عمرو بن بشر (١٣) ، وهجا عمرو بن هند وأخاه قابوس (١٤) .

مات أبوه ، وتركه طفلاً ، فما لبث أن شعر بالتم ، ولا سيما حين جار أعمامه على أمه ورده ، وحرموها حقاً لها ، فثار على الظلم ، وأوعدهم بشر كثير (١٥) .

وما كاد يشب من الطوق حتى انصرف الى البطالة والدعة ، وأسرف في اللهو والمجون ، وقد سئل : ما أطيب الميش : فقال : مطعم شهية ، وملبس زهي ، ومركب وطي (١٦) .

من أجل هذه المبادئ ، وسلوكه اللاهي غير المبالي ، ضاق قومه به ، وعدلوه كثيراً ، فضاقت بمتابهم (١٧) ورحل يطلب الحرية . ظل مدة يتنقل ، فذهب الى قتادة بن سلمة الحنفي ومدحه (١٨) ، وأطرد الى النجاشي (١٩) .

ولما اشتدت به سورة الحنين ، هاد الى موطنه ، فرعى ابل أخيه معبد ، ولكن نفسه الطموح ، دفعته ثانية - وقد رافق خاله المتلمس - الى بلاط عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، وكان هذا الاتصال سبباً في مقتل الشاعر ، وهو في الخامسة أو السادسة والعشرين .

مقتله :

أربعة أسباب ترويهما الكتب لمقتل طرفة :

١ - هجاؤه لعمرو بن هند بسبب ما كان يلقى من العناء في منادته ، أو مناداة أخيه قابوس ، ووشاية عبد عمرو بن بشر للملك (٢٠) .

٢ - اعتداد طرفة بنفسه في مجلس عمرو بن هند ، فقد جاء مرة الى مجلسه ، وهو يتغلىج في مشيته ، فنظر اليه عمرو بن هند ، وكان شديد الهيبة ، لا يبتسم ولا يضحك ، نظرة كادت تقتله من مكانه ، فقال له خاله المتلمس ، بعدئذ : يا طرفة اني أخاف عليك من نظرتي اليك مع ما قلت لأخيه (٢١) .

٣ - كان طرفة ينادم عمرو بن هند ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها في الجام الذي في يده ، فتغزل بها ، فحقد عليه (٢٢) .

٤ - كان طرفة صديقاً لعمرو بن أمامة ، أخي الملك عمرو بن هند لأبيه ، وكان قد وقع الخلاف بينهما لاستثارة وأخوته بالملك بعد أبيهم (٢٣) ، فماقب الملك طرفة بأن أخذ ابله ، فهجاه .

اجتمعت هذه الحوادث ، وانضم بعضها الى بعض لتؤلف قصة مقتله ونجاة خاله

المتلمس (٢٤) اذ قدم طرفة على والي البحرين، ومعه الكتاب الذي أمره فيه الملك بقتل طرفة، فنصحته الوالي، وكان قريباً له، بالهرب، فأبت على طرفة حزة نفسه أن يهرب، واضطر الوالي إلى التنازل عن ولايته، فأرسل طرفة وهو في الحبس في اليوم الأول شعرا إلى أخويه خالد ومعبد (٢٥)، وفي اليوم الثاني إلى خاله المتلمس (٢٦)، ولكن لات حين مناص، اذ نفذ القتل فيه وال آخر، ولاء الملك (٢٧) بقصد أكحله. وقبره بهجر بأرض منها لبني قيس ابن ثعلبة (٢٨)، فرثته أخته الخرنق (٢٩)، كما رثاه خاله المتلمس (٣٠)، وحرص قوم طرفة على الملك عمرو بن هند، فتنصل عمرو من قتله، وزعم أنه لم يأمر بذلك، فأخذت ديتة من الوالي، ودفعت إلى معبد أخيه (٣١)، أو إلى أبيه وقومه (٣٢).

واختلف في تحديد عام وفاته، فهو عند زيدان ٥٥٠ م، وعند كودوبر سيفال ٥٦٣ م أو ٥٦٤ م، وفي الروائع ٥٦٩ م، وعند الخفاجي ٥٦٥ م والرافعي ٥٥٢ - ٥٦٤ م وحمد الله ٥٥٥ - ٥٥٨ مسموته إذا كان حوالي منتصف القرن السادس.

بدم شعره

يقول الرواة: ان طرفة خرج مع حبه في سفر، وهو ابن سبع سنين إلى مكان اسمه «ممر»، فنصب فخاً للقناير، وظل عامة يومه لم يصد شيئاً فلما أراد الرحيل، رأى القناير تلتقط الحب الذي نشره فقال، وهو أول شعره:

يا لك من قبرة بمعمر (٣٣)

وهذه الأبيات تنسب إلى كليب بن ربيعة (٣٤). كما أن من أوائل شعره قوله:

ما تنظرون بحق ودة فيكم صفر البنون، ورهط ودة هنيئ (٣٥)

ويروى أنه سمع خاله المتلمس يقول: وطرفة طفل بدم -:

وقد أتناسى الهم بعد احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

والصيعرية سمة للنوق لا للفحول، فجعلها للفحل. فقال طرفة: «استنوق الجمل»، فضحك الناس وسارت مثلاً (للرجل الواهن الرأي، المخلط في كلامه)، وأتاه المتلمس، فقال له: أخرج لسانك، فأخرجه، فقال: ويل لهذا من هذا، يريد: ويل لرأسه من لسانه (٣٦) وكان كما تنبأ، ويقال: ان ذلك كان مع عمرو بن كلثوم (٣٧)، مع المسيب بن علس (٣٨).

وجاء في الشعر والشعراء (٣٩) ان البيتين التاليين من أوائل شعره:

كل خليل كنت خالته لا ترك الله له واضحه
كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحه (٤٠)

والأولى أن يكونا من أواخر ما قاله من الشعر (٤١).

ولا غرابة في ذلك، فقد نشأ في بيئة نبغ فيها عدد من الشعراء - كما أسلفنا -، وكان أبوه فيما يروون، شاعراً (٤٢) أيضاً.

منزله واقتوال النقاد :

قال ابن قتيبة : طرفه أجودهم طويلة ، وهو القائل :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد (٤٣)

وله بعدها شعر حسن ، وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد الا القليل (٤٤) .
وهو من الشعراء المقلين ، ومع ذلك فان شعره موثّل أصحاب اللغة في الاستشهاد به .
وقال صاحب جمهرة الأشعار : « قال الذين قدموا طرفه بن العبد : هو أشعرهم ، اذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم في طول أعمارهم . . . فخب معهم وركض » (٤٥) . وقال عند الكلام عن أصحاب السموط : « قال أبو عبيدة وهم : امرؤ القيس وزهير والنايف . . . وطرفة » (٤٦) .

وقال الجمني عند الكلام على الطبقة الرابعة : « وهم أربعة رهط فعول الشعراء ، موضعهم مع الأوائل ، وانما أحل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة : طرفه بن العبد . . . فاما طرفه فأشعر الناس واحدة ، وهي قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد (٤٧)

ويليها أخرى مثلها :

أصحت اليوم أم شافتك هير ومن الحب جنون مستعر (٤٨)

ومن بعد ، له قصائد حسان جيا (٤٩) . ذلك أن ابن سلام ، كان يعتمد في تصنيفه وأحكامه على عنصرين هما : الكثرة والجودة (٥٠) .

وقال الأصمعي عن طرفه : « وانما يعدن أصحاب الواحدة » (٥١) .
وقال أبو عبيدة : « طرفه أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور » (٥٢) .

وقال أيضاً : « مر ليبد بمجلس لنهد (٥٣) بالكوفة ، فسألوه : من أشعر العرب ؟ فقال : الملك الضليل . . فقالوا : ثم من ؟ فقال : ابن العشرين يعني طرفه . . فقالوا : ثم من ؟ فقال صاحب المحجن ، يعني نفسه (٥٤) » .

وسئل حسان : « من أشعر الناس فقال : قبيلة أم قصيدة ؟ قيل : كلاهما فقال : أما أشعرهم قبيلة فهذيل ، وأما أشعرهم قصيدة فطرفة » (٥٥) .

وسئل جرير : « من أشعر الناس ؟ قال : ابن العشرين » (٥٦) .

« وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء في الجاهلية ، وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر الجاهلية امرؤ القيس ، وأضر بهم مثلاً طرفه » (٥٧)

وقال الجاحظ : « وما قرأت في الشعر كشعر عبد يغوث بن سلامة الحارثي ، وطرفة بن العبد ، وهذبة (٥٨) فان شعرهم في الخوف لا يتصر عن شعرهم في الأمن ، وهذا قليل جداً » (٥٩) .

وقال أيضاً : « والذين هجوا ، فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنحسروهم ، وسكت عنهم بعض من هجاهم ، مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم : اسلاميون ٠٠٠ وفي الجاهلية : زهير وطرفة والأعشى ، والناطقة ، هذا قول أبي عبيدة » (٦٠)

وقال كذلك : « ومن الشعراء من يحكم القريض ، ولا يحسن من الرجز شيئاً ٠٠٠ وأما من يجمعهما فامرؤ القيس ، وله شيء من الرجز ، وطرفة كمثل ذلك ٠٠ » (٦١)

وقال تميم بن مقبل : « طرفة أشعر الناس » (٦٢)

وقال أبو العلام المعري مخاطباً طرفة : ولو لم يكن لك أثر في العاجلة الا قصيدتك التي على الدال لكنت أبقيت أشرا حسنا » (٦٣)

وقال ابن شرف القيرواني : « وأما طرفة فلو طال عمره ل طال شعره ، وعظم في الشعر ذكره ، ولقد خص بأوفر نصيب من الشعر على أنثر نصيب من العمر ، فملاً أرجاء ذلك النصيب بصنوف من الحكمة وأوصاف من علو الهمة ، والطبع معلم حاذق ، والذكاء جواد سابق » (٦٤)

وقال صاحب الممدة : « فمن المقلين في الشعر : طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص . وطرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء ، وهي المعلقة ٠٠٠ وله سواها يسير لأنه قتل صغيراً » (٦٥)

وقال أيضاً : « ويروى عن أبي عبيدة أنه قال : اتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة ٠٠٠ وأما أصحاب الواحدة فطرفة أولهم عند الجمهور ، وهو الحكم الصواب » (٦٦)

وقال الهمداني : « طرفة ٠٠ أقصر فحول الجاهلية عمراً ، وأجودهم طويلاً ، وأوصفهم للناقة . وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً وصفاً لم يسبقه إليه أحد ، وتعد معلقته من أجود المملكات » (٦٧)

وقال البيهقي : « وأما إهجاهم للرجال ، وأهذهم في القتال . وأضر بهم للامثال فطرفة » (٦٨) وفي مفتاح السعادة قال : « وأما الشعراء القدماء ، فأشهرهم عشرة ، نذكر أسماءهم ها هنا : منهم ٠٠٠ ومنهم طرفة بن العبد ٠٠ فضله بعض الشعراء على غيره » (٦٩)

شعره :

يقول صاحب الروائع : (٧٠) ان للشعر الجاهلي اجمالاً ، فوق ما فيه من روعة القدم وطبيعة الوصف ، وجمال السبك ، قيمة تاريخية لا يستهان بها ، فهو صور دقيقة لذاك العصر تتجلى فيها مظاهر عمارته ، وهو وثائق ثمينة يستند اليها المؤرخون . وان لمعلقة طرفة ، خاصة ، السهم الأوفر من ذلك .

ويقول الخفاجي (٧١) : « أسلوب طرفة قوي ، جزل متين ، يمتاز بالمتانة وأسر اللفظة وفخامة الأسلوب ، وقوة الثقافية مع سهولتها ، ومعانيه تتصل بنفسه وحياته وقبيلته ،

وبالصحرَاء والبادية التي عاش فيها ، وبتاريخ قومه وأحسابهم ، وبالحياة العربية عامة اتصالاً وثيقاً . وخياله خيال يقظ مشبوب حاد يخلق قريباً من الحياة والواقع » .

ويقول طه حسين (٧٢) « معلقة طرفة تبدو فيها شخصية قوية ، ومذهب في الحياة واضح ، وهذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل » .

وقال ابن قتيبة : (٧٣) وما سبق إليه طرفة ، فأخذ منه ، قوله يذكر السفينة :

يشق حَبَابُ المَاءِ هِيزومَهَا بها ، كما قَسَمَ التَّحَرُّبُ المَفَايِلُ باليَدِ (٧٤)
أخذه لبيد فقال :

تشقُ خَمَائِلُ الدَّهْنِأ يَدَاهُ كما لعب المَقَامِرُ بالْفِيَالِ (٧٥)
وأخذه الطُّرْمَاحُ فقال :

وغدا تشقُ يَدَاهُ أوساطَ الرِّبَا قَسَمَ الْفِيَالُ تشقُ أوساطَه اليَدِ (٧٦)
ومن ذلك قوله :

ومكان زَعَلٍ ظِلْمَانِسُهُ كالْمَغَاضِ الجُرْبِ في اليَوْمِ الغَدْرِ
قَد تَبَطَّنَتْ وتَحْتِي سُرْحُ تَتَقِي الأَرْضُ بَمَلْثُومٍ مَعِرِ (٧٧)
أخذه عدي بن زيد وليد . فقال عدي :

ومكان زَعَلٍ ظِلْمَانِسُهُ كَرَجَالِ الحُبَشِ تَمْشِي بالْعَمْدِ
قَد تَبَطَّنَتْ وتَحْتِي جَسْرَةً غَيْرَ أَسْفَارٍ كَمَغْرَاقٍ وَحْدِ (٧٨)
وقال لبيد :

ومكان زَعَلٍ ظِلْمَانِسُهُ كَحَزِيْقِ الجَبَشِيِّينَ الزَّجَلِ (٧٩)
قَد تَبَطَّنَتْ وتَحْتِي جَسْرَةً حَرَجٌ في مَرْفَاقِيهَا كَالْفَتْلِ
ومن ذلك قوله : (٨٠)

فلولا ثلاثُ هنَ من عيشة الفتى فمنهنَّ سبقي العاذلاتُ بِشْرَبَةٍ
وكرِّي إذا نادى المضافُ معْتَباً وكسيدُ الفضي ، نِبْهَتُهُ ، المتوردُ
وتقصير يومِ الدجنِ والدجنُ معجِبٌ بيهكتة تحت الغمامِ المَعْمَدِ
أخذه عبدالله بن نهيك بن اساف الأنصاري ، فقال :

فلولا ثلاثُ هنَ من عيشة الفتى فمنهنَّ سبقي العاذلاتُ بِشْرَبَةٍ
ومنهنَّ تجريدُ الكواهبِ كالدُّمَى إذا ابتزغن أكفالهنَّ المَلَابِسُ
ومنهنَّ تقريطُ الجوادِ هِنَانُهُ إذا استبقَ الشَّخْصُ الغُفَى الفُؤَارِسُ

ومن ذلك قوله :

فطورا به خلف الزميل وتارة على حشيف كالشن ذاور مجد (٨١)

أخذه الشماخ فقال :

تلط به العاذين طورا وتارة له خلف أثواب الرديف بروق (٨٢)

ويمقد محقق ديوان الراعي النميري مقارنة بينه وبين الراعي فيقول : كذلك نرى بين الراعي وطرفة شبيها قويا .

١ - فكلاهما نشأ بالبادية .

٢ - وكلاهما شاعر الابل ، واشتهر بذلك في عصره .

٣ - وكانت في كليهما أنفة وعزة ، أغضبت عمرو بن هند كما أغضبت عبد الملك من الراعي فلما غضب طرفة من عمرو بن هند قال :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئا حول قبتنا تخور (٨٣)

ولما غضب الراعي من عبد الملك قال :

فلئن سلمت لأدعون بطعنة تدع الفرائص بالشريف فليلا

٤ - وكلاهما يفرج همه بناقته ، استمع الى طرفة يقول :

واني لامضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتفتدي (٨٤)

والى الراعي يقول :

أخليد ان أباك ضافي وساده همان باتا جنبية ودخيلا

طرقا فتلک همائم اقریهما قللصا كواقح ، كالقسي وحولا (٨٥)

ثم أخذ يصف كل منهما ناقته وصفادقيقا محكما ينبىء عن كرمها ونجايتها وسرعتها . لا عجب اذا أن يكون طرفة أستاذًا للراعي ، وبخاصة في وصف الناقة حتى عرف كل منهما بذلك (٨٦) .

وفضل النقاد العرب طرفة على سائر الشعراء بأجادته وصف الناقة في معلقته على نعولم يسبق اليه (٨٧) ، فقد وصفها وصفًا شمرى (٨٨) يومك لأول وهلة أنه يصف هيبته ، ويمضي في وصفه الدقيق لكل عضو من أعضائها حتى ذيلها وقلبها (٨٩) ، لكنه قصر في صفة الخيل (٩٠) .

وهو أول من ذم سرقة الأشعار فقال :

ولا أغير على الأشعار أسرقها ، عنها غنيت ، وشر الناس من سرقا (٩١)

وأول من طرد الخيال فقال :

فقل لخيال العنقلية ينقلب اليها ، فاني واصل جبل من وصل (٩٢)

وقال [بعده] جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام (٩٣)
وسا سبق اليه قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود (٩٤)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أنشد هذا البيت : « هو من كلام النبوة » (٩٥)
وكان « اذا استراث الخبر يتمثل بعمز هذا البيت » (٩٦) ، وكان ابن عباس يقول : « انه كلام نبي يجمع الحكمة والمثل » .

ويقال ان أمير شمره (٩٧) قوله :

قد يبعث الأمر الكبير صغيره حتى تغفل له الدماء تصيب (٩٨)
ومن أبياته المستجادة :

أرى قبر نعام بخيل بماله أرى قبر غوي في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينغد
لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى كالتطول المرخي وثنياء باليد (٩٩)

ويتمثل من شمره بقوله :

وترد عنك مخيلة الرجل المريض موضحة عن العظم
بحسام سيفك أو لسانك والكلم الاصيل كآرغب الكلم (١٠٠)

وبقوله :

لنا يوم وللكروان يوم تطير البائسات ولا يطير (١٠١)

وقوله :

ولا غرو الا جارتني وسؤالها الا هل لنا اهل ؟ سئلت كذلك (١٠٢)

وقوله :

واعلم علما ليس بالظن انه اذا ذل مولى المرء فهو ذليل (١٠٣)

وقوله :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنائيك، بعض الشر أهون من بعض (١٠٤)

ومن قوله يفخر :

نحن في المشتاة ندمو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر (١٠٥)

هذا ولو أردنا سرد ما احتير له لطال بنا المقام وللانا الصفحات .

وهكذا كانت حياة طرفة ، على قصرها ، غنية تنبئ عن شخصيته ونفسيته بوضوح ،
وصدق ، وأخلاص .

الحواشي :

- ١٧- المعلقة ١ .
- ١٨ - القصيدة ٢ .
- ١٩- القصيدة ٦ .
- ٢٠- القصيدة ٩ .
- ٢١- ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١١٥ - ١١٦ .
- ٢٢- الشعر والشعراء ١٨٨/١ . وجمهرة أشعار العرب ١٠٣/١ ، والقصيدة ٩٩ .
- ٢٣- ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال ١١٧ .
- ٢٤- لصحيفة التلمس مثال في تاريخ قداماء اليونان راجع بلوغ الأرب ٣٧٥/٣ .
- ٢٥- القصيدة ١٠٠ .
- ٢٦- القصيدة ٥٧ .
- ٢٧- راجع قصة مقتله في ذيل القصيدة ٩ من الديوان ، وابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١١٥
- الشعر والشعراء ١٧٩/١
- الغافر ٧٤
- جمهرة أشعار العرب ٩٥/١
- الميداني في مجمع الأمثال (صحيفة التلمس) الأثاني ٥٤٠/٣
- أسماء الفتائل من سلسلة نوادر المخطوطات ٧١٢
- خزانة الأدب ٤١٤/١
- معاهد التنصيص ٣١٢/٢
- حياة الحيوان ٢٤٠/٢
- أعالي المرتضى ١٨٣/١
- نهاية الأرب ١٣/٣
- عقلاء المجانين ٣٣
- شرح الميون ٣٩٧
- الفتح الوهبي ٢٢٨/١
- سقط اللالي ٣٠١/١
- دوغسة الأدب ١٨٦
- زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ١٢٦/١
- شرح شواهد المغني ٢٩٤/١
- جواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٤٢/٣
- وفرها كثير .
- ٢٨- ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال ١٢٨ .
- ٢٩- راجع ذيل القصيدة ٩ من الديوان .
- ٣٠- جمهرة أشعار العرب ١٠٤/١ .
- ٣١- المصدر نفسه .
- ٣٢- ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١٢٨ .
- وجمهرة أشعار العرب ١٩٩/١ .
- ٣٣- المظوفة ٤٩ .
- ٣٤- الغافر ص ١٨٠ وخزانة الأدب ٤١٧/١ والفخر تحريجهما في الديوان .
- ٣٥- المظوفة ١١ .
- ٣٦- الشعر والشعراء ١٨٣/١ .
- ٣٧- جمهرة أشعار العرب ٩٢-٩١/١ .

ذكر الجاحظ في البيان والتبيين الألقاب العامة عند العرب ، فقال : « والشعراء عندهم أربع طبقات ، فأولهم الفعل الخنذيد ، والخنذيد هو التام . قال الأصمسي : قال رؤبة : المعولة هم الرواة . ودون الفعل الخنذيد الشعراء المطلق ، ودون ذلك الشاعر لفظ ، والرابع الشعروء » (٦/٢) .

٢- راجع نسب الشاعر الكامل في الصحيفة السابقة للمعلقة من ديوانه بتحليلنا (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) وكل أحالة إلى الديوان والقصائد والأبيات في هذا المقال نعني بها ذلك الديوان .

٣- المحيط (طرف) . ويقول أيضاً : « وفي الشعراء : طرفة الغزي من بني خزيمة بن ربيعة ، وطرفة العامري وطرفة بن الأده . وطرفة بن عرفة الصحابي ، أصيب أنه يوم الكلاب فأتفدها من ورق فانتن ، فرخص له في « الذهب » ، ونحو هذا في المؤلف والمختلف ص ٢١٦ . وهذا البيت هو البيت رقم ١ في القصيدة رقم ٦٨ من الديوان .

- ٤- شرح ديوان أبي تمام للبربري ٤١٢/١ - ٤١٣ .
- ٥- المزهرة ٤٢٤/٢ ، معجم الشعراء ص ٥ .
- ٦- معجم الشعراء ص ٥ ، كنى الأشعار ص ٢٨٨ .
- ٧- المختار من شعر بشاد ص ٧٣ .
- ٨- معجم الشعراء ص ٥٥ .
- ٩- جمهرة أشعار العرب ٩٨/١ .
- ١٠- ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١٢٨ .
- ١١- بلوغ الأرب ١٣٩/١ .
- ١٢- معجم الشعراء ص ٥ . وأدم : من اشتدت سمرة ، والمؤلف أدماء . أو قص : قصير العنق وهي وقصاء . أفرع ، الذي غرر شعره ، وهي فرعاء . اكتشف : الذي انصرف مقدم رأسه . أזור الصدر : من أعوج صدره (أو) أنشرف أحد جانبي صدره على الآخر ، وهي زوداء . متائل المطلق : عظيم الملق .

١٣- القصيدة ٨ .

١٤- القصيدة ٩ .

١٥- القصيدة ١١ .

- ١٦- المحاسن والمساوي ٤١٨/١ ، وبهجة المجالس ص ١٢٠ ، ونحوه في زهر الآداب ص ٥١٥ والبيان والتبيين ١٧٨/٢ وعيون الأخبار ٢٥٩/١ .

٣٨- اللسان (نوى) • وردت هذه القصة أيضا في الموشح
ص ١١٠ وسر اللصاحبة ص ٢٤٩ ، وفي مصادر مختلفة
أخرى ، انظر التخريج في الديوان •

٣٩- ١٩٤/١ •

٤٠- البيتان ٢ ، ٣ من المقطوعة / ١٤ •

٤١- الطعاجي اشعار الشعراء الستة الجاهليين ١٨/٢ هـ •

٤٢- حمداته في تحقيق المعلقة السبع للزوزلي وشرحها ص ١٣٠

٤٣- المعلقة ١/١ الرلم الأول يدل على رلم البيت ، والثاني
على رلم القصيدة ، وكذلك الامر في كل ما سيرة مسن
أبيات •

٤٤- الشعر والشعراء ١٨٥/١ •

٤٥- ٩٤/١ •

٤٦- ١٠٥/١ •

٤٧- المعلقة ١/١ •

٤٨- ٢/١ •

٤٩- طبقات الشعراء ص ١١٥ •

٥٠- الراعي النمري ص ٢٠٦ •

٥١- فحولة الشعراء ص ٥٩ •

٥٢- اشعر والشعراء ١٩٠/١ •

٥٣- من قصيدة •

٥٤- الشعر والشعراء ١٨٩/١ - ١٩٠ وجمهرة اشعار العرب

٤٢/١ وشروح سقط الزند ٤٦٠/١

٥٥- شرح شواهد المفتي ٨٠٥/٢ •

٥٦- الامالي للقاتي ١٧٩/٢ •

٥٧- المزهر ٤٨١/٢ •

٥٨- أي حربة الطوري •

٥٩- الحيوان ١٥٧/٢ ونحوه في البيان والتبيين ٢٦٨/٢ •

٦٠- البيان والتبيين ٨٣/٤ •

٦١- المصدر نفسه ٨٤/٤ •

٦٢- جمهرة اشعار العرب ١٠٥/١ •

٦٣- رسالة الفران ص ٢٥٤ •

٦٤- اعلام الكلام ص ١٦ ومثله في الذخيرة ١٥٦/١ ورسائل

البلقاء ص ٣١٥ •

٦٥- ٨٤/١ •

٦٦- ٨٦/١ •

٦٧- المقامات ص ٢٥١ - ٢٥٤ •

٦٨- المعاسن والمساوى ١٦٦/٢ •

٦٩- ٢٥٠/١ •

٧٠- الروائع ٢١٣ •

٧١- اشعار الشعراء الستة الجاهليين ٢٧/٢ •

٧٢- الادب الجاهلي ص ٢٨٧ •

٧٣- الشعر والشعراء ١٩٠/١ •

٧٤- ١/٥ •

٧٥- ديوانه ص ٨٠ وفيه « بالفيال » بكسر الهمزة •

٧٦- ديوانه ص ١٥٠ وفيه « الربي » ... الفئال تقد ... •

٧٧- ٢٩ ، ٢/٣٠ •

٧٨- ديوانه ص ٤٣ وفيه : ومجود زدل ... الحبش تردى ... •

٧٩- ٤٤ ... تطلط المشي تادى كالفرس ... •

٧٩- ديوانه ص ١٧٤ وفيه « ورفاق غصن ص ١٧٥ و ... •

تجاوزت ... •

٨٠- ٥٦ - ١/٥٩ •

٨١- ١/١٧ •

٨٢- ديوان الشماخ للشنقيطي ٦٤ • تلط به : تلصقه بين

لفظيها • والعاذان : ثنية حاذ ، وهو ما وقع عليه اللذان

من اديار الفطرين • والرديف : الراكب خلف الراكب •

وبروق : لمعان •

٨٣- ٩/١ •

٨٤- ١/١١ •

٨٥- صاف : نزل • أي بات أحد الهمين جنبه وبات الاخر داخل

جوفه • والوهم : الهموم • والحول : في العوائل •

(راجع جمهرة اشعار العرب ٩١٣/٢) •

٨٦- الراعي النمري ص ٦١ •

٨٧- بروكلمان ٩٢/١ •

٨٨- الراعي في تاريخ ادب العرب ٢٤٢/٢ •

٨٩- مصادر الدراسة الادبية ص ٢٥ •

٩٠- الراعي ٢٤٣/٣ •

٩١- معاهد التنصيص ٧/٤ وهو البيت ٦٣/١ •

٩٢- ٦/١٠ •

٩٣- الشعر والشعراء ١٩٦/١ •

٩٤- ١/١٠٢ •

٩٥- رجال الملقات ص ١١٦ •

٩٦- معجم الشعراء ص ٦ تطريج الحديث « البخاري ٣١/٦ •

٩٦- ١٤٦ انظر المعجم المفهرس للالفاظ الحديث ٣٢٣/٢ •

٩٧- خاص الخاص ص ٩٧ •

٩٨- ١١/٢ •

٩٩- ٦٣ ، ٦٥ - ١/٦٧ •

١٠٠- ٧/٦ ، ٥ •

١٠١- ٩/٦ •

١٠٢- ٥/٤ •

١٠٣- ٤/١٣ •

١٠٤- ٦٢/٤٩ •

١٠٥- ٢/٤٩ •

النبأ والترجمة

- ☐ مجمع اللغة العربية في رحلته مع التراث
نزار اباطقة
- ☐ تفسير أرجوزة أبي نواس في تقریظ الفضل بن الربيع
لطيفة الشهابي
- ☐ محمد بن موسى الخوارزمي - تأليف الأستاذ زهير الكتبي
د. نسيب نشاوي
- ☐ أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في يوغوسلافيا
تأليف : د. حسن كاليشي
عرض : فتحي مهديو
- ☐ أبو علي الفارسي و « المسائل المنشورة »
رضوان العسمن
- ☐ دراسات في تاريخ المدن الفراعنة (١) - قرقيسيا
محمد ناشد مشوح
- ☐ رسالة من ألمانيا الديمقراطية
ه. فايفولسد
- ☐ دراسة الاستمراب في جمهورية ألمانيا الديمقراطية
الدراسات العربية في ألمانيا الديمقراطية وتقاليدها
- ☐ د. جيت كوك
- ☐ عرض تاريخ الإسلام وحضارته في مؤلفات كارل بروكلمان
ويوهان فوك د. مانفريد فلايشهامر
- ☐ كتاب « الباهر في الجبر » تأليف : السموول المغربي
أبو فراس السباعي
- ☐ من تراثنا التشكيلي الحديث
سمير الكراد
- ☐ أحياء التراث ودراسه
د. نسيب نشاوي
- ☐ كتب تراثية
محمد نجيب بو طالب
- ☐ تحقيق سيرة ابن سينا ونشرها
فريد جعنا
- ☐ مؤتمر التمریب وتوصياته
سيرة السمان

مجمع اللغة العربية في رحلتها مع التراث

نزار أباطة

الحديث عن التراث وأخباره حديث شائق ذو شجون ، خصوصا أن كان من خلال مؤسسة عريقة كمجمع اللغة العربية الذي دأب منذ تأسيسه عام ١٩١٩ على رعاية اللغة العربية والحفاظ عليها فكانت له وظائف جلى أهمها ربط حاضر الأمة بغابرها من خلال وضع المصطلحات العربية للألفاظ الحضارة الحديثة وتصحيح الأخطاء الشائعة على اللسان ، وأسقية مجمع دمشق من بين الجامعات العربية معروفة في هذا المجال غنية عن التعريف ، سارع منذ قيام الدولة العربية في دمشق بعد انسحاب الأتراك الى تعريب ما تحتاج الأمة الى تعريبه في المجالات كلها فاضطلع بالمهمة على أحسن وجه .

ورأى من أولى مهامه رعاية كتب السلف وأخراجها من الظلمات الى النور أخراجا يعتز به كل باحث ويحرص عليه كل دارس ويتلهف اليه ذوو العلم والفضل الذين لا يزالون يتصلون بالمجمع من الشرق والغرب يتتبعون أعماله ويقتنون كتبه وانتاجاته التي تربو يوما بعد يوم .

وليس الكتاب الذي يطرحه المجمع بين الأيدي الا ثمرة جهود طويلة متصلة لا تهدأ ونتيجة تعب مستمر لا يتوقف وخبرة أتى عليها حين من الدهر قد استحکم ثابها واشتد عودها وقوي ساعدها . . فالمجمع لا يرضى عن الكتاب الذي ينشره الا بعد تمحيص وتحقيق ولا يعجبه أن يمهره بغاتمه وشماره الا بعد لأي ومناقشة ، مناقشة علمية مجمعية ، فكان من الطبيعي أن تخصص من بين اللجان المعيدة

وتراثنا العظيم الذي حفظت الأيام أقساماً منه قد تكون ضئيلة بالنسبة لحقيقته وحجمه ونوعه وبالنسبة لمظمة حضارتنا وأصالتها يحتاج الى عناية فائقة وآياد خبرة ذات دربة، فانه لا يقتدر على التعامل معه كل من أحب ولا كل من رغب . . ومن كالمجمع في هذا المضمار ؟ انه جمع فاوعى ، حفظ الأمانة وقام بالواجب المنوط به خير قيام وحقق الأمال المتعلقة به أحسن تحقيق .

سنوات فأصدر أجزاء منه هي المجلد الأول وتتحدث عن فضائل دمشق وأصل اشتقاق تسمية الشام وتاريخ بناء هذه المدينة التاريخية ومعرفة من بناها والأحداث الواردة فيها وأخبار ملوكها قبل الإسلام والسرايا التي أرسلها النبي ﷺ إلى هاتيك النواحي ثم صدر القسم الأول من المجلد الثانية ويضم خطط دمشق ليصف مسجدها الجامع ومساجدها الأخرى وأبوابها وقلمتها ومدارسها وميادينها وأسواقها وحماماتها وأنهارها وقنيها وطواحينها وبساتينها وكنايسها وأديرتها والقرى من حولها .

وقفز الكتاب مرة واحدة فخرج للناس منه المجلد العاشر التي تضم التراجم المبدوءة بحرف الباء والتاء والثاء ، ثم قفز قفزة أخرى فطلع علينا جزء يضم تراجم حرف العين المقلوبة بالألف (حاصم - هايد) وجزء مصور من النسخة المخطوطة يضم التراجم التي بين عبدالله بن عمران وعبدالله بن قيس الأشعري . وما هو ذا المجمع قد دفع للمطبعة جزأين يضمان تراجم العبادلة .

كما أنه لا يزال يصدد السمي الدؤوب والعمل الجاد في سبيل استكمال هذه الموسوعة التاريخية العظيمة التي تمتد في المكان امتداد بلاد الشام من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ، ثم تجاوز ذلك لتكون على امتداد الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية . وهي تنفسح اتساعاً في الزمان لتلمس أطرافاً من تاريخ الجاهلية ، وتضمي لتكون تاريخاً للسيرة النبوية ، والمصر الراشدي والأموي والعباسي والدويلات التي استقلت فيما بعد حتى وفاة ابن حساكر في أواخر القرن السادس الهجري سنة ٥٧١ هـ .

وهي موسوعة تفهم التاريخ فهماً عميقاً فلا تقف عند الأحداث والوقائع وحدها بل تتناول

لجنة للتراث عرفت باسم (لجنة المخطوطات وأحياء التراث وهي ذات صلة وشيجة بلجنة أخرى قد تكون متممة لها هي (لجنة المطبوعات) .

تتلقف لجنة المخطوطات وأحياء التراث ما يحال إليها من كتب محققة محلية يسمى بها أصحابها أو وافدة مع البريد من المشرق والمغرب . ومن خلال اجتماعات اللجنة يناقش الكتاب مناقشة متأنية ذات خط ومنهج فيقبل أو يرفض . . . وقد يطلب من المحقق صورة من أصل الكتاب المخطوط وقد يفرض عليه أن يمدل قسماً أو يستكمل شيئاً أو يطيل في مقدمته أو يختصر منها بحسب المقال ولكل مقام مقال .

والفكرة التي تستحوذ على القائمين بأمر المجمع عموماً ، وعلى لجنة المخطوطات وأحياء التراث خصوصاً نقاوة العمل وجزائته وموافقته للروح الجمعية وللطريق الذي يسلكه المجمع كما أشرت آنفاً ، وليس يضر بهذا أنه كان وراء بعض ما قبلته اللجنة رغبة في فتح الطريق أمام جيل جديد من المحققين ربما يكون له روح مختلفة ونسخ جديد .

نعرض فيما يأتي بعض ما أنتجه المجمع إذ لا يسعنا في مقال واحد أن نستوعب أعمالاً جليلة تمت خلال سنين طويلة وإنما هي صورة حديثة قد تعطي فكرة مجملة .

أول ما يمكن أن نتناوله بالحديث عن الانتاجات التراثية الجمعية هو تاريخ مدينة دمشق (١) للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر ، ذلك التاريخ الذي دأب المجمع على تحقيقه وإخراجه منذ

١ - انظر ملخصات الأجزاء التي أخرجها المجمع . وانظر أيضاً الكتائب اللذين أصدرتهما وزارة التعليم العالي بمناسبة مهرجان ابن عساكر سنة ١٩٧٩ .

روح التاريخ حينما تقدم المادة الأولية الفنية لرصد الحركة الحضارية ديناً وشریمة وثقافة وفكراً .

هذا ما دفع المجمع فتبنى نشر ذلك التاريخ العظيم الذي يعد بحق كنزاً من كنوز التراث نظر المجمعيون من خلاله الى تجديد كتابة التاريخ العربي والاسلامي . ونحن نتلهف أن يمضي أولو الأمر قدماً بسمي حيث لاستكمال هذه الموسوعة ، وأن يستردفوا للعمل لفيفاً من الباحثين الخالص ليدلوا الصعوبات التي تعترض في الطريق ، طريق كل غاية عظيمة وكيف لا يكون كذلك وأصل الكتاب المخطوط يقع في ٨٠٠ جزء وكل عشرة أجزاء تؤلف مجلدة واحدة فهو اذن في ثمانين مجلدة ضخمة ، أليس هو عملاً تنوم به العصبية أولو القوة من أصحاب الهمم الكبيرة فضلاء عن أن الكتاب لا يقاس بالصفحات بمقدار ما يحسب بالمضمون وبالمادة الفنية الصادرة عن رجل ملء علماً وعبقرية مثل الحافظ ابن عساكر .

ولقد اعتمد المشرفون على تحقيق تاريخ مدينة دمشق أصولاً مخطوطة فيها ما فيها من صعوبة ومشقة ، اذ لم يكن بين الأصول أصل واحد كامل ، وانما تحصل لهم نسخ ناقصة وأجزاء شتى .

أقدم هذه النسخ مخطوطة الأزهري الشريف التي أنزلت من بين الأصول منزلة الأم ذلك أنها بخط ابن المؤلف القاسم بن علي العالم الحافظ الذي أخرج للناس كتاب أبيه مضبوطاً مجوداً . ثم نسخة بخط الحافظ البرزالي وهي مضطربة الأوراق .

وبحث المجمع عن أجزاء الكتاب في مكتبات العالم فكان أن تحصل لديه نسخة من المغرب ونسخة من مكتبة أحمد الثالث في استانبول وأجزاء متفرقة من تونس والهند ولندن

وكامبردج وغيرها . هذا بالإضافة الى نسخين دار الكتب الوطنية الظاهرية الأولى من وقف سليمان باشا العظيم وهي أوسع من الثانية وأقل نقصاً ، والثانية من وقف أسعد باشا على مدرسة والده اسماعيل باشا بالخياطين بدمشق وهي مأخوذة فيما يبدو من الأولى وفرع عنها .

طرح بعض أولي الرأي أن يطبع الأصل المخطوط طباعة تصويرية مشفوعة بمقدمات مناسبة متلوة بملاحظات ملائمة تفيد الدارسين وتنفعهم نفعاً مختلفاً على قدر رسوخ أقدامهم في البحث والعلم والدراسة ، وربما كان هذا السبب في أن أصدر المجمع الجزء المصور الذي سأحدث عنه بعد وعن مصورات المجمع . أما طريقة التحقيق وأسلوبه فندعهما قائلين انه قد أعطيت القوس باريها .

★ ★ ★

ولئن كان امرابن عساكر قد ملا المجمع وشغل المجمعين فانه زهرة وان تكن فريدة في البستان الرحيب ففيه الكثير سواها والمديد غيرها متشابهاً وغير متشابه يفوح شذاه عابقاً ويتضوع عرفه فواحاً . انه لا بد من وقفة قصيرة تلقي نظرة متأملة على ذلك البستان النضير .

ولنبداً بكتاب (المعاصرون) الذي صدر في السنة الفاتئة للاستاذ الرئيس محمد كرد علي ، ذلك الرجل الذي لا يزال فضله متجسداً حياً من خلال حياة المجمع وأعماله . خلف الأستاذ الكبير كتابه « المعاصرون » جزازات متناثرة (٢) بقيت عند أسرته ولما يفرغ بعد من تنقيحها وتحريرها حينما ألم به داعي المنون فلحق بربه مغفوراً له ، ولكنها وإن كانت تحتاج الى تنظيم وترتيب انها كعجبات اللؤلؤ الثمينة لا ينقصها سوى ناظم .

في التركيب والطلاوة في الأسلوب كأن صاحبه يتحدث اليك وقد وضع التكلف فجاء نفسه بسيطاً ولكن بساطته بساطة الأديب الذي استحكم أدبه فكان ملم نفسه . وليس معنى هذا أننا ننفي لكنوز الأجداد تلك العلاوة وهاتيك الطلاوة ، كلا بل انه يتمتع فيه عن أسلوب آخر وعبارات أخرى وتراكيب تفرضها عليه تلك الشخصيات الخالدة .

* * *

ومن الكتب التراثية اللطيفة التي أصدرها المجمع حديثاً كتاب القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية لمحمد بن طولون الصالحى حققه العلامة الشيخ أحمد محمد دهمان ، وهو كما يشير اسمه يختص بصالحية دمشق فيتحدث عن بدء انشائها بعد سنة ٥٥٠ هجرية على أيدي المهاجرين الصالحين (٣) الذين فروا من ظلم الافرنج في فلسطين واستوطنوا سفوح قاسيون فعمروه وأسسوه على التقوى والعلم من أول يوم نزلوا . واستفاض حديث ابن طولون فوصف الصالحية وصفاً دقيقاً ذكراً أنهارها وطبيعتها ، مساجدها ومدارسها ، أوقافها وجراياتها ، زواياها وتربها بساتينها ومنتوجاتها ولم يدع شيئاً يتصل بالصالحية من قريب أو بعيد الا وذكره على أحسن وجه . ثم عرج على علمائها فترجم لهم واحداً واحداً حتى أولئك الذين زاروا الصالحية في أيام معدودات وعبروا بها . وختم عمله ذاك بذكر أربعين حديثاً سلسلة برواية علماء الصالحية الذين اشتهروا كثيراً بعلم الحديث وبرعوا فيه وأتقنوه مشايخ وشيخات .

تصدرت الكتاب مقدمة مطولة عن قاسيون ومكانته المقدسة وشرفه في الأمكنة وعن أولئك

ترجم الأستاذ كرد علي في كتابه المعاصرون لطائفة ممن اتصلت أسبابه بأسبابهم من علماء البلاد العربية وأديانها ومن المستشرقين ، كان منهم من ربطته بهم صداقة راسخة وآخرون لقيهم خلال المؤتمرات والندوات العلمية وطائفة واصلهم عن طريق المراسلات والمكاتبات .

والكتاب غنم عظيم للمهتمين بتاريخ النهضة العربية وأعلامها خصوصاً أن التراجم فيه تنساب من تحت قلم سيال يمج مع المداد مدداً من المذوبة والبلاغة والصدق والأمانة ، يعطي الرجال حقوقهم وينزلهم منازلهم ويقول فيهم ما يقول بصراحة غير ممجوجة ويمدح من يستحق المدح ببيان لا يشوبه التكلف ولا التعميل حتى ليفنيك في سطور معدودة عن كلام طويل . يعطي فكرة عن أهم النقاط في حياة صاحب الترجمة ويتحدث عن صفاته الخلقية وعن انتاجه العلمي واهتماماته ثم يمرّج - ان كان شاعراً - على شاعريته فيرى فيها رأيه وينتقي من شعره ، وهو بهذا موفق الاختيار يورد كل طريف . فاذا به يشد القارئ اليه فيترنم معه ويضطرب حتى جام الكتاب نزعة أدبية يتسلى به الى جانب الفائدة العلمية من أراد حين يسأم من متاعب يومه فيقضي مع الأستاذ الرئيس أو يقاتم ممتعة لطيفة .

وكتاب المعاصرون يذكرنا بكتاب شبيه له كان قد أخرجه المؤلف سنة ١٩٥٠ وهو كنوز الأجداد سار فيه على الخطة نفسها من حيث الترجمة والمنهج ، الا أن كنوز الأجداد تناول أعلاماً غابرين وعلماء سابقين كاهن قتيبة والجاحظ والحريري والاصبهاني في حين يصور الكتاب الأول مؤلفه وسط ثلة من أصحابه وأصدقائه ونظرائه .

على أن لـ «المعاصرون» ميزة هي الطراوة

المهاجرين الصالحين ومعاناتهم في سبيل الحق والخير والعلم ، وختم بفهارس مفصلة وافية .

★ ★ ★

وقبل القلائد طبع المجمع (تاريخ أبي زرعة) وهو سفر عظيم في التاريخ الاسلامي يقع في ١٠٩٦ صفحة وتأتي أهميته في أنه أحد المصادر المهمة في التاريخ (٤) والرجال فضلا عن أنه من أهم مصادر الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق . صاحب المصنف عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله النصري أبو زرعة الدمشقي المتوفى سنة ٢٨١ هجرية ، وهو من كبار العلماء المدققين . بدأ كتابه بذكر ما يتعلق بسيرة النبي ﷺ وتطرق الى نسبه المريق وصفاته الكريمة ثم بذكر أزواجه وعددهن والخلاف في ذلك مع بعض أخبارهن وانتقل الى سير الخلفاء الراشدين من بعده حتى اذا أتى الى عصر بني أمية قدم لنا قائمة كاملة بأسماء الخلفاء وتواريخ خلافة كل منهم ومقدارها دون تفصيل الا أنه توقف قليلا عند عمر بن عبدالمزيز رضي الله عنه . ثم قدم قائمة أخرى كاملة بأسماء الخلفاء العباسيين تنتهي بهارون الرشيد المتوفى سنة ١٩٣ هـ وهي مقتضبة وأكثر ايجازا من التي قبلها ، لا تتعدى ذكر اسم الخليفة وتاريخ خلافته ومدتها . ويبدو أن أبا زرعة يحب القوائم فهو يسلسل قائمة جديدة بقضاة مدينة دمشق منذ الفتح حتى نهاية القرن الثاني الهجري ويلحق بها قائمتين لقضاة فلسطين ولقضاة مرو وهما ناقصتان .

وهناك قوائم أخرى بأسماء الصحابة النقباء الأنصار وبأسماء الأعلام المعروفين بالكنى وبالعكس . وينتقل أبو زرعة الى أخبار

الصحابي عبد الله بن بسر المازني ثم يتحدث عن الوقائع التي جرت في الشام زمن خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويبين من توفي بالشام من الصحابة في ذلك الوقت ومن التابعين وتابعي التابعين مع ذكر وفيات بعض شيوخه .

في الكتاب معلومات حضارية قيمة ونصوص فريدة في مختلف الشؤون ، ألا انها متناثرة في صفحات الكتاب لا يجمعها رابط ، كذكره بعض الوظائف في القرن الهجري الأول ولباس كثير من العلماء وأصول الرواية وعلاقة العلماء ببعضهم وغير ذلك . فهو كتاب قيم كما نرى يعتد به وتأتي أهميته من أنه يحوي معلومات فريدة في القرنين الأول والثاني الهجريين توضح بعض النواحي عن الحياة الثقافية والاجتماعية والادارية آنذاك بالاضافة الى ما ذكرنا ومع أن ماورد في تاريخ أبي زرعة قد ورد في كتب أخرى الا أن هذا التاريخ مصدر موثوق فضلا عن أن تكرار هذه المعلومات يرفع من قيمتها لأنها تصبح بمنزلة الأخبار المتواترة التي يمكن القطع بصحتها .

ويمثل هذا التاريخ الأثر المهم الوحيد الباقي من آثار أبي زرعة الدمشقي ، يحصل معلومات كثيرة تتعلق بمؤلفه وبعلماء الشام الذين أسهموا أيضا اسهام في الحركة العلمية وخاصة في مجالات الحديث وعلم الرجال فليس بدعا بعد هذا أن ينقل عنه علماء كثيرون ويقتبسوا من نوره . ويضم تاريخ أبي زرعة مجموعة كبيرة من الأسانيد تتجاوز خمسين ومائتين ألفي سند ولأول مرة يجتمع عندنا مثل هذا العدد من أسانيد الشاميين ، ودراسة هذه الأسانيد تبين مكثري الروايات من مقلبيها وتدلنا على كبار العلماء والمحدثين والرواة من صفارهم .

★ ★ ★

٤ - انظر مقدمة الكتاب .

هناك نوعاً آخر من الغلط والوهم يتعرض له العلماء والخواص من القراء والمحدثين وأصحاب الأخبار واللغة في محاضراتهم وحلقاتهم للتدريس والاملاء وقد اصطلح على تسميته التصحيف ، ومنشؤه التباس الحروف واحمال الضبط في الكتابة العربية بحيث لا يمكن لأحد مهما تقدم في العلم أن يعتمد على قراءته في الصحف المكتوبة ويستغني عن السماع من أفواه الثقات » .

ونقل المحقق عن حمزة الأصفهاني أن سبب وقوع التصحيف في كتابة العرب هو وجود حروف متشابهة في صورة واحدة هي الباء والتاء والثاء والياء والنون .

وبعد أن عرف التصحيف ناقلاً عن الخليل والمصري والجاحظ قال « ان الكلام في التصحيف لا يخلو منه أي كتاب في الأدب واللغة وتراجم البلغاء والنحاة » وخص بالذكر ثلاثة كتب ألفت في هذا ، ثانيها هذا الكتاب وقبله (التنبيه على حدوث التصحيف) لحمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ هـ وبعبده (التصحيف في ما تلحن فيه الخاصة) لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

فالكاتب كما نرى يتطرق لموضوع عظيم اهتم له المتقدمون من أصحاب اللغة والأدب خدمة للغة العربية المقدسة وهو موضوع لا يقتدر عليه الا خواص الخواص ممن أنفقوا عمرهم في العلم والتعلم والضبط . ولئن تلقينا القسم الأول منه متلهفين انا على انتظار قسمه الثاني على مثل ذلك التلف .

* * *

وعني المجمع خلال اخرجه لكتب التراث بالشعر فأصدر دواوين ومجموعات شعرية مختلفة ويبدو من خلال قائمة ما نشر أنه كان

من الكتب المهمة التي تؤثر للمجمع كتاب (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) لأبي أحمد الحسن ابن عبدالله العسكري ، يدرك المتأمل فيه والمتصفح له أنه عمل امتلاً علماً وظرف حشي ظرفاً ، يجمع الى ضخامة الموضوع وفرة الشواهد .

صدر القسم الأول من هذا الكتاب ويضم في الأبواب الثلاثة الأولى (٥) منه كلاماً في قبس التصحيف وبشاعته ونكده ومن ابتلي به ونوادير من التصحيف أضحت من قائلها ثم يقسم العلماء المشهورين الى طائفتين ، بصرية وكوفية ويذكر أوام كل عالم باسمه وما وقع فيه من أغلط . ثم يتعرض لطائفة ثالثة تضم أقواماً شتى . وبعد ذلك يستعرض ما يمكن أن يصحف لشعراء معينين كأمريء القيس والنابغة وزهير والأعشى وغيرهم مما جاء في كتاب الحماسة . حتى اذا استوفى هذا تناول ما يمكن أن يشكل من أيام العرب وأسماء الفرسان والأنساب والاماكين وغير ذلك .

حفلت مقدمة المحقق بأشياء كثيرة أولها ترجمة للمؤلف أبي أحمد العسكري مع ذكر مؤلفاته التي بلغت اثني عشر مؤلفاً ، وبعدها جرى الحديث عن تقسيم الناس الى طبقات ثلاث : الجهلة والموام والخواص ، ولما بسط الكلام رأى أن الجهلة لا تستحق أية عناية أو محاولة للإصلاح فان العلم كفيل بالقضاء عليها اذا تيسر لهم الحصول عليه ، وأورد قول الجاحظ : « وأما الموام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا » ثم حدد معنى اصطلاح التصحيف عندما تعرض لذكر الخواص فقال : « الا أن

حقبة من الزمن طويلة واستعان عليها بأسفاره وصلاته ومكائنه من السلطان فلقى العديد من العلماء والمحدثين والرواة ووقف على جملة جيدة من الدواوين واتصل بكثير من شعراء عصره وأدبائه فسمع منهم واستكتبهم .

تنقسم الخريدة الى أربعة أقسام : قسم العراق ، وقسم المعجم وفارس وخراسان ، وقسم الشام ، وقسم مصر وصقلية والمغرب وبلاد الأندلس . وهي لا تضم شعر الشعراء فحسب بل وشعر الكتاب والفقهاء والمحدثين وأبناء الأجناد ، بل وتورد مختارات من النثر الذي يعبر عن أسلوب العصر .

وتأتي أهمية كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥ هـ من أنه كتاب مصطفى مختار من كتابين عظيمين أولهما (المفضليات) للضبي ذاك العالم الذي كلفه الخليفة أبو جعفر المنصور أن يختار أجود قصائد المقلين ليدرب بها ابنه ولي المهد المهدي ويعلمه رائع الشعر وخالصة ، وثانيهما (الأصمعيات) للأصمعي قصائد انتقاها بإشارة الخليفة هارون الرشيد لتأديب ابنه الأمين فاختر له من عيون الشعر القديم . . . فهما كتابان عظيمان من صنعة عالمين كبيرين لتعليم طالبين يتهيان ليكونا خليفتين يحكمان الدنيا وأي دنيا تلك التي كانت زمن المنصور والرشيد ! وإذا جاء اختيار الأخفش الأصغر بعدئذ من هذين الكتابين المجودين فهو اختيار لباب اللباب وصفوة الصفوة .

ولم تكن اختيارات الأخفش الأصغر تورد القصيد المقطعات دون عناية فلقد كان هم صاحبها أن يشرح الغوامض من المبارات ويوضح المويص من الكلمات ويعلق على المبهات فجاء كتاباً شعرياً لغوياً أدبياً وهذا ما يهتم به المجمع من خلال عنايته باللغة خاصة .

يريد اخراج النادر العزيز الذي غفلت عنه المؤسسات الثقافية أو المحققون لطبع مجموعات شعرية - وان تكن قليلة - الا انها من الأهمية بمكان كشعر ابن هرمة القرشي آخر من يحتج بشعره من الشعراء وشعر دعلج بن علي الخزاعي وشعر الراعي النميري وشعر ابن أحرر الباهلي وغالب هذه الأشعار مبثوثة في كتب الأدب جمعها الجامعون وأخرجوها عملاً محققاً متقناً بعد عمل طويل .

الى جانب الشعر المجموع دواوين توخى المجمع أنها تفني المكتبة العربية كديوان ذي الرمة وديوان ابن الغياط وديوان الخالدين وديوان ابن حيوس وديوان ابن عنين وديوان طرفة وديوان الصاحب الشرف الأنصاري وديوان ابن أبي حصينة وديوان الأبيوردي . واعترافاً من المجمع بفضل رئيسه الأسبق الأستاذ الشاعر المرحوم خليل مردم عمد الى نشر ديوانه مع مقدمة تنوه به ، وما هو ذا اليوم يكرم أحد أعضائه البازين فيدفع الى المطبعة ديوان المرحوم شفيق جبري شاعر الشام مضيئاً الى المكتبة الشعرية مجموعة لطيفة متممة .

والى جانب الأشعار والدواوين نوع ثالث من الشعر هو المجموعات الشعرية كمثمل خريدة القصر والاختيارين ، وكمثمل شرح مفضليات الضبي التي يمكن أن تكون عملاً مشتركاً بين الاختيار الشعري واللغة .

أما خريدة القصر وجريدة العصر للمعاد الأصفهانى الكاتب فهي جمهرة أشعار حافلة (٦) تضم شعراء العالم الاسلامي ولا تقتصر على العرب وتمتد في الزمان فيما بعد المائة الخامسة الى سنة ٥٧٢ هـ . أنفق صاحبها في جمعها

أعدادها قوائم لأسماء مخطوطات منشورة في بلدان العالم طالتها يد جوال عربي فبعت بها يبتني افادة الدارسين وعونهم .

فما نشرته عن رسائل تراثية : أسماء مؤلفات ابن تيمية لابن قيم الجوزية ، وتاريخ الخلفاء لمحمد بن يزيد وهو تاريخ مختصر جدا للسيرة النبوية والخلفاء الراشدين والأمويين وبعض العباسيين ويحفل على صغر حجمه بمعلومات غزيرة ملخصة ، ورسالة بعنوان سؤال في يزيد بن معاوية لابن تيمية ، وصحيفة همام بن منبه أقدم تدوين في الحديث النبوي وقرة العيون في أخبار باب جيرون لابن طولون الصالحى وغير ذلك كثير ولا تزال المجلة الأصيلية توالي نشر الكنوز ما تتابع صدورها، وتهتم بالتراث وتضمه في الصدر الأول من الأهمية .

★ ★ ★

ومن عناية مجمع اللغة العربية بالتراث الكريم أنه اهتم بالمخطوطات النفيسة التي تحتوي عليها دار الكتب الوطنية الظاهرية ، فصنع لها فهرس مخطوطات بحسب أنواعها المختلفة . ومن هنا نشرت كتب الفهارس المختصة التي نيف عددها على خمسة عشر فهرساً للمخطوطات القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والجغرافيا وعلم الهيئة والفقه والشافعي والحنفي والتصوف والشعر والرياضيات والفلسفة وعلم العربية بفنونه المختلفة . بل ونشر أسماء بعض المخطوطات في غير مدينة دمشق كالمنتخب من مخطوطات المدينة المنورة، وقسماً مما في بعض مكتبات انكلترا وغيرها مما طالته أيدي الباحثين . ولئن بقي بعض من المخطوطات في الظاهرية لم يفهرس في كتب ان النية عازمة على استكمال ذلك .

سارت هذه الفهارس على خطى سديدة

نوع آخر من كتب الشعر التي يهتم بها المجمع هو ذاك الشعر الذي يفلب عليه الغريب ككتاب تفسير أرجوزة أبي نواس في تفریط الفضل بين الربيع للغوي المبقرى ابن جنى . كان هذا الكتاب قد طبع سنة ١٩٦٦ ثم أعاد المجمع طباعته مؤخرًا سنة ١٩٨٠ بعد أن أعاد فيه محققه النظر على ضوء مخطوطة أخرى عشر عليها في المتحف البريطاني واعتمادا على مخطوطتي المدينة المنورة التي تشير اليهما مقدمة الكتاب .

والأرجوزة النواسية هذه ضرب لطيف مما حفل به تراثنا العظيم ، وأبو نواس قد أثر فيها الغريب مجارياً رجز الأوائل القدماء . ومع أنها ليست بغير شعره إلا أنها من أجزل شعره الجاد وأشدّه أعرابية وأحفله بالغريب ، وهذا ما حدا امام اللغة ابن جنى الى الاهتمام بها وشرحها خصوصاً أنها كانت في عصر ابن جنى بعض ما يتمرس به شدة اللغة من الشبان المثقفين لتستحكم به ملكاتهم وينمو حسهم اللغوي ويقوي لسانهم ، اضافة الى أن تفسير هذه القصيدة قد اشتمل على اللغة والاعراب والشعر والمعنى والنظير والعروض والتصريف والاشتقاق ، وعلى شيء من علم القوافي . ومن هنا اعتنى بها عناية خاصة .

★ ★ ★

ولئن كانت الكتب المجمعية التراثية تنشعب ذاهبة في أكثر من طريق لتغطية علوم مختلفة وفنون متعددة من تاريخ ولغة وأدب وأصول ورحلات وجغرافية فإن مجلة المجمع هي بدورها تتحمل نصيبها في احياء التراث والمساهمة بنشره وتحقيقه ونقده . ففي تلك المجلة الغراء التي تصدر مع فصول السنة الاربعة ترى كل حين تحقيقاً لرسالة مخطوطة أو اشارة لمخطوط أو دراسة تراثية . . وربما ترى بين

تفني الباحث وتنفعه ولو كان بعيدا قصيا فهي تتناول كل مخطوط فتصف شكله وحجمه وقياسه وتذكر عدد أوراقه وعدد السطور في كل ورقة وتورد بعض جمل من مبتدئه ومنتهاه وتشير الى أسماء الناسخين والتملكات التي عليه ثم تذكر رقمه وغير ذلك مما يراه الم فهرس مفيدا ومما ينسجم مع الخطة العامة التي تسير عليها لجنة المخطوطات وأحياء التراث لتكون أعمال الفهرسة كلها على نسق واحد ، منطبعة بطابع واحد . لا يعني هذا انك لن ترى خلافا في العمل ، ان الفروق الفردية سمة الله في خلقه ولا بد أن تكون .

انها لفئة كريمة تحمد للمجمع وتؤكد حرصه على تعميم الفائدة من المخطوطات وإيصالها الى كل يد ذات نفع وعطاء نفعا للعلم وخدمة له وقيامًا بالأمانة الملقاة عليه والتي حملها فأحسن حملها وأداها فأتقن أداها ، والا لكانت موءودة على الرفوف ليست في عالم الأحياء .

★ ★ ★

ومن اهتمام المجمع بالتراث أنه عند الى تصوير بعض المخطوطات كما هي وإخراجها مصدرة بمقدمة دون تحقيق . كان ذلك تجربة لها ما يبررها ، وقد أشرت هند الكلام على ابن عساكر الى مصورة جزء من تاريخ مدينة دمشق (من عبدالله بن عمران الى عبدالله بن قيس الأشعري) وقد ذكر في المقدمة الأسباب التي دفعت القائمين على شؤون المجمع الى نشر المصورات : « ويرجو المجمع وهو يلبي الحاجة الماسة الى تداول كتب التراث أن يكون هذا الأسلوب في النشر سببا من أسباب الإقبال على التحقيق وتيسير وسائله بين أيدي المهتمين بالثقافة العربية دراسة وتحقيقا ، وهو بعد ذلك وسيلة من أفضل الوسائل للتعرف الى

طريقة الكتابة العربية وما التزمه المؤلفون والنساخ العرب في مؤلفاتهم وكتبهم من ضروب النقط والشكل لضبط النصوص وسلامتها من التحريف والتصحيح مما يمهّد أمام الناشئة العربية صلة بكتب التراث أوثق وأشمل ، (٧)

وكان المجمع قد أصدر من قبل مصورة عن مخطوطة الجزء الأول من ديوان الفرزدق تمهد لها مقدمة رصينة تصفها وتنبئ بجليل شأنها (٨) . كان ذلك أول عمل تصويري للمجمع أتقن إخراجة وأولاه اهتماما خاصا . ثم سكت عن التصوير حتى كان الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على ولادة محمد كرد علي فطرح بين الأيدي بهذه المناسبة مصورات عن المجلد الأول والثاني والعشرين من مجلة المجمع التي بلغ عدد مجلداتها الى اليوم ستة وخمسين مجلدا ، وما هذا الا دعما لفكرة التصوير وميلا في تحقيق رغبة الكثيرين الذين يبتغون اقتناء المجلة التي نفذ الكثير من أعدادها .

وأخر ما نشر المجمع على طريقة التصوير مخطوطة قاموس الأطباء وناموس الألبا في جزأين للدين بن عبدالرحمن القوصوني المصري سار فيه على حروف المعجم وتعرض لذكر كثير من الأمراض والنباتات والمواد التي تفيد في العلاجات وغير ذلك ، والخط الذي كتب فيه الجزء الأول يختلف عنه في الجزء الثاني ولكنها على كل حال نسخة في جزأيها معتنى بها واضحة موشاة بالحرمة .

★ ★ ★

بعد كل هذا العرض السريع لا بد لنا أن نتساءل متوقفين وفي أنفسنا شيء من كبير من

٧ - انظر مقدمة الكتاب .

٨ - انظر مقدمة الكتاب .

يجب أن يتقن الناشئة هذه اللغة ويتمكنوا منها أي تمكن ويحسنوا التعبير بها بيسر وسهولة ٠٠ لا يكفي أن تكون مناهجنا المدرسية عربية بل يجب أن تكون عريقة أصيلة كان التعليم عندنا ذات يوم أعجيباً فلما قامت الثورة العربية تولى مجمع دمشق أمر التعريب وما كلية الطب عندنا إلا شاهد صدق على ذلك ونجح في مهمته نجاحاً باهراً وما ذلك إلا لحماسته من جهة ولإصالة اللغة المبقرية من جهة أخرى . وإلى جانب هذه الخطوة الجمعية الحميدة كان المجمع يتولى تقويم الإهوجاج اللغوي من خلال مهاجمة بعض الكتب الذين ينشرون في الصحف والمجلات فيتتبع أخطأهم بروح من الفيرة الواضحة ٠ وأتت هذه الطريقة أكلها ونفدت حتى جعل الناشرون يفكرون قبل أن يقدموا على الكتابة . ونحن نأمل اليوم أن يتابع مجمع اللغة العربية أعماله كما عودنا في الطليعة حافظاً للغة راعياً لها يحمل الشعلة النيرة التي يمشي في ركابتها أولو العلم والمعرفة ، وكان ليبدأ رضي الله عنه يقول

أنا إذا التقت المجامع لم يزل

منها لزان عقيمة جسامها

من معشر سنت لهم أبأؤهم

ولكل قوم سنّة وامامها

مسؤولية : أين هو موضع التراث العظيم من المعاصرة ؟ وهل نحن اليوم ننتفع الانتفاع الحق بهذا الذخر الذي اجتهد أسلافنا العظماء أن يخلّفوه لنا ؟ كيف يمكن لنا أن نفتخر بلغتنا وعروبتنا وأصالتنا ونحن نضع هذا الارث على الرفوف ونقطع صلتنا به أو نجعلها صلة واهية واهنة ٠٠٠ الجهد الذي يقوم به بعض الدارسين جهد مشكور معترف به ، أفيكفي هذا ويغني ، أيجزىء ويفسي تجاه ما عندنا من كنوز ؟ ان على الأمة الأصيلة التي تبتغي مكانة متميزة بين شعوب الأرض أن تحافظ على أصلها ، وليس الحفاظ على الأصل كلام أجوف نردده في كلامنا وفي كتبنا بمبارات جوفاء لا تعني شيئاً . كثيراً ما نقول ونعيد : اننا صانعو حضارة مشرفة أسدت الى الانسانية خدمات جلّى ونستشهد بكلام فلان وفلان من الغربيين ثم تنتهي المشكلة ولا نسال أنفسنا وماذا صنعنا نحن . يجب أن نسال أنفسنا سؤالا جاداً : كيف يمكن أن نستفيد الفائدة الكاملة مما تركه علماء الأمة وأخبارها وتولية أهميته ونميز الغثاء منه من الثمين ٠٠ كيف تنمكس عظمة أمتنا فينا فنبدع مثلهم ونسير على خطاهم ونكون أمة عظيمة صانعة أمجاد .

أهم شيء في تراثنا لغتنا الأصيلة الممجرة التي انتشرت مع الفتح في الشرق والغرب ،

نزار أباظة

دمشق شبان ١٤٠١

حزيران ١٩٨١



تفسير أراجوزة أبي نواس

في تقرير الفضل بن الربيع

(الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م)

لطفية الشهابي

كثيرا ما يحلو للمرء أن يرجع بذاكرته الى الوراء وأن يستعيد الماضي ، ولا سيما حين يكون هذا الماضي مشرقا مضيئا ، ومن هنا فأننا نحن العرب ، نشعر بنشوة أيما نشوة حين تمر أمام مخيلتنا شرط الماضي الجميل وان من أجمل ما يحمله ما ضينا ذلك التراث الثقافي الواسع ، وتلك اللغة التي وسعت جوانب ذلك التراث ، بعد أن وسعت كتاب الله ، والتي ما زلنا نتمتع بقراءتها وسماها ، وما زالت من أبرز الروابط التي تربط مواطنينا العرب من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال الى أقصى الجنوب . فكأننا ونحن نعيش مع هذه اللغة الآن ، نعيش معها بُعد العمق في ماضيها . وهذا العمق نسبي دائما ، شأنه شأن الماضي ذاته . فنحن نعيش الآن مع أبي نواس على أنه ماض قديم بينما عاش معه ماصروره ، وهو حديث مبدع مجدد متحضر يحاول في بعض قصائده أن يقلد القدماء أو الأعراب المفرقين في بداوتهم وفصاحتهم .

فقد أراد أولئك الشعراء المحدثون المتعمدون في العصر العباسي ، الذين أثرت فيهم الحضارة ورققتهم حياة المدن أن يشبثوا للعلماء واللفويين أنهم ليسوا أقل قدرة على استيعاب الغريب وتضمينه أشعارهم من أولئك البداءة الجفاة من الرجاز أمثال رؤبة والمعاج . وهكذا نظم أبو نواس أراجوزته في مدح الفضل بن الربيع ، سالكا سبيل أولئك الرجاز المعروفين مثلما فعل بشار من قبله حين تحدا عقبة بن رؤبة ، وكان هذا الأخير ينشد عقبة بن سلم رجزا ، فقال لبشار : (هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال بشار : ألي يقال هذا ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك ، فقال له عقبة : أنا والله وأبي فتعنا للناس باب الغريب ، وباب الرجز ، والله اني لخليق أن أسده عليهم ، فقال بشار : ارحمهم رحمة الله ، فقال عقبة : أتسخر بي يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ٠٠٠٩ ثم خرج من عند عقبة مضطربا ، فلما كان من غد غدا على عقبة وعنده عقبة ابن رؤبة ، فأنشده أراجوزته التي يمدحه فيها ومطلعها :

يا طلل الحي بذات الضمد بالله خبر كيف كنت بعدي

وهكذا كانت أراجوزة بشار المطولة المتنوعة الأغراض والأفكار المشوة بالغريب الفائضة بالجزالة والقوة تعديا صريحا ، كما يؤكد هذا الخبر ، لأولئك الرجاز وأمثالهم من الشغوفين بالغريب والجزل من القول .

وربما أمكن أن يقال مثل هذا في أراجوزة أبي نواس التي مدح بها الفضل ابن الربيع .

وإذا كانت الكتب القديمة لم تسرد لها خبرا صريحا يفيد التحدي، فإن مجرد مقارنتها بأشعار أبي نواس الأخرى ، وما تنقسم به تلك الأشعار من وضوح وبعد عن الغريب ، ربما دفعنا إلى تصور هذا التحدي المقصود لاسيما أننا نلاحظ ظاهرة الجزالة والقوة بارزتين في أشعار المديح التي قدمها أبو نواس بين يدي الرشيد وغيره من وجوه الدولة العباسية . فكأنما غرض الشاعر أن يثبت مقدرته الكاملة أمام أولئك العرب ؛ أو كأنه يدرك أن أدواقهم لا تستريح إلا لهذا النوع من الشعر ، وإن كانت تلك القصائد لا تصل إلى ما وصلت إليه الأرجوزة من الغريب .

وقد طلب أحد أصحاب ابن جني منه أن يفسر له هذه الأرجوزة ، فاستجاب عالمنا الجليل لرغبته وعمد إلى تفسيرها وتوضيحها .

وجاء الأستاذ محمد بهجة الأثري فأبرز هذا التفسير إلى عالم الكلمة المطبوعة مضيفا إليه كل ما يحتاجه من مقدمات وتعريفات وتحقيقات وتذييلات رأها لازمة .

وبين يدي من هذا الكتاب نسخة من طبعته الثانية التي طبعها مجمع اللغة العربية في دمشق عام ١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م .

قدم الأستاذ الأثري لهذه الطبعة بمقدمة مطولة تجاوز عدد صفحاتها تسعين صفحة ، جعلها ذات أقسام :

القسم الأول عرف فيه بالكتاب وهو تفسير أرجوزة أبي نواس لأبي الفتح عثمان ابن جني ، وذكر فيه أن ابن جني نفسه كان واحدا من حفاظ هذا الرجز والمعنيين به . ومن هنا سأل بعض أصحابه من هؤلاء الشبان البغداديين أن يفسره له ، فاستجاب أبو الفتح « قضاء لحق مودته » ، وإن ابن جني على ما عرف عنه من علم وسمعة ، كان قد ذكر أنه قرأ الأرجوزة على أستاذه أبي علي الفارسي (ليضم علمه إلى علمه ، ويزداد به فهما لما هو مقبل على شرحه) .

ويعدد لنا الأستاذ الأثري في هذه المقدمة بعض فوائد هذا الشرح ؛ وأولها (أنه يصح لنا بعض شعر هذا الشاعر العظيم الذي انتشر التحريف والفساد في شعره قديما ، وزادته الأيام سوءا) . وثانيها (أن ابن جني قد سجل به مرحلة جديدة في كتابة شروح الأشعار القديمة والمحدثه ، وتطويعها بالانتقال من طور الوقوف عند تفسير الغريب وتدوين اختلاف الروايات إلى طور التوسع في هذا الشرح وتشقيق الكلام في فنون شتى من المعارف اللغوية والأدبية وغيرها) .

ويورد لنا المحقق الأدلة الصحيحة المؤكدة نسبة هذا الكتاب إلى ابن جني ، ثم يذكر لنا النسخة التي اعتمدها في تحقيقه ، وكانت نسخة واحدة صادفها في المدينة المنورة لم يستطع العثور على سواها قبل الطبعة الأولى ، ولكنه اعتمد معها على كتب ابن جني الأخرى . في تحرير هذه النسخة وتصحيحها ، كما اعتمد على المعجمات اللغوية ، وأخيرا على شروح الشواهد ودواوين الشعراء . ثم عمد إلى زيادة ما تجب زيادته في الهوامش ففسر

ما أهمل ابن جني تفسيره ، ورقم الآيات القرآنية ، وخرج الأحاديث الشريفة ، وتقصى الشواهد الشعرية ، وترجم للأعلام ترجمات وافية .

وقد سرد لنا الأرجوزة متوالية بمد التمرير بالكتاب ، مفصولة عن الشرح ، وانتقل بعدها في القسم التالي من المقدمة الى التمرير بالفضل بن الربيع ، فترجم لحياته وعرفنا بالفترة التاريخية التي كان يعيش فيها ، وبين مركزه في الدولة العباسية وطبيعة صلاته مع الخلفاء العباسيين .

ثم وضع أمامنا ترجمة لأبي نواس المادح بعد أن عرفنا بالمدح ، فأعطانا صورة معتدلة الألوان والخطوط لهذا الشاعر الذي أكثرت الكتب القديمة من الحديث عنه ومنحته ملامح مضطربة من بعض جوانبها ، فحاول المحقق أن يزيل بعض الخطوط التي اعتقدها وهمية أو بعيدة عن الصحة .

وأخيرا في القسم الرابع من المقدمة التفت الكاتب المحقق الى مؤلف هذا الشرح (أبي الفتح عثمان بن جني) فترجم لحياته ترجمة مناسبة ذاكرا أصله ونسبه وثقافته ، وأساتذته ، ومذهبه الديني ، وضابطا اسمه أو نسبته ومتحدثا عن مؤلفاته وعن المراجع التي أشارت الى هذه المؤلفات .

وقد ذكر أن مؤلفات ابن جني تبلغ الخمسين كتابا ، ولكن ما وصل منها الى دور المطابع لا يكاد يزيد على اثني عشر كتابا .

وأخيرا عمد الى مقدمة أخرى موجزة خصصها للطبعة الثانية ، وهي التي بين أيدينا ، وأشار فيها الى أنه اعتمد لهذه الطبعة مخطوطة أخرى لندنية إضافة الى مخطوطة الطبعة الأولى التي كان عشر عليها في المدينة المنورة . وبين أوجه الالتقاء والاختلاف بين المخطوطين ، ثم ختم مقدمته بمجموعة صور عرضها لبعض صفحات المخطوطين ، مخطوطة المدينة ومخطوطة المتحف البريطاني .

وقد بلغت هذه الأقسام المتنوعة للمقدمة ما يزيد على التسعين صفحة رقمها المؤلف بالأرقام غير العربية تمييزا لها ، على ما يبدو ، عن صفحات الكتاب ، التي بدأها بالأرقام العربية ، فكانت مئتين وسبع عشرة صفحة . ثم تلت الكتاب صفحات خمس صحح فيها المحقق ما وقع من أخطاء في الطبع . وأتبع ذلك بفهرس للألفاظ اللغوية والى جانبها معانيها الموجزة بما يقارب السبع عشرة صفحة ثم فهرس المسائل :

أ - مسائل علم العربية : النحو ، الصرف ، الاشتقاق .

ب - مسائل العروض والقافية .

د - مسألة فقهية .

هـ - فوائد أدبية .

ج - مسائل البيان .

وأتبع ذلك بفهرس الآيات القرآنية ثم الأحاديث الشريفة وبعدها الأمثال يليها فهرس أسماء القصائد ثم الأيام والحروب ويلى ذلك فهرس الاشعار ثم الأعلام ثم فهرس الأمم والقبائل والأسر والمذاهب ، وقد أشار في حاشيته الى أنه لم يضمه أسماء القبائل والأسر والمذاهب التي وردت في مقدمة التحقيق . وبعده فهرس البلدان والأمكنة والبقاع .

وأخيرا أشار الى مراجع المقدمة والتحقيق والتعليق ، فكان تحقيقا متميزا وجهدا مشكورا أعادنا فيه الأستاذ محمد بهجة الأثري الى صفحات من تراثنا الخالد في الشعر واللغة والغريب ، والشرح والتفسير ، وأسبق لنا هذه الصفحات بمقدمات مفصلة تناول فيها الشاعر المادح ، والشخصية الممدوحة ، والمؤلف الشارح لذلك المدح ، والجهد الذي بذل لابرار ذلك كله ، ثم عقب بمد تحقيق ذلك الشرح بالفهارس والذبول المتنوعة الكافية لتسهيل العودة الى كل ما يحتاجه القارئ من هذا الكتاب .

جزى الله شاعرنا أبا نواس وعالمنا ابن جني ومحققنا محمد بهجة الأثري خير الجزاء على ما بذلوه لخدمة تراثنا وحفظ لغتنا التي هي الركن الخالد من أركان حضارتنا في ماضينا وحاضرنا ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .
ومن حق القارئ علينا في الختام أن نذكر له مطلع هذه الأرجوزة الموسومة بمنهوكه أبي نواس لأنها من منهوك الرجز :

وبلدة فيها زور صغراء تخطى في صقر

وكانني بالقارئ حين يعلم أن أبيات هذه الأرجوزة تنوف على الخمسين بيتا لن يستغرب أن يأتي شرحها كتابا برمته . فاي غريب ذاك الذي جشم أبو نواس نفسه مشقة إمراده في هذه الأرجوزة التي بدأها بوصف البقاع المسيرة الاجتياز ، ثم وصف الجمل القوي الذي كان مطية الانتقال عبر هذه البقاع والتي كانت طريقه الى الممدوح . ثم أخذ بعد ذلك بالمديح ؛ منتقلا بين شتى الخصال التي يمتاز بها العربي بمباراة موهلة في الصعوبة والغرابة لا يكاد يخيل لقارئها أن قائلها نفسه هو الذي قال :

عاج الشقي على رسم يسائله	وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد	لا در درك قل لي من بنو أسد
لا جف دمع الذي يبكي على جمر	ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
دع ذا عدمتك وأشربها معتقة	صفراء تفرق بين الروح والجسد
فاشرب وجد بالذي تحوي يداك لها	لا تدخر اليوم شيئا خوف فقر غد

وقال أيضا في مدح الفضل :

يا فضل جاوزت المدى	فجللت عن شبه النفلير
أنت المعظم والمكبر	في العيون وفي الصدور
ما زلت في عقل الكبير	وأنت في سن الصغير
حتى تعصرت الشبية	واكتسبت من القدير
صف المداخل والمغارج	والفريزة والضمير

فأي سهولة ووضوح هنا ، وأي صعوبة ووعورة هناك ؟ ولكنه التحدي والرغبة في اثبات القدرة على مجازاة الأوائل ومهارة أساليبهم ومدارسهم .

لطيفة الشهابي

دار المعلمات - حلب

محمد بن موسى الخوارزمي

تأليف الأستاذ زهير الكتبي - نشر وزارة الثقافة بدمشق

الدكتور نسيب نشاوي

« في قصص العلماء من الروعة والرواء ما يفوق الأساطير .. كانوا رواداً يحدوهم حب الحقيقة الى اقتحام اللجج في بحر الحقيقة الزاخر ليشعلوا النار المقدسة ناز المعرفة للأجيال القادمة ، وان عالمنا العربي محمد بن موسى الخوارزمي أحد هؤلاء الرواد الذين حملوا مشعل المعرفة العلمية عالياً وحافظوا عليه وزادوا في رونقه وجماله وتوهجه » .

بهذه العبارة الفنية استهل الأستاذ زهير الكتبي الكتاب الذي ألفه تحت عنوان « محمد بن موسى الخوارزمي » ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ضمن سلسلة علماء العرب عام ١٩٦٩ م . ففي هذا العام بدأت وزارة الثقافة الحلقة الأولى من سلسلة تراجم العلماء العرب الذين أسهموا في بناء الحضارة الانسانية ، وكانت الغاية تربية محضة لوضع التراث العلمي العربي في متناول الجميع ليأخذ طريقه الى الافادة الجماعية ضمن مفهوم ابراز الشأن الحاسم الذي أنجزه أجدادنا في انشاء العلم الحديث .

والمؤلف من الأساتذة المتخصصين بتاريخ الرياضيات العربية ، وله عدة مصنفات فيها منها كتابه « تاريخ الرياضيات » الذي نشر بدمشق ١٩٥٩ م ، وأما كتابه « محمد بن موسى الخوارزمي » فهو في جملته دعوة صريحة مباشرة الى الاقتداء بالسلوك العلمي الرفيع وعنوان التجديد والابتكار الذي كان عليه

علماء العرب في فجر النهضة العلمية الواسعة التي تألقت على أجمل ما يكون في عهد الخليفة المأمون ، وقد بث فكرته هذه في أثناء الترجمة المفصلة لحياة الخوارزمي وكشفه العلمية في ميادين الرياضيات والفلك والجغرافية والهندسة والجداول الخاصة بحساب المثلثات ٠٠

حياة الخوارزمي :

مهد المؤلف بكلمة قالها « لاجرائنج » عندما سقط رأس العلامة لافوازيه عن المقصلة وهي : « لقد استغرق حز عنقه دقيقة من الزمان أو بعض دقيقة ، ولكننا نحتاج الى قرن كامل قبل أن ننجب عالماً آخر مثله » .

ثم عرض حياة الخوارزمي فذكر أن اسمه أبو عبدالله محمد بن موسى من خوارزم ، أقام ببغداد حيث اشتهر وذاع صيته ٠٠ وكان منقطعاً الى « خزانة الحكمة » للمأمون الذي شجعه وأدناه وبسط كنفه له ولسائر علماء عصره وأعانهم على البحث والتأليف ثم أبان أن وفاة الخوارزمي بعد سنة ٢٣٢ هـ ، وكذلك أورد المؤلف قصة نادرة عن عصر الخوارزمي وهي أن هارون الرشيد كان يكرس احترامه للعلم بنفسه بنفسه يدي أحد كبار العلماء العرب على مشهد من الجمهور وهو تقليد ماجد عظيم ٠٠ وأن المأمون سار على نهج والده الرشيد وكان عالماً محققاً أرسل البعثات في طلب المخطوطات شراء ونسخاً وفرض على أعدائه المهزومين في المعاهدات تنازلهم عن بعض المؤلفات اليونانية النادرة الثمينة ، وكان على رأس إحدى بعثاته الكبيرة عالمنا الخوارزمي الذي ذهب الى أفغانستان والهند التي اطلع فيها على شكل الأرقام الهندية ٠٠ ولما كثرت المخطوطات أنشأ المأمون « خزانة الحكمة » عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م وأوكل اليه ادارتها وهي مدرسة عاش فيها المترجمون والمحققون والعلماء متفرغين لأعمالهم وتحقيقاتهم العلمية على حساب الدولة ترفدهم جوائز سنوية لكل انجاز ، ويظن سوتر بناء على تحقيقات جغرافية أن الخوارزمي كان أحد الذين كلفهم المأمون بقياس درجة من درجات محيط الأرض « الكرة الأرضية » وذلك في سبيل تحديد محيط الدائرة العظمى للأرض :

محيط الدائرة العظمى للأرض كما أجراه الخوارزمي ورفاقه ٤٠٢٤٨ كم
محيط الدائرة العظمى للأرض كما هو معروف اليوم ٤٠٠٧٠ كم
الفرق ١٧٨ كم

ان هذه الموازنة لتظهر لنا مهارة عالمنا الخوارزمي ورفاقه ودقتهم في الرصد واستخدام آلاته وتحري الحقيقة العلمية الخاصة وسبقهم أسم العالم أجمع في ميدان علم الفلك .

مؤلفات الخوارزمي :

ثم بسط الأستاذ زهير الكتبي الحديث عن مؤلفات الخوارزمي وقال : انه من أكبر علماء العرب ومن العلماء العالميين الذين تدين لهم المدنية الحديثة بما تركوه وأضافوه من كنوز جديدة الى كنوز المعرفة الثمينة . ثم أورد مؤلفاته شارحاً أغراضها العامة وتأثيراتها في تقدم العلوم الحديثة في ميدان الجبر والهندسة والرياضيات عامة والفلك والجغرافية . والجهد الكبير الذي بذله والنضال الدائب من أجل تقدم العلوم والمعرفة الانسانية . وعدد منها :

١ - « الجبر والمقابلة » وعنه أخذ الغربيون كلمة « جبر ALGEBRE »

٢ - شرح نظام استخدام الأعداد الهندية والعمليات الأربع وحساب الكسور . وهو أول كتاب دخل أوربة وبقي زمناً طويلاً مرجع العلماء والتجار ، وبقي علم الحساب قروناً معروفاً فيها باسم « الفوريتمي Algoritmi » نسبة الى الخوارزمي .

٣ - كتاب « صورة الأرض » شارك فيه برسم خريطة العالم متوسعاً بجغرافية بطليموس .

٤ - « تقويم البلدان » شرح فيه آراء بطليموس شرحاً مستفيضاً وجدها بلا تقليد للأراء الاغريقية بل بالبحث المستقل في علم الجغرافية فصحح حساب محيط الدائرة العظمى للأرض الذي صنعه بطليموس .

٥ - كتاب « الزيج » الاول والثاني وهو من فروع علم الهيئة ، وهو صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق . يعرف به مواضع الكواكب في افلاكها . وان « جدول الجيوب » وجد أول مرة في « زيج » الخوارزمي .

٦ - « العمل بالاسطرلاب » وكتاب « الرخامة » وهما في علم الفلك والحسابات الفلكية .

ووضع الخوارزمي الجداول بحساب المثلثات .

وله أيضاً كتاب « الهندسة » ، وكتاب « التاريخ » ، وكتاب جمع بين الحساب والهندسة والفلك والموسيقى .

هذا بعض ما ذكره المؤلف من مصنفات العالم العربي ، وقد أفرد لكتاب « الجبر والمقابلة » بحثاً خاصاً ص ٥٩ - ٨٣ تناول فيه طبقات الكتاب وأصوله المخطوطة وشروحه وتفسيراته والدراسات التي أقيمت عليه قديماً وحديثاً .

ولكن الأجل أن الأستاذ الكتبي حلّ نماذجاً من المعادلات الرياضية التي عرضها الخوارزمي وفاق الاصطلاح الحديث المستعمل في لغة الجبر ورموزه وبذلك يسر التفهم الرياضي للرموز القديمة وقال : « ان الخوارزمي اكتشف الحالة التي يتساوى فيها جذرا المعادلة ويكون كل منهما مساوياً لنصف أمثال س بالاصطلاح الحديث كما نبه على ضرورة جعل أمثال س^٢ يساوي الواحد دوماً » وعرض في هذا الباب الأنواع الستة لمعادلات الدرجة الثانية التي أوردها الخوارزمي بلغته وبالاصطلاحات الحديثة معاً .

قصة الخوارزمي مع الأرقام العربية وأثره في تقدم العلوم :

هنا استخدم المؤلف الأسلوب القصصي في عرض اسهام الخوارزمي في تقدم الرياضيات واستشهد بمقولة المستشرق الألمانية زيفريد هونكه التي تشي باتباع الألمان لنظام قراءة الأعداد عند العرب ، وساق عباراته بفن بياني رفيع شوق الى المعرفة وحفز على المطالعة وخفف جفاف المادة العلمية ويسر تفهمها الأمر الذي نأمل من جميع المدرسين أن يكونوا عليه في قاعات التدريس ، فقد روى قصة قدوم عالم فلكي هندي اسمه كانكا Kankah على الخليفة المنصور عام ١٥٦ هـ ووقوفه بحضرتيه وكان عالماً بالحسابات الهندية المعروفة باسم سد هانت Siddhanta لحركات الكواكب ، وأمر المنصور بترجمة هذا الكتاب الى العربية وتأليف كتاب على نهجه يشرح للعرب سير الكواكب ، وعهد بهذا العمل الى ابراهيم الفزاري الذي ألف على نهجه كتاباً يعرفه الفلكيون باسم « السند هند الكبير » وقد أخذ العلماء به منذ عصر المأمون اذ أعاد الخوارزمي كتابته وأضاف اليه وسمي كتابه « السند هند الصغير » ، وألف عدة كتب بيّن فيها ذلك النظام الهندي وطريقة استخدامه عملياً ..

وقد شرح البيروني كتاب الحساب الذي وضعه الخوارزمي ، ثم ترجم ابن ماجد هذه الشروح الى العبرية ، ونقل كتاب الخوارزمي في الحساب الى اسبانية حيث ترجم الى اللاتينية في القرن ١٢ م وحمل الى جميع أنحاء أوربة وبقي يستعمل في المدارس والجامعات الأوربية قروناً متعاقبة .

وعرض المؤلف شكل الأرقام الهندية التي اطلع عليها الخوارزمي في بعثته التي أرسله فيها المأمون الى الهند وأفغانستان، الأولى سميت الحروف الهندية واستقرت على الصورة التالية بعد تطورها : ١-٢-٣-٤-٥-٦-٧ . . . والثانية الحروف الفبارية « لأن أهل الهند كانوا يأخذون غباراً لطيفاً ويبسطونه على لوح من خشب ويرسمون عليه الأرقام . . . ودخلت أوربة وعرفت باسم الأرقام العربية Arabic Numérals وهي : 1-2-3-4 . . . وتوسع المؤلف في الكلام على هذه الأرقام وقال : لم يقتصر الخوارزمي على تعليم الغرب كتابة الأعداد والحساب فقد تخطى تلك المرحلة الى المعقد من مشاكل الرياضيات، وما زالت القاعدة والطريقة الوضعية في حل المسائل التي تسمى : الجورزمس Algorithmus تحمل اسمه حتى اليوم كعلم من أعلامها . . . وقد عُرف أنصار الخوارزمي في اسبانية وألمانية وانكلترا الذين كافحوا كفاحاً مريئاً من أجل نشر طريقته الرياضية باسم الخوارزميين Algorithmiker وكان ظفرهم عظيماً فانتشرت الأرقام العربية التسعة يتقدمها الصفر في كل أنحاء أوربة . . .

ثم انتقل الى الكلام على الصفر العربي وجعل له بحثاً خاصاً ، وتلاه باب « الجبر والمقابلة » .

أسلوب الكتاب وأهدافه :

الكتاب في أغراضه البعيدة يهدف الى تربية الجيل الجديد من خلال عرض الاشاعات الفكرية والعلمية والاضاءة العامة الحضارية التي تألقت منذ فجر النهضة العربية فأنارت عصر القرون الوسطى ليشب الجيل العربي الجديد واثقاً من ماضيه المجيد مندفعاً من داخله الى صناعة الحاضر صناعة علمية لا تواكل فيها على حضارة الآخرين ، بل اقتداء بالسلوك العلمي الرفيع الذي كان عليه أجدادنا العرب . . .

ولقد كان المؤلف الأستاذ زهير الكتبي معلماً حقاً في تمكنه من المادة العلمية التي عرضها ، وتتبعه الدقيق لمراحل تطور الرياضيات على يد الخوارزمي وتبسيط مفهوم الجبر والمقابلة والهندسة القديم وترجمته الى لغة الرياضيات الحديثة . حتى ليكاد يفهمه كل انسان ولو لم يكن مختصاً ، وهذا يدل على سعة آفاق المؤلف التربوية والثقافية ، يضاف الى ذلك أمانته العلمية في عرض البحوث اذ كان يشير الى مصدر الفكرة الذي أخذ عنه ، وقد أثبت في نهاية الكتاب المراجع والمصادر العربية والفرنسية التي أخذ عنها .

والكتاب فوق هذا وذاك نوع من الأدب الانشائي الزاهي ، في كل فقرة منه لوحة أدبية فيها البيان العربي الأصيل بمعاراته المشرقة وألفاظه المنتقاة من معادن الفصاحة ونأيه عن التكلف وأسر الصناعة اللفظية والمعاظلة الكلامية . لقد جمع المؤلف الى جمال المعنى نبل المقصد وبعد النظر وجمال الأداء ورونق اللفظ وبهاء التعبير .

د . نسيب نشاوي



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي



□ كتاب جديد تحت الاضواء

أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في يوغوسلافيا

تأليف المستشرق : د. حسن كاليشي

عرض و نقد المستشرق : فتحي مهديو

جامعة بريشتينا
استاذ قسم الاستشراق

وضع الدكتور (حسن كاليشي) كتابه القيم الموسوم (أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في يوغوسلافيا) والمؤلف هو رئيس قسم اللغات الشرقية بجامعة (بريشتينا) في كوسوفا . وقد تم افتتاح هذا القسم في العام الدراسي ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م . وعلى حداثه عهده جذب اليه الكثير من محبي الثقافة والحضارة العربية التي انتشرت بين شعوب البلقان طوال خمسة قرون .

وكان لصدور الكتاب اثر عظيم في المنظمات والمؤسسات العلمية في البلاد اليوغوسلافية وفي خارجها . وعلى الرغم من قصر الزمن على صدوره ، فقد كانت له أصداء واسعة في المؤسسات العلمية الثقافية . فما يجدر ذكره أن الأستاذ (الكسنندر بوبوفيتش Aleksander Popović) هلق عليه في أقدم مجلة علمية للبحوث الشرقية في العالم وهي (الجريدة الآسيوية Journal Asiatique) في باريس ، وعرض فيها فهرسة للبحوث العلمية ذكر فيها مؤلف الأستاذ الدكتور (حسن كاليشي) كذلك نشرت عنه (المجلة الدولية الاسلامية في هامبورغ Der Islam Hamburg) وكتب الأستاذ الدكتور هانز جورج (Hans Jürgen) في المجلة البلغارية Edudes Balcanques في صوفيا . وتحدثت عنه عدة دراسات في المجلات المحلية في يوغوسلافيا .

ان الكتاب المذكور له أهمية كبيرة جدا من حيث أنه يعرف بالتاريخ الثقافي للعرب في بلاد البلقان ، وينقل للعالم العربي صورة من البحث العلمي في يوغوسلافيا ، وهو محبوب في ثمانية أبواب مع مقدمة وقائمة أبجدية ومدخل للكتاب .

أما الباب الأول (من ص ٢١ الى ص ٤٩) فيتحدث المؤلف عن دخول اللغة العربية في يوغوسلافيا وانتشارها في أصقاعها ، ويبحث أيضا في أثر الثقافة والمدنية الاسلامية في البلاد .

وفي الباب نفسه يصف المؤلف تقبل الشعب اليوغسلافي للثقافة والكتابة والمدنية العربية التي كان لها أثر بارز في حياة الشعب اليوغسلافي بل في حياة شعوب كثيرة في الشرق والغرب على حد سواء .

لأول مرة يبحث المؤلف بأسلوبه المميز عن الوثائق المتعلقة بالزواج والطلاق والمرافعات والطلاق الصراح على الرقيق والمسجلات المختلفة والشهادات التي كتبت باللغة العربية . وليس باللغة التركية العثمانية . وهو يقدم النصوص الأصلية باللغة العربية ، ولكن مما يؤسف له أن نسخها على الآلة الكاتبة أفقد على القارئ فرصة الاطلاع عليها كما وردت في نصوصها الأصلية .

قد تكون قراءة هذه النصوص في أصولها سببة على الباحث العلمي ، لكن كان بمقدوره أن يقدم لنا هذه النصوص بصورتها الأصلية بعد عرضها بخط الآلة الكاتبة ، لكن ذلك من الأفضل . ويجدر أن نذكر من هذه الوثائق (اجازتناه) وهي تنقل لنا كشفاً بأسماء الأساتذة والعلماء في مختلف ميادين العلم والثقافة .

ويورد لنا في هذا الباب أيضاً أن المسيحيين كانوا يتقدمون الى قضاة المحاكم الشرعية بدعاوى الزواج والطلاق ، ولهذا الأهمية بالغة من الناحية الاجتماعية والدينية . أما في الباب الثاني من ص ٤٩ الى ص ٦٣ فالمؤلف يبحث عن الوقفيات وطبيعتها فيقسمها الى ثلاثة أبواب :

٦ - المخطوطات الوقفية

ب - النسخ الوقفية التي تقدم لنا صوراً عن النسخ الأصلية للوقفية المفقودة .

ج - الوقفية نفسها التي تقدم لنا المصادر الأولى أو النسخة الأصلية التي تمكننا من الوقفيات من الناحية التاريخية والقانونية واللغوية وغير ذلك من الجوانب .

وفي الباب نفسه يتحدث المؤلف عن الجوانب الدبلوماسية للوقفيات وعناصرها المختلفة ، فقد تكون بياناً تفسيرياً أو تحويلاً للملكية بالهبة أو البيع أو بالوصية أو بالشرطة ، وأوضاع الوقفيات أمام المحكمة والمراسيم القانونية . الخ .

ولقد أشار المؤلف أن موضوع الوقفيات الدبلوماسية يدرس لأول مرة دراسة علمية إذ لا نجد ذلك في البحوث الدبلوماسية العثمانية التي ظهرت حتى الآن كدراسة المستشرقين (ل . فيكيت L. Fikit - كوبوكلو Kuboklu) (١) .

أما في الباب الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن (من ص ٦٥ الى ص ٣٠٨) فيستعرض تسع وقفيات باللغة العربية في يوغسلافيا ، أولها :

١ - وقفية (سنكر كاوش بك Senker Kaaush Bej) من مدينة مناستير ، ويعود تاريخها الى شهر ابريل ١٤٣٥ م (ص ٧١-٨٨) . ويشير المؤلف الى أن هذه الوثيقة هي أقدم الوثائق المدونة من نوعها في اقليم يوغوسلافيا مما تم اكتشافه حتى الآن .

١ - وهما مستشرقان من الباحثين المسلمين في علم اللغة التركية .

٢ - وقفية (اسحاق بك Ishak Bej) من مدينة اسكوبيا وتاريخها فبراير ١٤٤٥ (ص ٩٥ - ١١٨) .

٣ - وقفية (سنان الدين جلبي Sinan Qelebi) وتاريخها عام ١٤٩١ (ص ١١٩ - ١٤٣) .

٤ - وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها يونيو ١٥٠٦ م .

٥ - وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها يونيو ١٥٠٨ م .

٦ - وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها يونيو ١٥١١ م .

٧ - وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها ايلول - تشرين اول ١٥١١ م (ص ١٥٢ - ٢١٨) .

من هذه الوقفيات الأربع اثنتان لاسحاق جلبي من مناستير (٢) واثنان اخريان من
سلانيك (٣) .

٨ - وقفية (مصلح الدين المارديني Musleh Din Mardini) وهو الذي بنى (خان قرشملي) في مدينة اسكوبيا . ويمود تاريخها الى ٢١ ديسمبر ١٥٤٩ - ٢ يناير ١٥٥٠ م وهي احدى الوثائق التي اشتهر المؤلف بكتابتها بأسلوبه الرصين (ص ٢٢٥ - ٢٥٦) .

٩ - وقفية (كوجوسنان باشا Kygy Sinan Basha) وتاريخها ٢٣ يوليو ١٥٥٦ م (ص ٢٧٨ - ٣٠٨) .

ويقدم المؤلف هذه الوثائق باللغة العربية ثم يتبعها بنسخها الأصلية لكي يتمكن الباحث العلمي من المقارنة بينها وبين أصولها ، ويمهد لكل وثيقة بدراسة عن انشاء الوقفيات قبل الحديث عن الوقفية نفسها ، فنرى مثلاً دراسته عن الوزير / كوجوسنان باشا / اذ يقول : انه الباني الجنسية من (توبويان Tubujan) في منطقة (لوما Luma) انه يعطي لنا صورة حسية عن مزيد من الشخصيات الألبانية في هذا المجال ، وقد نجده يشك بالوقفية تاريخياً وفيلولوجياً ثم يعرض النص الأصلي والترجمة . ولو بدأ بالترجمة ثم قدم النص الأصلي لكان من الأفضل وهو يحلل كل وثيقة على حدة تحليلاً علمياً .

ولا يكتفي المؤلف بدراسة الوقفيات وترجمتها فحسب بل نجده يبين أموراً أخرى ذات أهمية علمية بالغة . منها انه يقارن موقف الباحثين من كل مشكلة تاريخية ، ويعرفنا بالمناوئين الكاملة للبحوث التي تطرقت لدراسة الوقفيات ويقدم لنا صورة حقيقية عن المؤلفين ومؤلفاتهم وسيرهم (٢٠٥ - ٣٤٨) وقد نراه يصحح لبعض المؤلفين الذين تطرقوا

٢ - مدينة في جنوب يوغوسلافيا .

٣ - مدينة في مقدونيا قريبة من بلاد اليونان .

لمشكلة الوقفيات • بعد دراسة جدية فان الأستاذ الدكتور (حسن كاليشي) يحاول أن يضع المشكلة في موضعها الحقيقي فيحللها تحليلًا كاملاً •

وبهذا يقدر على تصحيح النص في الوثيقة التي تأخذ بعد ذلك شكلها الحقيقي (الصفحات ١٢٤ - ١٢٥ - ١٦٠ - ١٦١) •

وينبغي ألا تدهشنا نزعة المؤلف العلمية وترجمته الأمين كما أشرنا فالأستاذ الدكتور (كاليشي) هو متمكن من اللغة العربية في البلاد اليوغسلافية • وفي أثناء تأليفه لهذا الكتاب رجع الى مصادر عديدة بلغات مختلفة من تركية وألمانية وانكليزية وفرنسية •

وفي الصفحات التي تقع ما بين ص ٣٠٩ الى ٣١٣ يختم المؤلف كتابه وتليه صفحات المصادر والمراجع ٣١٥ - ٣٢٠ • ونرى أن المؤلف قد اهتم اهتماماً كبيراً بتحقيق الكتاب فرجع الى مكتبات أنقرة وإستانبول وبوسنة ومقدونيا وكوسوفا •

وختم الأستاذ الدكتور (حسن كاليشي) كتابه ٣٢١ - ٣٤١ باللغة الألبانية والألمانية • ولو قدمها بالعربية لكان أقرب الى العارفين بهذه اللغة وذلك أفضل بكثير لأن الكتاب يهتم بالثقافة العربية وانتشارها في الدول البلقانية •

وقد أورد في خاتمة الكتاب الأسماء الجغرافية والطوبوغرافية ص ٣٤٣ - ٣٤٤ وأسماء الأعلام ص ٣٤٨ - ٣٥٦ •

فالكتاب مكتمل من الناحية العلمية ، وقد بذل (د • كاليشي) جهداً ملحوظاً في تأليفه مع الاعتراف ببعض الهنات كما ذكرنا آنفاً ، لكنها لم تؤثر في ما قدم لنا المؤلف من دراسة وتحليل علمي وبحث •

ولهذا الكتاب أهمية ثقافية ولا سيما في مجالي التاريخ السياسي والقانون فهو يتطرق في مواضع جمة الى الحكم العثماني في يوغسلافيا ، ومن خلال الوثائق المطبوعة في هذا الكتاب عرفنا أسماء عدد من منشئي الأوقاف الذين لعبوا دوراً فعالاً في بناء منشآت كثيرة ثقافية وصحية ودينية واجتماعية وتاريخية وأدبية •

وقد كشف المؤلف بهذه الوثائق بعض الجوانب التي لم تكن مدروسة دراسة موضوعية نذكر على سبيل المثال أنه أظهر أن (خان قرشملي) في اسكوبيا لم يكن من بناء (جوستنيان

Justinian) كما ذكر بل انشاء (المارديني) الذي أنشأ خاناً وحماماً في تريپچا Trepça و (سوق نوفي Nuvi Pazar) كما حل مشكلة بناء جامع سنان باشا في مدينة بريزرين Prezeren ومدينة (كاجانيك Kaçanik) •

ولا شك أن كتاباً من هذا النوع يتطلب تحقيقه المأماً بالمخطوطات العربية والتركية ومعرفة بأنواع المنشآت • ليس لنا الا أن نهنيء المؤلف متمنين أن يواصل عمله الثمين في هذا المجال •

فتحي مهديو
جامعة بريشتينا - كوسوفا - يوغسلافيا

أبو علي الفارسي و«المسائل المنثورة»

رضوان الحسن
كلية الآداب - جامعة دمشق

نوقشت علناً في كلية الآداب بجامعة دمشق ، مساء الثلاثاء (في ١٨ شوال ١٤٠١ هـ ، ١٨ آب ١٩٨١) الرسالة الجامعية التي تقدم بها السيد مصطفى العدري ، لنيل درجة الماجستير في الآداب ، وعنوان الرسالة : « أبو علي الفارسي وتحقيق كتابه : (المسائل المنثورة) » .

وكانت لجنة الحكم على الرسالة تتألف من السادة الأساتذة : الأستاذ الدكتور شاكر الفحام مشرفاً ورئيساً ، والأستاذ عبد الهادي هاشم عضواً ، والدكتور محمد علي سلطاني عضواً .

وشهد المناقشة لفيف من أساتذة كلية الآداب ، وجمهرة من طلبة الدراسات العليا فيها ، وعدد من المهتمين بالتراث العربي .

ولا بد لنا ، قبل أن نعرض للمناقشة ، ولما طرح في أثناءها من آراء وأفكار ، من أن نعرف بأبي علي الفارسي ، مؤلف الكتاب ، وبكتابه « المسائل المنثورة » موضوع التحقيق والدراسة ، وبالمطالب الذي حقق هذا الكتاب ، وقدم له بدراسة مفصلة عن أبي علي الفارسي .

التعريف بالمؤلف :

أبو علي ، الحسن بن أحمد ، بن عبد الفغار ، بن محمد ، بن سليمان ، بن أبان الفارسي (١) ، فارسي النسب من جهة الأب ، وأمه عربية من بني سدوس ، سدوس شيبان (٢) ولد في مدينة فسا (٣) القريبة من شيراز (٤) سنة ثمان وثمانين ومئتين (٥) ، ولذلك يقال له الفسوي ، نسبة إلى فسا (٦) ، . ويقال له أيضاً : الفارسي ، نسبة إلى بلاد فارس التي هو منها ، وكان تلقيبه بالفسوي يكثر عند القدامى والمعاصرين لأبي علي ، أما المتأخرون من اللغويين ، والنحاة ، والفقهاء ، والمفسرين ، فانهم يدلون عليه بأبي علي ، أو بالفارسي ، أو بهما معاً (٧) .

ولخص الدكتور عبدالفتاح شلبي بيئة أبي علي المكانية بأزمانها على النحو التالي :

فارس : ٢٨٨ - ٣٠٧ ، العراق : ٣٠٧ - ٣٤١ ، حلب ودمشق : ٣٤١ - ٣٤٦ ،
 العراق : ٣٤٦ - ٣٤٨ ، فارس : ٣٤٨ - ٣٦٨ ، بغداد : ٣٦٨ - ٣٧٧ هـ (٨)

توفي أبو علي ، على أرجح الروايات ، سنة سبع وسبعين وثلاثمئة (٩) ببغداد (١٠) ،
 وكان أبو علي متهماً بالاعتزال (١١) ، خُدمه الملوك ونفق عليهم (١٢) ، فعصل على الأموال ،
 وكان ذا وفر ، ويقال انه أوصى بثلاث ماله لنحاة بغداد ، والقاديين عليها ، وكان ذلك
 ثلاثين ألف دينار (١٣) .

علت منزلته بالنحو ، حتى قال قوم من تلامذته : « هو فوق المبرد وأعلم منه » (١٤) .
 وكان أبو طالب المبردي يقول : « لم يكن بين أبي علي وبين سيبويه أحد أبصر بالنحو من
 أبي علي . » (١٥) . وكان أبو علي شديد الاعتداد بالقياس ، حتى انه قال : « أخطئ
 في خمسين مسألة من اللغة ، ولا أخطئ في واحدة من القياس » (١٦) . وبلغ من المنزلة
 العلمية حداً خطأ فيه الأصمعي الذي تجرأ على فحول الشعراء (١٧) .

روى أبو علي القراءات عن ابن مجاهد ، شيخ قراء بغداد في عصره ، وسمع شيئاً من
 الحديث من ابن معدان ، وروى عن أحمد بن محمد البصري ، وأخذ النحو عن أبي اسحق
 الزجاج (١٨) ، ثم نافره ، فقرأ النحو على أبي بكر ، محمد بن السري السراج ، وأخذ
 عنه كتاب سيبويه (١٩) ، وأخذ النحو عن أبي بكر مبرمان النحوي (٢٠) وأبي بكر بن
 الخياط (٢١) .

وكان لأبي علي عدد كبير من التلاميذ ، الذين أصبحوا فيما بعد من كبار العلماء
 والنحويين والمحدثين ، منهم أبو الفتح عثمان بن جني ، ويعد من أبرز تلامذته ، وعلي
 ابن عيسى الرِّبمي (٢٢) واسماعيل بن حماد الجوهري ، صاحب الصحاح ، وابن بلبل ،
 وكثيرون غيرهم .

وتزيد الكتب التي تنسب الى أبي علي على ثلاثين كتاباً ، معظمها في اللغة والنحو ،
 ولم يطبع منها حتى الآن الا قطع من «الحجة» ، و « الايضاح » المضدي ، و « شرح الأبيات
 المشكلة الاعراب » ، ورسالة صغيرة من رسائله وهي « أقسام الأخبار » .

ولعل أهم كتب أبي علي « الحجة » في حلل القراءات ، و « الايضاح » في النحو ، و
 « التكملة » في التصريف ، و « التذكرة » ، و « الاغفال » ، و « المسائل المنثورة » ، و « المسائل
 البغدادية » والبصرية ، والقصرية . . الخ .

وقد اهتم العلماء بكتابه « الايضاح » أكثر من اهتمامهم ببقية كتبه ، اذ اشتغل في
 شرحه ، وشرح شواهد ، والتعليق أو الاعتراض عليه ، أكثر من أربعين عالماً بين القرنين
 الرابع والسابع .

التعريف بالكتاب :

ليس لكتاب « المسائل المنثورة » - فيما نعلم - الا نسخة خطية وحيدة في العالم ، تضمها مكتبة « شهيد علي » باستانبول ، وهذه النسخة موجودة في مجموع يضم خمسة كتب ، أربعة منها لأبي علي الفارسي ، آخرها كتاب « المسائل المنثورة » . ورقم هذا المجموع / ٢٥١٦/ ، وهو بخط أحمد بن تميم بن هشام اللبلي (نسبة الى لبلة) ، أحد العلماء الرحالين في طلب الحديث في القرنين السادس والسابع ، وقد نقله من نسخة سقيمة الخط ، كثيرة الأغلاط والتصفيحات ، يقول اللبلي فيها : « علقها لنفسه ٠٠٠ بحروسة بغداد من أسقم نسخة » .

ويضم الكتاب (٣١٤) مسألة من مسائل النحو ، وقليل منها يتعلق ببعض مسائل التصريف . وقد أثبت المحقق بالأدلة القطعية أن هذا الكتاب الذي اشتهر باسم « المسائل المنثورة » ، ما هو الا تعليقة على كتاب سيبويه ، رواها عن أبي علي تلميذه الأثير لدينه أبو الطيب القصري . وهذه المسائل - كما أثبت المحقق - تحافظ في ترتيبها على ترتيب الأبواب التي في كتاب سيبويه . ويبدو أن أبا علي - كما يقول المحقق - لم يكن يعلق على كتاب سيبويه مباشرة ، وإنما كان يعلق عليه من خلال المختصر الذي صنعه له أبو عمر الجرمي ، والذي اشتهر باسم « الفترخ » .

وتدور هذه المسائل - وجلها مسائل قصار - حول المصدر ، وشرح الحال ، وشرح معاني حروف العطف ، وشرح باب النفسي واستمرت المسائل بعد ذلك تجري على سنن الأبواب التي في كتاب سيبويه .

التعريف بالطالب :

ولد السيد مصطفى الحذري في مدينة حماه ، سنة ١٩٤٥ ، وتلقى تعليمه في مدارسها ثم انتسب الى الجامعة سنة ١٩٦٤ ، فكان طالباً في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بدمشق . نال درجة الاجازة في الآداب سنة ١٩٦٨ .

عين عام ١٩٦٩ مدرساً للغة العربية في محافظة حماه ، فدرّس العربية في كثير من مدارسها الثانوية ، ودار المعلمين فيها .

حقق في تلك الفترة كتاب « الأحاجي النحوية » للعلامة الزمخشري ، ونشره في دمشق سنة ١٩٦٩ ، وثناء برسالة الاشتقاق لابن السراج ، ونشرت في دمشق أيضاً سنة ١٩٧١ .

انتسب سنة ١٩٧٦ الى الدراسات العليا بقسم اللغة العربية ، بجامعة دمشق ، الشعبية اللغوية ، ونال درجة دبلوم الدراسات العليا سنة ١٩٧٦ . وقع اختياره على كتاب « المسائل المنثورة » لأبي علي الفارسي ، فجعله موضوعاً لرسالة الماجستير التي سجلها في جامعة دمشق . ذهب الى المملكة العربية السعودية ، مدرساً معارفاً ، سنة ١٩٨٠ ، واشتغل هناك بتحقيق كتابين في علم الحديث النبوي ، هما « المتجر الرابع » للديلمي ، و « تذكرة الموضوعات » لابن القيسراني . (الكتابان تحت الطبع) . نوقشت رسالته التي أعدها لنيل درجة

المجستير مساء الثلاثاء في ١٨ شوال ١٤٠١ ، (١٨ آب ١٩٨١) ونال بنتيجة المناقشة
درجة الماجستير في الآداب من جامعة دمشق بتقدير / ممتاز / .

مخطط الرسالة :

تقع الرسالة في ثلاثة أبواب ، يتحدث الباب الأول عن أبي علي الفارسي ، ويتحدث الباب
الثاني عن المسائل المنثورة ، وجعل المحقق النص المحقق الباب الثالث من الرسالة . وقد
مهد المحقق للباب الأول بتوطئة ، تحدث فيها عن عصر أبي علي وبيئته ، وذكر الدول التي
كانت في عصره ، ورصد بيئته المكانية منذ مولده الى وفاته .

وينقسم الباب الأول الى ستة فصول ، تحدث المحقق في الفصل الأول عما قيل عن أبي
علي في المصادر القديمة ، وفي الفصل الثاني عما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثة ،
وترجم لأبي علي الفارسي في الفصل الثالث ، وخصص الفصل الرابع للحديث عن مشايخ
أبي علي ، وطبقته ، وتلاميذه ، وجعل الفصل الخامس للحديث عن روايته ، والرواية عنه ،
وتحدث في الفصل السادس عن كتبه .

أما الباب الثاني فقد جمعه المحقق في خمسة فصول ، جعل أولها للحديث عن العلاقة
بين « المسائل المنثورة » وكتاب سيبويه ، أما الفصل الثاني فقد جمعه للحديث عن أبي
الطيب القصري ، راوي الكتاب ، ووصف النسخة الخطية للكتاب « المسائل المنثورة » في
الفصل الثالث ، وترجم لناسخ الكتاب أحمد بن تميم اللبلي في الفصل الرابع ، وختم الباب
الثاني بالفصل الخامس الذي تحدث فيه عن أصول التفكير النعوي عند أبي علي الفارسي .

وقائع المناقشة :

قبل أن نبدأ بمحاولة نقل صورة لجلسة المناقشة ، تجدر الإشارة الى أننا لن نذكر كل
ما ورد في هذه الجلسة من ملاحظات ، وآراء ، وتصويبات ، لأن ذلك أمر متعذر ، نظراً لكثرة
هذه الملاحظات وتنوعها ، وتفصيل القول في بعضها ، ولم نستطع - وللأسف - أن نعرض
بعض القضايا المهمة التي طرحت فيها ، وذلك لعدم اطلاعنا على النصوص المحققة ، موضوع
النقاش ، لأن الرسالة ليست في متناول أيدينا ، وعرض هذه الأمور ، وما دار حولها من نقاش
وحوار ، يستلزم العودة الى تلك النصوص ، وقراءتها ، ثم التعليق عليها .

ولهذا عمدنا الى الاختيار والانتقاء ، وسنختار من الملاحظات والتصويبات التي
طرحت في المناقشة ، ما نظن أنه يفيد الباحثين والمحققين بشكل عام ، وطلبة الدراسات العليا
بشكل خاص . وصرفنا النظر عن بعض الملاحظات اللفظية ، واللفوية ، والنحوية . كما
أغفلنا الملاحظات التي تتعلق بشكل الرسالة ، وسوء الطباعة فيها . وكان اهتمامنا منصباً
على الملاحظات المنهجية التي تتناول المبادئ الأساسية في تحقيق نصوص التراث ونشرها ،
والملاحظات العلمية التي أخطأ المحقق فيها . ولننتقل الآن الى وقائع المناقشة .

افتتح الأستاذ الدكتور شاكراً الفحام جلسة المناقشة بالتعريف بالطالب ، صاحب
الرسالة ، وطلب منه أن يقدم موجزاً لعمله في الرسالة ، يبين فيه النتائج التي توصل اليها

في بحثه . فالقى الطالب كلمة بيّن فيها سبب اهتمامه بأبي علي الفارسي ، مشيراً الى خطته في التحقيق والدراسة ، موضحاً المراحل التي قطعها ، ذاكراً المصادر التي اعتمدها عليها ، وتحدث أيضاً عن أبواب الرسالة وفصولها ، شارحاً مضمونها ، مؤكداً أهمية الأشياء الجديدة التي أتى بها في رسالته .

وبعد أن أنهى الطالب خطبته ، قدم الأستاذ الدكتور الفحام عضو لجنة الحكم الأستاذ عبدالهادي هاشم ليدلي بملاحظات حول الرسالة .

بدأ الأستاذ هاشم مناقشته بالثناء على صنيع الطالب ، وبيان مزايا التحقيق والدراسة ، فالطالب - كما يقول الأستاذ هاشم - أحسن اختيار موضوعه من تصانيف القرن الرابع ، العصر الذهبي للحضارة العربية ، وجود في الترجمة لأبي علي الفارسي ، وبرّز في تحقيق كتاب « المسائل المنثورة » وتعليقاته عليه ، وبيان الصلة الواشجة بين هذه المسائل وكتاب سيبويه ، واهتدى الى مالم يهتد اليه قبله من نظروا في كتاب « المسائل المنثورة » لأبي علي الفارسي . يقول السيد الحديري في هذا الصدد : « وحينما حققت المسائل المنثورة ، وجدت أنها توجز أبواباً من كتاب سيبويه ، وتحافظ في ترتيبها على الترتيب الذي في كتاب سيبويه ، ووجدت الشواهد القرآنية ، والأبيات الشعرية ، والأمثلة النثرية ، معظمها من كتاب سيبويه » . وهذا الأمر لم ينته اليه - فيما نعلم - أحد من كتبوا عن أبي علي الفارسي قبل السيد الحديري . وهذا كشف جيد ، حسن ، عن طبيعة الكتاب وتأليفه .

وقد أبدى الأستاذ هاشم تقديره للدراسة التي قدمها السيد الحديري عن أصول التفكير النحوي في كتاب « المسائل المنثورة » فذكر هذه الأصول ، ومثل لكل منها بمثال منثورة من كتاب « المسائل المنثورة » الذي يحققه . من هذه الأصول التي تحدث عنها المحقق : الاستدلال ، القياس ، قياس العلة ، قياس الشبه ، قياس الطرد ، استصحاب الحال ، الخفة ، الثقل ، الفرق ، المعادلة ، الحمل على المعنى ، الحمل على النقيض ، الحمل على النظير ، القياس الأولي ، التقسيم ، الاستفتاء ، الاتساع ، قياس السؤال على الجواب . . الخ وهذه كلها - كما يقول الأستاذ هاشم - مبادئ ومنهجية في أصول البحث عند علمائنا النحويين ، عنوا بها ، وتابعوا فيها - الى حد ما - ما صنّفه الفقهاء قبلهم في أصول التفكير الفقهي .

ولم يقتصر المحقق على أقوال القدماء في هذه الأصول ، والاستشهاد على كل منها ببعض ما جاء في كتاب « المسائل المنثورة » ، وإنما أضاف اليها ما رأى اضافته اليها ، كقياس الظواهر النحوية . فالبحث طريف في جملته ، وهو يدل على نهج الأقدمين من علمائنا في وضع أصول النحو ، وفي تحليلهم للقواعد التي قعدوها ، والمثل التي استنتجوها .

كما حمد الأستاذ هاشم للمحقق جهده الجاهد في قراءة صورة المخطوطة الوحيدة التي يعرفها لهذا الكتاب ، وخطها دقيق ، وموضوعها كؤود .

وبعد أن تحدث الأستاذ هاشم عن مزايا التحقيق والدراسة ، تحدث عن الموقف الحيادي - اذا صح القول - الذي اتخذه السيد الحديري حيال بعض القضايا في الكتاب ، وتمنى لو

انتقل من الوصف والتقرير الى الفحص والتقويم ، حتى يتسم حديثه بالبحث العلمي ، لا أن يكون توطئة للبحث العلمي . فالمحقق - عند سرده أصول التفكير النحوي لدى علمائنا القدامى - لم يبق لنا رأيه في قيمة هذه الأصول ، وركونه اليها ، أو ثورته عليها ، فهل اقتنع بفائدتها كلها ، وصحتها واطرادها ؟

ويقول المحقق (ص ٨٢) : « وقد رايت المقولات المشر في كتاب (قاطليغورياس) في المنطق قريبة من هذا ٠٠٠ وقد ترجم ابن المقفع بعض كتب المنطق اليوناني في وقت مبكر ، وذكر أن الخليل بن أحمد قد ألحقه به ، فهل يفتح هذا باب البحث فيما نتوجه من صلة النحو العربي ، إبان نشأته المبكرة بالمنطق اليوناني ؟ لا أستطيع أن أنفي هذا أو أثبته ، وليس هذا ميدان بحثي ، ولكنه أمر جدير بالاهتمام والمتابعة . »

ولقد بين الأستاذ هاشم رأيه في هذا الموضوع قائلاً ان المعاصرين اليوم درسوا الموضوع ، ورأت كثرتهم أن النحو العربي أصيل ، لم يتأثر بمنطق اليونان ولا بنحوهم ، ونحن اليوم نعرف النحو اليوناني ، ونعرف النحو العربي ، وإذا حاولنا أن نقيم مقارنة بينهما وجدناهما متباعدين كل التباعد ، وما قد يبدو من تأثير فهو مما كان قد شاع في أوساط العلماء والمثقفين ، بمعنى أن الخليل ، أو سيبويه ، أو الكسائي ، أو أبا علي الفارسي ٠٠٠ لم يطلعوا على كتب اليونان أو الهنود ، وإنما سمعوا أقوالاً في حلقات علمية منسوبة الى هذا الجيل أو ذاك ، وهي لا تكفي للتحدث عن أثر واضح ، أو تأثيري .

ويذكر المحقق أنه وضع فهارس للآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ولكن ليس في الكتاب كله الا جملة واحدة كشف المحقق عن كونها حديثاً نبوياً ، وكان يجب أن يسترعي انتباه المحقق وجود حديث واحد فقط في كتاب يضم أكثر من أربع مئة تعليقة ، وأن يستنتج من هذا الأمر أشياء كثيرة ، وكان عليه أن يتساءل : ألا يريد أبو علي أن يستشهد بالحديث النبوي ؟ أليس في الأحاديث النبوية كلها ما يؤيد هذه المسألة أو تلك ؟ هل يدل هذا على موقف أبي علي من الاستشهاد بمؤدى الحديث ومعناه لا بصياغته ولفظه ؟

- أبو علي الفارسي - كما هو معروف - من جلة المعتزلة ، ونحن نعرف أن الاعتزال لم يكن مذهباً دينياً وفكرياً فحسب ، وإنما كان مذهباً علمياً أيضاً ، يتصل بكثير من العلوم ، ومن بينها النحو . فهل وجد المحقق في هذه المسائل المنثورة كلها صلة تربط المذهب النحوي لأبي علي الفارسي بالمذهب الكلامي له ؟ هل كان لاعتداد أبي علي بالقياس مثلاً صلة بمذهبه الكلامي ؟ ونحن نعرف أن أبا علي كان يقول : « أخطئ في خمسين مسألة من اللغة ، ولا أخطئ في واحدة من القياس » . كان ينبغي أن يطرح السيد الحدري على نفسه هذه الأسئلة ، وأن يحاول الإجابة عليها من خلال دراسته لمسائل أبي علي المنثورة ، لا أن يكتفي بالوصف والمرض .

وهناك سؤال آخر : أليس في كتاب « المسائل المنثورة » ما يستوقف القارئ ؟ يقول الكثيرون ان في كتاب سيبويه الذي بين أيدينا نقصاً ، وخرماً ، وإحالة ، فهل رأى المحقق شيئاً من هذا في تحقيقه لكتاب هو تعليقات على شطر من كتاب سيبويه ؟

هناك ، كما نرى ، بعض القضايا التي كان ينبغي أن يقف المحقق عندها ، وأن يتلبث ملياً ، وأن يبسط رأيه فيها ، ولكن المحقق لم يفعل ذلك ، واكتفى بالوصف والعرض ، ومنهج الرسائل الجامعية يقتضي أكثر من ذلك .

من حيث الفهارس ، لاحظ الأستاذ هاشم أن المحقق لم يصنف في الفهارس مسائل الكتاب وفق معانيها ، أو وفق أعرابها ، أو علمها ، أو وفق موضوعاتها ، واكتفى بسردها واحدة تلو أخرى ، في الفهرس . وليس من اليسير على القارئ الاهتداء الى طلبته في الكتاب حتى لو اطلع على الفهرس كله . وهذه المسائل التي يضمها الكتاب ما أعدت لكي تقرأ من أولها الى آخرها ، وانما أعدت لكي يرجع المرء الى أحداها ، حتى يطلع على رأي سيبويه في هذا الموضوع أو ذاك ، وأن يعرف ماذا كان تعليق أبي علي عليه . لذا كان لزاماً على المحقق أن يضع نوعاً من التصنيف لمسائل الكتاب ، يسهل على القارئ الرجوع اليها .

من ناحية أخرى ، قسم المحقق عمله الى قسمين ، جعل أولهما الدراسة ، وهي تشمل الباب الأول والثاني ، وجعل ثانيهما النص المحقق ، وعقب على الدراسة بسرد مصادرها ، ثم جعل في فهارس خاتمة الكتاب فهارس القسم الثاني منه ، وهو الباب الثالث ، وهذا يعني أن هنالك فهرسين للمصادر ، وهذان الفهرسان مستقلان ، ولا يغني أحدهما عن الآخر . وكان من الممكن - وعمل الرسائل الجامعية منهج قبل كل شيء - أن يقسم كتابه قسمين متميزين ، متباعدين ، يشتمل أولهما على ترجمة أبي علي ودراسته ، وفهارس ذلك كله ، ويشتمل الثاني على النص المحقق ، وعندئذ لا يقول المحقق أن كتابه يقع في ثلاثة أبواب . واما أن يجعل الأبواب الثلاثة في كتاب واحد ، تعقبها كلها الفهارس الشاملة .

كما أن كثيراً من الكتب التي أثبتتها المحقق في الفهرس قصّر في وصفها ، وأغفل عام طبعها ، وهذا لا يصح ، ولا سيما في كتب طبعت أكثر من مرة ، كما أن بعض الكتب المخطوطة التي عاد اليها المؤلف لم يشر الى مواطن وجودها ، وذكر هذه المعلومات ضروري جداً في الرسالة .

ثم انتقل الأستاذ هاشم الى بيان بعض الملاحظات التي تتعلق بالمنهج والدراسة ، من هذه الملاحظات :

عند الاستشهاد بدوائر المعارف ، أو بمجموع من المعاجم ، لا يشار عادة الى الجزء والصفحة ، وانما يشار الى المادة ، لأن الطباعات تختلف ، أما الأسماء والمناوين فلا تختلف .

أطال المحقق حديثه عن ناسخ الكتاب (أحمد بن تميم اللبلي) ، وكتب عنه ما يزيد على ثلاث صفحات ، تحدث فيها عن اسمه ، ونسبه ، وحياته ، ووفاته ، وألقابه ، ومشايخه ، وبلده ، (وفضائل هذا البلد 11) . ولم يحظ الأستاذ عبدالفتاح شلبي الذي ألف كتاباً كبيراً عن أبي علي الفارسي ، يقع في أكثر من سبعمئة صفحة ، لم يحظ من حديث السيد الحدري إلا بأسطر قلائل ، وكان الأستاذ شلبي أحق ، في هذا الصدد ، بالترجمة الواسعة ممن نسخ كتاباً لغيره ، على فضله وشهرته .

وطاً المحقق لكتابه بالحديث عن عصر أبي علي ، فتحدث عن الحياة السياسية ، والاجتماعية . . . وذكر في الصفحة الأولى وحدها ، أسماء ثلاثين علماً ، من خليفة (عدد أسماء تسعة من الخلفاء الذين عاصروهم أبو علي) ، وحاكم ، وثائر . . . وليس من الضروري أن يذكر المحقق ، لكتاب نحوي ، في صفحة واحدة ثلاثين اسماً لن يعلق بذاكرة القارئ أكثر من اسم أو اسمين . فهل أثر هؤلاء الخلفاء في تعليقات أبي علي على بعض مسائل سيبويه ؟ وهل أفاد المحقق من دراسته لعصر أبي علي من مختلف النواحي ، في إعطاء ضوء جديد يفيدنا في دراسة هذه المسائل ؟ ليس لأكثر ماورد في هذا الفصل من صلة بأبي علي . وحجداً لو اكتفى المحقق بذكر بعض الأبرام الذين اتصل بهم أبو علي كالحمدانيين مثلاً . فدراسة العصر من مختلف النواحي ليست مطلوبة ، إذا لم يكن لهذه النواحي تأثير فيما يدرس . والتمهيد ينبغي أن يتصل بالموضوع الذي يحقق أو يدرس .

وأشار الأستاذ هاشم الى أن الخطيئات الطبيعية كثيرة في الرسالة ، كما أن الخطيئات التي نتجت عن السهو كثيرة أيضاً ، هذا الى جانب غلط لغوي أو نحوي يقع فيه المحقق بين الفينة والفينة .

وفي ختام مناقشته للرسالة أشاد الأستاذ عبد الهادي هاشم بعمل السيد الحدري ، وأكد أن الملاحظات التي أبداه لا تنتقص من قيمة العمل الذي بذل فيه المحقق جهداً كبيراً يستحق الثناء والتقدير .

انتقل الحديث ، بعد ذلك ، الى الدكتور محمد علي سلطاني الذي أثنى على عمل الطالب ، قائلاً ان الأستاذ هاشم قد تحدث عن كثير من حسنات المحقق ، فأغنى بذلك عن تكرارها . وتحقيق كتاب مثل « المسائل المنثورة » يرقى الى أن يكون جديراً برسالة أعلى من رسالة الماجستير .

ثم قدم الدكتور سلطاني مجموعة من الملاحظات المنهجية ، والعلمية ، واللفظية ، بدأها بالملاحظات المنهجية التي تتعلق بأبواب الرسالة وفصولها ، فالمحقق جعل الدراسة في بابين ، يضم الباب الأول ستة فصول ، ويرى الدكتور سلطاني أن يحذف الفصلان الأول والثاني حذفاً تاماً ، لأن الفصل الأول - في رأيه - عبارة عن ثلاث وعشرين ترجمة نسخت نسخاً مباشراً (حرفياً) عن ثلاثة وعشرين مصدراً ، ورصفت الى جوار بعضها رصفاً ، وكان عنوان هذا الفصل « ما قيل عن أبي علي في المصادر القديمة » . .

والفصل الثاني الذي اقترح الدكتور سلطاني حذفه أيضاً هو « ما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثة » . صنع فيه المحقق سنيعه في الفصل الأول ، اذ رصف كل ما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثة رصفاً ، ناسخاً إياه من تلك الدراسات .

لقد كان المحقق صادقاً في العنوانين ، لأن المادة التي يضمها هذان الفصلان تحتاج الى كثير من التمهيد ، والبحث ، والتدقيق . وجمع المادة - كما نعلم - هو المرحلة الأولى من مراحل البحث العلمي ، تليها مراحل أخرى ، تتمرض فيها المادة الأولية الى عمليات الغزلة والاختيار .

ومن ناحية ثانية ، جعل المحقق الدراسة في بابين ، وجعل النص المحقق الباب الثالث ، وكان مستغرباً أن يدخل النص المحقق في باب من أبواب الرسالة ، وأن يسميه المحقق « الباب الثالث » لأن النص المحقق لا ينبغي أن يكون باباً من أبواب الرسالة ، وإنما يأتي مستقلاً .

والمحقق - من ناحية ثالثة - وصف النسخة الخطية لكتابه ، وتحدث عن منهجه في تحقيق الكتاب في الباب الثاني ، وهو باب من أبواب الدراسة ، وليس من الطبيعي أن توصف المخطوطة ، وأن يتحدث عن منهج التحقيق في باب من أبواب الدراسة ، هذا الكلام يأتي - عادة - في مطلع النص المحقق ، لأن المحقق ينهي دراسته كلياً ، ثم يلتفت بعد ذلك إلى النص المحقق ، فيمهد له بوصف النسخة الخطية لكتابه ، أو النسخ إذا كان هنالك أكثر من نسخة ، وبالحديث عن منهجه في تحقيقه لذلك النص . أما أن يأتي هذا الكلام في باب من أبواب الدراسة فهذا أمر غير طبيعي .

وتعرض الدكتور سلطاني ، بعد ملاحظاته على أبواب الرسالة وفصولها ، لبعض القضايا التي كان ينبغي أن يكون للمحقق رأي فيها ، لا أن يتخذ حيالها موقفاً حيادياً . من هذه القضايا موقف عضد الدولة من كتاب « الايضاح » لأبي علي الفارسي ، إذ انتقص عضد الدولة من قيمة هذا الكتاب ، حين قال مخاطباً أبا علي : « هذا الذي صنعه يصلح للصبيان » .

ونحن نرى أن عضد الدولة كان متجنباً على أبي علي في هذا الموقف ، وكان يجب أن يستثير المحقق ذلك التناقض بين موقف عضد الدولة من كتاب « الايضاح » ، وبين اهتمام العلماء به ، وكثرة شراحه ، وشراح شواهدهم ، والمهتمين به . وعندما اعترض عليه ابن الطراوة سليمان بن محمد بكتابه « الافصاح ببعض ما جاء من الخطأ في كتاب الايضاح » ، نهض ابن الضائع (ت ٦٨٠ هـ) بعد قرن ونصف قرن من الزمن ، ليرد على هذه الاعتراضات . كما نظمه شعراً أبو العباس الأزدي الحمصي مع كتاب « التكملة » فأجاد في نظمه .

هذا التناقض بين الموقفين كان يجب أن يستثير المحقق ، وأن يدفعه إلى أن يكون له رأي في هذا الموضوع ، لا أن يقف منه موقفاً محايداً .

ومن هذه الأمور التي لم يقف عندها المحقق أيضاً ، ما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثة ، من أنه يعد رأس مدرسة في النحو العربي ، تدعى مدرسة النحو الوظيفي ، بدأها أبو علي ، وورثها عنه ابن جني ، تلاهما عبد القاهر الجرجاني ، وختمت بالزمخشري . إلا أن المحقق لم يكن له دور في بيان صحة هذه الأقوال وتأييدها ، أو بيان الملاحظات والمآخذ عليها ، من خلال دراسته لمسائل الكتاب الذي يحققه .

ومما أخذ الدكتور سلطاني على المحقق أنه أورد من بين كتب أبي علي المفقودة كتابين هما « الاغفال » الذي استدرك فيه على الزجاج ، وكتاب « التذكرة » . وإذا هدنا إلى فهرس الكتب المخطوطة ، المحفوظة في مكتبات العالم ، وجدنا لكتاب « الاغفال » ثلاث نسخ خطية في

دار الكتب المصرية، أولاها برقم (٦٩٩) تفسير، والثانية برقم (٨٧٥) تفسير، والثالثة برقم (٥٢) تيمورية. أما الكتاب الثاني الذي بعده المحقق مفقودا، وهو كتاب «التذكرة»، فقد تحدث عنه بروكلمان (١٩٤/٢) فقال: هناك نسخة موجودة في زنجان، وأحال القارئ على مجلة لغة العرب (٩٢/٦).

فهذان الكتابان اللذان يقول السيد الحذري انهما مفقودان، ليسا بمفقودين، لأنهما نسخا خطية في بعض مكتبات العالم. ولعل أفضل ما يقدمه الدارس للتراث العربي، حين يتناول بالدرس علما من أعلام التراث، أن يستقصي أخبار كتبه، وأن يصنفها في دراسته، مستقاة من فهارس المخطوطات، وأن يشير إلى رمز هذه الكتب، ورقم وجودها في مكتبات العالم، وهذا ما قصر به المحقق، لأنه لا يذكر مكان وجود هذه الكتب، ولا يشير إلى رموزها وأرقامها، فحرم الدارسين من تلك الفوائد العلمية، واستصفاها لنفسه، وهذا أمر لا يجوز في البحث العلمي.

ومن المآخذ التي نأخذها على صنيع المحقق أنه أغفل تصنيف المسائل المنشورة الذي أشار إليه الأستاذ هاشم، وهذا التصنيف أمر حيوي، ونحن لا نبالغ إذا قلنا أن هذه المسائل وحدها هي الجديرة بالتصنيف والفهرسة، لأن هذا الكتاب يقوم على هذه المسائل، فإذا لم تصنف بطريقة علمية فإنها لا تعطي الفائدة المرجوة منها. لذا كان لزاما على المحقق أن يضع لكل مسألة عنوانا مقتبسا من مضمونها، ثم يصنف هذه المناوين، وأن يقيم تصنيفا آخر على أبواب النحو، وبغير هذا لا يكون الكتاب قد أدى دوره كاملا.

ووقف الدكتور سلطان وقفة طويلة عند تخريج المحقق للشواهد الشعرية، فعرض مجموعة من الملاحظات المنهجية حول تخريجات المحقق، من هذه الملاحظات أن المحقق كان يخرج الشواهد الشعرية التي يضمها كتاب «المسائل المنشورة» من كتب النحو، وكتب اللغة، قبل تخريجها من دواوين الشعراء. والتخريج من غير الديوان ليس صحيحا إذا كان للشاعر ديوان. ينبغي أن يبدأ التخريج من الديوان أولا، وبعد التخريج من الديوان قد نمرج على بعض كتب اللغة. ولا بد من ذكر اختلاف الروايات، لأن له شأنا عند النحاة، يتلو ذلك تخريج الشاهد من كتب النحو، وبيان موقف النحاة من هذا الشاهد، فالنحاة - في التخريج - يأتون بعد الرواة، وليس قبلهم.

ويلاحظ من تخريجات المحقق أنه لم يمرج على الكتب المتخصصة بالشواهد، لأن ذهنه انصرف إلى كتب النحو، لذا تخطت تخريجه الشواهد تخطيا لا نظير له، وقد جاءت شروحه لبعض الشواهد سقيمة، وذلك لاعتماد المحقق على كتب النحو التي تهتم عادة بشرح البيت فقط، وشرح البيت مفردا يؤدي - في بعض الأحيان - إلى الانحراف بالمعنى، بينما تهتم كتب الشواهد بالقصيدة، ومناسبتها، وخبرها أيضا.

لوحظ أن الترتيب الزمني مفقود في حواشي الكتاب، وهذا أمر لا يجوز، لأن المراجع يجب أن ترتب ترتيبا زمنيا، إذ ليس من المنطق، أو من الحكمة، أن تأتي بكتاب

من القرن السابع يسبق كتاباً في القرن الثاني مثلاً ، وليس من الصواب أن تأتي باللاحق قبل السابق .

ثم انتقل الدكتور سلطاني الى بيان بعض الملاحظات العلمية ، فقد فهم المحقق من كتابات بعض المتقدمين أن كلمة « المنشورة » تطلق على نمط من التأليف ، غير محرر ولا مستوفى ، على حين ذهب الدكتور عبدالفتاح شلبي الى أن سبب تسمية الكتاب بالمسائل المنشورة ، هو أنها لا تنتسب الى بلد بعينه ، اذ يبدو من اسمها أنها ألقيت هنا وهناك . واعترض المحقق على هذا الفهم قائلاً : « ولادليل من اللغة أو الاصطلاح على هذا الفهم » . وقد جانب المحقق الصواب في اعتراضه هذا ، ويرد عليه بدليلين : عقلي ونقلي . فالدليل النقلي ما ذكره اللغويون في شرح كلمة (نشر) ، الفيروزآبادي يقول في القاموس المحيط : « نشر الشيء ينشره وينشره رماء متفرقاً » ، وجاء في اللسان قوله : « ونشراً كنشر الدقل ، أي كما يتساقط الرطب اليابس من العذق اذا هز » .

أما الدليل العقلي فهو ما اشتهر من مسائل أبي علي في نسبتها الى البلدان ، فكان منها العسكرية ، والبصريات ، والحلبيات ، والشيرازيات أما هذه المسائل فلا تنتسب الى بلد بعينه . لقد كان المحقق متردداً في سبب تسمية المسائل بالمنشورة ، والمسائل المنشورة أمامه ، ومن دراسة هذه المسائل يمكن استخلاص الصفة ، أو الصفات التي دعت الى هذه التسمية ، ويبدو أنها مسائل لا يجمعها باب واحد في العلم الذي تنتمي اليه .

ومن الملاحظات العلمية التي بسطها الدكتور سلطاني القول فيها ، أن الأستاذ سميد الأفغاني فسّر عبارة « علقها لنفسه » التي اعتاد نساخ المخطوطات أن يشبهوها في بعض الكتب التي ينسخونها ، بقوله : « علقها لنفسه » . جعلها لنفسه خالصة ، ولم يرد وقفها على القراء . واعترض المحقق على تفسير الأستاذ الأفغاني هذا قائلاً : « ولا أدري من أين جاء أستاذنا الأفغاني بهذا التفسير . . . أما أنا ، فيظهر لي ، من بحثي عن هذه اللفظة في كتابات تلك الفترة ، أن التعليق هو الكتابة السريعة من لفظ الشيخ ، كيلا يضيع شيء من المادة العلمية التي يملئها . . . ولكن عبارة « علقها لنفسه » التي وردت في كلام اللبلي ناسخ (المسائل المنشورة) ليست بهذا المعنى ، لأنه لا يقيد ما يسمعه من شيخ ، وإنما ينقله من نسخة أمامه ، والمقصود من عبارة اللبلي أنه كتبها كتابة سريعة » .

ونحن لا نوافق المحقق على فهمه هذا العبارة « علقها لنفسه » ، والمحقق نفسه اورد في رسالته ما ينقض فهمه هذا ، وذلك حين قال في موضع آخر من الدراسة : « ومن هذين النصين يظهر أنه - أي الناسخ - قضى في كتابة « المسائل المنشورة » أكثر من عشرين يوماً ، ويكون قد كتب في اليوم الواحد صفتين أو يزيد » . فإين السرعة التي يركز عليها المحقق في فهمه لمعنى التعليق ما دام الناسخ لا يكتب في اليوم الواحد الا صفتين أو يزيد قليلاً .

ونحن نرى أن كلمة التعليق تشير الى نقاسة النص المنسوخ ، فهو جدير بالملوق في النفس ، ومنه كان استعمالهم صفة الملقات للنقائد المختارة في العصر الجاهلي ، وعندما

يكتب الناسخ « علقها لنفسه » فكأنما يريد أنه نسخها مدركاً أهميتها ، ضئيلاً بدلاً ، لشدة اهتمامه بها ، واكباره شأنها ، وبهذا يكون فهمنا لهذه العبارة قريباً من فهم الأستاذ الأفغاني لها .

وزعم المحقق (ص ٨٠ من الدراسة) أنه تفرّد ، من دون الأقدمين ، بتخصيص فقرة خاصة لبحث الاتساع ، وغفل عما صنعه السيوطي في الأشباه والنظائر (١٤ / ١ ، ١٩) ، ومعلوم أن السيوطي بسط القول في بحث الاتساع ، وأشار بتواضع إلى من سبقه من العلماء الذين بحثوا هذا الموضوع ، وحين أشار السيوطي إلى عمله قال : « وأنا أشبع القول في هذا الباب » .

وقع المحقق في التناقض حين عمد إلى إثبات أن كتاب « المسائل المصلحة » لأبي علي هو نفسه كتاب « الاغفال » الذي استدرك فيه سلبى الزجّاج ، وعمد في موضوع آخر من الرسالة إلى إيرادهما على أنهما كتابان ، فكيف أثبت أنهما كتاب واحد ، ثم عاد ليناقض نفسه فذكر أنهما كتابان ؟ !

وفي نهاية مناقشته للرسالة ، أثنى الدكتور محمد علي سلطاني على صنع المحقق ، مؤكداً على أن تحقيق كتاب « المسائل المنشورة » يرقى إلى أن يكون جديراً برسالة أعلى من رسالة الماجستير ، لأنه يحتاج إلى نضج نحوي ، وشعور بالمسؤولية أكبر ، وتلبث في تخريج النصوص ، وينبغي لمن يتصدى له أن يكون له رأي بين موقفي التحويين الكبيرين ، أبي علي الفارسي وسيبويه .

انتقل الحديث إلى الأستاذ الدكتور شاكراً الفحام الذي بدأ مناقشته للرسالة بالشناء على الجهود الطيبة الموفقة التي قام بها الطالب . وأبدى إعجابه بهذا الصبر الطويل الذي تعلّى به المحقق ، وبهذا الجهد الكبير الذي بذله لطلاب في قراءة المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب ، وهي نسخة سقيمة جداً ، فيها سقط وتصحيف كثير ، قال ناسخها اللبلي أنه « علقها لنفسه ... بمحرّوسة بغداد من أسقم نسخة » ، واستطاع المحقق أن يصحح قسماً كبيراً من أخطائها ، وأن يجلو غوامضها .

وقال الأستاذ الدكتور الفحام أن تحقيق « المسائل المنشورة » لأبي علي الفارسي هو فاتحة لتحقيق بقية كتبه المخطوطة ، ودراسة أبي علي دراسة وافية ، وسيكون لقسم اللغة العربية بجامعة دمشق الفضل الكبير في هذا الباب ، فهناك طالب آخر من طلبة الدراسات العليا بقسم اللغة العربية ، يحقق « المضديات » ، وثالث يحقق « العسكرية » ، ورابع يحقق « البغداديات » . وهذا التحقيق لكتاب أبي علي سيفتح الباب على مصراعيه لدراسة أبي علي دراسة شاملة ، ولا يمكن أن يدرس نحوي كتابي علي ، دون أن تحقق كتبه ، وتكون في متناول أيدي الباحثين . ولم يطبع من كتب أبي علي حتى الآن غير الجزء الأول من كتاب « العجة » ، وجزء من كتاب « الايضاح المضدي » ، ورسالة صغيرة من رسائله نشرت في مجلة المورد ، لم يظن إليها المحقق ، وهي « أقسام الأخبار » .

ومع إعجابنا بتحقيق السيد الحدري للمسائل المنشورة ، وتقديرنا لجهد فيه ، إلا أنه كان يتملأ أحياناً في بعض القضايا ، بمعنى أنه كان ينبغي عليه أن يقف وقفة أطول أمام بعض النصوص ، وأن يتلبث في تحقيقه لها . ولكن قدرته ، وطاقته العلمية ، دفعته

الى أن يتمجل أحياناً • ولذا فإن نقدنا له انما نستوحيه من أنه كان يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وأن يقدم أفضل مما قدم ، وهو قادر على ذلك • وتظهر قدرته هذه في تحقيقه لبعض قضايا الكتاب •

ويبدو المحقق في تحقيقه لهذا الكتاب ، واثقاً من قدرته ، يتكلم على نفسه كثيراً ، ويعتمد على جهوده الشخصية ، وهذا يعتمد عليه كل انسان عنده قدرة علمية ، وكثيراً ما كان يبدو شديد الاعتماد على نفسه ، وكأنه لا يريد أن يستعين بجهود من سبقه من الباحثين ، وهذا أمر مستغرب ، ولا نرتضيه له • ان عدم الاستفادة من الجهود التي بذلها السابقون مأخذ عام على الطالب ، لأنه لم يقدم دراساتهم ، مع العلم بأنهم كتبوا ما كتبوا ليفيد منه الباحثون اللاحقون ، وليضيفوا اليه فيما بعد • وفي تحقيق النص أمثلة كثيرة على اتجاه المحقق هذا ، فالمحقق مثلاً أجهد نفسه في معرفة المواضع التي نقل فيها البغدادي ، صاحب الخزائنة ، من كتاب « المسائل المنثورة » لأبي علي • واستطاع المحقق أن يتعرف على قسم كبير من هذه النقول ، الا أنه - وهذا أمر طبيعي - لم يستطع أن يتبينها كلها • ولو رجع المحقق الى كتاب « اقليد الخزائنة » للميمني ، لوجده يذكر بدقة كل المواضع التي نقل فيها البغدادي ، صاحب الخزائنة ، من « المسائل المنثورة » • فلم هذا العناء ، ولم كل هذا الجهد ؟

وبذل المحقق ، من ناحية أخرى ، جهداً كبيراً في تخريجه للشواهد ، دون أن يطلع على كتاب « معجم شواهد العربية » الذي ألفه الأستاذ عبدالسلام هارون • وكان المحقق في تخريجه لشواهد الكتاب ، يزيد أحياناً على التخرّيج الذي في كتاب الأستاذ هارون ، وكان ينقص عنه أحياناً ، وكان ينبغي ألا ينقص عنه شيئاً ، لأن الأستاذ هارون هو السابق ، وكتابه مطبوع منذ سنة ١٩٧٢ ، فكان لو أملى على المحقق أن يعود الى ذلك الكتاب ، وأن يحاول الاستفادة مما خرّجه الأستاذ هارون ، ثم يحاول ، بعد ذلك ، أن يزيد على تخريجاته ، ان استطاع • أما أن ينقص عنها فهذا أمر غير طبيعي •

ومما أخذ الأستاذ الدكتور الفحام على المحقق أنه لم يطلع على كتب أبي علي الفارسي الأخرى ، ولو اطلع عليها لصحح كثيراً من مسائل الكتاب ، لأن أبا علي كان يكرر آراءه من كتاب الى كتاب ، ونجد كثيراً من المسائل المنثورة مبثوثة في كتبه الأخرى ، كالبصريّات مثلاً ، وكذلك الشواهد •

واعتمد المحقق في تحقيقه لكتاب المسائل المنثورة ، على نسخة خطية له ، موجودة في مجموع يضم خمسة كتب ، أربعة منها لأبي علي الفارسي ، آخرها كتاب « المسائل المنثورة » ، ولم يطلع المحقق على بقية هذه الكتب ، ولو اطلع عليها لتوصل في دراسته الى نتائج أفضل •

وكما أن المحقق لم يفد من كتب أبي علي الأخرى ، فإنه لم يفد أيضاً من كتب ابن جنّي ، وابن جنّي - كما نعلم - ثمرة من ثمرات أبي علي الفارسي •

أما من حيث الفهارس فإن في الكتاب أكثر من أربعمئة مسألة ، ولا يجوز في دراسة محققة ، مدققة لهذا الكتاب ألا تشتمل على فهرس للمسائل المنثورة ، يشير الى مضمون كل

واحدة من هذه المسائل . وأغرب ما في الأمر أن المحقق نفسه كان قد وعد في الصفحة ٦٢ من دراسته بصنع هذا الفهرس الضروري ، ولكنه - وللأسف - لم يف بوعده . وكان أبو علي نفسه يوحى بأنه لا بد من صنع هذا الفهرس ، فكثيراً ما كان يضع في مقدمة بعض المسائل موضوعها وغرضها ، مثال ذلك ما نجده في المسائل (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١) . لذا كنا نود لو أن المحقق وضع لكل مسألة ، إلى جانب رقمها ، عنواناً يدل على مضمونها ، ثم يصنع لها فهرساً ، حتى لو كان هذا الفهرس فهرساً متسلسلاً حسب ورود المسائل ، وذلك لتعرف مضمون هذه المسائل . أن مثل هذا الفهرس لا يفيدنا في معرفة مضمون هذه المسائل فحسب ، وإنما يجعلنا ندرك الناظم لهذه المسائل جميعاً .

وإذا كان قد خرج المسائل من كتب النحاة تخريجاً جيداً ، فإنه كان من الأهمية بمكان أن يصنع فهرساً خاصاً لما ذكره النحاة من كتاب « المسائل المنثورة » ، أي أن يشير إلى ما نقلوه منها نقلاً بنصه مع الإشارة إليه ، أو نقلاً دون عزو ، لأن هذا الأمر يدل على أهمية المسائل المنثورة وقيمتها على توالي العصور . وقد أشار المحقق إلى ما يماثل المسائل المنثورة في كتاب سيبويه ، وكان يجب أن يشير أيضاً إلى المسائل المنثورة ، وما وجد منها في مختلف كتب النحو .

ثم توقف الأستاذ الدكتور الفحام عند بعض الملاحظات المنهجية . من هذه الملاحظات أن الطالب ذكر عدداً من المصادر والمراجع في حواشي التحقيق والدراسة ، ولم يثبت هذه الكتب في ثبوت المصادر والمراجع ، وإذا ذكر المحقق مصادره ومراجعته . فإنه ، في كثير من الأحيان ، لا يذكر موضع الطبع ، أو سنة الطبع ، أو اسم المطبعة . وهذا أمر غير طبيعي ، ولا يجوز في الرسالة الجامعية . أن ذكر المصدر والمراجع ، ومعلومات الطبع ، أمر ضروري ، حتى يستطيع القارئ التعرف على الطبعة التي اعتمد عليها المحقق أو الدارس ، وأن يتبين سنة الطبع ، حتى يسهل عليه الرجوع إلى الطبعة نفسها . وربما أهمل الطالب في بعض الأحيان ذكر مصادره ومراجعته ، كما فعل عندما تحدث عن شيوخ أبي علي في علم الحديث (ص ٢١) ، وهذا لا يجوز أيضاً .

ومن هذه الملاحظات المنهجية أيضاً أن المحقق كان يمتد ، في أحيان كثيرة ، على ما كتبه بعض الباحثين المحدثين ، دون أن يعود إلى المصادر التي اعتمد عليها هذا الباحث أو ذاك ، والعودة إلى تلك المصادر أمر مهم . لا بد من العودة إلى تلك المصادر حتى نتأكد من دقة ذلك الباحث وأمانته العلمية في نقل النصوص ، أو الاقتباس منها ، وحسن فهمه لها . ولا يمكن أبداً الوثوق بما ينقله الباحثون المحدثون من المصادر القديمة ، أو ربما يقتبسونه منها ، لأنهم ربما فهموا النصوص فهماً خاطئاً .

ومما يلفت النظر في دراسة السيد الحدري ، أنه لم يلتزم ناظماً منطقياً في ترتيب أسماء تلاميذ أبي علي الفارسي ، وكان عليه أن يرتبهم بطريقة ما ، حسب وفياتهم مثلاً ، أو أن يرتبهم على حروف المعجم ، أو وفق أي ترتيب يختاره هو ويرتضيه . أما أن يذكر عدداً كبيراً من تلاميذ أبي علي دون أي ترتيب ، فهذا أمر غير مقبول .

ومما يلاحظ على الدراسة أيضاً أن المحقق اهتم بأبي علي النحوي ، أكثر بكثير من

اهتمامه بأبي علي اللغوي ، ولذا كان الجانب اللغوي في الدراسة مطموساً ، على حين كان الجانب النحوي بارزاً جداً ، وكان من الضروري أن يعبر المحقق الجانب اللغوي اهتمامه ، حتى يتم التوازن بين هذين الجانبين .

ومن الأخطاء المنهجية التي وقع فيها المحقق التكرار الذي نلححه في بعض جوانب الدراسة ، إذ اختلطت على المحقق الأمور حين تحدث عن عصر أبي علي ، وبيئته ، وترجمته ، فوضع هنا ما يجب أن يوضع هناك ، ووضع هناك ما كان قد وضعه هنا ، فوقع في الرسالة شيء من التكرار ، على الرغم من الإيجاز الشديد الذي تتميز به الدراسة . وكنا نتمنى لو تجنب المحقق ذلك .

ثم نبه الأستاذ الدكتور الفحام الطالب على بعض الأخطاء العلمية التي وقع فيها ، فالطالب ، على سبيل المثال ، ذكر في دراسته أن عمر بن هبيرة كان عاملاً لمروان بن محمد ، وذكر في موضع آخر من الدراسة أنه كان عاملاً لسليمان بن عبد الملك ، وقد أخطأ المحقق في كلا الموضعين ، لأن الذي كان عاملاً لمروان بن محمد هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري .

وقد أخطأ المحقق مرة أخرى حين نسب ابن هبيرة إلى عمر بن هبيرة ، والصحيح أنه ينسب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة .

وظن المحقق أن « المضديات » هي « القصريات » ، وهذا ظن في غير محله ، لأن المضديات غير القصريات ، وليست المضديات تصحيفاً للقصريات ، كما ظن المحقق . وهناك اشارات كثيرة تدل بوضوح على أنهما كتابان . ولو قرأ المحقق « المسائل البصريات » لوجد على وجه الورقة الأولى منه النص التالي : « لأبي علي مسائل تسمى المضديات ، والقهستانيات ، والأصبهانيات ، والذهبيات » .

وقبل أن ينهي الأستاذ الدكتور الفحام مناقشته لعمل السيد الحدري أشار إلى أن في تحقيق النص بعض السقط والسهو ، ونصح السيد الحدري ألا يطبع النص قبل أن يعيد مقابله على النسخة الخطية التي اعتمد عليها .

وبعد الانتهاء من المناقشة ، رفعت الجلسة للمذاكرة . وبنتيجة المذاكرة قررت لجنة الحكم منح الطالب مصطفى الحدري درجة الماجستير في الآداب بتقدير ممتاز .

ملاحظات سريعة :

كانت المناقشة ، من الناحية العلمية ، غنية بمضمونها ، غنية بنزعتها العلمية ، غنية بمناقشاتها الخصبة البناءة ، مفيدة لطلبة الدراسات العليا ، لأنها كانت تركز على الأخطاء المنهجية ، والعلمية ، واللغوية التي يقع فيها أحياناً بعض المحققين والدارسين .

ولم يطلب الأساتذة المناقشون من الطالب أن يأتي بأشياء فوق طاقته العلمية ، بل كان نقدم له ينصب على ما يستطيع القيام به ، ولكنه قصر فيه . وهذا ما صرح به الأستاذ الدكتور الفحام في مناقشته للطالب ، حين قال : « فإن نقدنا له نستوحيه من أنه كان يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وأن يقدم أفضل مما قدم وهو قادر على ذلك ، وتظهر قدرته هذه في تحقيقه لبعض قضايا الكتاب » .

وكان الأساتذة المناقشون يتحلون بالروح العلمية ، إذ أنهم أعطوا الطالب ما يستحقه من الثناء على رسالته ، والتشجيع له . وكان النقد الذي يوجه الى عمله رقيقاً ، رقيقاً ، غايته التنبيه على بعض الأخطاء التي وقع فيها الطالب ، كي يتجنبها في المستقبل . ولم تكن الغاية من ذلك النقد التشهير بتلك الأخطاء ، أو تعظيم شأنها ، بل على العكس من ذلك ، وجدنا الأساتذة المناقشين يرفقون بالطالب ، ويمهدون لنقدهم عمله بمقدمة رقيقة ، مؤكدين المرة تلو المرة أن تلك الملاحظات لا تنقص من قيمة عمله ، وإنما هي متممة له ، ترشده الى بعض مواضع الخطأ والزلل ، وأن الانسان ليس معصوماً من الخطأ والنسيان .

ولم نلاحظ طيلة المناقشة تسفيها لأراء الطالب ، أو تقليلاً من شأنها ، على الرغم من أن الطالب كان أحياناً يخالف بعضهم الرأي .

وظهر من خلال الحوار الذي دار في جلسة المناقشة أن الأستاذ المشرف (د . فحام) كان يترك للطالب ، في أثناء تحضيره للرسالة ، الحرية في أن يمبر عن آرائه كما يشاء ، دون أن يفرض عليه رأياً أو موقفاً . فالطالب كان يتمتع بالحرية المطلقة في التفكير والكتابة ، على الرغم من أنه كان يخالف أستاذه المشرف الرأي في بعض الأحيان ، وكان صدر الأستاذ المشرف يتسع لذلك . وقد صرح الأستاذ الدكتور الفحام نفسه بأنه ليس مقتنعاً بكل ما كتبه الطالب عن معنى التعليق ، على الرغم من أن الطالب قد أطلال الحديث في هذا الجانب ، وقد صارع الأستاذ الدكتور الفحام الطالب بذلك قائلاً له : « لست مقتنعاً بكل ما كتبه عن معنى التعليق ، على الرغم من أطلالك فيه ، فللتعليق أكثر من معنى ، من هذه المعاني . . . » وقد نهتكت الى ذلك في أثناء تحضيرك للرسالة ، وتركت لك الحرية ، كي تفكر كما تشاء ، وتعبّر عن آرائك كما تشاء ، لأنني لا أريد أن أفرض آرائي على أحد . »

وهذه النزعة العلمية جديرة بالتقدير والاحترام ، وهي - دون شك - خصلة من أخلاق العلماء . فمن حق الطالب على أستاذه المشرف أن يمنحه الحرية في التفكير والدراسة . ولا ينبغي بأية حال من الأحوال أن يلزمه بمواقف معينة ، أو أن يفرض عليه بعض آرائه وأن يجعله يدور في فلك أفكاره . ويكون دور الأستاذ المشرف آنذاك دور الموجه ، والمرشد ، والناصح .

بهذا الفنى ، وهذا التنوع ، وبذلك الروح العلمية ، نوقشت رسالة السيد مصطفى الحدرى ، وأعطت صورة مشرقة للرسائل الجامعية التي تناقش في كلية الآداب بجامعة دمشق . فالبحث - كما يقول الأستاذ هاشم - طريف في جملته ، وهو يدل على نهج الأقدمين من علمائنا الأوائل في وضع أصول النحو ، وفي تحليلهم للقواعد التي قمندوها ، والعمل التي استنتجوها . ولا شك أن المكتبة العربية ستغنى محموداً اذا طبع هذا الكتاب ، ووضع بين أيدي المعنيين بالنحو العربي ، الحراس الفير على تراثنا الحضاري الغصيب .

رضوان الحسن

كلية الآداب - جامعة دمشق

الحواشي :

- ١ - معجم الأدباء ، ٢٣٢/٧ ، وفيات الأعيان ٨٠/٢ .
- ٢ - انباء الرواة ٢٧٤/١ .
- ٣ - تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ وانظر معجم الأدباء ، ٢٣٤/٧ .
- ٤ - معجم البلدان / فسا / ٤ / ٢٦١ .
- ٥ - وفيات الأعيان ٨٢/٢ ، شذرات الذهب ٨٩/٣ .
- ٧ - أبو علي الفارسي للدكتور عبدالفتاح شلبي ص ٥١ .
- ٨ - المرجع السابق ٦٤ .
- ٩ - تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ، معجم الأدباء ، ٢٣٣/٧ .
- ١٠ - وفيات الأعيان ٨٢/٢ .
- ١١ - تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ، وانظر : معجم الأدباء ، ٢٣٤/٧ ، وفيات الأعيان ٨٢/٢ ، شذرات الذهب ٨٨/٣ .
- ١٢ - تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ، معجم الأدباء ، ٢٣٤/٧ .
- ١٣ - البلغة في تاريخ أمة اللغة ٥٤ .
- ١٤ - تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ .
- ١٥ - معجم الأدباء ، ٢٣٩/٧ .
- ١٦ - الخصائص ٨٨/٢ ، وانظر معجم الأدباء ، ٢٣٨/٧ ، و ٢٥٤/٧ .
- ١٧ - معجم الأدباء ، ٢٤٣/٧ - ٢٤٧ .
- ١٨ - المصدر السابق ٢٣٣/٧ .
- ١٩ - البلغة في تاريخ أمة اللغة ٥٣ .
- ٢٠ - بغية الوعاة ٧٤ .
- ٢١ - معجم الأدباء ، ٢٣٣/٧ .
- ٢٢ - المصدر السابق ٢٣٤/٧ .



مركز تحقيقات كميوتور علوم إسلامي

المصادر والمراجع :

- ١ - أبو علي الفارسي : د. عبدالفتاح شلبي ، (القاهرة ، مكتبة نهضة مصر) .
- ٢ - انباء الرواة : جمال الدين علي بن يوسف القلطي . تحقيق أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار الكتب .
- ٣ - بغية الوعاة : جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (مصر ، مطب السعادة ١٣٢٦ هـ) .
- ٤ - البلغة في تاريخ أمة اللغة : البروزآبادي ، تحقيق محمد المصري . (دمشق وزارة الثقافة ١٣٩٢ هـ) .
- ٥ - تاريخ بغداد : الطيب البغدادي أحمد بن علي (المدينة المنورة ، المكتبة السلفية) .
- ٦ - الخصائص : عثمان بن جني . تحقيق محمد علي التجار . (القاهرة ، مطب دار الكتب ١٣٧٤ هـ) .
- ٧ - شذرات الذهب : ابن العماد العنبري . (بيروت : دارالافاق الجديدة) .
- ٨ - معجم الأدباء : ياقوت الحموي . (بيروت ، دار أحياء التراث العربي) .
- ٩ - معجم البلدان : ياقوت الحموي . (بيروت ، دار صادر) .
- ١٠ - وفيات الأعيان : ابن خلكان . تحقيق د. احسان عباس (بيروت ، دار صادر) .

قرقيسيا

محمد ناشد مشوح

تقع على الضفة الفرات الشرقية عند مصب نهر الخابور في الفرات على مقربة منها
رحبة مالك بن طلق وتبعد عن دير الزور ٣٥ كم شمال شرقي .

كان اسمها (تاباكان) ثم (شوبورا) ثم (سوكي) في عهد الآشوريين .

سماها اليونان (تركسيون) وسماها الرومان (سيرسيوم) وسماها العرب عندما
فتحوها (قرقيسيا) فيها معالم أثرية . كانت في عهد البابليين والرومان والعرب
عامرة زاهرة كثيرة السكان وافرة الثروة .

ذكرها المؤرخون فقال ابن هوقل : لها بساتين وأشجار وفواكه وهي نزهة . وقال
ياقوت : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طلق على ستة فراسخ وعندها مصب
الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات . سميت بقرقيسيا بن طهمورث
الملك . كان عدد سكانها في العهد الروماني (٦٠) ألفا .

وقال حمزة الأصفهاني : قرقيسيا معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم
لارسل الغيل المسمى بالعربية الحلبة . وقال بطليموس : طولها ٦٤ درجة و ٤٥ دقيقة وعرضها
٣٥ . وهي من الاقليم الرابع طالعها السماك الأعزل .

لعبت قرقيسيا دورا في تاريخ المنطقة السياسي وقال ياقوت انها كانت مسرحا
للحوادث في عهد العباسيين .

نفذ اليها سعد بن أبي وقاص جيشا عام ١٦ هـ وهو بالمدائن على رأسه عمرو الزهري
ولما فتح عياض بن غنم الجزيرة سنة ١٩ هـ وجه حبيب بن مسلمة الفهري الى قرقيسيا
ففتحها على مثل صلح أهل الرقة . فلما مات عياض وولي الجزيرة عمير بن سعد وولي

رأس عين سلك الغابور وما يليه حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فصالحهم على مثل صلحهم الأول .

— عندما هادن عبدالملك بن مروان امبراطور البيزنطيين حينما أغار على الثغور الاسلامية سنة ٧٠ هـ وخرج جيشه من دمشق حتى وصل الى أراضي الفرات لكنه رجع الى الشام عند ثورة عمر الأشدق فقتله ثم رجع الى السراق وحاصر زفر بن الحارث زعيم القيسية في قرقيسيا الذي كان يدعو لابن الزبير فصالحه وانضوت القيسية تحت لواء عبدالملك .

كما أن زفر بن الحارث الكلابي خرج الى قرقيسيا بعد أن انقضى يوم مرج راهط وتحصن بها وجعل يغير على بلاد كلب التي كانت تفعل ذلك بقيس وكان عمير بن العباب السلمي يغير مع زفر ببني تغلب .

— دخل زفر بن الحارث قرقيسيا هارباً من مروان بن الحكم وأقام عمير بن العباب شيئاً على طاعة بني مروان وأقبل ودخل قرقيسيا على زفر فأقام معه بعد قتل عبيدالله ابن زياد وأقبل زفر يبكي قتلى مرج راهط وهي الحرب بين قيس وكلب ويقول :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط مروان صدعاً بيننا متنائيا

اتذهب كلب لم تنلها وما حنا ويترك قتلى راهط هي ما هيا

فقد تنبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا وتثار من نسوان كلب نسائيا

أبعد ابن صفر وابن عمرو تتابعا ومصرع همام أمني الأمانيا

فأجابه ابن المخلاة الكلبي : يا مقيت قاتل عروم ربي

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط على زفر داء من الداء باقيا

تبكي على قتلى سليم وعامر وذبيان مغرورا وتبكي البواكيا

وأقبل عمير يخطر فخرج من قرقيسيا يتطرف بوادي كلب فيغير عليها وعلى من أصاب من قضاة وأهل اليمن ويحضر كلباً ومعه تغلب وقد حمل عليه فوارس من كلب يطلبونه ولحقه مولى لكلب يقال له (شقرون) فجرح عمير وهرب حتى دخل قرقيسيا الى زفر .

استنزل عبدالملك بن مروان من قرقيسيا زفر بن الحارث الكلابي وأقعد معه على سرير ورأه ابن ذي الكلاع فيكي فقال له عبدالملك : ما يبكيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين وكيف لا أبكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك ثم هو معك على السرير . وبلغ الإخطل ذلك فدخل على عبدالملك وأنشد شعراً فقال له عبدالملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك الا خطلة في رأسك قال : أجل والله يا أمير المؤمنين حين تجلس عدواً لله هذا معك على السرير ، وهو القائل بالأمس :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فضرب عبد الملك صدر زفر برجله فقلبه عن السرير وقال : اذهب الله حزازات تلك الصدور . وقال زفر : ما أيقنت بالموت قط الا تلك الساعة حين قال الأخطل ما قال .

— نزل عمران بن حطان بن ظبيان المكنى أبا سماك من شعراء الشراة والمقدمين بمذهبيهم . بزفر بن العارث الكلابي بقرقيسيا فجعل شباب بني عامر يتعجبون من صلاته وطولها وانتسب لزفر . فقدم على زفر رجل من أهل الشام قد كان رأى عمران بن حطان بالشام عند روح بن زنباع الجذامي من سمار عبد الملك بن مروان ، فصافحه وسلم عليه . فقال زفر للشامي : أتعرفه قال : نعم اهَذَا شيخ من الأزْد . فقال له زفر : أزدى مرة وأوزامي أخرى ؟ ان كنت خائفاً أمانك وان كنت عاتلاً أغنيك . فقال : ان الله هو المنفي وخرج من عنده وهو يقول :

ان التي أصبحت يعني بها زفر	أعيت عناء على روح بن زنباع
أمسى يسألني حولا لأخبره	والناس من بين مغدوع وخداع
حتى اذا انجلت مني حباته	كف السؤال ولم يولع باهلاع
فاكف كما كف روح انني رجل	أما صريح وأما نفعة القاع
أما الصلاة فاني غير تاركها	كل امرئ للذي يعني به ساع
فاكف لسانك عن هزي ومسألتي	ماذا تريد الى شيخ لأوزاع
أكرم بروح بن زنباع وأسرته	قوما دعا أوليهم للعلا داع
جاورتهم سنة فيما دعوت به	عرضي صحيح ونومي غير تهجاع
فاعمل فانك منعي بحادثة	حسب اللبيب بهذا الشيب من ناع

ثم خرج فنزل بيمان ثم بجانب الكوفة حتى مات .

— أغار زفر بن العرث الكلابي على أهل المصباح وقد أصاب أول النهار أهل ماء يقال له (خصيف) وفيه سيد بني الجلاح مصاد بن المغيرة بن أبي جبلة فأسره فأتى به قرقيسيا ثم من عليه وقتل عفيف حسان بن حصين من بني الجلاح . ثم مضى زفر الى المصباح فاجتمع من بها الى عمير بن حسان بن عمر بن جبلة فامتنعوا فقال لهم زفر : اني لا أريد دماءكم فاعطوا بأيديكم فأبوا وقاموا فقتلت منهم جماعة كثيرة وقتل معهم رجلاً من تغلب . وكان قتلى يوم المصباح من كلب ثمانية عشر رجلاً والتغلبيين وبقي الماء ليس فيه الا النساء فلما انصرف عنهم زفر أراد النساء أن يجررن القتلى الى بشر يقال له كوكب وقد وارت القليب أم عمير بن حسان كيسة بنت أبي رجال حميد بن حريث بن بجدل الذي لما علم ما حل بقومه أتى تدمر ليجمع أصحابه وليغير على قيس . وقد قتل

مطر بن عوص خليفة حميد بن حريث في تدمير النميريين وكانوا ستين رجلا . ولما بلغ زفر قتل النميريين بسط على كل من أدرك من كلب واستحل الدماء وأخذ في وادي يقال له وادي الجيوش وقتل فيه أكثر من خمسمائة ولم يلقه حميد ثم انصرف الى قرقيسيا وذكر بعض بني نمير أن زفر أغار على كليب يوم حفير ويوم المصبح ويوم الفرس فقتل منهم أكثر من ألف رجل ثم أغار عليهم في يوم الاكليل فقتل منهم مقتلة عظيمة منهم حسان بن حصين من بني الجلاح فقالت امرأة من بني كلب تراثيم :

أبعد من وليت في كوكب يا نفس ترجين ثواء الرجال

— لما ألح عمير بن الحباب بالفارات على كلب رحلت حتى نزلت غوري الشام . فلما صارت كلب بالموضع الذي صارت قيس انصرفت قيس في بعض ما كانت تنصرف من غزو كلب وهم من عمير فنزلوا بشي من أثناء الفرات بين منازل بني تغلب وكان (دويل) من فرسان بني تغلب ولامه من بني تميم أعزأخذها غلام من بني الحريش فشكوا ذلك الى عمير فلم يشكهم وقال معركة الجند . ولما رأى أصحابه ذلك وثبوا على بقية أعزها وأخذوها وأكلوها . ولما أتاه دويل أخبرته بما لقيت لذا جمع جمعا وأغار على بني الحريش ، فلما بلغ ذلك قيسا أغارت على بني تغلب بأزاء الغابور فقتلوا منهم ثلاثة نفر واستاقوا خمسة وثلاثين بعي . فخرجت جماعة من تغلب فأتوا زفر بن الحرث وذكروا له القرابة والجوار وهم بقرقيسيا وقالوا : آتينابر حالنا وردوا علينا نعمنا فقال : أما النعم فنردها عليكم أو ما قدرنا لكم عليه ونكمل لكم نعمكم من نعمنا ان لم نصبها كلها وندي لكم القتلى قالوا له : فدع لنا قريات الغابور ورحل قيسا عنها فأبى ذلك زفر وأبوا هم أن يرضوا الا بذلك ثم جمعوا جمعا وأغروا على ما قرب من قرقيسيا من قرى القيسية فلقيهم عمر بن الحباب وكان النميري الذي تكلم عند زفر أول قتيل وهزم التغلبين . وقد دخل اياس بن الجراز وكان شريفا من عيون تغلب ، دخل قرقيسيا لينظر ويناطر زفر فيما كان بينهم وقتله يزيد بن بحزن القرشي فتقدم زفر وكان كريما لا يحب الفرقة ، وأرسل الى الأمير ابن قرشة بن عمرو وقال له : هل لك أن تسود بني نزار فتقبل مني الدية عن ابن عمك ؟ فأجابه الى ذلك . وكان قرشة من أشرف بني تغلب . كما وجه زفر قوما الى حي من ربيعة أكثرهم نصارى وأمر أن يرفقوا بهم فأتوا أخلاطا من بني تغلب من مشارق الغابور فأعلموهم الذي وجهوا به فأبوا عليهم فانصرفوا الى زفر فردهم وصار اليهم عمير بن الحباب فلقيهم قريبا من ماكس على شاطئ الغابور بينه وبين قرقيسيا مسيرة أيام فأعظم فيها القتل . وقد استمر القتل ببني عتاب بن سعد والنمر وفيهم أخلاط تغلب فأسر القطامي الشاعر وأخذت ابله وأصاب عمير وأصحابه شيئا كثيرا من النعم ، وقتل عبدالله بن شريح رئيس تغلب كما قتل أخوه ومجاشع بن الأجلح وعمرو بن معاوية وغيرهم كثير وجعل عمير يصيح بهم : ويلكم لا تستبقوا أحدا . قال الصفار :

تمنيت بالغابور قيسا فصادفت منايا لأسباب وفاق على قدر

وقال جرير :

نبئت أنك بالغابور ممتنع ثم انفرجت انفراجا بعد اقدار
وقال زفر بن الحرث يما تب عميرا بما كان منه في الغابور :
الا من مبلغ عني عميرا رسالة عاتب وعليك زار
اتترك حي ذي كلع وكلب وتجعل حر نابك في نزار
كمعتمد على احدى يديه فخانته بوهي وانكسار
ولما أسر القطامي أتى زفر بقرقيسيا فغلى سبيله ورد عليه مائة ناقة فقال يمدحه:

قفي قبل التفرق يا ضباعا ولا يك موقف منك الوداعا
قفي فادي أسيرك ان قومي وقومك لا أرى لهم اجتماعا
الم يعزنك أن جبال قيس وتغلب قد تبيانت انقطاعا
فلا تبعد دماء بني نزار ولا تقرب عيونك يا قضاها
ومن يكن استنام الى التوقي فقد أحسنت يا زفر المناها
اكفرا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا
فلم يبد سواك غداة زلت بي القدمان لم أرج اطلاما
من البيض الوجوه بني نفيل أبت أخلاقهم الا اتساعا

ثم قال :

يا زفر بن الحرث بن الاكرم قد كنت في الحي قديم المقدم
وحقن الله بكفيك دمي من بعد ما جف لساني وفمي

وقال :

يا ناق خبي خبيبا مزورا وقلبي منسبك المغبرا
وعارضي الليل اذا ما اخضرا سوف تلقين جوادا حرا
سيد قيس زفر الاغبرا ذاك الذي بايع ثم برّا

وقال :

كان في المركب حين واما بدرا يزيد البصر انفضاحا
الا ترى ما غشى الاكراحا وغشى الغابور والاملاحا

يصفعون بالاكف الراحا

وقال :

من مبلغ زفر القيسي مدحته
فلن أبدل بالنعماء مشتمة
فان هجوتك ما تمت مكارمتي
لولا كتائب من عمرو يصول بها
اذ يعتريك رجال يسألون دمي
والصيد آل نفيل خير قومهم
المانعون غداة الروع جارهم
فان قدرت على خير جزيت به
من القطامي قولا غير افناد
ولن أبدل أحسانا بأفساد
وان مدحت فقد أحسنت اصفادي
أرديت يا خير من يندو له النادي
ولو أطلعتهم أبكيت عوادي
عند الشتاء اذا ما ضنّ بالزاد
بالمشرقية من قاص ومن ناد
والله يجعل أقواما بمرصاد

— عرض قوم من أهل الحدرام لابن الزبير الأسدي في طريقه من الشام الى الكوفة
وقد نزل بشرقيسيا فاستمدوا عليه زفر بن الحرث الكلبي وقالوا انه أموي الهوى .
وكانت قيس يومئذ زهيرية وقرقيسيا وما والاها في يد ابن الزبير فحسبه زفر أياماً وقيدته
وكان معه رفيق من بني أمية يقال له أبو الحدرام فرحل وتركه في حبسه أياماً ثم
تكلمت فيه جماعة من مضر فأطلق فقال في ذلك :

اغاد أبو الحدرام أم مستروح
لعمري لقد كانت بلاد هريضة
ولكنه يدنو البغيض ويبعد الحبيب
الا ليت شعري هل أتى أم واصل
اذا ما صرفت الكعب صاحت كامها
تبغي أباهما في الرفاق وتنثني
أمرتلعل وفد العراق وغودرت
فانك لا تدريين فيما أصابني
أظن أبو الحدرام سجنني تجارة
كذاك النوى مما تجد وتمزج
لي الروح فيها عنك والمنسرح
سب وبنائ في المزار وينزح
كبول أعضوها بساقي تجرح
صريف خطاطيف بدلوين تمنح
والوى به في لجة البحر تمسح
تحن بابواب المدينة صيدح
أريثك أم تعجيل سيرك أنجح
ترجى وما كل التجارة تربح

— قال سعد ابن أبي وقاص وقد أنفذ جيشاً عام ١٦ هـ وهو بالمدائن الى هيت
وقرقيسيا ورئيسهم عمرو بن مالك الزهري فنزلوا على حكمه فقال عند ذلك :

ونحن جمعنا جمعهم في حفيرهم
وسرنا على عمد نريد مدينة
فجئناهم في دارهم بفتة ضحى
فنادوا الينا من بعيد بانثنا
قبلنا ولم نردد عليهم جزاءهم
بهيت ولم نحفل لأهل الحفائر
بقرقيسيا سير الكماة المسامر
فطاروا وخلوا أهل تلك المعاجر
ندين بدين الجزية المتواتر
وحطناهم بعد الجزا بالبواتر

وقال عمرو بن مالك الزمري في جيش سعد بن أبي وقاص عندما واقع أهل قرقيسيا:
تطاوت إيامي بهيت فلم أحم وسرت إلى قرقيسيا سير حازم
فجثتهم في غرة فاحتويتها على عنن من أهلها بالصوارم

وقال الشاعر :

لعن سخطه من خالقي أو لشقوة تبدلت قرقيسياء من دارة الردم

- وقد صالح أهل قرقيسيا أبو طاهر سليمان أمير قرامطة البحرين على البصرة والكوفة سنة ٣١٥ هـ عندما وصل إلى الرحبة، بأن يدفعوا له جزية سنوية خوفاً منه ثم استولى القرامطة على قرقيسيا عام ٩٢٨ هـ

مدن ونواحي وقرى قرقيسيا :

- ١ - الشيبانية : قرية قرب قرقيسيا من نواحي الخابور .
 - ٢ - الشهلية : بلدة قرب قرقيسيا على نهر الخابور بينها وبين ماكسين .
 - ٣ - جعشية : من قرى قرقيسيا الكبرى كالمدينة بينها وبين المجدل نحو أربعة أميال .
 - ٤ - الدارة : مدينة قرب قرقيسيا من أعمال الخابور . قال ياقوت : الدارة في أصل كلام العرب كل جوبة بين جبال في حزن أو سهل ، وقال الأصمعي الدارة رمل مستدير في وسطه فجوة وهي الدورة . وقال ابن الأعرابي : والدارة دارة القمر وكل موضع يدار به شيء يحجزه فاسمه دارة ويقال لمسكن الرجل دارة .
- المنتسبون إلى قرقيسيا :

١ - دعبل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي أبو علي الشاعر المشهور المجيد لكنه كان بذيء اللسان مولماً بالهجو والحط من أقدار الناس وهجاء الخلفاء . كان يقول:
لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك » من كلامه : من فضل الشمر أنه لم يكذب أحد قط إلا اجتواه الناس إلا الشاعر فإنه كلما زاد كذبه زاد المدح له ثم لا يقنع له بذلك حتى يقال له : أحسنت والله . توفي سنة ٣٤٦ هـ .

٢ - محمد بن الحسن الشهيد القرقيسياني

٣ - ابن مرار : ولوه (بنوهاشم) مصرعاً كانوا في سلطانهم ، فأصاب بها مالا عظيماً ، وكانت له أمة يقال لها (عمتة) كان يهاها ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي وبلغه خبر ربيعة مع جاريتة فأحضره وعرض عليه أن يهبها له فقال : لا تهبها لي فإن كل مبدول مملوك فأكره أن يذهب حبها من قلبي ، ولكن دعني أواصلها هكذا فهو أحب إلي .

محمد ناشد مشوح

رسالة من ألمانيا الديمقراطية

السيد رئيس اتحاد الكتاب العرب
الأستاذ علي عقلة عرسان المحترم :
تحية طيبة وبعد :

فيسرنا أن نرسل اليكم مقالتين الأولى حول دراسة
الاستمراب في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، والأخرى
حول الدراسات العربية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية
وتقاليدها . اضافة الى محاضرة ألقاها البروفسور الدكتور
مانفريد فلايشهامر ، أستاذ في جامعة هالة ، في مركزنا
الثقافي حول موضوع « عرض تاريخ الاسلام وحضارته في
مؤلفات المستشرقين كارل بروكلمان ويوهان فوك »
ونرجوكم بعد اطلاعكم على هذه المواد اعطاءها السيد
الدكتور عبدالكريم اليافي رئيس تحرير مجلة التراث
العربي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب لنشرها اذا
كانت هناك امكانية لذلك .

ومن وجهة نظري كمستشرق وبعد اطلاعي على مجلة
التراث العربي التي تحوي أبحاثاً قيمة أقترح ارسال نسخة
دورية الى المعاهد التي تهتم بالتراث العربي في جمهورية
ألمانيا الديمقراطية بالتبادل مع هذه المعاهد وما يصدر
عنها من مجلات علمية . ونرسل اليكم لائحة بأسماء هذه
المعاهد وعناوينها .

ننتهز هذه المناسبة لنعرب لكم عن فائق تقديرنا
واحترامنا .

ه . فايغولد

مدير المركز الثقافي لجمهورية
ألمانيا الديمقراطية بمدينة

دراسة الاستعراب في جمهورية ألمانيا الديمقراطية

البرفسور الدكتور جيرت كوك
جامعة كارل ماركس - لايبزيغ

بوسع المرم في ألمانيا الديمقراطية دراسة الاستعراب في ثلاث جامعات في البلاد. وتعد الدراسات العربية والاسلامية من فروع الدراسة المقررة في كل من جامعة مارتن - لوثر بهاله - وفنتسبرج عدا علم الآثار الشرقية . وفي جامعة كارل ماركس بلايبزج يتم تدريس علوم الشرق الأوسط بربط اللغة العربية بالتاريخ . والاقتصاد والدولة والقانون والثقافة ، وباعداد مترجمين من الانجليزية الى العربية وكذلك من الفرنسية اليها . وتقوم جامعة هومبولدت في برلين بتدريس اللغة والآداب العربية - الاستعراب - في اطار علوم غربي آسيا .

وتواصل منشآت التعليم والابحاث المذكورة بذلك التقاليد التقدمية والانسانية الكبيرة لعلوم الشرق التي بادرت اليها البورجوازية الألمانية . ويتم اكساب الطلبة القدرة على ادراك الظواهر والعمليات الاجتماعية في البلدان العربية في صلاتها المترابطة ، وعلى اتقان اللغة العربية وتنقل اليهم معارف علمية اجتماعية شاملة في الناحيتين النظرية والمنهجية .

وبعد تخرج المستعربين من الجامعات يكلفون بالعمل في مختلف مراكز الابحاث العلمية لدراسة عمليات التطور في الشرق الأوسط وشمالى أفريقيا وكذلك التاريخ والثقافة والاقتصاد والتعليم والعلوم ومسائل التنمية الخاصة بالبلدان المعنية .

وبغية الرفع من مستوى الدراسة الشيقة تم وضع مواد تعليمية ودراسية من قبل علماء ج أد خلال السنوات الماضية وهي جديدة من نوعها ، ومنها مثلاً كتاب تعليم العربية الحديثة وقاموس ألماني - عربي ، ودليل العامية ، وآثار مختارة من النشر العربي الحديث ومما له أهمية في تضييق المعلومات التاريخية والاقتصادية مجلدات « تاريخ العرب » ومؤلفات أخرى تلقى الاهتمام في خارج البلاد أيضاً .

ويستعين علماء ج أد في اعداد الطلاب بزملاء عرب يمارسون في الغالب مهنة تعليم اللغة . وهؤلاء يقدمون اسهامات كبيرة في الامام الفعالم باللغة العربية وفي اعداد المختصين لهذا الميدان .

وهناك في حقل الدراسات العربية صلات وعلاقات علمية مع المنشآت الماثلة في مختلف البلدان العربية ومنها مثلاً مع جامعات دمشق والقاهرة وبغداد وممهد بورقيبة في تونس .

د جيرت كوك

الدراسات العربية في ألمانيا الديمقراطية وتقاليدها

كانت هناك في القرن الثامن عشر وتحت تأثير عهد التنوير البرجوازي جهود بذلت كذلك من قبل علماء ألمان لدراسة لغات وتاريخ وحضارة الشرق الأدنى وشمال أفريقيا بصورة علمية ومجردة من الأحكام المسبقة . وهم بذلك وقفوا بوجه ميول ذات دوافع مسيحية وكذلك ضد الشوفينية وجعل أوروبا مركزا للامور . وقد قدم أولئك الدارسون اسهامات كبيرة في نقل صورة سليمة عن الانجازات التاريخية والحضارة القيمة لشعوب الشرق الأدنى وتعميق هذه الصورة باستمرار .

وفي لايبزيغ عمل في القرن الثامن عشر مؤسس الاتجاه العلمي للاستغراب ، عالم اللغة البارز يوهان ياكوب رايسكه (١٧١٦-١٧٧٤) . وفي القرن التاسع عشر شهدت الدراسات العربية تقدما كبيرا ، فلقد تطورت جامعة لايبزيغ تحت ادارة هاينريش ليبربشت فلايشر (١٨٠١ - ١٨٨٨) الى مركز مرموق على المستوى العالمي لبحث وتدریس اللغة والأدب العربيين وكان فلايشر بنفسه يتبادل سلات وثيقة مع ممثلين كبار شهرين لمعهد النهضة العربية . وسمى كغيره من العلماء الى احتواء المخطوطات العربية ودراستها ونشرها من خلال المكتبات الألمانية . وقام الشاعر المستشرق فريدريش روكرت (١٧٨٨ - ١٨٦٦) بتقريب الأدب العربي المترجم الى الجمهور الألماني . وفيما بعد اكتسبت الدراسات التاريخية والحضارية أهمية بالغة . وكان أن نشأت علوم الاسلام ، وكان بين رواد هذه الأبحاث كارل هاينريش بيكر (١٨٧٦ - ١٩٣٣) .

وبعد الحرب العالمية الثانية جرى في ألمانيا الديمقراطية مواصلة التقاليد الانسانية الكبيرة للمستشرقين الألمان على مستوى أعلى . وهي ترتبط بأسماء علماء بارزين مثل كارل بروكلمان في هاله ، الخبير المبكر في اللغات والأدب الشرقية ، وباسم باحث الاسلام يوهان فوك في هاله أيضا ، وكذلك باسم عالم الاسلام والمؤرخ ريشارد هارتمان في برلين .

وقد اتجهت السياسة الثابتة لألمانيا الديمقراطية منذ البداية نحو مبدأ التضامن المناهض للامبريالية والصداقة بين الشعوب ، وسعت الى تبادل وتطوير علاقات متنوعة مع الدول العربية . وهذا أدى بدوره الى نهضة لا مثيل لها في الدراسات العربية في منشآت الأبحاث والتعليم في جمهورية ألمانيا الديمقراطية .

وفي إطار الحفاظ على التقاليد التاريخية الكبيرة ركزت الدراسات بالدرجة الأولى على حركات التحرر العربية في مختلف جوانبها . وارتفع عدد الطلاب بسرعة ، وتم اصدار ووضع مؤلفات أولية مهمة لتعلم واتقان اللغة العربية ولأبحاث التاريخ والاقتصاد والقانون والثقافة في البلدان العربية .

ويسمى علماء ج أد في ذلك الى التعاون بصورة متينة مع زملاء لهم في الاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية ومع علماء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا . وهكذا تطورت كذلك علاقات وثيقة مع المؤسسات العلمية في البلدان العربية .

• • • جيت كوك

عرض تاريخ الإسلام وحضارته في مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فولك

الأستاذ الدكتور مانفريد فلايشهامر
جامعة مارتن لوتر بهالة
جمهورية ألمانيا الديمقراطية

Professor Dr. Manfred Fleischhammer
Martin-Luther-Universität Halle-Wittenberg, DDR

من بين الموضوعات التي يعنى بها هذا الملتقى الثقافي للتعرف على الفكر الاسلامي، هي نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية . ان عدد المصنفات التي تتناول هذه الموضوعات قد ازداد بمرور الأيام ازديادا يتمذر معه على باحث فرد أن يلقي نظرة عليها أو يبدي رأيا فيها .

وغني عن البيان أن بعض هذه المؤلفات يتفاوت تفاوتاً شديداً في الاجادة . فاذا ضربنا صفحا عن نظرة أحد المؤلفين الأساسية الى الاسلام وحضارته ، التي تتضح من الخطة التي يجري عليها في معالجة موضوع ما، والتي تؤثر تأثيرا جوهريا في الفاية من أقواله ومنحاهما ، نقول اذا ضربنا صفحا عن هذا فان الذي يحدد الى درجة كبيرة جودة أقواله هي معرفته أو جهله بلغة ، أو بلفات المصادر التي لا بد له من الرجوع اليها في بحوثه ودراساته . ان المؤرخ الذي لا علم له بواحدة أو كثر من اللغات التي كتبت بها المؤلفات الأساسية عن الاسلام وحضارته ، وأخص هنا بالذكر اللغة العربية ثم الفارسية والتركية ، مثل هذا المؤلف يجد نفسه منذ البداية في موقف حرج ، اذ لا مفر له من الاعتماد على مؤلفات زملائه من العارفين بعلوم الشرق ولغاته وعلى قلة من المصادر الاسلامية المترجمة، وبذلك لا يسمه الا أن ينقل عن هؤلاء دون أن يكون في مقدوره امتحان معلوماتهم بمعارضتهما بالنصوص الاصلية . وفوق ذلك فانه عرضة دائما لخطر التخلف عن ركب الدراسات الشرقية .

اسمعوا لي بعد هذه اللمحة القصيرة عن موقف المؤرخ الذي يشتغل بالاسلام وحضارته أن أخوض في موضوع محاضرتي الأصلي . انني أود ، بقدر ما يسمح لي الوقت ، أن أتحدث على سبيل الاختصار عن مؤلفات المستشرقين كارل بروكلمان ويوهان فولك التي تدخل في موضوعنا هذا . وعندما أقوم بهذا ، فانني على يقين بأن أكثركم قد سمع بهذين العالمين . ذلك أن بعضاً من أنفس مؤلفاتهم قد نقلت جزئيا أو كليا الى العربية منذ سنوات . وأقصد بذلك : « تاريخ الأدب العربي » « Geschichte der arabischen Litteratur » و « تاريخ الشعوب الاسلامية » « Geschichte der islamischen Völker und Staaten »

لكارل بروكلمان . و « العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب »
Arabiya, Untersuchungen zur arabischen Sprach-und Stilgeschichte
وسأتي على هذه المؤلفات بالتفصيل في أثناء كلامي . وليس هذان العالمان مؤرخين بمعنى
أنهما لم يشغلا الا بتاريخ الاسلام وبتاريخ حضارته فحسب ، بل هما لغويان ومشتغلان
بالعلوم الاسلامية ، لا سيما يوهان فوك ، كما يظهر جليا من كتبهما ومقالاتهما المنشورة
في مجلات الاستشراق التي تنتمي بالمعنى الواسع الى مجال التاريخ في تخصصهم .

كان كارل بروكلمان (ولا يزال) فوك ، منذ سنوات طويلة من أعضاء هيئة التدريس
في جامعة مارتين لوتر بمدينة هاله . لقد لقي هذان العالمان جزاء أبحاثهما تكريماً
عظيماً ، فانتخبا عضوين أصليين وعضوي شرف في كثير من جمعيات الاستشراق في ألمانيا
وخارجها . ومن ذلك تعيين كارل بروكلمان عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق - المجمع
العلمي العربي سابقاً - وتعيين يوهان فوك عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة .
وليس هذا فحسب ، وإنما منحت حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية بروكلمان في عام
١٩٥١ وفوك بعد ذلك بخمس سنوات جائزة الدولة تقديراً لجهودهما في تطوير فروع
تخصصهما العلمي .

ولد كارل بروكلمان سنة ١٨٦٨ في مدينة روستوك . وقد قادته ميوله العلمية
المبكرة وموهبته اللغوية البارعة الى الاتجاه لدراسة الشرقيات واللغتين اليونانية واللاتينية
والتاريخ . وفي عام ١٨٩٠ نال درجة الدكتوراة في الفلسفة بأشراف تيودور نولدكه
Theodor Nöldeke الذي قدم للدراسات العربية في كتابه « تاريخ القرآن »
Geschichte des Qorans دراسة رائدة عن سوره . كان موضوع الرسالة التي نال بها
بروكلمان درجة الدكتوراه هو « صلة كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير بكتاب أخبار
الرسول والملوك للطبري » Das Verhältnis von Ibn-el-Atirs Kamil fit-Ta'rih zu
Tabaris Ahbar er rusul wal muluk وشغل بروكلمان بعد ذلك خلال حياته الطويلة منصب
أستاذ اللغات السامية وأيضاً الدراسات التركية من بعد ، في كثير من الجامعات ، من بينها
مرتين في جامعة هاله لمدة طويلة . وكانت المرة الأولى في مرحلة ما بين ١٩١٠ و ١٩٢٢ . وبعد
أن أحيل الى المعاش من إحدى الجامعات ، عاد في سنة ١٩٣٧ مرة أخرى الى هاله ، لأن فيما تضمه مكتبة
Bibliothek der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft
بهذه المدينة من مراجع خير عون له في أبحاثه ودراساته . وعمل أستاذاً مرة أخرى بجامعة
منذ عام ١٩٤٧ الى أن توفي في عام ١٩٥٦ .

لقد حقق بروكلمان في أثناء اشتغاله بالبحث انتصارات باهرة في مختلف فروع
الاستشراق . تشهد بذلك القائمة التي وضعها يوهان فوك بمؤلفاته التي تربو عناوينها على
٥٥٠ ، ولم يؤهله لذلك قدرته التي لا تبارى على العمل فحسب ، وإنما قبل كل شيء
ذاكرة قوية تحفظ كل شيء بعد القراءة الأولى ، وبصيرة نافذة وسيل الى الترتيب أمكنه فيما
يبدو من السيطرة على مواد هائلة دون عناء . وأخيراً القدرة على صوغ أفكاره في يسر
وسرعة ، بحيث استطاع غالباً أن يدفع بالمسودة الأولى كما هي الى المطبعة .

وسأذكر هنا طرفاً يسيراً من بين المؤلفات العديدة التي جلبت له الشهرة ، ولا تدخل في مجال الدراسات العربية والإسلامية ، ففي الساميات ألف « الأساس في نحو اللغات السامية المقارن » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen . فسر فيه المادة اللغوية السامية الهائلة باستخدام مناهج البحث اللغوي التاريخي ، كما عرضها عرضاً مرتباً واضحاً . كان كتاب « الأساس » أحب كتبه إليه ، ولم يفقد الكتاب مكانته حتى اليوم رغم كل ما طرأ على البحث من تغير . وقد نهض به بحث اللغة السريانية القديمة وآدابها بمجمعه « القاموس السرياني » Lexicon Syriacum وبنحوه الذي طبع مرات عديدة .

ومن بين مؤلفاته التركية يبرز كتابه « مفردات التركية الوسيطة حسب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري Mitteltürkischer Wortschatz nach Mahmud al-Kasgaris Divan lugat at Turk » ومن مؤلفاته الأخيرة « نحو التركية الشرقية للغات الأدبية الإسلامية بآسيا الوسطى Osttürkische Grammatik der islamischen Litteratursprachen Mittelasiens »

والآن نستعرض الكتب التي ألفها بروكلمان في مجالي العربية والإسلام والتي تهتم موضوعنا بصفة خاصة . كان بروكلمان مولعاً بالمرتبة الأولى بعلم اللغة وفقها .

وكما فعل في سائر الفروع الأخرى المذكورة . فقد أسهم أيضاً في هذين المجالين بتيسيره الاستفادة من المصادر التي يعتمد عليها البحث في الإسلام وحضارته . ألف كتاباً في نحو العربية الفصحى طبع حتى اليوم ١٧ مرة . ونشر ديوان لبيد وكتاب « هيون الأخبار » لابن قتيبة ، واشترك في تحقيق كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، كاتب الواقدي . غير أن أهم مآثره في هذا الحقل هو من غير شك كتابه « تاريخ الأدب العربي » . ذلك المؤلف الضخم الذي ظهر أولاً في مجلدين بين عامي ١٨٩٧ و ١٩٠٢ ، ثم استكمل بذييل من ثلاثة مجلدات في السنوات ما بين ١٩٣٧ و ١٩٤٢ . وأعيد طبعه في ١٩٤٣ و ١٩٤٩ . وبهذا الكتاب أقام بروكلمان بحث الأدب الإسلامي العربي للمرة الأولى على أساس وطيء . ولما كان بروكلمان يدرك أنه ليس من الممكن تبعاً لعالة البحث العلمي آنذاك أن يعرض لأطوار نمو الأدب العربي الداخلية ، فقد صرح عزمه على أن يفهرس الأدب العربي الذي لا يزال موجوداً اليوم مطبوعاً أو مخطوطاً فهرسة كاملة بقدر الامكان وأن يذكر بأيجاز سير المؤلفين . ويستحق الجزء الثالث من الذيل الذي ظهر عام ١٩٤٢ اهتماماً خاصاً ، ذلك أن بروكلمان قدم هنا عرضاً شاملاً لتطور الأدب العربي الحديث ابتداء من العقد الثامن من القرن ١٩ . فهو لم يعط هنا مجرد ملاحظة قصيرة عن المؤلف وعناوين مؤلفاته ، وإنما بسط محتويات كثير من الكتب ، وأشار إلى النظائر وإلى النماذج الأدبية . التي احتديت وعلق على لغة المؤلف وأسلوبه وحاول في كثير من الحالات أن يقيم هؤلاء تقيماً أدبياً .

هذا الاشتغال الواسع بالأدب العربي والمعرفة التامة به هما اللذان دفعا بروكلمان في وقت مبكر إلى الاهتمام بالخلفية السياسية والحضارية لهذا الأدب ، الأمر الذي أفضى به بالضرورة إلى العلوم الإسلامية . ومن ثمة أخذ منذ عام ١٨٩٥ إلى ١٩١٤ يطلع بانتظام

عن أحدث المؤلفات عن تاريخ الاسلام في « حوليات علوم التاريخ »
Jahrbuch der Geschichtswissenschaft وفي عام ١٩١٠ كتب في اطار تاريخ للمعالم
وصفاً للإسلام منذ ظهوره الى العصر الحديث . وباعادة النظر في هذا الوصف ظهر عام ١٩٣٩
الكتاب المشهور « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، وظهرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٤٣ . وبعد
انتهاء الحرب العالمية الثانية ترجم الى العربية والفرنسية والانجليزية والبولندية والتركية .

ذكر بروكلمان في مقدمة الكتاب أنه نظرا لحالة البحث العلمي فإنه لا يزال من قبيل
المخاطرة كتابة تاريخ للشعوب الاسلامية ودولها ، حيث استفاد بالجيد من كتابات
زملائه في المواضيع المختلف فيها .

يبدأ الكتاب بوصف الأحوال في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ، ثم يصور حياة
النبي العربي ويشرح تماثيله . وبعد ذلك يصف الأحداث في عصر الخلفاء الراشدين ثم
يختم بعرض تاريخ الدولة الأموية . يعالج الجزء الثاني الامبراطورية الاسلامية في عهد
المباسبين منذ قيامها ثم انقسامها الى عدد من الدول المستقلة حتى سقوطها على يد المغول .
وموضوع الجزء الثالث هو قيام الدولة العثمانية وازدهارها ثم اضمحلالها البطيء حتى
نهاية القرن ١٨ . أما الجزآن الأخيران من الكتاب فيعالجان بأسهاب موقف الاسلام وتطوره
في القرن ١٩ ، ثم الوضع في الشرق الأدنى والأوسط ، وشمال أفريقيا في مرحلة ما بين
الحربين العالميتين .

لم يقنع بروكلمان ، كما يبدو لأول وهلة من هذا السرد لعناصر كتابه ، باعطاء فكرة عامة
عن التطور السياسي لهذه البقعة . وانما لم يدع فرصة تمر دون أن يشير الى أوجه التطور
المختلفة التي حدثت في الاسلام ابان ١٣٠٠ سنة . وبهذا يتناول التيارات والمذاهب في
نطاق الدين وفي الفقه الوثيق الصلة بالدين وفي الأدب والفن ، مثلما يشير الى الصلات بين
تلك الظواهر وبين العمليات الاجتماعية الجارية وقتذاك من ناحية ، وبينها وبين العوامل
السياسية المؤثرة فيها من ناحية أخرى . لقد أولى بروكلمان ، في الجزء الأخير من كتابه ،
عناية خاصة ليقظة الوعي السياسي والثقافي عند الشعوب الاسلامية ولا سيما العرب ، هذه
اليقظة التي تتجلى بوضوح في الكفاح الطويل ضد الاستعمار الأوربي ، وما صاحبه من
نهضة في الاسلام وما يتصل به من حضارة في مختلف أنحاء العالم العربي ويتكرر في ثنايا
هذا الكتاب كما يتكرر في المواضيع المناظرة من كتاب « تاريخ الأدب العربي » تأييد بروكلمان
للإماني السياسية والحضارية للامة العربية وللشعوب الاسلامية ولجهودها التي داوم على
متابعتها . ذلك التأييد الذي أكسبه شهرة صيتا في العالم الاسلامي .

وتكمن قيمة هذا الكتاب في وصفه لتاريخ الاسلام وحضارته وصفاً رزيناً موضوعياً ،
خالياً من التعصب والتحامل . وهذه القيمة لا يغض منها اليوم تقدم البحث التاريخي وما
يلزم عنه من تعمق النظر في جوانب عدة ، ولأما تلقاء بعض آراء بروكلمان وأحكامه من
نقد بسبب تغير وجهة النظر الى العوامل المحركة في التأريخ .

★ ★ ★

بعد أن وفينا بروكلمان بعض ما يستحق تأخذ في الحديث عن يوهان فوك ومؤلفاته المتعلقة بفهم الاسلام وتاريخه وحضارته .

يبلغ يوهان فوك من العمر الان ٧٨ سنة وهو أستاذ متقاعد لفقه اللغات السامية والعلوم الاسلامية يقيم في مدينة هاله ويعمل بها . بدأ فوك دراساته عام ١٩١٣ في جامعة هاله مع كارل بروكلمان . ثم انتقل حينئذ الى فرانكفورت (على نهر ماين) مارا ببرلين وهناك نال درجة الدكتوراة في الفلسفة ببحث أدبي تاريخي عن ابن اسحاق مؤلف سيرة النبي Muhammad Ibn Ishaq, Literarhistorische Untersuchungen بأشراف يوسف موروفتس Josef Moravitz وهو من أحسن العارفين بالقرآن والأدب العربي القديم . وفي عام ١٩٣٠ لبي دعوة للقيام بالتدريس لمدة خمس سنوات في دكا عاصمة جمهورية بنجالادش حالياً . وفي عام ١٩٣٨ قدم الى مدينة هاله أستاذا بجامعة .

وقد بقي فوك مخلصاً في كل أعماله لذلك الاتجاه الذي بدأ في منشوراته الأولى وفي رسالته للدكتوراه : وقوام ذلك الاتجاه هو الربط بين المنهج اللغوي المتين وبين التعمق في معالجة المسائل التي أصبحت على مر التاريخ مهمة لفهم الاسلام وحضارته . ظهر كتابه النفيس الموسوم بـ « العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب » عام ١٩٥٠ وبعد ذلك بعام ترجم الى العربية ثم الى الفرنسية في عام ١٩٥٥ . ان هذا الكتاب لا يدل فحسب على معرفته الواسعة بالعربية في عصورها المختلفة ، وانما يدل كذلك على احاطته الواعية بالتطور الروحي والعقلي للاسلام . دون فوك بطريقة بارعة في هذا الكتاب ، مستعيناً بطائفة ضخمة من المصادر والمواد ، تاريخ اللغة العربية الفصحى منذ بدايتها حتى العصر السلجوقي مشفوعاً بنظرة الى أحوالها في العصر الحديث . ولكتاباه هذا يدين المشتغلون بالعربية بالفضل ، إذ أتاح لهم القاء نظرة على الميكانيكية التي أدت عبر العصور الى التغيرات الداخلية في بنية اللغة العربية . وكان من نتائجها ما اصطلح عليه فوك منذ ذاك باسم « العربية الوسطى » Mittelarabisch .

ثمة عدد آخر له من الدراسات التي تنحوجمياً هذا المنحى وبحثت فيها مسائل خاصة . اذكر على سبيل المثال : « الفهرست » لابن النديم وتاريخ رواية كتاب « الصحيح » للبخاري أو اضافات الى طبعة « كتاب الآثار الباقية » للبيروني .

وهذه الأبحاث بالغة الأهمية في تفاصيلها ونالت لذلك الاعجاب والتقدير . ولعله أدخل في موضوع بحثنا أن نشير الى ثلاثة مقالات والى بحث شارك به في تأليف مرجع ، وظهرت هذه الدراسات في مدى ٢٥ سنة وشغل فوك فيها ببعض المسائل الأساسية في العلوم الاسلامية .

ظهرت أولى هذه المقالات عام ١٩٣٦ تحت العنوان المبثني « أصالة النبي العربي » Die Originalität des arabischen Propheten. ZDMG 90 (1936) وكانت نقطة البداية في بحثه هو تحليله النقدي لمؤلفين ظهروا قبل ذلك بقليل ويطبقان مناهج بحث سابقة عرضها

اثبات تبعية محمد للديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية . وقد حاول فوك أن يجيب على مسألة اذا ما كان من الممكن على هذا النحو فعلا أن ننصف شخصية النبي وتعاليمه ونفيه حقه . وفي أثناء كلامه بذل فوك كل ما في وسعه دفاعاً عن أصالة محمد وأهمية شخصيته وتعاليمه ، مورداً أدلة مقنعة على ذلك . ويرى فوك في الاستمرار والنجاح للذين أتبعوا للإسلام وحضارته عبر القرون خير دليل على أصالة التجديد الذي دخل التاريخ بظهور محمد .

وعلى أساس هذه الآراء فحسب كان من المنطقي أن يحاول فوك في مقال ظهر بعد ذلك بثلاث سنوات بعنوان « دور النقل في الاسلام » Die Rolle des Traditionalismus im Islam. ZDMG 93 (1939) بيان أهمية واحد من تلك المبادئ التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الاسلام وتوضيح فعاليتها . ويقصد فوك بالنقل في هذا الصدد : الحقيقة الملحوظة خلال التاريخ الاسلامي كله ، ألا وهي نظرة المسلم الدائمة الى السنة النبوية وإلى الأسوة الحسنة « التي يتحدث عنها القرآن في الآية ٢١ من سورة الأحزاب ، على أنها خير دليل يجب اتباعه في الحياة الدنيا والمعاملة . وبين فوك في الحاح كيف يتجلى هذا المبدأ في كثير من كتب الأدب ، وأنه أحد الملل الأساسية وراء الوحدة الشاملة للحضارة الاسلامية على الرغم من اختلاف الزمان والمكان ومما ينشأ عن ذلك من خواص .

وفي عام ١٩٥١ نشر فوك مقالا بعنوان « محمد - شخصية وتأسيس دين » Muhammed - Persönlichkeit und Religionsstiftung. Saeculum 111 (1951) كتيب لعامة القراء . وشغل في هذا المقال مرة أخرى بمجموعة المسائل التي عالجه في مقاله حول أصالة النبي العربي سالف الذكر . وبعد عرض موجز للآراء المختلفة التي قيلت عبر التاريخ في شخصية محمد وأثره ، يؤكد من جديد الملامح التي تتفرد بها شخصية محمد والدين الاسلامي الذي بشر به . وبهذا نشأت دراسة بارعة عن واحدة من أهم الشخصيات وأروعها في تاريخ العالم ، وتقرن بالسيرة الأخرى التي ألقت عن محمد .

وفي سنة ١٩٧١ ظهر بحث شارك به في « مرجع الدراسات الشرقية » Handbuch der Orientalistik تحت عنوان « دين الاسلام السني » Die Religion des Sunnitischen Islams وفي هذا البحث سمى فوك الى أن يعرض في ايجاز ، ولكن بطريقة تأسر القلوب ، أحد المذاهب الهامة في الاسلام . ولكي ندرك سعة المادة التي استوعبها هنا بحسبنا أن نذكر باختصار عناوين الفصول واحداً بعد الآخر مع مراعاة ما بينها من تلاحم : ديانة القرآن ، الامامة وانشقاق الشيعة ، بداية المذهب السني ، القدرية والجبرية والجهمية ، المعتزلة ، احياء السنة ، علم الكلام السني ، القدرية والجبرية والجهمية ، المعتزلة ، احياء السنة ، علم الكلام السني ، ابن حزم ، السياسة الدينية عند السلجوقيين الأوائل ، الغزالي ، ابن تومرت ، ابن تيمية ، الوهابية ، المعتزلة المحدثون ، التجديد الاسلامي في مصر ، محمد اقبال والتجديد الاسلامي - الهندي . .

★ ★ ★

وإذا شئنا الآن ، في الختام أن نحاول في بضعة كلمات أن نتكلم على أهمية أو قيمة ما أسلفنا ذكره من مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فوك في تاريخ الاسلام وحضارته فإن ذلك لا يستقيم لنا الا بالنظر الى هذه المؤلفات في اطار التاريخ الطويل لدراسة اللغة العربية والاسلام في أوروبا . ان يوهان فوك نفسه قد نشر كتاباً في عام ١٩٥٥ ، أسماه «الدراسات العربية في أوروبا الى بداية القرن العشرين » Die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts ورسم في هذا الكتاب صورة واضحة لتطور هذا الفرع من العلوم عرض فيها الآراء المختلفة حول الاسلام وشخصية نبينه ابتداء من المصور الوسطى في أوروبا ثم في عصر الإصلاح الديني والتنوير والرومانسية حتى عصر النظر التاريخي في القرن ١٩ .

وبمقارنة هذه الدراسات بالآراء التي ظهرت عند هذين العالمين حول الاسلام وحضارته نلاحظ التقدم الواسع الذي حدث بمرور الزمن . لقد أرسى بروكلمان بكتابه « تاريخ الادب العربي » أسساً وطيدة ليقوم عليها البحث من بعد . وقدم لجمهور كبير بكتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » صورة تتفق مع حالة البحث في عصره حول الاسلام وحضارته في نطاقه الواسع وكذلك لأهميته في تاريخ الانسانية . وأضاف فوك بأبحاثه الممتازة حول المسائل الأساسية في الموضوع نفسه جوانب بعيدة الغور . ولقد أسهم كلا العالمين اسهاماً هاماً في التغلب على الآراء القديمة المتحاملة نوعاً ما التي هاشت طويلاً في ثنايا البحث الاوربي . وطور بذلك معرفتنا تطويراً جوهرياً . ان المستشرقين بجامعة هاله فضلاً عن جمهورية المانيا الديمقراطية ليفخرون بالانجازات العلمية التي حققها هذان العالمان ، وسيواصلون تمحيص نتائج أبحاثهم في تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية ، والافادة منها .

د. مانفريد فلايشهامر



كتاب « الباهر في الجبر »

تأليف : السموءل المغربي

« أبو فراس السباعي »

استول الحقتان الماغلان ، الأستاذان صلاح أأمد ورشدي راشد ، الكتاب بمقدمة اكدا فيها ما يلقاه الباحث من الصعوبة في « تاريخ الرياضيات عند العرب بشكل شامل وواقف » ، معللين مقولتهما بأن النصوص الرياضية ، التي خللها العلماء العرب في العصر الوسيط ، ما زالت مغمورة في مختلف مكتبات العالم ولما ينشر منها الا النثر اليسير ، وذلك بالرغم من جهود مؤرخي الرياضيات وبخاصة تلك التي بدأت في القرن التاسع عشر ٠٠٠ وانتهيا الى القول ان الاجابة عن السؤال عن اصول الرياضيات العربية ، مستحيلة قبل معرفة هذه النصوص معرفة كاملة وجيدة .

كتابه « الجبر والمقابلة » تحقيق علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد (وكملها من بعده الرياضيون مثل : ابن الفتح وأبي كامل والكرجي والغيام ، أو تلك التي تلزم لايجاد حلول خاصة تدعى عادة بالدساتير أو الصيغ ٠٠٠ وهكذا أصبح الجبر « علم المعادلات » ، وظل كذلك حتى قرون متأخرة .

ورغبة من المحققين في تقديم وثيقة للباحثين ترسم هذه الانعطافة في حركة الأفكار الجبرية، وفي إعطاء صورة عن الحالة العامة التي كان عليها الجبر في القرن الثاني عشر الميلادي وحرصاً منهما على البدء « في دراسة موضوعية للتراث العربي العلمي وبيان منجزات العرب العلمية ودورهم الحقيقي الذي لعبوه في تاريخ الفكر العلمي » ٠٠٠ لذا وقع اختيارهما على كتاب السموءل المغربي ، لأنه شرح لأعمال أبي بكر محمد بن الحسين الكرجي وإيضاح وتدقيق وتطوير لها ، ولأنه يشتمل أيضاً على عرض موسع للجبر في ذلك العصر ، فضلاً عن الاعتقاد بأن ليس ثمة كتب كثيرة من نوعه .

وبعد ، من هو السموءل المغربي ؟

ثم يبدي المحققان اهتماماً بدراسة « النمو الداخلي للرياضيات عند العرب » ، آخذين بعين الاعتبار المسالك المتعددة التي اتبعتها هذا النمو ٠٠٠ « فإذارجعنا الى الجبر ، وهو الموضوع البارز في هذا الكتاب ، وجب أن نفرق بين نهجين أساسيين لنموه : الأول تطوير الجبر بالهندسة ، وذلك باستخدام الأشكال الهندسية لاستخراج جذور بعض المعادلات ، والثاني تطبيق الحساب على الجبر وتوسيع مفهوم العدد بمحاولات غير مباشرة . وعلى هذا النهج الأخير ستتوضح الفكرة الأساسية في تاريخ الجبر ، ألا وهي استقلال العمليات الجبرية عن التمثيل والتصور الهندسي » . هذا النهج بدأ ، في القرن الحادي عشر الميلادي، عند العلماء المسلمين ، الذين أقروا بأن وحدة الموضوع الجبري هي في « عمومية العمليات » لافي « عمومية الكائنات الرياضية » ، فالكائنات الرياضية يمكن أن تكون خطوطاً هندسية أو أرقاماً عددية ، وأما العمليات ، فهي التي يحتاج إليها لرد مشكلة ما الى معادلة ، وبمعنى أدق لوضعها في صورة إحدى المعادلات « القانونية » ، التي أوردها الخوارزمي (في

اسحاق هذا ذا علوم يدرسها ببغداد ، وكانت
أمنه نفيسة بنت أبي نصر الداودي المصري،
وهذا الداودي من رؤسائهم المشاهير وذريته
الآن في مصر ...

« وشغلني أبي بالكتابة بالعلم العبري
ثم بعلوم التوراة وتفسيرها . حتى اذا حكمت
علم ذلك عند كمال السنة الثالثة عشرة من
مولدي ، شغلني حينئذ بتعلم الحساب الهندي
وحل الزيجيات عند الشيخ الأستاذ العالم
أبي الحسن الدسكري ، وقرأت علم الطب على
الفيلسوف أبي البركات هبة الله بن علي رحمه
الله تعالى والتأمل في علاج الأمراض ومشاهدة
ما ينفع من الأعمال الصناعية في الطب
والملاجات التي يمالجها حالي أبو الفتح الطيب
البصري .. »

ويشهد المحققان أن السموول كان ، في
كتابه الباهر ، منهجياً ونقدياً ، فالرجل كان
معنياً بنظرية البرهان وارساء البراهين السابقة
بشكل دقيق ... وفي ذلك يقول السموول :
« حللت جميع تلك الكتب (الرياضية) ،
وشرحتها ورددت على من أخطأ فيها وأظهرت
أغلاط مصنفها وعزمت فيما عجزوا عنه
تصحيحه وتحقيقه . اذ دربت على اقليدس في
ترتيب أشكال كتابه بحيث أمكنني اذا غُير
نظام أشكاله أن استغني عن عدة منها لا يبقى اليها
حاجة . بعد أن كان كتاب اقليدس معجزاً
لسائر المهندسين اذ لم يحدّثوا أنفسهم بتغيير
نظام أشكاله ولا بالاستغناء عن بعضها » .

ولقد قسم السموول كتابه الى أربع
مقالات :

المقالة الاولى : في المقدمات والضرب
والقسمة واستخراج الجذور .

المقالة الثانية : في استخراج المجهولات .

يقول عنه ابن أبي أصيبعة ، في كتابه
« عيون الأنباء في طبقات الأطباء » : كان فاضلاً
في العلوم الرياضية ، عالماً بصناعة الطب ،
أصله من بلاد المغرب ، سكن بغداد ثم انتقل
الى بلاد المعجم ولم يزل بها الى آخر عمره ،
وكان أبوه أيضاً يشدو شيئاً من علم الحكمة .
ويضيف ابن أبي أصيبعة نقلاً عن غيره : كان
السموول يهودياً وأسلم ، وبلغ من العدديات
مبلغاً لم يصله أحد من زملائه ، وكان حاد
الذهن جداً ، بلغ من الصناعة الجبرية الغاية
القصوى ، وأقام بديار بكر وأذربيجان ، وله
رسائل في الجبر والمقابلة يرد فيها على ابن
الخشاب النحوي ... وقال ابن القفطسي :
أتى السموول الى المشرق ، وارتحل الى أذربيجان ،
وخدم بيت البهلوان وأمراء دولتهم ، وأقام
بمدينة المراغة ، وأولد أولاداً هناك سلكوا
طريقته في الطب ، وارتحل الى الموصل وديار
بكر ، وأسلم فحسن اسلامه ، وصنف كتاباً
في اظهار معايب اليهود وكذب دعاويهم في
التوراة ومواضع الدليل على تبديلها وأحكم
ما جمعه في ذلك . ومات بالمراغة قريباً من سنة
٥٧٠ (١١٧٥ م) .

وفي ترجمته لنفسه ، يقول السموول في
أحد مؤلفاته :

كان أبي « يقال له الراب يهوذا بن أبون
من مدينة فاس التي بأقصى المغرب . والراب
لقب ليس باسم ، وتفسيره العبري ، وكان أعلم
أهل زمانه في علوم التوراة ... وكان اسمه
المدعو به بين أهل المربية « أبا البقام بن
يحيى بن عباس المغربي » . وكان اتصاله
بأبي في بغداد وأصلها من البصرة ، وهي إحدى
الأخوات الثلاث المنجبات في علوم التوراة
والكتابة بالعلم العبري ، وهن بنات اسحاق
ابن ابراهيم البصري الليوي ... وكان

المقالة الثالثة : في المقادير الصم .

المقالة الرابعة : في تقاسيم المسائل .

ثم انه فرّع كل مقالة الى أبواب ، والباب الى فصول ، وعندما يتشعب مجال القول في المقالة الواحدة يفرعها الى جمل قبل أن يفرع الجملة الى أبواب وفصول .

استهل مؤلفه بقوله :

« هذا الكتاب الذي جمعنا فيه أصول صناعة الجبر والمقابلة ، وبرهنا منها على ما لم نجد أحدا برهن عليه ، وكملنا بما أودعناه من الأعمال المبتكرة والأشكال المبتدعة ما كان في أيدي الناس من هذه الصناعة ، وعللنا فيه ما زعم فيثاغورس أنه أدركه بطريق الوحي ، وجئنا به صفوا منزهاً من التلويحات والشوائب ، لم نخلط كلامنا بكلام من تقدمنا ، لكننا سنبينا الى أقدم من نقل ذلك عنه » .

وبدأ المقالة الأولى (الباب الأول : في مقدمات يحتاج إليها) بقوله :

« كل عدد يضرب في نفسه فإن الحاصل من الضرب يسمى مالا ومربعا ومجدورا ، وذلك العدد الذي ضرب في نفسه يسمى ضلعاً وشيئاً وجذراً ، وقد بين أقليدس ، في الشكل ١٩ من المقالة ٧ ، انه اذا كان مسطح الأول في الرابع مساوياً لمسطح الثاني في الثالث ، فإن نسبة الأول الى الثاني كنسبة الثالث الى الرابع . فيلزم أن تكون نسبة الواحد الى الشيء كنسبة الشيء الى المال . لأن الواحد اذا ضرب في المال خرج من الضرب مربع الشيء . واذا ضرب المال في الشيء سمي الحاصل مكعباً ، وذلك الشيء هو ضلعه . واذا ضرب المكعب في الشيء سمي المبلغ مال مال ، وسمي ذلك الشيء

ضلعه وجذر جذره ، وقد بين أقليدس ، في الشكل ١٨ من المقالة ٧ ، أنه اذا ضرب عدد في عددين فإن العددين الخارجين بالضرب على نسبة دينك العددين . وقد قلنا ان الشيء ضرب في الشيء فخرج مال ، وفي المال فخرج كمب ، وفي الكمب فخرج مال مال ، فنسبة الشيء الى المال كنسبة المال الى الكمب
السخ » .

ان الحضارة العربية الاسلامية ، المنفتحة على التراث الفكري العالمي الذي سبقها في غرب وشرق ، قد أتاحت للسموم أن يضع مؤلفات عدت بالمشترات . وهذا ثبت بما تم العثور عليه أو الاشارة اليه في كتب التراجم والفهارس ، مما ألفه السموم وصنفه من الكتب والرسائل (عدا الباهر في الجبر) :

- ١ - الزاهر في الجبر
- ٢ - شرح لكتاب ديوفنطس الاسكندراني
- ٣ - رسالة في التحليل والتركيب
- ٤ - رسالة الموجز المضيوي في الحساب
- ٥ - التبصرة في علم الحساب
- ٦ - كتب القوامي في الحساب الهندي
- ٧ - رسالة الى ابن الخشاب في مسائل حسابية، جبر ومقابلة
- ٨ - الكافي في حساب الدرهم والدينار
- ٩ - قضيدة في حساب اليد
- ١٠ - كتاب في اعجاز المهندسين
- ١١ - كتاب المثلث القائم الزاوية
- ١٢ - كشف احوار المنجمين
- ١٣ - المفيد الاوسط في الطب

١٤- نزهة الأصحاب في معاشره الاحباب

١٥- المنبر في مساحة الجواهر المختلطة
لاستخراج مجهولها

١٦- بذل المجهود في افحام اليهود (نشر في
نيويورك عام ١٩٦٤) . . .

في تحقيقهما كتاب « الباهر » ، اعتمد
المحققان المخطوطة الموجودة في مكتبة أياصوفيا ،
المنسوخة عام ٧٢٥ للهجرة ، وهي مصورة
ومودعة صورتها في معهد الوثائق والمخطوطات
بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية .
واعتمدا كذلك مخطوطة أخرى للكتاب مما هو
محفوظ في مكتبة عزت أفندي (باستنبول) .

وقد عمد المحققان الفاضلان الى اعداد ملخص
للباهر باللغة الفرنسية الحقاء بالكتاب ،
تعميماً للفائدة ، جزاهما الله خيراً بقدر ما
أسديا من فضل الى العلم ، وإلى الأمة ، وإلى
السموول المغربي . . .

استغرق الكتاب ٢٦٤ صفحة ، فضلا عن
٨٤ صفحة أخرى بالفرنسية . وهو مطبوع عام
١٩٧٢ في مطبعة جامعة دمشق . وقد تولت
نشره وزارة التعليم العالي في القطر ، التي
أخذت على عاتقها نشر بعض أمهات الكتب
العلمية ، محققة أو مترجمة ، لتضعها مراجع
بين أيدي الباحثين والجامعيين ، في سورية
العربية وفي كل قطر عربي .

« أبو فراس السباعي »

مركز تحقيقات كاتوير علوم إسلامي



عن تراثنا التشكيلي الحديث

سمير الكسراد

دون أن يحيطوا بجميع آفاقه واتجاهاته وطواعيته فكان الفن العربي عند العديد من النقاد فناً زخرفياً لا حياة فيه ، وصوفياً غامضاً .

ولم يدركوا أهدافه ومعانيه . وأرجعوا كل فن صحيح الى التصوير ، ذي المضمون الانساني وربطوا كل تصوير عربي بالحضارات السابقة واللاحقة ، وأكدوا على قضية تحرير التصوير ، وربطوها بلجوء الفنان الى الزخرفة . وقالوا : ان هذه الصياغات ترتبط بالتجريد الاوربي فقط ، مظهرين ان العرب هم السباقون الى التجريد ، وعليهم الاستمرار فيه اذا أرادوا فناً متميزاً متناسين أن تراثنا العربي حافل بمختلف الأشكال الفنية من التصوير الملون والزخرفة المجردة والتداخل بينهما ، معتمداً

ربط المضوي بالهندسي ، وان لكل شكل وتعبير تلاؤماً مع الطرف والمكان . فما يرسم في كتاب يتلائم تقنياً معه وما يرسم على جدار حمام يتلاءم معه ، ويختلف بالضرورة القصر والمسجد بزخارفهما التي هي من نوع « الارابيسك » ومع أن لفظ الارابيسك أصبح متداولاً ومتعارفاً في الوقت الحاضر فانه يجدر بنا أن نلم بطائفة من تفسيراته (الارابيسك)؛ اختلفت تفسيراتها ففسرها بعضهم انها شكل من (التوريق) وفسرها آخرون على أنها « حسن استخدام الخطوط متلاقية متعانقة ثم متجافية متلامسة متهامسة » وبعضهم أراد منها

سيرة الفن هي سيرة البشرية ، ووراء كل حضارة فن يؤرخها .

ومن هنا كان الفن مواكباً للحضارة ومقياساً لها وأرضنا العربية عرفت تطور الحضارة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد حتى يومنا هذا ، فكانت حضارة بلاد الشام والمراق ومصر من أقدم الحضارات العربية والانسانية على الاطلاق .

وتراثنا في الفن التشكيلي ، أعطى من الناحية الجمالية المسلمات الأساسية التي قدمتها الحضارة العربية الاسلامية ، والتي ظلت مرتبطة ارتباطاً عميقاً بالمجتمع ، وبتطوره من جميع نواحيه في الرسم والعمارة والخط .

فالفن الاسلامي هو محصلة للفنون التي سبقتها ، وموجه لها ، قدم القيم الانسانية التي نادى بها العرب في رسالتهم ، فكان الفن تجسيداَ عاماً وشاملاً للحياة ، أجرى التعديلات المختلفة على جميع الفنون السابقة لتلائم هذه القيم الجديدة ، فلم يرفضها بل أبدل مضمونها .

هذا ولم يفهم الفن العربي فهماً صحيحاً ، ذلك لأنه قدم لنا رؤى جمالية لها ظروفها وامكاناتها الخاصة المرتبطة بالواقع العربي . ونتيجة لاحتكاك الفن العربي الحديث ، وأعطى الغربيون الفن العربي تعديلات ، فنحلوه صفة الزخرفة والخيال ،

صيفة هندسية « تبدأ من أشكال هندسية (مخمس ، مربع ، مثلث) تتضاعف وتتشابه لكي تستخرج منها أشكال لا حصر لها من الغيظ العربي » وأن كلمة أرابسك هي لفظة جديدة تمتد على جدلية معينة في الأشياء التي نراها ، وعلى حركية قائمة بين هذه الأشياء ، تجعلنا نرى في العلاقات ما هو جدلي ، فإذا كانت في الغلوط وحركتها دلت لا نهائية الخط المتحرك واستمراره عبر الأشكال والأشخاص وحركتها (١) .

وكان الفن العربي ذا وحدة وشخصية ثابتة مهما اختلفت الأقطار والتقنيات ، معبرا عما هو مطلق من تكرار الشكل الحسي والبصري . بحيث نصل الى هندسة متداخلة مبررة عن السرمدي اللامتناهي . هذه الشخصية الموحدة للفن المرتبط بالحياة اليومية ، وبهجات المجتمع الذي عايشه الفنان ، تجعل الفن تجميلا للأشياء ، وتطبيقا مرتبطا بحاجاتنا . فكل أداة يستعملها يجب أن تكون جميلة مزخرفة .

ولم يرسم الفنان العربي (اللوحة المحمولة) التي تباع وتشترى ، كما هو في المجتمع الأوربي ، بل رسم على الجدران ولم تكن له مسألة جمالية خالصة ، بل طرح موضوعات مختلفة لجوانب الحياة العربية . ففي رسومات قصر الحمراء : نجد الكثير من الحرف التي مارسها العرب في حياتهم اليومية ، من نجارة وحداثة ، وبنام ، وموضوعات الصيد والاستحمام والموسيقا ، والرياضة ، والفتوحات العربية ، فكان تصويرا جداريا يكشف الحياة بكاملها . وقد ارتبط الفن بشقاء الناس أحيانا . كما قال : محمد بن زكريا الرازي

١ - الحياة التشكيلية .

« ان الصور الجميلة اذا جمعت الى صورتها حسن الأصباغ المألوفة من الأصفر ، والأحمر ، والأخضر ، والأبيض ، مع ضبط نسبة المقادير فانها تشفي الأخلط السساوية ، وتزيل الهوم الملازمة لنفس الانسان ، وتزيل الكدورة عن الأرواح ، لأن النفس تطف وتشف بالنظر الى هذه الصور ، فيتخلل ما فيها من الكدورة »

وكذلك ارتبط الفن بالأدب والقصص ، فرأينا الرسوم تزين الكتب ، والمخطوطات . ومن كبار الفنانين التشكيليين العرب الذين عملوا في هذا المجال الفنان محمد بن يحيى الواسطي الذي سطر أكبر ابداع حرف في تراثنا العربي ، حيث عرف مصورا ، وملونا ، ورسام منمنمات ، وقدم لنا بعض أحداث مقامات الحريري بأسلوب فني معبر ، غير متقيد بالنص . مقدما لنا الاطار التاريخي للأحداث بأسلوب واقعي ، معبر عن تطور جاد وهام في التصوير العربي . وقد أطلق على رسومه اسم «الواقعية الجديدة» لما فيها من رؤى واقعية ، على الرغم من الغاء البعد الثالث ، والعمل ضمن منظوره العربي الخاص بجسدا أسلوبه ، متميزا برسومه ، لما كتبتها الواقع بمختلف عناصره وأشكاله وتشير المخطوطات ، المصورة ، الموجودة في متاحف العالم ، الى ازدهار فن التصوير في الكتب ، وارتباطه بالفروع الأخرى للتصوير العربي (الفسيفساء-التصوير على الجدران) ، مما يعطيه أهمية خاصة تفوق التوضيح ، وكما قيل في رسوم كليله ودمنة : بأنها رسمت بألوان مختلفة لتزيد من بهجة القارئ ، ولتجمل المفاهيم الواردة في النص أكثر تأثيرا .

ربما أفاد الفن العربي من الحضارات الأخرى ، ولكنه . دمجها وتجاوزها تجاوزا فنيا عجيبا ، لهذا كان للفن العربي أثر واضح في الفن العالمي ، لتجاربه المديدة في أكثر من

كذلك نجد في لوحات الفنان سميد تحسين بعض عناصر التراث الفني كما في لوحة (صلاح الدين الأيوبي) وكذلك ترى تجارب فنية أخرى سجلت الحياة اليومية من أزياء وأحياء قديمة ، نضمها فنياً تحت راية التراث . ومن المهتمين في هذا المجال الفنان خالد معاذ الذي لعب دوراً هاماً في توثيق الفن العربي .

وأنت المرحلة الثانية ، التي أخذ فيها الفنان عناصره من التراث العربي ، فطورها ، وقدمها في قالب جديد ، وقد بدأ هذه التجربة الفنان الراحل أدهم اسماعيل حيث استخدم الخط اللامتناهي ، مثبتاً أن التراث العربي ، ليس مجرد زخارف جميلة فقط ، ولا تجريد له أبعاد هندسية وموسيقية ، بل يمكن أن يعالج جميع الموضوعات المطروحة . وكذلك قدم الفنان الراحل نعيم اسماعيل في المرحلة نفسها عدة تجارب ، بدأت من التراث ، فحذف التكرار ورفد الحركة بتجديد الزخارف ، وأدخل على حركة الخط اللامتناهي ، التي قدمها شقيقه أدهم تطويراً انطلق من تثبيت مفهوم الأرابسك .

وتنوعت التجارب وأخذت عدة اتجاهات، منها ما ارتبط بالكتابة العربية ، ومنها ما ارتبط بالزخرفة ، وفي هذا المجال تجارب اعتمدت على الكتابة العربية للفنان محمود حماد حيث اكتشف أن الحرف العربي ، وحركته يصل إلى لغة تجريدية متميزة ، وربط الحرف بالخلفية .

وكذلك أعطى الفنان عبد القادر أرناؤوط تجربته بأخذ الجانب الجمالي ، والبسيط من الكتابة العربية ، مستخدماً ألوانه وتقنياته الشافة ، معطياً شاعرية متميزة .

طريقة ، وحسب مختلف المراحل والحاجات ، ففي لوحات عصر النهضة نجد تمثيلاً لسجائيد شرقية وألبسة عربية ووجوه عربية .

وأخذت التأثيرات أهميتها في القرن التاسع عشر ، فسجل الفنان ، دولا كروا في زيارته للمغرب العربي عدة رسوم حيث أشرت في شخصيته الفنية .

وتعمقت هذه التأثيرات أكثر فأكثر في القرن العشرين حين زار « مايتس وبول كلي » المغرب العربي ، وقدماً تجاربهما التي عكست بوضوح تأثيرهم بالفن العربي ، وتحديد شخصيتهم الفنية .

واليوم نجد تجارب متعددة ، تقدم لنا « الفن البصري » والفن « الحركي » - تجارب فازاريللي - ونتائج المواكبة للزخرفة العربية التي انطلق بها العرب لتقديم الفن بشكله الهندسي المتميز ، بملاقاته الرياضية ، التي توصل إلى ما يدعى اليوم بالخداع البصري . ومن الواضح أن تراثنا يمثل بالنسبة للفنان التشكيلي عنصراً هاماً ، يجعل للفن العربي وجوده المستقل عن الفنون الأجنبية الأخرى . لهذا يرجع إليه الفنان ، ليمبر عن أصالته ليكون سلاحاً فعالاً لتأكيد الوجود . وهناك العديد من الفنانين العرب في سورية الذين تأثروا بتراثهم ، ففي المرحلة الأولى « البداية » من جيل الرواد نلاحظ أن مرحلة تصميم المواجهة مع (الاستعمار) قد دفعت هؤلاء الفنانين إلى تقديم موضوعات لها صلة بالتاريخ فنجد زخارف الفنان توفيق طارقي في لوحة (مجلس الخليفة المأمون) سجلها بدقة ، مع أن فنان هذه المرحلة لم يتجاوز التجارب التسجيلية .

ناضرة أو زاهية بفنون الخزف الاسلامي
البديعة التي جعلت بعض الشعراء فيما مضى
« يمشقون بعض آثارها (عشقاً) على حد تعبير
الرواة القدماء . كذلك يخيل إلينا في بعض
لوحاته كأننا نلمس فن السجاد والأقمشة
الشعبية العريق في هذا الشرق أو نرى في
سكنات الاشخاص الشعبيين الذين يرسم أشكالهم
ويلخص سماتهم المجردة حركاتهم المميزة فوق
ملابسهم التقليدية التي توائم بيئاتهم وتراثهم »

وهذا كله لا ينسينا أن هذه الأشكال
الفنية من التعابير التي بلورت قيمنا
الحضارية ، والفنية ، وعبرت عن عصرها ،
دخلت في دوامة الانحطاط حتى أصبح الفن
تقليداً . بعد أن كان فناً أصيلاً ذا جذور
عميقة . فيه العديد من الأشكال .

وان تطوير هذا التراث ، واعادته الى
الأجيال ، من المهام الجديرة بالعمل الجاد .

سمير الكراد

وكذلك نجد التأثيرات التراثية في لوحات
فنان الياس زيات (المصلوبة) . التي ربطت
ناصره التشكيلية ، والتجريدية ، وجعلت له
المه الخاص . أما الفنان نذير نبعة ، فقد قدم
بأعناصر مختلفة من تراثنا العربي ، بدقة
عمق ، ورسوخ .

وقد أخذ بعض الفنانين يبحثون عما هو
كثير عمقاً ، كما فعل الفنان فاتح المدرس ،
الفنان خزيمة علواني .

ومن الفنانين الذين بحثوا للوصول الى
غاية فنية لها أكثر من قالب ، الشنان تركي
محمود بك ، اذ قال فيه الدكتور عبدالكريم
ليافي : « وانا لنجد فيه جرأة البناء وبساطته
صراحة الألوان وتوكيدها ، وانسجام الخطوط
رائعاً ، واتتلاف الأشكال والتشامها ،
تجريد العناصر وحسن توزيعها ، حتى ليزكرنا
لأنه يترك الزخرفة العربية الفكرية الفنية ،
كما تذكرنا ألوانه المشبعة فاقعة أو قاتئة أو



إحياء التراث ودراسته

د نسيب نشاوي

من الكتب التي نشرت في ميدان إحياء التراث ودراسته :

كتاب « معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » - تأليف العلامة الدكتور عبدالكريم اليافي عضو مجمع اللغة العربية بدمشق وأستاذ الدراسات العليا في كلية الاداب بجامعة دمشق .

يقع الكتاب في ٢١٥ صفحة - نشر بدمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

أبان فيه المؤلف مكانة علماء الحضارة العربية الاسلامية كابن خلدون والجاحظ وابن زهر الطبيب والفزالي وابن سينا والبيروني وابن عربي . . في دراسة مقارنة بأخرين من المشاهير الأوربيين، وأوضح ما في التراث الحضاري العربي الاسلامي من « مناجم زاخرة فنية وكنوز ثمينة غالية متنوعة يجد فيها كل باحث ما ينفع غليله ويمتع فؤاده أيا كان ميدانه في الاقتصاد وعلم النفس وعلم الجمال وعلم الاجتماع وغيرها من المعارف القديمة والحديثة » كالطب والفلك والاقتصاد وعلم السكان . .

ومن البحوث التي عرضها المؤلف في الكتاب: الظواهر النفسية الاجتماعية لدى الفكريات في رأي الجاحظ ، وآفاق أبي الريحان البيروني العلمية في الفلك والتنجيم ووصف آلات الارصاد والاصطرلاب والأطوال وقياس الزمن والحساب وعلم المعادن والصيدنة ، وأسرار النفس في عينية ابن سينا ، والنسل وقضية تحديده عند الفزالي ، وكتاب الاقتصاد في اصلاح الأنفس والأجساد لابن زهر ، ومكانة الطبيب في الحضارة العربية وصلاتها بالحياة الاجتماعية ، وبيت بني زهر ، وتاريخ نشوء علم السكان ومنزلة ابن خلدون منه ، والفتوة في الحضارة العربية وصلاتها بالحياة الاجتماعية ، وختم المؤلف الكتاب ببحث عن المرأة في

* المجلة بصدد التعريف بكتب التراث المهداة الى مكتبتها .

مرآة الشرق والغرب ورد فيه : « ان اكبار ابن عربي للمرأة يتجلى في سطور نمتها حب الرجل لها ، ويتلاحم وراء هذه السطور سمو مكانتها في نفس هذا العارف الجليل » القائل : « و خلقت منفصلة عنه ليحن اليها حنين من ظهرت سيادته بها فهو يحبها محبة من أعطاه درجة السيادة » .

والكتاب نادر المثال وهو من أخص الدراسات بالتراث لما فيه من التفهم العميق لنظريات الحضارة العربية والإفادة منها في البحوث العلمية والانسانية المعاصرة .

★ ★ ★

سير اعلام النبلاء - تصنيف الامام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤ م حققه عدد من الاساتذة المتخصصين .

صدر منه ٨ أجزاء متوسط عدد صفحات كل جزء ٥٥٠ صفحة - دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

قدم له الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف رئيس قسم التاريخ بكلية الاداب في جامعة بغداد ، وذكر في مقدمته أن جامعة الدول العربية أخرجت من هذا الكتاب منذ ثلاثين سنة نزرا يسيرا كثر فيه السقط .

وهو كتاب التراجم الموسوعي المشهور الذي قصره الذهبي على سير الاعلام المشهورين جدا من الخلفاء والصحابة والأمراء الوزراء والقضاة والقراء والمحدثين والفقهاء وأدباء العربية وشعرائها وعلمائها وأرباب الملل والفلاسفة . وقد أثر المحدثين على غيرهم اذ أكثر من ذكر اعلامهم .

يشتمل الكتاب على تراجم الاعلام الذين عاشوا في أنحاء العالم الاسلامي من الأندلس غرباً الى أقصى المشرق خلال مرحلة زمنية طويلة بلغت سبعة قرون أولها بداية الاسلام الى سنة ٧٠٠ هـ جعلها المؤلف في ٣٥ طبقة تستوعب كل طبقة منها ٢٠ سنة وأفراد المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين ، ولم يكتبها الذهبي وانما أحال ذلك على كتابه « تاريخ الاسلام » ، ولهذافان الجزء الأول المطبوع يبدأ بترجمة أبي عبيدة بن الجراح فطلحة فالزبير فعباد الرحمن بن عوف فسمد فسميد .

وتحتوي كل ترجمة مواد كثيرة وغالباً ما تبدأ بذكر اسم المترجم ونسبه ولقبه وتاريخ مولده وأحوال نشأته ونشاطه وتلاميذه . . . وتنتهي بتحديد تاريخ وفاته ويدقق الذهبي في ذلك تدقيقاً بارعاً ، ومن شأنه أن يحيل القارئ على مصادر أوسع حين يقتضي الأمر ، كما أكثر من ايراد الأحاديث النبوية والعناية بالتعليق على الاسناد والمتن . وحرص على تقديم الترجمة الكاملة والمختصرة في آن واحد ورأى في ذلك قيمة الانسان وشهرته لا يضيره أن يكون العلم متفقاً معه في العقيدة أو مخالفاً ، وقد تطول تراجم الشعراء البارزين أو كبار النحويين أو اعلام الصوفية والسلطين .

وقد بذل المحققون جهودا كبيرة لاجراج الكتاب في طبعة علمية صحيحة خالية من التصحيف والتعريف مزودة بالتمليقات والحواشي المساعدة على تفهم النصوص والرجوع الى مطانها .

★ ★ ★

العروض وموسيقى الشعر العربي - تأليف الأستاذ الدكتور محمد علي سلطاني
أستاذ علوم اللغة في كلية الاداب بجامعة دمشق .

١٢٨ صفحة - نشر بجامعة دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م

أورد المؤلف فيه رأيه في ماهية موسيقى الشعر الخارجية والداخلية ، وجوانب أهمية القافية ، ثم عرض نشأة علم العروض ومصطلحاته ودوائره ، وطريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي في بيانها ، وانتقل بعد ذلك الى الكلام على بحور الشعر العربي الستة عشر أوزانها وشواهدا والزحافات والعلل ، وختم الكتاب بتعريف القافية وحروفها وحركاتها وأنواعها وعيوبها .

★ ★ ★

فصول في النحو - تأليف الأستاذ الدكتور محمد علي سلطاني

٢٦٨ صفحة - نشر جامعة دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م

استهله المؤلف بشرح بعض مسائل الخلاف في النحو وما دار حولها من نقاش حاد بين مدرستي الكوفة والبصرة النحويين ، وخص القسم الثاني من الكتاب بالأدوات النحوية وشواهدا وأثرها في تلوين المعاني وتغييرها حتى سميت عندهم بحروف المعاني « وبسط الكلام على ٤٠ أداة أقرتها المجالس الجامعية للتدريس وصنفها في منهج لا يعتمد على الدور المعنوي للأدوات وإنما يأخذ بنظرية العامل ولذلك فقد رتبها على أساس عملها ، وقسمها مجموعات تشتمل على : أدوات التعريف ، أدوات النفي ، أدوات الشرط ، الحروف المشبهة بالفعل ، حروف الجر ، أدوات الاستثناء ، حروف المطف ، ثم أدوات مختلفة - وقد ألحق بكل بحث شواهد التطبيقية . وكثيرا ما يبين المؤلف رأيه فيما ورد من قواعد في المصادر المتخصصة في سبيل إعطاء وجهة النظر التوفيقية بينها .

★ ★ ★

فارس الجزائر الأمير عبد القادر الجزائري ١٨٠٧ - ١٨٨٧ م - تأليف العماد مصطفى طلاس .

٢٠٢ صفحة - نشر بدمشق .

صدره المؤلف بمقدمة أرخ فيها حياة الأمير عبد القادر الجزائري ووصف شخصيته وملامحه الجسدية والنفسية ، ووضع في الفصل الأول دراسة جيوبوليتيكية عن طبيعة أرض الجزائر وسكانها واقتصادها ، وفي الفصل الثاني والثالث أرخ للاحتلال الفرنسي للجزائر

وبداية المقاومة الوطنية له، وانتقل في الفصول التالية الى بيان فروسية الأمير عبدالقادر الجزائري في ميادين المقاومة وانتصاراته في معركة الغزوات وسيدي موسى ، ثم اشتداد الضغط عليه ونفيه الى مدينة طولون بفرنسة عام ١٨٤٧ م ، ثم اقامته بدمشق بعد عام ١٨٥٥ م ، وموقفه النبيل من أحداث لبنان في فتنة عام ١٨٦٠ م

ويتضمن الكتاب كثيرا من النصوص النثرية التي قالها الأمير ومقتطفات من رسائله وأحاديثه تتعلق بحياته الخاصة والعامة ، وفي آخره نصوص وثائقية لصك البيعة للأمير عبدالقادر الجزائري ورسالة الأمير الى رجال القبائل . والجدير بالذكر أن مخطوطة ديوان الأمير عبدالقادر محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٤٨٦٣ و ٢٤٥ وفي آخر الديوان نبذة في ترجمته ، وقد بلغ عدد أوراقه ٤٩ ورقة و ٤ ورقات .

* * *

ولاية دمشق في عهد المماليك - تأليف الأستاذ محمد أحمد دهمان

٢٨٠ صفحة - الطبعة الثانية - دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

عرض فيه المؤلف أحداث دمشق في عهد المماليك منذ سنة ٦٥٨ الى سنة ٨٠٣ هـ ورتبها على ترتيب الولاية ، وصنع في أول الكتاب بحثاً ضافياً لأعمال المماليك وجهاز حكومتهم في القاهرة ودمشق . ثم تأتي تراجم ولاية دمشق في عهد المماليك .

والكتاب مزود بالخرائط والصور التي توضح الأماكن الأثرية والتقسيمات الادارية لبلاد الدولة المملوكية ، وفيه تفصيل عن احتلال التتار لدمشق مرتين ، ووقعة عين جالوت والأحداث التي تلت خروج التتار .

* * *

شرح المقصور والممدود - تأليف أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي - تحقيق الأستاذين ماجد الذهبي وصلاح محمد الغيمي

٦٤ صفحة - دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م

وفيه سبعة أبواب بنيت على شرح قصيدة مؤلفة من خمسين بيتاً من مجزوء الكامل أنشدها ابن دريد في الحكم والمواعظ وعلّق عليها ببعض الشروح وقصد الى أن تكون مشتملة على الأسماء المقصورة والممدودة التي يتفق لفظها ، وأولها باب « ما يفتح أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف » ومثاله :

لا تركنن الى الهوى واحذر مفارقة الهواء

وأخرها « باب ما يضم أوله فيقصر ويفتح فيمد والمعنى مختلف » ومثاله :

شمس الضحى طلعت عليـك لك ولا ترى شمس الضحاء

* * *

قانون البلاغة في نقد النثر والشعر - تأليف الشاعر أبي طاهر محمد بن حيدر
البغدادي المتوفى سنة ٥١٧ هـ - تحقيق الدكتور محسن غياض عجیل الأستاذ في جامعة
بغداد وجامعة الامارات العربية المتحدة .

١٧١ صفحة - بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

وأول الكتاب تعريف البلاغة وبيان حدودها ، ثم نموت المعاني ، ومذاهب البلاغة
وفضلها ، والقسم الثاني منه في بلاغة الشعر ونقده وأقسام البديع كالطباق والجناس ..
وعد في هذا القسم نحو خمسين نوعاً ، وخاتمة الكتاب في صناعة الشعر ودواعيه واختلاف
الشعراء في الطبع ، والنقد والنقاد .

★ ★ ★

لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن العادي عشر - تأليف
نجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي ٩٧٧ - ١٠٦١ هـ / ١٥٧٠ - ١٦٥١ م - تحقيق
الأستاذ محمود الشيخ .

السفر الأول ٢١٦ و ٤٣٠ صفحة - نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق
١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م وقد صدر الجزء الثاني مؤخرًا ١٩٨٢ م

يشتمل على تراجم أعيان عصر الغزي في البلدان العربية وبخاصة أعيان بلاد الشام
قدم له المحقق ب ٢١٦ صفحة ، ثم تفتتح أبواب الكتاب بالتراجم وأولها المحدثون ،
ثم الأحدثون ، ثم سائر الأسماء مرتبة بحسب حروف المعجم وتبدأ بحرف الألف ، وينتهي
الجزء الأول مع نهاية حرف الحاء ، وأول السفر الثاني حرف الخاء .

وجاء في مقدمة الغزي قوله : « أما بعد ، فهذا ذيل على كتابي المسمى بـ
« الكواكب السائرة بمناب أعيان المائة العاشرة » ألفته لتمام سنة ثلاث وثلاثين بمعد
الألف وهي السنة التي جاءت بكل عجاب ، وكانت طبقة الأعيان المندرجين فيها رابعة
لطبقات ذلك الكتاب ، فخطر لي أن أبادر مرور الزمان بتقبيد تراجم تلك الأعيان » .

★ ★ ★

ديوان الشيباني الموصلية ومختصر الشرح الجلي على بيتي العلامة الموصلية - جمعه
وحققه ونشره صلاح الدين خليل الشيباني الموصلية .

٢٦٤ صفحة - دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

وفيه ما عشر عليه المحقق من شعر الأديب القاضي عبدالرحمن الموصلية الشيباني
١٠٣١ - ١١١٨ هـ / ١٦٢٢ - ١٧٠٦ م ، وقد بلغ مجموع الشعر في هذا الديوان نحو ألف
بيت ، وزينه المحقق الأستاذ صلاح الشيباني بالرسوم والصور الأثرية ، وأضاف إليه
تعليقات وتقریظات ، ثم ختمه بشروح وحكم وفوائد تراثية رأها مفيدة للمطالعين .

★ ★ ★

المعجم المشتمل على ذكر أسماء شيوخ الأئمة النبل - تأليف العافظ ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ٤٤٩ - ٥٧١ هـ تحقيق الأستاذة سكينه الشهابي .

٣٣٦ صفحة - دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م
يترجم الكتاب بايجاز للأئمة أصحاب كتب السنن الستة وشيوخهم ، ويضم ١١٩٩ ترجمة لهؤلاء الأعلام مرتبة أسماؤهم على نسق حروف المعجم .

والكتاب متخصص بخدمة العاملين في تحقيق تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر وسائر كتب الحديث النبوي ، وقد نذرت المحققة وقتها وجهدها للأسهام مع العاملين في مجمع اللغة العربية لإخراج آثار العافظ ابن عساكر محققة تحقيقاً علمياً وأمضت عشر السنوات الأخيرة في هذا الميدان .

★ ★ ★

فهرس مخطوطات العلوم والفنون المختلفة عند العرب في دار الكتب الظاهرية - وضعه الأستاذ مصطفى سعيد الصباغ .
٥٥٢ صفحة - نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

وصف فيه الأستاذ مصطفى الصباغ نحو مئتي مخطوط تخص العلوم والفنون عند العرب مما هو محفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق ، رتبها بحسب الموضوعات على النسق التالي :

- كتب الطب والصيدلة والأعشاب والسموم وعددها ٢٥
- كتب عبارة الرؤيا وتفسير الأحلام وعددها ١٣
- كتب علم الرمل والتنجيم وعددها ٢٢
- كتب علم النجوم والأنواء والفلك والهيئة وعددها ٣٩
- كتب علوم مختلفة عددها ٦٢ تشتمل على علم البيطرة والخيال والفروسية وعلم الروحانيات وعلم الطبيعة والفراصة والفلاحة والقبان والأوزان والشطرنج والثرند والموسيقى وعلم النميات (النقود) وغيرها .
- كتب الكيمياء والصنعة والأكسیر والسيمايا وعددها ٣٩ .

وكان منهجه في الفهرسة أن ينقل فاتحة كل مخطوط وخاتمة واسم مؤلفه مع شرح قد يكون موسعاً لما يشتمل عليه من موضوعات، ويذكر عدد أوراقه ونوع الخط واسم ناسخه وتاريخ نسخه ، يتقدم ذلك كله رقم المخطوط في الظاهرية ، وبعد ذلك يحيل الأستاذ الصباغ القارئ على المراجع التي ذكرت المؤلف والكتاب .

وقد ذكر في المقدمة انه أمضى أربع سنوات في صنعه وطلب فيها الى الباحثين الاقبال على نشر التراث راجياً أن يكون عمله مساعداً لهم .

د. نسيب نشاوي

كتب تراثية

محمد نجيب بو طالب

« الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى »

يمثل هذا الكتاب الجزء الثاني من « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة » ، الذي بدأ الدكتور طيب تيزيني بإصداره منذ سنوات قليلة ، فقد أصدر كتاب « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » وهو الذي أشار فيه الى هذا المشروع وقضاياها . ويمثل كتابه « من التراث الى الثورة - حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي » الجزء الأول ، وقد طبع ثلاث طبعات ، وهذا المشروع يتألف من اثني عشر جزءا . وإذا كان الجزء الأول قد تعرض الى المسائل النظرية والمنهجية التي يقترحها الدكتور التيزيني لدراسة التراث ، عبر نظرية « الجدلية التاريخية التراثية » . فان الجزء الثاني يمثل دراسة تطبيقية لتلك النظرية المنهجية التي يبدو أنها لم تكتمل بعد ، بل إنها خاضعة للحوار العلمي النقدي من ناحية ، وبالتالي (فإنها تكتسب مشروعية امتدادها في الجزء الثاني من « مشروع الرؤية ») المذكور .

صدر هذا الكتاب عن « دار دمشق للطباعة والنشر » في طبعته الأولى (نيسان ١٩٨٢) في مجلد يتألف من ٥٥٤ صفحة ويتألف الكتاب من مقدمة وأربعة أقسام :

يتناول القسم الأول بعض المفاهيم الشائعة في دراسة التاريخ والتراث العربيين ، الا ان معالجة مفهوم « الجاهلية » تأخذ مجالا وفرا من هذا القسم ، انه المفهوم الذي يسلب المرحلة التاريخية لما قبل الاسلام محتواها الانساني والعرفي والاجتماعي . كما يتناول مفهومي « التاريخ العربي » و « التاريخ الاسلامي » ويتوصل الى أنهما وجهان لأمر واحد . ويتناول أيضا المنطلقات العلمية للتاريخ العربي القديم منطلقا من أن شعوب المنطقة العربية ، في المرحلة المدروسة ، كانت تمثل وحدة تاريخية اثنو جغرافية .

وفي القسم الثاني يتعرض الى الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تحيط بالفكر ابان تلك المرحلة .

اما القسم الثالث فيدرس خصائص الفكر العربي القديم ويستكشف تخومه ، كما يركز على دراسة بعض روافده كالسحر والاسطورة والدين ، ثم يتعرض الى بعض الاشكاليات التي تتعلق بأفاق ذلك الفكر وكيفية الخروج منها .

وفي الأخير ينتقل الى دراسة بعض المسائل المنهجية المتولدة عن البحث ودلالاتها اللاحقة في مجال البحث التراثي ، ولا يفوتنا أن نشير الى أهمية المعلومات والنصوص التاريخية التي استشهد بها الدكتور التيزيني في كتابه الجديد .

« قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي »

تأليف الدكتور محمد عابد الجابري أستاذ الفلسفة بكلية الآداب - جامعة محمد الخامس ، الرباط - المغرب - ٤٠٨ صفحات من الحجم الصغير دار الطليعة ببيروت - ١٩٨٠ وهو يضم مجموعة من الدراسات تعيد قراءة بعض قسم الفلسفة العربية . وهي دراسات كتب بعضها بمزمل عن بعض ، غير أنها تصدر عن منهج واحد ورؤية واحدة كما يشير الى ذلك المؤلف ، ويبدأ الكتاب بمدخل عام يمرض فيه مبادئ القراءة الجديدة للتراث والمنهج المتبع ، مبدئياً رأيه في كيفية التعامل مع التراث العربي وفي الموقف من البحوث والدراسات الحديثة والمعاصرة المتعلقة به .

ويذهب في ذلك المدخل المنهجي الى تفسير « القراءة » بأنها ليست مجرد بحث أو دراسة ، لأنها تتجاوز البحث الوثائقي أو التحليلي أو التجميعي بل تقتصر على تأويلها يعطي المقروء « معنى » يجعله في أن واحد ذا معنى لمحيطه ، فكري - اجتماعي - سياسي ، ولنا نحن القارئ . وأما كون تلك القراءة معاصرة فمن حيث حرصها على جعل المقروء معاصراً لنفسه ومحيطه الخاص من جهة ، وجعله معاصراً لنا على صعيد الفهم والمقولة من جهة أخرى : (جعل المقروء معاصراً لنفسه معناه فصله عنا ، وجعله معاصراً لنا معناه وصله بنا) . ان قراءتنا تعتمد ، إذن ، الفصل والوصل ، كمنطقتين منهجيتين رئيسيتين .

ثم ينتقل الكاتب الى نقد النزعات الدراسية للتراث فيقسمها الى معاور ثلاثة هي : النزعة السلفية والنزعة الليبرالية - الاستشراقية التي يمكن أن نطلق عليها (نزعة المركزية الأوروبية) ، والنزعة اليسارية . وهو يرفض هذه القراءات الثلاث لأنها قراءات « سلفية » تشترك في أنها تفتش عن سلف تتكبر عليه ، كما تتفق في اتباع منهج القياس القائم على « قياس الغائب على الشاهد » .

فبالنسبة للنزعة الأولى فإن الماضي الذي أعيد بناؤه بسرعة قصد الارتكاز عليه لتحقيق النهضة العربية ، أصبح لدى هؤلاء هو نفسه مشروع النهضة .

أما بالنسبة للنزعة الثانية فإنها تقرأ التراث العربي قراءة أوروبية من منظومة مرجعية .

وأما النزعة الثالثة فإنها رغم تبنيها المنهج الجدلي فإنها لا تتبناه منهجاً للتطبيق بل تتبناه منهجاً مطبقاً ، ومن الخطأ الذي يقع فيه هؤلاء أنهم فضلوا الواقع التاريخي على القوالب النظرية وتلك القراءة برأي الكاتب ، غير تاريخية .

ثم يمرض الكاتب خطوات المنهج ومستويات القراءة التي اتبعها . فهو يؤكد ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث ، أي نبذ الأسلوب الذي قوامه قياس الغائب على الشاهد

بلا مراعاة للشروط التي تجعل هذا القياس منهجاً علمياً • وهو في هذا المجال ، لا يدمو الى القطيعة مع التراث بالمعنى اللغوي الدارج بقدر ما يدمو الى التغلّي عن الفهم التراثي للتراث وفي المقدمة : القياس النحوي والفقهي والكلامي في صورته الآلية اللامعلمية التي تقوم على ربط جزء بجزء ربطاً ميكانيكياً ، والتي تفكك الكل الى أجزاء تفصلها عن اطار الكل الزمني - المعرفي - الأيديولوجي ، وتلك القطيعة هي التي تحولنا من « كائنات تراثية » الى كائنات لها تراث • أي الى شخصية يشكل التراث أحد مقوماتها ، ثم يتعرض الكتاب الى دعائم الموضوعية في دراسة التراث ، وهي :

- المعالجة البنيوية (أي ضرورة محورة فكر صاحب النص حول اشكالية واضحة) •
- التحليل التاريخي (أي ربط فكر صاحب النص الذي أعيد تنظيمه ، بمجاله التاريخي بكل أبعاده) •

- الطرح الأيديولوجي (أي ضرورة الكشف عن المضمون الأيديولوجي للفكر ، فهو الوسيلة الوحيدة لجعله فعلاً لنفسه ، مرتبطاً بعالمه) •

وفي اطار عرض خطوات المنهج يركز الجابري على مشكلة الاستمرارية التي يعبر عنها بـ (وصل القارئ بالمقروء) ، وهذا الوصل أقرب الى الحدس الرياضي والى الرؤية المباشرة الريادية الاستكشافية ، عبر حوار جدلي بين الذات والموضوع •

أما القسم الثاني فهو تلك القراءات الفلسفية التي جاءت عناوينها كما يلي :

- مشروع قراءة جديدة لفلسفة الفارابي السياسية والدينية •
- ابن سينا وفلسفته المشرقية (حفريات في جذور الفلسفة العربية الاسلامية في المشرق) •
- المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس (مشروع قراءة جديدة لفلسفة ابن رشد) •
- إبستمولوجيا المعقول واللامعقول في مقدمة ابن خلدون •
- ما تبقى من الخلدونية (مشروع قراءة نقدية لفكر ابن خلدون)

وأخيرا يمكن تلخيص النتائج التي توصل اليها الكاتب من خلال هذه القراءات المعاصرة في النقاط التالية :

- ١ - اثباته أن الفلسفة الاسلامية كانت تمثل جزءا من الصراع القائم في المجتمع العربي ، وانها من صلب التراث العربي الاسلامي • ومن هنا يرد على التصور السائد عند المستشرقين وتلاميذهم من أن الفلسفة الاسلامية ما هي الا نقل للفلسفة اليونانية •
- ٢ - اثباته أن الفكر العربي الحديث بتطلعاته المستقبلية بحاجة الى الأخذ بالمقلانيّة الرشدية والتاريخية الخلدونية •

٣ - ان الفكر العربي الحديث والقديم بحاجة الى الدراسة النقدية والتاريخية ، فقد اخطأ الفكر الحديث في اعتماده منهج قياس الغائب بالشاهد وخاصة في تطلع الرعيل الاول من الباحثين المحدثين الى الفكر الاوربي .

٤ - ان مهمة الفلسفة في الوطن العربي أساسية ، وهي اعادة تأسيس الذات العربية في حاضرها حيث تستطيع مواجهة مشاكلها الحاضرة مواجهة سليمة .

مجالات تراثية

« فكر »

- صدر العدد الرابع والخمسون من مجلة « فكر » وهو العدد الاول من سلسلة « الفكر - التاريخ » وذلك في شهر نيسان ١٩٨٢ ببيروت .

يتألف العدد من بعض الدراسات والاراء والوثائق التي تهتم بالجانب التاريخي والتراثي العربي . وقد جاءت الافتتاحية لتؤكد الوجهة العلمية التي تتبناها المجلة وردها على الدراسات التي تنطلق من المنطلق الايديولوجي اولا ، والتي تعتمد الأسلوب التبريري والمسائر للنظرية المسبقة ثانيا . وتتبع « فكر - التاريخ » أسلوب الرد على الفكر الانعزالي بنشر بعض وثائقه التي تكشف ارتباطه وانفصاله . على أنها تدعو الى دراسة تلك الاراء دراسة علمية نقدية . كما تشير المقدمة الى أهمية دراسة التاريخ والتراث في عصرنا فتقول : « للتاريخ ماض مشبع بالبحث والتنقيب . وللتراث حضور ملموس في حياتنا الثقافية ، حضارة ولفنا وابداعا . ولعل القيمة الأساسية تكمن في أن التاريخ والتراث صارا مصدري الهام لكثير من الدراسات التي تتحدد على نتائجها ممارسة فكرية وسياسية ... »

ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من هذا العدد ، تحمله مسؤولية الرد على « الفكر التاريخي » الانعزالي الذي يقرأ التاريخ لتبرير مشروع سياسي جاهز « عندما يجعل من هذه المنطقة . مشروع أقليات تاريخية لم تتحقق بحكم ظروف خارجية وداخلية ... وهم يستدلون على مصداقية مشروعهم بدراسة التاريخ من زاوية النفعية الأنانية لمواقفهم السياسية ... » .

كما أن أهم ما يمكن أن أوجهه من نقد لهذا العدد ، تركيزه على جزم معين من الوطن العربي (الاقليم السوري) . وانطلاقا من أن الجزء لا يمكن فصله عن الكل دائما ، لا يكون المشروع التاريخي والتراثي الذي يتبع النقد العلمي ، كاملا ، الا اذا كان المنطلق والهدف القومي العربي أساسا من أسس ذلك المشروع . وتلك الملاحظة أوردتها انطلاقا من استقرار المادة المنشورة باستثناء الدراسة الطريفة والهامة للملاح الصراع السياسي في كتاب البغلام .

« المناهل »

صدر العدد الثاني والعشرون من مجلة « المناهل » التي تصدرها وزارة الشؤون الثقافية بالمغرب . وذلك بتاريخ - يناير ١٩٨٢م في ٧٣٣ صفحة .

وهو عدد خاص بالحركة الفكرية في مدينة « سبتة » المغربية .

من أهم المواضيع التي وردت :

- سبتة ، رجالاتها ومكانتها وصلاتها العلمية
- كتاب الشفا للقاضي عياض .
- أبو الحسن المسفر فيلسوف سبتي في عهد الموحدين .
- ابن أبي الربيع السبتي امام أهل النخوة في زمانه .
- الرحلتان السبتيان ابن رشيد والتجبي .
- شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة .

« أخبار التراث العربي »

بدأ معهد المخطوطات العربية في الكويت ، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بإصدار نشرة جديدة توزع مرة واحدة كل شهرين بعنوان « أخبار التراث العربي » .

في العدد الأول (أيار - حزيران ١٩٨٢) : أخبار المعهد ، أخبار التراث العربي ، أخبار مراكز التراث ومعاهده ، رسائل عن التراث في الجامعات العربية .

محمد نجيب بوطالب



تحقيق سيرة ابن سينا ونشرها

فريد جحا

لابن سينا مكانة متميزة ، لا في تاريخ الحضارة العربية والإسلامية
فحسب ، بل في تاريخ الحضارة الإنسانية أيضا . ولقد استحق ابن
سينا هذه المكانة لأسباب كثيرة نعد منها :

ثالثا : التأثير العظيم الذي تركه تراثه
في «التطور اللاحق للعلم في جميع بلاد العالم» (٢)
فلقد ترجمت كتبه الى اللاتينية في وقت مبكر
وكان لها أثرها الكبير في الفلسفة المدرسية في
العصر الوسيط ، كما بقي كتابه « القانون في
الطب » يدرس في جامعات أوروبا الى نهاية
القرن السابع عشر .

رابعا : كونه من المفكرين القلائل في
تراثنا ، الذين خلفوا لنا سيرتهم الذاتية ، تلك
السيرة الهامة التي أملى قسما منها بنفسه ،
وأكملها تلميذه ومريده أبو عبيد الجوزجاني .

وعلى الرغم من الأهمية البالغة لهذه
السيرة ، فإنها تحقق ، ولم تطبع حتى الآن
طبعة علمية ، مشروحة ومضبوطة . صحيح
أنها موجودة في ثلاثة كتب (٣) ، وأن هذه

أولا : كونه المفكر الموسوعي الذي عالج
جميع مناحي الثقافة المعروفة في عصره ، نجد
لك في التراث الضخم الذي خلفه لنا ، والذي
ناول المنطق والاجتماع والأدب والشعر وعلم
اللسان والعلوم الطبيعية والرياضيات والموسيقى ،
الذي تناول - قبل كل شيء - أمرين :
لفلسفة بمعناها الشامل ، والطب والعلوم
اللازمة له .

ثانيا : الكتب والرسائل الكثيرة التي
خلفها لنا والتي بلغت في كتاب الأب جورج
سعادة قنواتي « مؤلفات ابن سينا » (١) مائتين
 وستة وسبعين مؤلفاً* ، وهو تراث ضخم
؟ يزال أكثره مع الأسف مخطوطاً .

- الله بتكليف من الجامعة العربية للهرجان الالهي الذي
اليم ببغداد في عام ١٩٥٢ ، وطبع في عام ١٩٥٠ بمطبعة
المعارف بمصر .

هذا وقد أنجزت السيدة عصام صبري فهرساً بمؤلفات ابن
سينا بالاعتماد على كتاب قنواتي وعلى كتاب مهدي الذي
هو أحدث منه وأكثر تدقيقاً بالإضافة الى بروكلمان ،
ونشرت المجلة بحثها في العدد المزدوج الخاص بابن سينا .

(المجلة)

٢ - من نص القرار الذي اتخذته المؤتمر العام للمنظمة العالمية
للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) في دورته
المنعقدة ببافيس بين تشرين الأول وتشرين الثاني
١٩٧٨ م .

٣ - هي كتب البيهقي « تاريخ حكماء الاسلام » ، والنفطي
« أخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، وابن أبي أصيبعة
« عيون الأنباء في طبقات الأطباء » .

الكتب متداولة وموجودة ، ولكن هذه الكتب لم تحقق ولم تطبع حتى الان طبعة علمية دقيقة يمكن الركون اليها ، ففيها أخطاء وتصحيحات ، والأعلام وأسماء الأمكنة لم تضبط بالشكل الكافي ، ولم يعرف بها التمرين الذي يفيد النص ، ويجعله في متناول القراء والدارسين .

لذلك عمدنا أنا والزميل محمود فاخوري الى تحقيق هذه السيرة ، ونشرها ، معتمدين على نصها الوارد في كتاب « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطي ، ومقارنين هذا النص بنص تلك السيرة الواردة في الكتابين الآخرين « تاريخ حكماء الاسلام » للبيهقي و « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة . ثم قام الصديق الدكتور حكمت حمص ، بترجمة نص السيرة الى اللغة الفرنسية (١) .

١ - صدرت السيرة في نصها العربي والفرنسي عن مطابع الادارة السياسية في الجيش العربي السوري في عام ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

وقد عملنا جهدنا ، على ضبط النص ضبطاً دقيقاً ، ومقابلته بما ورد في عيون الأنباء ، وتاريخ حكماء الاسلام ، وفي المصادر التي اختصرت سيرة ابن سينا ك « وفيات الأعيان » و « خزنة الأدب » وصححنا كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها الناشر الأوربي ، كما فسرنا من الألفاظ ما يحتاج الى توضيح ، وعرفنا بالأعلام وأسماء الأمكنة الكثيرة التي وردت في النص ، وكل ذلك له أهميته في جلاء جوانب السيرة ، مستفيدين من المراجع التي أوردناها في نهاية البحث ، ومقدمين بكلمة عن السيرة ، ومصادرها ، ومقارنة النصوص الواردة فيها ، وما تقدم من فوائد لدارسي حياة ابن سينا ، تلك السيرة التي نجد فيها أسماء بعض أساتذة الشيخ الرئيس ، وتلاميذه ، وتفصيلات كثيرة عن حياته ونفسيته ودراسته ، وهي تقدم لنا كذلك قائمة بأشهر مؤلفاته ، تبين لنا المدن والقرى التي ولد فيها ، أو عاش فيها حياته ، وأخبار تفصيلات أخرى عن جوانب جزئية دقيقة من أعماله ، وصورته ، وحياته الخاصة .

فريد جعا

مركز تحقيق كاتوير علوم إسلامي



مؤتمر التعريب وتوصياته

سهرة السمان

حضارات الأمم ورقيها ماثلة من بعض الجوانب في لغاتها • فاللغة أساس الرقي والعلم والمعرفة • انها وطن الأمة وذاكرتها • انها خزانة تراثها • انها وسيلة التفاهم • انها أداة التفكير وحاملة القيم القومية • هي جسر يصل حاضر الأمة بماضيها ومستقبلها • انها المادة التي ينبغ فيها كبار الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين •

واذا كانت للغة جميع هذه الصفات فان اللغة العربية بماضيها التليد وتراثها الحافل المجيد وعراقها التاريخية تأتي في طليعة اللغات أصالة وسمة وطواعية وتجسدا وملامة على أن كل لغة على تفاوت المزايا والخصائص مرتبطة تقدمها بتقديم أبنائها •

واذا كانت لكل لغة مشكلات فان مشكلة اللغة ليست ذاتية • بل هي في كون المتكلمين والكتابين بها من أبناء البلاد النامية • فالى جانب مشكلات التنمية والتقدم والحدثة تأتي مشكلة اللغة ازام تقدم التكنولوجيا والعلوم ومصطلحاتها الزاهرة التي هي كل يوم في ازدياد والتي يجد أساتذة الجامعات في البلاد العربية الحاجة الماسة الدائمة في نقلها الى لغتهم المرنة المطواع •

لقد عالجت منذ فجر النهضة العربية مشكلة التعريب والترجمة هيئات رسمية وغير رسمية في البلاد العربية ولا سيما مجامع اللغة وعقدت ندوات ومؤتمرات مفيدة في هذا الشأن لبحث هذه القضايا والدعوة الى التعاون في هذا المضمار • وكان القطر العربي السوري سابقا في الاعتزاز بلغته وفي تعهدها الدائم والحفاظ عليها على رغم محاولات الاستعمار في الاقلال من أهميتها وترويج لفته • ان هذا القطر مع تفتحه على اللغات الأجنبية قد جعل لغة الأم هي اللغة الأساسية في مدارس ومعاهده وجامعاته ، كما عمد الى الافادة ما استطاع من خزائن التراث العربي الغنية الواسعة وتحت شعار التعريب واللغة العربية انمقد مؤتمر تعريب التعليم الجامعي في اطار المؤتمر العام الرابع لاتحاد الجامعات العربية في رحاب جامعة دمشق بين ٦ - ٩ رجب ١٤٠٢ هـ الموافق ٢٩ نيسان - ٢ أيار ١٩٨٢ م برئاسة رئيس جامعة دمشق الدكتور محمد زياد الشويكي في جلسات صباحية ومسائية تليت فيها أبحاث قدمها أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأعضاء ، وجرى فيها تداول الاراء ومناقشتها في اللجان الأربع التي تفرع اليها المؤتمر وكان قد اشترك فيه ما يقارب ستا وثلاثين جامعة

• إضافة الى مثلي الأمانة العامة للاتحاد والى مثلي مكتب تنسيق التدريب بالرباط .
وفي الجلسة الختامية تليت التوصيات التي توصل اليها المجتمعون فأقروها وهي الآتية :

١ - أن استكمال تعريب التعليم الجامعي قد تأخر في كثير من الأقطار العربية ولا بد من قرار سياسي وخطوة حازمة تتجاوز عوامل التردد والقصور وتضع الجيل المعاصر حكوماته وجامعاته أمام مسؤولياته التاريخية تجاه المستقبل العربي المنشود . ولم يعد الوقت يتسع للمؤتمرات والذدوات التي تضع الافتراضات والنظريات وتصلت حولها النقاش المعاد العقيم ، ولا بد من وضع الخطوات العملية الكفيلة بتحقيق تعريب التعليم الجامعي واستكمالها في وقت قريب منظور أسوة ببعض الأقطار العربية التي اتخذت خطوات هامة وإيجابية في هذا المضمار .

٢ - أن الأفراد المشتغلين بالعلم في الجامعات والمؤسسات التعليمية مدعوون الى النهوض بمسؤولياتهم في نشر العلم باللغة العربية وجعل هذه اللغة وعاء لاقصى ما تصل اليه معارفهم العلمية انطلاقاً من ايمان راسخ باللغة العربية وقدرتها على استيعاب جميع العلوم والمعارف في الحاضر والمستقبل .

٣ - يهيب الاتحاد بالأمة العربية التي تملك لغة من أعظم اللغات تراثاً حضارياً علمياً ومرونة أن تعمل على انجاز تعريب التعليم الجامعي في بلادها . وينبه الى تجارب الشعوب الأخرى التي كانت لغاتها قد أوشكت أن تندثر أو لم يكن للغاتها تراث حضاري يعتد به . ومع ذلك استطاعت بأصرار أفرادها وعزمهم وإيمانهم بأهدافهم أن يحققوا تعليمًا جامعيًا كاملاً بلغاتهم .

٤ - توصية الجامعات العربية بالاستفادة مما أقرته مؤتمرات التدريب العربية من مصطلحات في مختلف العلوم .

٥ - اعداد جماعات من العاملين في التعريب من بين أعضاء هيئات التدريس في الجامعات بمختلف فروعها ووحداتها العلمية يتفرغون للتعريب كلياً أو جزئياً ، والأخذ بالمنهجية الموحدة التي تضم المبادئ الأساسية في وضع المصطلح العلمي العربي واختياره .

٦ - أن يتبنى الاتحاد مشروعاً للتعاون مع الأجهزة المتخصصة القائمة على تنفيذ برامج تعريب التعليم العالي في الجزائر والأقطار العربية الأخرى التي تمر بتجربة مماثلة ، بغية تحقيق الاهداف المتوخاة من هذه البرامج ، ووضع الخطط لتظل عملية التعريب في هذه الأقطار العربية حية متطورة .

٧ - التمسك بأن يتقن طلبة الجامعات العربية اللغة العربية عند قبولهم في الجامعات ومدة دراستهم فيها ، وأن يكون أعضاء هيئات التدريس في الجامعات متمكنين من اللغة

العربية قادرين على تدريس موضوعاتهم بلغة عربية سليمة ، وإقامة دورات تدريبية خاصة بأعضاء هيئات التدريس الذين يحتاجون الى اعادة لغتهم العربية .

٨ - اقامة دورات تعليمية وتدرسية خاصة للطلبة الذين تكون لغتهم العربية قاصرة عند التقدم للقبول في الجامعات العربية ، لأوضاع خاصة ، سواء كانوا من العرب أو من غير العرب ، لتمكينهم من متابعة دراساتهم الجامعية باللغة العربية كسائر الطلبة .

٩ - تاصيل الاهتمام بتحقيق المخطوطات العربية في الجامعات بتدريب الطلبة على ذلك وجعل تحقيق التراث ونشره من ضمن النهج الجامعي بغية تكوين جيل يعنى بالتراث على أساس علمي وتيسير السبيل الى جمع المصطلحات القديمة ما كان منها معرباً أو موضوعاً بالعربية للاستعانة بها على وضع المصطلحات الجديدة .

١٠ - اقرار برامج واسعة لتبادل أعضاء هيئات التدريس بين الجامعات في جميع الفروع العلمية لتيسير تبادل الخبرات والقدرات في مجال تعريب التعليم الجامعي .

١١ - تعاون الجامعات العربية على تبادل الكتاب الجامعي العلمي المعرب لضمان الاطلاع والاستفادة من الجهود المتحققة في هذا المجال .

١٢ - استخدام سائر وسائل الاعلام ، بما في ذلك القمر الصناعي العربي - المرتقب - والاتجاه ببرامجها نحو الجدية في خدمة اللغة والعلم والمجتمع .

١٣ - الاستفادة من تجارب الاقطار العربية التي قطعت خطوات جادة في تعريب التعليم الجامعي .

وفي الختام شكر الدكتور محمد زياد الشريكى المشاركين في المؤتمر وقدم شعار المؤتمر الى الأمانة العامة لاتحاد الجامعات .

سهرة السمان
جامعة دمشق



الموزعون

كتابخانه
مركز بحوث وادب فارس

- الجمهورية العربية السورية : المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
الجمهورية الجزائرية الشعبية الديمقراطية : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجمهورية التونسية : الشركة التونسية للتوزيع
جمهورية مصر العربية : مؤسسة الأهرام
المملكة الأردنية الهاشمية : وكالة التوزيع الأردنية رجا العيسى
مختلف الاقطار العربية : الشركة العربية للتوزيع - بيروت

سعر العدد

سورية	٥٠٠ ق.س	دبي	١٠ دراهم
لبنان	٥٠٠ ق.ل	ليبيا	١٠٠٠ درهم
الكويت	٧٠٠ فلس	تونس	١٠٠٠ مليم
الأردن	٥٠٠ فلس	المغرب	١٢ درهم
قطر	١٠ ريالات	الجزائر	١٥ دينار
البحرين	١٠٠٠ فلس	السودان	١٣٠٠ مليم
السعودية	١٠ ريالات	العراق	٧٠٠ فلس
ابو ظبي	١٠ دراهم	مصر العربية	٨٠٠ مليم

٦٧٧٥٨

مطبعة

٧٠٨ / ٧٨٢٧٧٨